المــوريسكيين
فــي إسبانيــا
«قصة الطرد الأخير»

الطبعة الأولى

1444 هـ / 2023 م

اسم الكتاب: الموريسكيين في إسبانيا

تأليف: د. عبداللطيف عبدالغني

موضوع الكتاب: تاريخ

عدد الصفحات: 368 صفحة

عدد الملازم: 23 ملزمة

مقاس الكتاب: 17 x 24

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 0000 / 2022

الترقيم الدولي: 0 - 000 - 278 - 977 - 978

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com

elbasheernashr@gmail.com

01152806533 - 01012355714

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

الموريسكيين
في إسبانيا

«قصة الطرد الأخير»

د: عبد اللطيف عبد الغني

مشرف- دكتوراة في التاريخ وباحث في معهد العلوم
الإنسانية جامعة إسطنبول صباح الدين زعيم

تقديم:

أ.د / محمَّد عَلِي دَبُّور

دكتوراه من جَامِعَة كومبلوتنسي بمدريد (إسبانيا) وأُسْتَاذ التَّاريخ
الإسْلامي، والحضَارة الإسْلاميَّة بكلية دار العُلُوم - جامعة القاهرة

دار البشير
للثقافة والعلوم

الإهداء

إهداء الي والدي رحمه الله وأسأل الجميع الدعاء له بالمغفرة، إلي والدتي صاحبة الفصل علي بعد الله تلك المرأة التي عانت الكثير من أجل أن تربي أطفال غدر الزمن بأبيهم، فاللهم ارزقها الصحة والعافية، إلي أستاذي وتاج رأسي خلف الميري، إلي معلمي ومنير دربي البروفيسور محمد حرب، إهداء إلي شعب الموريسكيين ولكل المظلومين في الأرض، وإلي كل صاحب فضل على بعد الله، إهداء إلى زوجتي وأبني عمر عبداللطيف اسأل الله أن ينفع به أمة الإسلام.

تقديم:

بقلم
أ. د / محمَّد عَلِي دَبُّور
دكتوراه من جَامِعَة كومبلوتنسي بمدريد (إسبانيا)
وأُسْتَاذ التَّاريخ الإسْلامي، والحضَارة الإسْلاميَّة
بكلية دار العُلوم - جامعة القاهرة

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعدُ، فإن تجربة دولة الإسلام في الأندلس تجربة إسلامية فريدة من نوعها، لم تتكرر، ولا يوجد نموذج مثيلٌ لها في التاريخ، فلا يكاد المرء يصدق أنه كان في فترة من فترات التاريخ توجد في هذه البقعة النائية من جنوب غرب أوروبا دولةٌ إسلاميةٌ بلغت من العظمة، والسؤدد، والحضارة ما لم تبلغه دولةٌ أخرى في التاريخ، دولةٌ احترمها، وقدّرها حقَّ قدرها القاصي، والداني، فدانت لها جميعُ ممالك أوروبا الغربية، وكثيرٌ من الممالك الإسلامية الأخرى، وتبارَى الملوكُ في إرسال السِفارات إليها، يخطبون وُدَّ ملوكها، ويلتمسون صداقاتهم، كما مثَّلت مركز إشعاع حضاري مهم، وكانت مَعْبرًا من أهم معابر نقل العلوم، والمعارف الإسلامية إلى أوروبا في وقت كانت فيه هذه الأخيرة تَرزح تحت أغلال الجهل، والتخلف، والهمجية.

ولكن لأسباب كثيرة متداخلة، ومتشابكة كُتب لهذه الدولة العظيمة أن تغيب في أضابير التاريخ، لتتحول إلى ذكرى يتنسم عَبقَهَا المسلمون على مَر السنين، وكانت المرحلة الأخيرة من تاريخ دولة الإسلام في الأندلس من أصعب، وأقسى مراحل تاريخها، بل من أصعب مراحل التاريخ كله، فقد اضطر المسلمون إلى تسليم مملكة غرناطة للنصارى سنة 897 هـ/ 1492 م، لينتهي بذلك حُكمهم لهذه البلاد، وبعد

وقت قليل من تسليم بلادهم للمَلَكين الكاثوليكيين – فرناندو وإيزابيلا – ابتدأت محنة الأندلسيين العُظمى، حيث لم يفِ الإسبانُ بشيء من بنود معاهدة التسليم، ولم يلتزموا بما وقَّعوا عليه من ضمان أمْن، وحرية عقيدة المسلمين، والحفاظ على أموالهم، ومساجدهم، وممتلكاتهم، فحولوا المساجد إلى كنائس، واضطهدوا المسلمين بعنف، وأخضعوهم للتعذيب الوحشي، وأقاموا لهم محاكم التفتيش، وعاملوهم معاملة الأسرى، والعبيد، ومضى الإسبانُ نحو غايتهم في إزالة كل أثر للإسلام من البلاد، وطردوا كثيرًا من المسلمين، وشنوا حرب إبادة على الآخرين، وأُجْبر البعض على التظاهر باعتناق النصرانية؛ لينجو من الموت، وعُرف هؤلاء في التاريخ باسم: الموريسكيين.

وهذا الاسم له دلالته التي تتوافق مع مرحلة التمييز والاضطهاد، والإذلال، والتحقير التي تعرضت لها البقيةُ الباقية من مسلمي إسبانيا، فالموريسكي (El Morisco) تصغير لكلمة (El Moro) أي المسلم، فمعنى الموريسكي:

– إذن – المسلم الصغير أو المسلم الحقير الذليل، ثم صارت علمًا على هؤلاء الذين أُجبروا على اعتناق النصرانية تحت سياط التعذيب، والتنكيل، والإرهاب، كما أُطلق عليهم كذلك اسم «المسيحيين الجُدُدِ (Los Cristianos Nuevos)؛ تمييزًا لهم عن المسيحيين القدامَى (Los Viejos).

وتاريخ الموريسكيين حافل بالأحداث المُروعة الدامية التي استهدفت القضاء على شعب بأكملِه، ولم يقف المسلمون الموريسكيون مكتوفي الأيدي أمام هذا الإرهاب، فقد احتجوا، وثاروا، وتمردوا، وفعلوا كل ما في وسعهم لإيقاف هذا الاضطهاد الذي اتبعته معهم الكنسية، والسلطات الإسبانية، إلا أن الأمر انتهى بطرد بقايا المسلمين الموريسكيين نهائيًّا من إسبانيا سنة 1609 م (1018 هـ) في عهد الملك فيليب الرابع (Felipe IV).

وبمرور الوقت صارت فترةُ الموريسكيين عاملَ جذب للعديد من الباحثين العرب، والغربيين الذي بدأوا في القيام بدراسات مُفصًلة، وتحليلية لتاريخ الموريسكيين الطويل، والمُضْنِي، فقد أخرج «دييجو أورتادو دي مندوثا» (Diego

(Hurtado de Mendoza) – وهو واحد ممن شهِدوا الحوادث، وكان بطلاً من أبطالها – كتابه «حرب غرناطة» (La Guerra de Granada) الذي طُبع في لشبونة بالبرتغال سنة 1626 م.

كما أعدَّ «لويس ديل مارمول كربخال» (Luis del Marmol Carvajal) كتابًا وثائقيًّا يتضمن الكثير من التفصيلات تحت عنوان: «تاريخ تمرد وعقوبة الموريسكيين في مملكة غرناطة»

* Historia de la rebelión y Castigo de los moriscos del Reino de Granada.

وقد صدر في مجلدين بمدريد سنة 1797 م.

كذلك ألَّفَ «خينيس بيريث دي لا هيتا» (Gines Perez de la Hita) كتابًا من جزأين تحت عنوان: «الحروب الأهلية في غرناطة»

* Las Guerras Civiles de Granada.

ظهر الجزء الأول منه في مدينة سرقسطة سنة 1595 م، وظهر الثاني في مدينة قُوَنكة سنة 1619 م، واشتمل على الكثير من الروايات، والقصص، والأساطير التي لها صلة بالمسلمين المدجنين، والموريسكيين، بالإضافة إلى العديد من الوقائع التاريخية المهمة.

كانت هذه هي البواكير الأولى للكتابة عن الموريسكيين، ثم توقفت الكتابة عنهم إلى منتصف القرن التاسع عشر، حيث بدأت تظهر أعمال جديدة – تاريخية، وأدبية – تعتمد على وثائق لم تُنشر، بعضها يقف موقفًا محافظًا، فيمدح قرار طرد الموريسكيين، والبعض الآخر يُعَدُّ متحررًا، فينتقد هذا القرار.

وكان من أبرز هذه الأعمال، وأهمها عمل «فلورنثيو خانير» (Florencio Janer) بعنوان: «الحالة الاجتماعية للموريسكيين بإسبانيا: سبب طردهم والنتائج التي نشأت عنه في المجالين الاقتصادي والسياسي»

* Condición Social de los moriscos de España: Causas de su expulsion y consecuencias que esta produjo en el orden económico y politico.

وقد نشر في مدريد سنة 1857 م.

وعمل «باسكوال بورونات إي بَرَّاتْشِينا» (Pascual Boronat y Barrachina) بعنوان: «الموريسكيون الإسبان وطردهم: دراسة تاريخية نقدية»

* Los Moriscos Españoles y su Expulsión: Estudio histórico - crítico.

وقد صدر في مجلدين بمدينة بلنسية سنة 1901 م.

فقد اشتمل كل عمل من هذين العَملين على وفرة من الوثائق المهمة التي لم يُسبق نشرها، وتم تحليلها، والاستفادة منها في توضيح العديد من الأبعاد التاريخية لحُقبة الموريسكيين.

وابتداءً من القرن العشرين بدأت تظهر المؤلفات الغربية - خاصة الإسبانية - التي تشرح أحداث المسألة الموريسكية، وتحللها، وتنظر إليها من منظور عِلمي أكاديمي، ويأتي في مقدمة مَن اهتموا بهذا الاتجاه «خوان رجلا» (Juan Regla) من خلال أعماله العلمية حول الموريسكيين في مملكتي أراجون، وبلنسية، وقد جُمع بعضها، ونُشر في كتاب بعنوان: «دراسات عن الموريسكيين» (Estudios de los Moriscos).

ومن أهم الدراسات الإسبانية التي تناولت موضوع الموريسكيين تناولاً شاملاً؛ هي التي قام بها الكاتب الإسباني خوليو كارو باروخا (Julio Caro Baroja) تحت عنوان: «موريسكيو مملكة غرناطة»

* Los Moriscos del Reino de Granada.

وقد صدرت في مدريد سنة 1970 م، وتعرض فيها لمشكلة الموريسكيين من بدايتها حتى طردهم، مع تحليل لكل المواقف، كما تضمن كتابه قائمة ببليوجرافية شاملة، ومتنوعة تعالج القضية من جميع زواياها، وهي دراسة تحليلية دقيقة، وموضوعية في الوقت نفسه، وتُعدُّ من أهم المصادر التي يعتمد عليها في هذا المجال.

كذلك، فقد عالج دومنجيث أورتـث (Dominguez Ortiz) موضوع الموريسكيين في دراسات متعددة، وأبحاث مختلفة تتعلق بأصولهم، وأحوالهم، وثقافتهم، وقضاياهم قبل قرار طردهم نهائيًّا من إسبانيا.

كل هذه الأعمال الأخيرة تدل - بما لا يدع مجالاً للشك - على أن موضوع الموريسكيين صار موضِع اهتمام العديد من الباحثين الغربيين، فكثرت مؤلفاتهم، وتنوعت، ولو ذهبنا نتتبع جهودهم - خاصة الإسبان منهم - في معالجة موضوع الموريسكيين، وتحليله، ومناقشة جوانبه المتعددة لطال بنا المقام.

ولا نستطيع - في هذا المقام - أنْ نَغفَل دور المدرسة المصرية في تناول هذا الموضوع المهم، حيث كتب الدكتور جمال عبد الكريم - الأستاذ بجامعة القاهرة - دراسة مهمة بعنوان: «الموريسكيون: تاريخهم وأدبهم»، تناول فيها تاريخ الموريسكيين، وأدبهم من النثر، والشعر، والقصة، وكذلك أدب الزهد، والتصوف، وأدب الرحلات، وأهم ما تَميز به الأدب الموريسكي من سِمات، وخصائص.

وكذلك الدراسة الجديدة للأستاذ الدكتور جمال عبد الرحمن - الأستاذ بجامعة الأزهر - بعنوان: «الموريسكيون بين الواقع التاريخي والإبداع الأدبي»، والكتاب عبارة عن مجموعة من الدراسات التي تدور حول الموريسكيين تاريخًا، وأدبًا منذ السنوات التي سبقت سقوط غرناطة حتى وصولهم إلى منفاهم في شمال أفريقيا، مُرورًا بالدور الذي لعبته الجزائر في مساندتهم، وعلاقتهم باليهود، والغجر، باعتبار المجموعات الثلاث أقلية مضطهدة في المجتمع الإسباني خلال القرن السادس عشر، كما تناول الكتاب علاقة الموريسكيين بالأدب، سواء الأدب الإسباني الذي تحدث عن الموريسكيين، أو الأدب الذي كتبه الموريسكيون أنفسهم، وكذلك صورة الموريسكي في الأدب الإسباني الحديث التي ترتبط بصورته إبِان الموجود الموريسكي في إسبانيا قبل قرار الطرد.

ثم يأتي الدكتور عبد اللطيف عبد الغني مشرف ليعزز دور المدرسة المصرية، واهتمامها بالشأن الموريسكي بما له من دراسات أخرى - غير هذه الدراسة - عن الموريسكيين خاصة، والأندلس عامة، ومن هذه الدراسات دراسة بعنوان: «هِجرات الموريسكيين» والصادرة عن دار الربيع العربي، وبحث عن: «الطرد الأخير للموريسكيين (1604 - 1609 م) من منظور تاريخي»، وبحث ثالث بعنوان: «الأندلس: قصة معاناة ما بعد السقوط، والطرد الأخير في ضوء كتابات

ابن الخطيب، وأبي القاسم الحجري»، وبحث أخير، ومهم بعنوان: «هِجرات الموريسكيين الأندلسيين المُنَصرين إلى مصر، وأثرهم في المجتمع المصري في ضوء الكتابات والوثائق المصرية».

واليوم يقدم لنا دراسة تاريخية - على قدر كبير من الأهمية - تتناول حياة الموريسكيين في إسبانيا، واتجاهات هجراتهم من أواخر القرن الخامس عشر، وحتى منتصف القرن السابع عشر الميلادي، وكيف انقلبت حياتهم إلى عذاب، واضطهاد بعد سقوط مملكتهم غرناطة في أيدي الإسبان، وما عانوه من تعسف، وظلم على يدِ محاكم التفتيش الجائرة الظالمة، مُتتبعًا بكل دقة قرار الطرد، واتجاهات هجراتهم إلى البلدان المختلفة من خلال العديد من الوثائق، والآثار، والكتابات، والمصادر الأخرى، مما يضفي على دراسته أهمية خاصة باعتبارها دراسة، وثائقية مهمة.

والأهم في دراسته تناوله لحياة هؤلاء الموريسكيين في مجتمعاتهم الجديدة بعد الهجرة، والاستقرار في مواطن متعددة، ورصد تأثيرهم في شتى أنواع المجالات، والميادين الحياتية، معتمدًا على بعض وثائق المحاكم الشرعية، وغيرها من الوثائق الخاصة بحياة الموريسكيين، وكذلك على بعض المصادر الأصلية، والدراسات الحديثة التي صدرت عن الموريسكيين.

لقد بذل الدكتور عبد اللطيف مشرف جهدًا مشكورًا في دراسته المذكورة لتخرج في صورة علمية، ودقيقة، ولتضع أيدي الباحثين، والمهتمين بموضوع الموريسكيين على جوانب عديدة، ووثائق جديدة، ومعلومات مُفيدة، ليُصبح كتابه - بحق - إضافة مهمة، وثرية لمكتبة الدراسات الموريسكية.

ونسأل الله له التوفيق فيما هو قادم من أعمال علمية، وأن يكون هذا العمل - وغيره من جهودِه البحثية - في موازين حسناته.

والله ولي التوفيق،

أ.د. محمد علي دبُّور

المقدمة

مع أن قضايا الموريسكيين تُعتبر من القضايا المهمة، والمؤلمة في التاريخ الحديث، كما أنها، من القضايا التي لا تُنسى - ولا يجب أن تُنسى - من الذاكرة العربية، والإسلامية، فإن المدرسة التاريخية المصرية لم تهتم بها إلا نادرًا، حتى يمكن القول بأن الموضوع تعرض لشبه الإهمال، مع أنه حظِيَ باهتمام الإسبان بشكل خاص، وباهتمام بعض المؤرخين، والباحثين المغاربة بشكل عام.

ومع أن قصص الموريسكيين هي من القصص التي حدثت بالفعل منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، واكتملت نهايتها مع النصف الأول من القرن السابع عشر، فمن المثير أنها تكررت - مع بعض الاختلافات - في سبتة، ومليلية، وأبخازيا، وفلسطين، وجامو، وكشمير، وفي غيرها من مناطق، وبلاد العالَمَيْن العربي، والإسلامي؛ حيث ضاعت مناطق شاسعة من الأراضي، وهاجر ملايين البشر من أوطانها لأسباب عديدة، نحن في حاجة إلى دراستها، بل، وإلى التذكير بها.

مما سبق، تأتي بعض أوجه الأهمية في دراسة موضوع الموريسكيين، وبالتحديد دراسة «الموريسكيون في إسبانيا واتجاهات هجرتهم»، والذي يفتح أيضًا مجالًا رحبًا لدراسة التاريخ الأوروبي في علاقته بالتاريخ العربي، والإسلامي.

إن الموريسكيين هم المسلمون، الذين أُجبروا على اعتناق المسيحية بعد سقوط الأندلس، وتحديدًا عند سقوط غرناطة سنة 1492م، ومع أن الإسبان قصدوا بمصطلح «الموريسكيين» تصغير شأن هذه الفئة المسلمة داخل أراضيهم، فإن مصطلح «الموريسكي» استقر خلال القرنين السادس، والسابع عشر الميلاديين، وأصبح الاسم المعتاد لهم، مع أن الموريسكيين في نظر الإسبان، هم في الأصل مسلمين، وإن أصبحوا «مسيحيين جددًا»، ومن هنا سوف نستخدم المصطلح في

هذا البحث، وسنُطلق المصطلح كذلك على أولئك، الذين طُردوا من إسبانيا، وعلى أحفادهم، خاصة في بلاد المغرب العربي.

وسنتتبع في هذا البحث حياة هؤلاء الموريسكيين في إسبانيا، وسنتناول بالتحديد قصتهم من سقوط غرناطة عام1492م، وكيف سقطت، وكيف تغيرت حياة هذه الفئة المسلمة بعد سقوط آخر ممالك الإسلام في إسبانيا، وكيف تغيَّر بهم الحال بعد أن كانوا، هم الفئة الغالبة في ظل دولة الإسلام في الأندلس، إلى أن أصبحوا بالتدريج فئة مُهدر حقها، وأقلية ليس لها أي حقوق تحت مظلة الحكم الكاثوليكي الإسباني؛ حيث عاش هؤلاء أحلك فترات الظلم في حياتهم من قِبَل الإسبان، بعد أن أُهدرت كرامتهم، ووقع الظلم عليهم في المال، والولد، وكان الظلم الأكبر في إجبار هؤلاء عن التخلي عن دينهم الإسلامي، وأُقيمت محاكم التفتيش من أجل هذا، حيث ذاقوا من قساوسة تلك المحاكم الظالمة أشد، وأقسى صنوف، وأنواع العذاب التي لا يتحملها بشر من قبَل محاكم التفتيش، وأيضًا من قِبل ولاته في الولايات الإسبانية المختلفة.

ومن هنا ضاقت أنفسهم بالظلم، الذي طالهم في كل شيء من حياتهم، فتوحدت الآراء الموريسكية، واتفقت العقول، والقادة على القيام بثورة؛ ومن هنا قامت ثورة البشرات (1569 – 1571م) بقيادة الزعيم محمد بن أمية قائد المسلمين الأندلسيين في هذه الثورة، لكنها لم يُكتب لها النجاح، بل؛ وكان من عواقبها أن زاد الظلم أضعافًا على المسلمين الأندلسين؛ وهُجِّروا من غرناطة إلى الولايات الإسبانية المختلفة، وزادت محاكم التفتيش في التنكيل بهم، وزاد العذاب أضعافًا.

هكذا استمرت مأساة الموريسكيين داخل المجتمع الإسباني المتعصب لدينه المسيحي الكاثوليكي، إلى أن جاء الظلم الأكبر، الذي وقع على هذه الفئة المغلوبة على أمرها بأن أُجبروا عن التخلي عن أموالهم، وأولادهم الصغار، وديارهم، ومجتمعهم الذي قطِنوه، ووُلدوا فيه، وتربوا على أرضه، وحلموا بأن يموتوا على أرضه، إلا أن مأساة طردهم حالت دون ذلك، وكانت فاصلة، وعازلة بين طموحاتهم، وأحلامهم، من خلال قرار طرد المسلمين الأندلسيين (الموريسكيين) الذي أصدره الملك فيليب الثالث عام م1609م.

كان هذا القرار بمثابة بدء النهاية للمسلمين الأندلسيين في إسبانيا، وبداية حياة جديدة لهم، وأيضًا بداية للقسم الثاني لبحثنا، وهو القسم الخاص باتجاهات هجراتهم في البلدان المختلفة من بلاد المغرب العربي، وبلاد البحر الأبيض المتوسط، ورغم صعوبة تتبع هذه الأمور، فإننا سنحاول تتبع أي وجودٍ في أي مكان لهؤلاء الموريسكيين بعد هجراتهم من إسبانيا، وسنتابع بكل تدقيق من خلال الوثائق، والآثار، والكتابات، ومصادر المؤرخين لهؤلاء.

وسنحاول رصد تأثيرهم في مختلف، وشتى أنواع الحياة، والمجالات المختلفة في مجتمعاتهم الجديدة؛ وكيف انخرطت هذه الفئات المتشبعة بالثقافة الإسبانية، والقشتالية؛ لدرجة أن لغاتهم، وكتاباتهم كانت بالقشتالية داخل بعض مجتمعات إسلامية إلى أن أصبحوا فئات تشبه ثقافة، وحياة هذه المجتمعات الجديدة، وسنحاول في هذا البحث أيضًا رصد طرق، ومعاناة هؤلاء المسلمين من إسبانيا إلى الأماكن المختلفة في شتى أنحاء العالم، وتوطن كل مجموعة منهم في مكان مختلف، وبلد مختلف عن بلد؛ سندرس كل مجموعة من هذه الهجرات دراسة خاصة، ومفسرة لأماكنهم، وكيفية انخراطهم في مواطنهم الجديدة، ومدى تأثيرهم في حياة شعوب هذه الأماكن الجديدة لهؤلاء الموريسكيين؛ فعلى سبيل المثال سندرس الموريسكيين، وهجراتهم إلى المغرب، ومن هنا سنتابع كل ما يتعلق بحياة هؤلاء داخل المغرب العربي (المغرب - تونس - الجزائر) وأيضًا سنتتبع وجودهم في أماكن مختلفة من مناطق البحر الأبيض المتوسط (تركيا - البلقان - مصر - ليبيا... وغيرها)، وأيضًا في دول أوروبية (مثل فرنسا، وإيطاليا).

وفي هذا الإطار ستعتمد هذه الدراسة على بعض وثائق المحاكم الشرعية وغيرها من الوثائق الخاصة بحياة الموريسكيين، كما ستعتمد على بعض المصادر الأصلية مثل (ابن الخطيب - المقرى - ابن عذارى ....إلخ)، وعلى الدراسات التي تمت حول الموريسكيين، وخاصة بعض الدراسات الحديثة، ومنها دراسة الباحث الفرنسي لوي كارديال «الموريسكيون الأندلسيون، والمسيحيون، المجابهة الجدلية»، حيث تناول الموريسكيين في فرنسا، وبعض دول أوروبا.

كما ستتابع الموريسكيين في أماكن أخرى مثل أمريكا الجُنوبية وفقًا لدراسات، وإثباتات أكدها بعض المؤرخين، والكُتَّاب أمثال «اغيلير بلغيثويلو»، و»ماريا الفيرا ساغاثاثو»، وغيرهم، وسنحاول أيضًا جاهدين تقديم ما هو جديد في حياة هؤلاء الموريسكيين في أماكن توطنهم الجديدة، واكتشاف أماكن جديدة لهم أثر فيها، كما ستحاول الدراسة إيضاح ما هو مغلوط من فهم لدى الكُتاب الإسبان تجاه ما يجهلونه عن الدين الإسلامي؛ حيث يتضح في كثير من كتاباتهم عدم معرفتهم، وضآلة تعمقهم في الدين الإسلامي شريعةً، ومفهومًا.

وفي هذا الإطار قسمت الدراسة إلى تمهيد، وأربعة فصول.

أما التمهيد فتناول الهجرة، ومفهومها، وأنواعها، وكذلك مفهوم لفظَيّ المدجن، و الموريسكي والفرق بينهم.

أما الفصل الأول؛ فجاء بعنوان «نهاية مملكة غرناطة»، وتناول أسباب ذلك، والأحداث، والتداعيات، وأحوال المسلمين بعد سقوط غرناطة.

أما الفصل الثاني؛ فجاء بعنوان «المسلمون ما بين التنصير والثورة 1500 – 1609م»، وتناول القضايا التالية: محاكم التفتيش، والإجبار على التنصير، وثورة البشرات (1569 – 1571م)، وتوزيع أهل غرناطة داخل إسبانيا.

أما الفصل الثالث؛ فتمحور حول «مأساة الطرد فيما بين عام 1609 – 1614م».

أما الفصل الرابع؛ فتمحور حول عنوان» الموريسكيون في المنفى» وتناول هجرات الموريسكيين إلى المغرب، وتأثيرهم في المجتمع، وهجرات الموريسكيين إلى الجزائر، وتأثيرهم في المجتمع، وهجرات الموريسكيين إلى تونس، وتأثيرهم في المجتمع، وهجرات الموريسكيين إلى أوروبا، وتركيا، ومصر، ودولاً أخرى.

وبعد الخاتمة، جاءت قائمة الملاحق متضمنة بعض الصور، واللوحات.

تمهيد

تُعد الهجرة أحد العناصر الثلاثة المسؤولة عن التغير السكاني في أي مجتمع؛ وهي الخصوبة، والوفيات، والهجرة؛ وتختلف الهجرة عن العنصرين الآخرين من عدة جوانب؛ فعلى العكس من الخصوبة، والوفيات، التي يسهل جمع بيانات عنهما، ومن ثم قياسهما بشكل دقيق، فإن الهجرة يصعب قياسها بمثل تلك الدرجة من الدقة؛ لأن تدفق المهاجرين قضية لا تتسم بالثبات من الناحية الزمنية؛ ومن ثم تقل المعلومات عن الهجرة مقارنة بالخصوبة، والوفيات.

وأخيرًا، فالهجرة من الظواهر السكانية الكفيلة بتغيير الهيكل السكاني لأي مجتمع بصورة سريعة للغاية مقارنة بآثار الخصوبة، والوفيات على الهيكل السكاني، والتي تحتاج إلى فترة طويلة جدًا من الزمن كي تؤدي إلى تغيير الهيكل السكاني، وبشكل عام تُعد الهجرة من الموضوعات السكانية التي نالت قدرًا كبيرًا من الدراسة، وعادة ما تدور تحليلات الهجرة حول كونها تتم بين الدول المتقدمة، والدول المتخلفة.

مفهوم الهجرة

يُقصد بالهجرة انتقال الأفراد من منطقة ما إلى منطقة أخرى، سواء كان ذلك داخل حدود الدولة (وهو ما يُطلق عليه الهجرة الداخلية)، أو الهجرة خارج حدود الدولة (وهو ما يُطلق عليه الهجرة الخارجية)، وقد تتم الهجرة بشكل قانوني، وقد تتم من خلال تسرب المهاجرين إلى الدولة المقصودة بطرق غير شرعية؛ مثل ادعاء الدخول بغرض الزيارة، ثم الاستمرار في البقاء داخل الدولة بهدف العمل[1].

ومع ذلك تبدو هناك صعوبة كبيرة من الناحية الإحصائية في تعريف المقصود بالمهاجر؛ ولذلك اتفق الديموجرافيين، على أن المهاجر هو الشخص الذي يقيم

بشكل مستمر في دولة أخرى أو في إقليم آخر لمدة أكثر من سنة، أو الذي أعلن عندما دخل الحدود عن نيته في البقاء لمدة أكثر من سنة[2].

وتتم الهجرة الداخلية أساسًا من المناطق التي يقل فيها الطلب على العمل، إلى المناطق التي تتوافر فيها فرص التوظيف، أو تتوافر فيها فرص أفضل للمعيشة؛ ومن ثمَّ فإن النمط الغالب للهجرة الداخلية، يكون من المناطق الريفية إلى المدن. ويُلاحظ أن الهجرة الداخلية يكون الدافع من ورائها اقتصاديًا بالدرجة الأولى[3].

أما في حالة الهجرة الخارجية، فقد تكون الدوافع فيها اقتصادية أو سياسية؛ مثال ذلك حالة اللاجئين، والهاربين، والمطارَدين من قِبل النُظم الحاكمة في دولِهم، أو قد يكون الدافع علميًّا، من خلال سعي الفرد إلى فرص تعليمية أفضل أو فرص للبحث أفضل من تلك المتوافرة له في دولته، وغالبًا ما يُطلق على الهجرة من هذا النوع الأخير لفظ؛ نزيف العقول [4].Brain Drain.

ومن حيث البعد الزمني للهجرة، فقد تتم الهجرة بشكل مؤقت؛ وذلك حينما ينوي المهاجر الإقامة في المَهجر لمدة مؤقتة، ثم العودة مرة أخرى إلى الوطن، أو قد تكون الهجرة دائمة، حينما لا ينوي المهاجر العودة مرة أخرى إلى بلده الأصلي.

أما في حالة الهجرة الخارجية الدائمة، فإنها غالبًا ما تتم على أساس انتقائي، بمعنى أن الدول المُضيفة، تقوم بتدقيق النظر فيمن ستمنحهم حق الإقامة الدائمة؛ ولذلك فإن معظم من يهاجرون بهذه الصورة، هم من ذوي المهارات، والمستويات التعليمية المرتفعة، وبحكم إقامتهم الدائمة في الخارج، فإنهم لا يقومون بتحويل مُدخراتهم إلى البلد الأم، بعكس الحال في حالة الهجرة المؤقتة، بل يحتفظون بهذه الأموال في الخارج، ولهذا السبب، فإن تدفق المكاسب من الهجرة يكون من البلد الأم إلى البلد المُضيف، وتبلغ خسارة البلد الأم أوجها في هذه الحالة، حيث تخسر البلد بالكامل رأسمالها البشري، المتمثل في الكفاءات العلمية، والفنية المهاجرة[5].

وفي معظم الأحوال هناك فروق جوهرية في المهاجرين حسب النوع؛ إذ غالبًا ما تتم عملية الهجرة بواسطة الذكور في المقام الأول، وعادة ما يقوم المهاجر الذكر

بالهجرة أولًا، ثم يقوم بعد ذلك باستقدام زوجته إلى دولة المَهجر، أما على مستوى الأسرة، فإن هجرة الأطفال صغار السن تكون أكبر، حيث لا يسهل التخلي عنهم في تلك السن الصغيرة، أما الأطفال الكبار، فهجرتهم أقل بسبب عدم الرغبة في التأثير على مستوى تعليمهم، من خلال الانتقال من نظام تعليمي إلى نظام تعليمي آخر، كذلك يُلاحظ ميل غير المتزوجين إلى الهجرة بشكل أكبر من المتزوجين[6].

أنماط الهجرة أو أنواعها:

* هجرات نهائية.
* هجرات مؤقتة.
* هجرات محلية.
* هجرة اختيارية.

الهجرات النهائية: وهي هجرات القَصد منها الاستقرار، والاستيطان، وهذه إما أن تكون، قد جاءت عقب موجات مغيرة، أو عقب حرب استعمارية، أو أنها كانت موجات سلبية إلى حد كبير[7]، ومن الأمثلة على الهجرات النهائية غارات الجرمان على أراضي الإمبراطورية الرومانية في أنحاء مختلفة من أوروبا الشرقية، والغربية، وأيضًا هجرات مُسلمي إسبانيا إلى شمال أفريقيا (المغرب، والجزائر، وتونس، وغيرها) ، والهجرات التي نزحت من إسبانيا، واستوطنت منطقة الريف في شمال المغرب (وأَسْمَته الريف الإسباني)، ومنها الهجرات، التي نزحت من فرنسا، واستوطنت المغرب العربي، وخاصة الجزائر في أعقاب احتلالها سنة 1830م. [8].

الهجرات المؤقتة: وترتبط ارتباطًا وثيقًا بالظروف الاقتصادية، والاجتماعية، وقد تكون قصيرة الأمد لعدة سنوات، كما قد تكون موسمية في شهور معينة من السنة (مثل هجرة العمالة الزراعية الداخلية من أواسط الولايات المتحدة إلى كاليفورنيا للعمل في جمع الفاكهة، وهجرة الأيدي العاملة من ريف محافظتي قنا، وأسوان إلى مواقع صناعة السكر)[9].

الهجرات المحلية: وتحدث داخل الدولة نفسها لظروف اقتصادية أو اجتماعية، كما حدث تعمير بعض مناطق سيبيريا بسكان روسيا الغربية، وكما حدث في الدول العربية البترولية، حيث هاجر الكثيرون من المناطق الريفية، والرعوية إلى المدن، وكما حدث عند تهجير أهالي النوبة من الأراضي التي أغرقتها مياه السد العالي في النوبة، إلى قرى جديدة أُنشئت في كوم أمبو، وإسنا، وكما حدث لنقل أُسر ريفية من المناطق المزدحمة في وسط الدلتا المصرية إلى أماكن الاستصلاح الزراعي في غرب الدلتا، كما قد تكون الهجرة المحلية لأسباب سياسية، مثلما حدث لسكان مدن القناة، الذين هاجروا بعد هزيمة 5 يونيو 1967[10].

الهجرات الاختيارية، والإجبارية: وهي الهجرة التي تتم بمبادرة فردية، سعيًا وراء تحسين الأوضاع المعيشية، والاجتماعية، وقد يحدث فيها استقرار في بلد المَهجر، أما التهجير الإجباري، فعلى شاكِلة ما يحدث مع الفلسطينين من قِبل الكيان الصهيوني، وأيضًا تهجير مسلمي إسبانيا قصرًا بقرار الطرد الصادر عام 1609م من قِبَل فيليب الثالث، حيث تمت هجرتهم قصرًا، وعنوة عن موطنهم، فأصبحت قضية الموريسكيين[11].

وبطبيعة الحال فإن الهجرة تعمل على زيادة السكان في المناطق التي تجذب المهاجرين، والعكس في المناطق التي ترسلهم، كما أن الهجرة تلعب دورها في تغيير التركيب السكاني العُمري، والنوعي سواء في بلد المَهجر أو البلد المرسل للمهاجرين، ولا يقتصر دورها على ذلك، بل تؤثر في الأنشطة الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، وغيرها.

ومن هذا المدخل نبدأ في دراسة القضية الموريسكية، والآثار المُترتبة على هجرتهم من إسبانيا، ومدى تأثيره على إسبانيا، وأيضًا تأثيرها في البلاد التي هاجروا إليها.

مفهوم لفظيّ مدجن، وموريسكي

إن لِمفهوم لفظ موريسكي دلالات متعددة في كتب التاريخ، والأصل الإسباني؛ فهو مصطلح ذو معاني مختلفة، وله معاني مختلفة؛ حتى أنه يُعتبر من المصطلحات التاريخية الحديثة، وبصفة خاصة على المدارس التاريخية العربية، حتى إن هذا المفهوم

يمثل قضية كاملة برمتها لفئة مسلمة اضطُهدت داخل مملكة إسبانيا المسيحية الكاثوليكية، وضاعت حقوقهم دون ذنب، سوى أنهم اتبعوا دينًا مختلفًا عن دين الدولة، مع أنهم أصحاب حضارة واضحة المعالم في هذه البقعة، وعاش في كنف حضارتهم المسيحي، واليهودي، والمسلم دون أن يُهدر حق أحد منهم، وهكذا سرعان ما تغير الموقف، بمجرد سقوط آخر معاقل الإسلام، وهي غرناطة، في عام 1492م، وتبدلت أحوالهم من أكثرية إلى أقلية بالتدرج، تحت وطأة التعذيب، والإجبار على التخلي عن دِينهم الإسلامي، وتخصيص محاكم بذاتها من أجلهم، وهي محاكم التفتيش، ومن هنا أُطلق على هؤلاء لفظ «موريسكي» وِفْق مُسمى الإسبان، ولكن المسلمون أسْموهم «المسلمون الأندلسيون»، وهنا لابد من توضيح الفرق بين مسمَى «المدجن» ، ومسمَى«الموريسكي».

المدجنون:

هم المسلمون الذين عاشوا في حماية الممالك المسيحية في إسبانيا، بعد أن اشتدت حركة الاسترداد في شبه الجزيرة الأيبيرية منذ سقوط طليطلة عام 478هـ/ 1085م ، وحتى سقوط غرناطة سنة 897هـ/ 1492م، والمدجنون هو مصطلح مشتق من دجن؛ أي: قام خاضعًا، غير أنه تحرَّف على ألسنة الإسبان في بعض الأحيان إلى«دجل» و«دجر»، وصار الموصوف به يُسمى «مدجلًا» أو« مدجراً»، فقيل موديخار Mudejar[12] ، وقد شاع استعمال لفظ الدجن، والمدجنين في الكتابات العربية، واحتلت حالة المدجنين حيزًا لا بأس به من اهتمام كتب النوازل، وعلى رأسها « المعيار» للونشريسي[13].

لم تكن وضعية المدجنين سيئة حتى بعد سقوط طليطلة، ولكن وضعهم تدهور بعد معركة الزلاقة سنة 479هـ/ 1086م ، وما تلاها من صراع مرير بين المسلمين في الأندلس، والممالك النصرانية، ففقد المدجنون حقوقهم، وضماناتهم، واجتهد رجال الدين النصارى في التأليب عليهم؛ فتعرضوا لمختلف الأذى، والاضطهاد، وكان عليهم أداء ضريبة Cenas reales عن محلاتهم السكنية[14].

والمعروف أن هذه الجماعات الإسلامية قامت بدور فعال مؤثر في البيئة المسيحية الإسبانية، ومثلت صورة حية للإسلام، والمجتمع الإسلامي بنُظمه، وتقاليده، وعاداته بعد زوال الهيمنة السياسية، والعسكرية للمسلمين، فقد أبقى عليهم النصارى الإسبان، واستخدموهم في ممالكهم إدراكًا منهم لأهمية هذه الجماعات، وبراعتهم في الفنون، والصناعات في الوقت، الذي حافظت فيه هذه الفئات على عروبتها، وتقاليدها، فبقيت أثارها ماثلة للعيان، لا سيما في مجال العمران[15].

لم تكن عبارة الموريسكيين موجودة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي، إلا أن عددًا من المسلمين الأندلسيين، وقعوا تحت الاحتلال المسيحي في الأندلس نفسها منذ القرن الخامس الهجري، وقد أَطلق عليهم المؤرخون المسلمون لفظ المدجنين؛ فمصدر المدجنيين من دجن، ومعناه أقام بالمكان، إلا أن هذه العبارة، لا تعكس الحقيقة لهذه المجموعة، كما أنها لا تعتبر جوانبها المختلفة، والمعقدة، ولا أبعادها المأساوية التي تتشابه إلى حد كبير مع وضعية الموريسكيين منذ سنة 1492م[16].

الموريسكيون

أول إشكالية تصادف الباحث هي قضية لقب «الموريسكي» كصفة للدلالة على الأندلسي المتنصر، وإذا حاولنا البحث في أصل المصطلح، سنجد بأن أصله من اللغة البربرية من كلمة «أمور»، وتعني البلد أو الدولة أو القسمة، ودخلت هذه الكلمة إلى اللغة اللاتينية، وأصبحت «Mauri Maurus» ، وتعني سكان المغرب[17]، وهي أيضًا كلمة تشير في العهد الروماني، إلى سكان المغرب الأوسط، والغربي (المناطق الساحلية في المغرب بالإضافة إلى مساحة الجزائر بأكملها) ، وموريتانيا [18] ، وكلمة «الموريسكوس» تصغير لكلمة Moros، وهو اللقب الذي أطلقه الإسبان على جميع المسلمين الذين كانوا يحكمون الأندلس، ثم غُلبوا على أمرهم، فصغر اسمهم على سبيل التهوين من شأنهم[19].

على أنه، ورغم شيوع اللقب، واعتباره مصطلحًا تاريخيًّا متداولًا، فإن القبول به فيه نوع من الإجحاف في حق العناصر الأندلسية، وإقرار بوضاعتهم، التي يعتقدها

من أطلق عليهم هذا اللقب، بما يحويه من تحقير لهم، وانتقاص من قدرهم، حيث إنهم ما عُرفوا بذلك إلا بعد أن اضطُهدوا باعتبارهم مسلمين أصاغر أذلاء، وما الحرص على استعماله للدلالة عليهم إلا في المؤلفات المسيحية، وبالمقابل لم يتم الوقوف - من خلال المؤلفات العربية المعاصرة للقرنين السادس عشر، والسابع عشر الميلاديين - على ما يذكرهم من دون لقب الأندلسيين، أو بلقب الغرباء، عند الرغبة في الإشارة إلى من أُجبروا على التنصير بالأندلس، وبلقب المدجنين في المؤلفات التركية[20].

إن جُل المؤرخين يعتبرون بداية تاريخ الموريسكيين، عند اكتمال عملية الاسترداد المسيحي، بقيادة الملك فرناندو، والملكة إيزابيلا سنة 1492م ، ونتيجة لذلك درس المتخصصون هذه الظاهرة من خلال زوايا مختلفة، وفي أماكن مختلفة، وذلك بعد سنة 1492م، وفي الإطار الزماني وقع تركيزهم بالدرجة الأولى على نهاية القرن الخامس عشر إلى النصف الأول من القرن السابع عشر الميلاديين، أما جغرافيًّا، فلم ينحصر تاريخ الموريسكيين في الأندلس أو مناطق شبه الجزيرة الأيبيرية التي حكمها المسلمون، لقد استقر الموريسكيون في أنحاء مختلفة من إسبانيا، والبرتغال، والمغرب، وتونس، والجزائر، وفرنسا، وغيرها، بل وصل بعضهم إلى العالم الجديد (الأمريكتين) [21].

علاوة على هذا، فإن عبارة الموريسكيين تحتوي على أحكام مسبقة؛ لأنها كانت مستعملة من قبل المسيحيين الإسبان لتعريف الأندلسيين المسلمين الذين اعتنقوا المسيحية، والذين فُرضت عليهم كشرط أساسي، وضروري لاستمرارِهم في بلادهم إسبانيا، بعد احتلالها من قبل المسيحيين، بعبارة أخرى نظر المسيحيونَ الإسبان، إلى مجموعة الموريسكيين نظرتهم إلى «الآخر»، ومع ذلك فإن الموريسكيين لم يعتبروا أنفسهم كذلك، كما لم يشِر إليهم إخوانهم في الدين فيما وراء العدوة في المغرب، وفي أقطار العالم الإسلامي بتَلك العبارة[22].

ومن هنا نضع تعريف «الموريسكيون» كمصطلح يستخدمه المؤرخون الحاليون، باعتبارهم مسلمو الممالك الإيبيرية (قشتالة وأراغون، ونابارا) الذين أُجبروا على اعتناق المسيحية في أوائل القرن السادس عشر، وبهذا يمكن تمييزهم

عن «المدجنين » من الأندلسيين، والذين كان بمقدورهم ممارسة شعائر الإسلام في الأراضي المسيحية على مدى العصور الوسطى قبل عمليات التعميد الإجباري في القرن السادس عشر، و«المدجنون» هم أبناء الأندلسيين أو المسلمين ممن كانوا يعيشون تحت الحكم المسيحي في شبه جزيرة إيبيريا، ونظرًا لأصلهم الإسباني، فإن الموريسكيين يختلفون عن البربر، الذين يسمون الآن «مغاربيين» أو مواطني شمال أفريقيا الغربية في القرنين السادس عشر، والسابع عشر - كما كان الحال في العصور الوسطى في إسبانيا - حيث كان المسلمون يسمون sarracenos أو moros وهي كلمة اشتق منها لفظ «موريسكي»[23].

أما كلمة موريسكي morisco فمشتقة من كلمة «مسلم»، أما «مورو»moro فهي تصغير لها، وتحمل معنى الشأن الضئيل في كثير من الأحيان، ويُقصد بها تصغير، وتحقير شأن هؤلاء، وكلمة موريسكي معناها أن الشخص يختلف عن المسلم العادي moro الوثني؛ إذ تم تعميده، ويَنظر إليه المجتمع الإسباني على أنه مسيحي، وبناءً على ماسبق؛ فإن كلمة «موريسكي » مشتقة من كلمة مورو moro ، ومعناها «المسيحي الجديد الذي كان مسلماً قبل ذلك»[24].

يشيع استعمال مصطلح «الموريسكي» بين المؤرخين المعاصرين، وحسب تعريف ليفي بروفينسال: «اسم يُطلق في إسبانيا على المسلمين الذين بقوا في البلاد بعد أن استولى المَلكان الكاثوليكيان فرديناند، وإيزابيلا على غرناطة يوم 2 يناير 1492 بعد زوال حكم آخر أمراء بني نصر، وهذا التعريف على أهميته يقتصر على جانب واحد فقط من معنى المصطلح؛ لذا قد يكون من المفيد التوقف عند ما يُورده معجم الأكاديمية الملكية الإسبانية، والذي نجد فيه أن لفظة الموريسكي: تُطلق على «المورووس الذين بقوا، وتعمدوا بعد سقوط غرناطة»، ويذكر هذا التعريف ميزة الموريسكيين الأساسية: وهي أنهم تعمدوا بوصفهم مسيحيين[25].

ومن هنا نرى أن هذا التعريف يتفادى الإشـارة إلى أن تعميد هؤلاء «المورووس» (أي المسلمون) لم يحدث بناء على إرادة حرة من جانبهم، فلا غرابة أن تبقى غالبية هؤلاء على إسلامها، أو كما ورد في اتهام إحدى محاكم التفتيش:

«لا يقِلون إسلامًا عن مسلمي الجزائر»، لكنهم كانوا مسلمين من نوع شديد الخصوصية، أي مسلمين سرًّا.

ولكي نتحاشى احتمال الخلط في المعنى، لا بد من الإشارة إلى أن الكلمة الإسبانية «موريسكي» كانت تُستعمل قديمًا، بل حتى اليوم، بمعناها الأساسي الأصلي الذي يفيد «موري» الإنجليزية (والصفة الإسبانية موريسكي) توازي «موري» قدر ما توازي الصفة الإنكليزية (Moorish) صفة (moro)؛ فعندما يتحدث مطران هيتا (Hita) مثلًا في كتاب الحب العفيف (بواكير القرن الرابع عشر الميلادي) عن «القيثارة الموريسكية» فإن الآلة المقصودة هي آلة «مورية» في صفتها، وليست «موريسكية» بالمعنى الخاص الذي نحن بصدده[26].

ونجد أن وجود مملكة مستقلة في غرناطة كان يمثل الضمانة الأخيرة لحقوق المسلمين في جميع أرجاء شبه الجزيرة الأيبيرية، وكانت هذه المملكة بوصفها دولة إسلامية، تعني أن الحكام المسيحيين بل المسيحيون على جميع المستويات يتوجب عليهم معاملة المسلمين باحترام، لقد كان بين جموع المسيحيين في جميع الأوقات من يُود لو يرى مزيدًا من المساعي لحمل زملائهم المواطنين المسلمين على اعتناق المسيحية، لكن مثل ذلك الحماس كان لابد أن يُكبح؛ لأن المسيحيين كان يمكن أن يجدوا أنفسهم في قبضة حكام مسلمين.

لقد كان ثمة موريسكيون، منذ عام 1500م فصاعدًا، يعيشون في الأقاليم القشتالية (قبل أن يوجدوا في أراضي أراغون، ونافارا) وهم المسلمون سابقًا، الذين تعمدوا، وغدوا مسلمين في السر، تحت حكم المسيحيين، لكن كلمة «موريسكي» لم تكُن قد أُدرجت في الاستعمال بعد، بل إنها لم تغدُ كذلك حتى أواخر ذلك القرن، وتتحدث الوثائق في عبارات من قبيل «الناس الذين اعتنقوا المسيحية حديثًا بعد أن كانوا مسلمين»، وغيرها من العبارات الخرقاء، وهنا يبرز السؤال عما إذا كان يحق لنا أن نستخدم هذا المصطلح هذه الأيام في الكلام عن أحداث جرت بعد عام 1501م مثلًا،، وهذه مفارقة تاريخية، ولا شك، لكن الاعتراض الأقوى على تعميم استخدام المصطلح، يجب أن يصدر من كونه وسيلة استخدمها أولئك الذين أرادوا

تهميش هذه الجماعة، وحرمانها من حقها في الاستمرار في إخلاصها للإسلام؛ فإزاء إعادة تصنيف الناس تحت اسم موريسكيين دون الموروس (أي المسلمون)، كانت السلطات قد أخضعتهم لسلطة محاكم التفتيش (التي يُستثنى منها جميع غير المؤمنين)، وهكذا يكون المصطلح نفسه قد تفادى مقدمًا البحث في مسألة خطيرة وهي: هل كان المسلمون أحرارًا في ممارسة دينهم في إسبانيا في القرن السادس عشر؟[27].

ومهما يكن من أمر، فإن مصطلح الموريسكي قد اتخذ موقعًا راسخًا في الكتابات التاريخية؛ بحيث غدا تجنبه مدعاة لإثارة سوء الفهم، وقد غدت كلمة الموريسكيين شائعة الاستعمال حتى في الكتابات العربية، وربما يكون قد فات الأوان اليوم لمحاولة استبدالها، ولكن من الواجب بذل كل جهد لتجنب ما قد تحدثه الكلمة من مزالق مذهبية.

الفصل الأول
نهاية مملكة غرناطة

تمهيد

سقطت غرناطة في 2 ربيع الأول 897هـ/ 2 يناير 1492م ، بتسليم الملك أبو عبد الله محمد الصغير إياها، للملك فرديناند الخامس، بعد حصار خانق دام تسعة أشهر، دبَّ بعده الضعف في أوصال دولة الإسلام في الأندلس، وسرَى الوهن في أطرافها، وراح العدو القشتالي يتربص بها، وينتظر اللحظة التي ينقض فيها على الجسد الواهن، فيمزقه، ويقضي عليه، ولم تصرفه القرون الطوال عن تحقيق أمله الطامح إلى إزالة الوجود الإسلامي في الأندلس، فلم يكد ينتصف القرن السابع الهجري، حتى كانت ولاية الأندلس الشرقية، والوسطى في قبضة النصارى القشتاليين، وأصبحت حواضر الأندلس الكبرى أسيرة في قبضتهم؛ حيث سقطت قرطبة، وبلنسية، وأشبيلية، وبطليوس، وهي حواضر كانت تموج علمًا، وثقافة، وحضارة؛ أما ما تبقى من دولة الإسلام هناك؛ فلم يكن سوى بِضع ولايات صغيرة في الطرف الجنوبي من الأندلس، قامت فيها مملكة صغيرة عُرفت بمملكة غرناطة، شاءت الأقدار لها أن تحمل راية الإسلام أكثر من قرنين من الزمان، وأن تقيم حضارة زاهية، وحياة ثقافية رائعة، حتى انقض عليها الملكان المسيحيان «فرديناند الخامس » و«إيزابيلا» وحاصرا بقواتهما غرناطة في 12 جمادي الآخر 896 هـ/ 30 أبريل 1491 م حصارًا شديدًا، وأتلفا الزروع المحيطة بالمدينة، وقطعا كل اتصال لها بالخارج، ومنعا أي مَدد يمكن أن يأتي لنجدتها من المغرب الأقصى، حتى تستسلم المدينة، ويسقط آخر معقل للإسلام في الأندلس (انظر الخريطة رقم 1).

مقدمات سقوط دولة المسلمين في الأندلس:

يقدم لنا تاريخ الأندلس في مراحلة الأولى صفحات باهرة من ضروب المجد الحربي، والسياسي، وآيات ساطعة من ضروب التمدن، والعرفان، ولكنه يقدم إلينا

في مراحله الأخيرة صفحات شجية مؤثرة؛ من تقلب الحدود، وتعاقب المِحن، والانحدار البطيء المؤلم، إلى معترك الهزيمة، والذلة، والسقوط، وقصة الأندلس لا تُمثل سوى حقيقة تاريخية خالدة بخصوص تبدل الحضارات، والدول، كما أن الصراع الطويل الذي خاضته الأندلس قبل أن تستسلم إلى قدرها المحتوم يبدو، فضلًا عما يحف به من ألوان البطولة الخالدة، صفحة رائعة من الاستشهاد المؤثر قَلما يقدمها إلينا تاريخ أمة من الأمم، التي اشتهرت بالذَود عن حياتها، وحرياتها (انظر الخريطة رقم 2).

لقد سقطت قواعد الأندلس الشهيرة في سلسلة من المعارك، والمِحن الطاحنة، التي تقلبت فيها الأمة الأندلسية، منذ انهيار صرح الخلافة الأموية في الأندلس، في أواخر القرن الرابع الهجري، فقامت دول الطوائف الصغيرة المُفككة على أنقاض دولة عظيمة شامخة، وكان سقوط كل قاعدة من هذه القواعد الشهيرة التي كانت تسطع بحضارتها الزاهرة، خلال حلك العصور الوسطى، يمثل ضربة مميتة للدولة الإسلامية في الأندلس، ويحدث أعمق صدى في جنبات الدول الإسلامية في المشرق، والغرب، وينتزع من وحي النثر، والنَظم أروع المراثي، وكانت الأمة الأندلسية كلما سقطت قاعدة من قواعدها الشهيرة في يد عدوتها القديمة المتربصة بها - إسبانيا النصرانية - ألفت عزاءها في قواعدها الأخرى، وهرع معظم السكان المسلمين إلى تلك القواعد الإسلامية الباقية؛ استبقاء لحرياتهم، ودينهم، وكرامتهم، حتى لم يبقَ من تلك القواعد الشهيرة سوى غرناطة، وأعمالها، تؤلِف مملكة إسلامية صغيرة، ولكن أَبِيَّة ساطعة، استطاعت عبقرية بُنَاتها النصريين أن تسير بها خلال العاصفة أكثر من مائتي عام[28].

والحقيقة أن مصير الأندلس كان يهتز في يد القدر، منذ فشلت ريح دول الطوائف، وغلب عليها الخلاف، والتفرق، وانحدرت إلى معترك الحرب الأهلية، تُفسح لعدوها الخطِر مجال التفوق عليها، والضرب، والتفريق بينها.

وقد استطاع بعض ذوِي النظر الثاقب من رجال الأندلس، حتى في ذلك العصر الذي كان الإسلام يسيطر فيه على معظم أنحاء شبه الجزيرة الإسبانية، أن يستشفوا

ما وراء هذا التفرق من الخطر الداهم، ومن هنا نجد ابن حيان مؤرخ الأندلس في القرن الخامس الهجري، وبعد أن يصف حوادث سقوط بربشتر من أعمال الثغر الأعلى (أراجون)، في يد النورمان في سنة 456 هـ (1063 م) وما اقترن بسقوطها من القتل، والسبي، وشنيع الاعتداء.. نجده، وقد ذكر: «وقد استوفينا في شرح هذه الفادحة مصائب جليلة، مؤذنة يوشك القلعة، طالما حذر أسلافنا لحاقها، بما احتملوه عمن قبلهم من آثاره؛ ولا شك عند أولي الألباب أن ذلك مما دهانا من داء التقاطع، وقد أخذنا بالتواصل، والألفة، فأصبحنا من استشعار ذلك، والتمادي عليه على شفا جرْف يؤدي إلى الهلكة لا محالة؛ إذ قدر الله زماننا هذا بالإضافة إلى ما عهدنا في القرن الذي سلخه من آخر آمد الجماعة، على إدراك ما لحق الذي قبله، ما أن يباهي بعرجه، فضلًا عن نزوح خيره، قد غربل ضمائرهم، فاحتوى عليهم الجهل، فليسوا في سبيل الرشد بأتقياء، ولا على معالي الغَيّ بأقوياء، نشأ من الناس هامل يعللون أنفسهم بالباطل، من أول الدلائل على فرط جهلهم، اغترارهم بزمانهم، وبُعدهم عن طاعة خالقهم، ورفضهم وصية نبيهم، وغفلتهم عن سد ثغرهم، حتى أطلّ عدوهم الساعي لإطفاء نورهم، يتبجح عراص دورهم، ويستقري بسائط بقاعهم، يقطع كل يوم طرفًا، ويبيد أُمة، ومن لدينا، وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكراهم، لُهاة عن بثهم، فنبذوا السلاح، وكلفوا بالترقيح، ونافسوا في النشب، وعطلوا الجهاد، وقعدوا فوق الأرائك مقعد الجبابرة المتفاتنين من أهل موسطة الأندلس، ينتظرون من ينبعث من أهلها للقتال عنهم حسبة، ولا يرفضون المختل ممن رابط إليهم بعليقه، فتبًّا لهم تبًّا، فتضعضع ثغرهم بتوالي هذه النكبات، ولحقت المسلمين بهم المضايق يكرب سماعها، حتى عمَّ تلك الثغور الجلاء، وتوزع المسلمين البلاء، وخربت ديارهم، وبادت أثارهم»[29].

ولم يكن هذا التنديد من جانب المؤرخ الأندلسي، بتواكل أهل الأندلس، وتخاذلهم عن نصرة دينهم، وإخوانهم، إلا معبرًا متألمًا، ظهر ذلك واضحًا في عصر الطوائف، بل لقد لاح مدى لحظة، حينما سقطت طليطلة أول قاعدة إسلامية كبيرة، في يد إسبانيا سنة 478هـ (1085) أن الأندلس، أضحت على وشك الفناء، وأن دول الطوائف

المُنهكة الممزقة، سوف تسقط تباعًا في يد عدوها القوي، وأن دولة الإسلام في إسبانيا سوف تُطوى، وتُختم حياتها المجيدة في شبه الجزيرة، وقد ساد الفزع، والتوجس يومئذٍ جنبات الأندلس كلها، حتى قال شاعرهم حينما سقطت طليطلة:

يا أهل أندلس شدوا رحالكم ... فما المقام بها إلا من الغلط

السلك ينثر من أطرافه وأرى ... سلك الجزيرة منثورًا من الوسط

من جاور الشر لا يأمن بوائقه ... كيف الحياة مع الحيات في سفط

لكن الدرس كان عميق الأثر، فجنح زعماء الطوائف للرشاد، وجمعت المِحنة منهم الكلمة، وارتدوا إلى ما وراء البحر يلتمسون الغوث من «المرابطين» إخوانهم في الدين، كان المرابطون يومئذٍ في عنفوان دولتهم، وأميرهم يوسف بن تاشفين يبسط سلطانه على أمم المغرب، من المحيط غربًا حتى تونس شرقًا، فاستجاب المرابطون لصراخ الطوائف، وعبروا البحر إلى الأندلس في قوات ضخمة، والتقت الجيوش الإسلامية المتحدة بقيادة يوسف ابن تاشفين، بالجيوش النصرانية بقيادة ألفونسو السادس زعيم إسبانيا، في سهول الزلاقة (رجب 479هـ/ أكتوبر 1086م) فأحرز المسلمون نصرًا حاسمًا، وكانت موقعة الزلاقة من أيام الأندلس المشهورة، وانتعشت دول الطوائف، وقويت نفوس الأمة، وبدأت الأندلس حياة جديدة؛ لكن سرعان ما انقلب المرابطون على إخوانهم، وحلفائهم، واجتذبتهم نعماء الأندلس، وثرواتها، فحطموا دول الطوائف، وبسطوا حكمهم على الأندلس زهاء نصف قرن[30].

هنا جاشت القواعد الأندلسية بالثورة على المرابطين، وعبر الموحدون البحر إلى الأندلس، واستولوا تباعًا على قواعدها الكبرى، وبسطوا عليها حكمهم زهاء قرن آخر، وفي ظل الموحدين أحرزت الجيوش الإسلامية - نصرها الحاسم على إسبانيا، بقيادة الخليفة الموحدي « يعقوب المنصور»، وذلك في موقعة الأرك الشهيرة (593هـ/ 1195م)[31].

ولكنها ما لبثت أن لَقيت هزيمتها الحاسمة بعد ذلك بقليل على يد إسبانيا، في عهد الخليفة محمد الناصر ولد المنصور في موقعة «العقاب» المشئومة، التي فنيت فيها

معظم الجيوش الموحدية، والأندلسية (609هـ/ 1212م)، كانت هزيمة العقاب ضربة شديدة لسلطان الموحدين، وللأندلس، فعاد شبح الفناء يلوح للأندلس قويًّا منذرًا، وسرى هذا التوجس إلى كُتَّاب العصر، وشعرائه، وظهر واضحًا في رسائلهم، وقصائدهم، ومن ذلك ما قاله «أبو إسحق إبراهيم بن الدباغ الإشبيلي» معلقًا على موقعة العقاب:

وقائلة أراك تطيل تفكراً ... كأنك قد وقفت لدى الحساب

فقلت لها أفكر في عقاب ... غدا سبباً لمعركة العقاب

فما في أرض أندلس مقام ... وقد دخل البلا من كل الباب[32]

خلال ذلك كانت الأندلس تضطرم بأشنع ضروب الخلاف، والفتن، والقواعد، والثغور يتناوبها الزعماء، والمتغلبون، وإسبانيا تنزل بالأندلس ضرباتها المتوالية، وتستولي تباعًا على القواعد، والثغور.

والحقيقة أن الجهد المضطرم، الذي بذلته إسبانيا يومئذٍ لانتزاع القواعد الأندلسية لم يكن سوى الذُروة في مرحلة طال أمدها، من حركة الفتح، والاسترداد النصرانية la Reconquista، ونجد أن الأندلس قد شعرت بالخطر الحقيقي منذ أن استطاع النصارى عبور نهر التاجُه، الذي يتوسط شبه الجزيرة في غزوات قوية، واستيلائهم بعد ذلك على طليطلة ثالثة القواعد الأندلسية الكبرى بعد قرطبة، وأشبيلية، ووضع نصر الزلاقة، وقيام سلطان المرابطين في شبه الجزيرة، حدًّا مؤقتًا لتقدم النصارى في وسط شبه الجزيرة، وشرقيها، ولكن موجة جديدة من الغزو النصراني اجتاحت شمال شرقي الأندلس منذ بداية القرن السادس الهجري، فسقطت سرقسطة في يد النصارى (512هـ/ 1118م)، وكانت طليطلة حصنها الأمامي قد سقطت قبل ذلك بعام، ثم تلتها بقية قواعد الثغر الأعلى، لأردة، وإفرغة، ومكناسة، وطرطوشة (543هـ- 544 هـ=1148 - 1149 م)، وفي تلك الآونة ذاتها بدأ سقوط القواعد الإسلامية في غربيّ شبه الجزيرة، أعني في البرتغال، فسقطت أشبونة، وشنترة، وشنترين، في يد النصارى سنة (542 هـ/ 1147 م)، وسقطت باجة بعد ذلك بقليل

(في سنة 556 هـ/ 1161 م)، ثم تلتها يابرة في سنة (561 هـ/ 1165 م) ([33].

ولما توطد سلطان الموحدين بالأندلس في أواخر القرن السادس الهجري، توقفت حركة الاسترداد النصراني، ثم عادت تضطرم قوية بعد إحراز إسبانيا لفوزها الحاسم على الموحدين في موقعة العقاب (609هـ).

ومنذ أوائل القرن السابع الهجري تجتاح إسبانيا موجة عاتية من الغزو، وتسقط القواعد الأندلسية شرقًا، وغربًا في يد النصارى، وهكذا سقطت جزيرة ميورقة (627هـ/ 1229م)، وبياسة (623هـ/ 1226م) وأبدة (630هـ/ 1233م) ثم قرطبة (633هـ/ 1236م)، وإستجة، والمدور (633هـ/ 1236م) وبلنسية (636هـ/ 1238م) ودانية، ولقنت (641هـ/ 1244م) وأوريولة، وقرطاجنة (643هـ/ 1245م) وشاطبة (644هـ/ 1246م) ومرسية (640هـ/ 1243م) وجيان (643هـ/ 1246م)، ثم أشبيلية (646هـ/ 1248م)، في الوقت نفسه اجتاحت غرب الأندلس موجة مماثلة من الغزو النصراني، فسقطت بطليوس (627هـ/ 1230م) وشلب (640هـ/ 1242م) وشنتمرية الغرب (647هـ/ 1249م) ولبلة وولبة (655هـ/ 1257م). ثم سقطت قادس في سنة 1261م، وتلتها شريش سنة 1264م. وهكذا لم يأتِ منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) حتى كانت كل ولايات الأندلس الشرقية، والوسطى قد سقطت في يد إسبانيا، ولم يبقَ من الدولة الإسلامية بالأندلس، سوى بِضع ولايات صغيرة في طرف إسبانيا الجنوبي[34].

مملكة غرناطة:

كانت غرناطة وقت افتتاح الأندلس مدينة صغيرة من أعمال ولاية «إلبيرة»[35] تقع على مقربة من مدينة إلبيرة قاعدة الولاية من الناحية الجنوبية، افتتحها المسلمون عقب انتصارهم على القوط، بقيادة طارق بن زياد فاتح الأندلس، في موقعة شريش في رمضان سنة 92هـ / 711م، ولمّا اضطرمت الفتنة بالأندلس، ودبَّ الخلاف بين القبائل، عقِب موقعة بلاط الشهداء (732م)، واشتد التنافس على الإمارة بين الشاميين من ناحية، والعرب، والبربر من ناحية أخرى، رأى أمير الأندلس أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي، أن يعمل على تهدئة الفتنة؛ بتمزيق عصبة الشاميين؛ ففرقهم في أنحاء الأندلس، وأنزل جند الشام بكورة إلبيرة، وجند حمص بأشبيلية، وجند فلسطين بشذونة، والجزيرة، وجند الأردن بريَّة، وهكذا نزل الشاميون منذ البداية بولاية إلبيرة، وغدوا بمضي الزمن كثرة فيها[36].

واستمرت مدينة إلبيرة قاعدة لهذه الولاية، ومركز قضائها في ظِل الدولة الأموية، حتى أواخر القرن الرابع، حينما انهارت الخلافة الأموية، وتعاقبت الفتن، وعاث البربر في النواحي، وخربت مدينة إلبيرة شيئًا فشيئًا؛ حتى غدت غرناطة قاعدة الولاية مكانها، وغلب اسم غرناطة على الولاية نفسها، ومن ذلك الحين يختفي اسم إلبيرة، وغرناطة، وتُعتبران في معظم الأحيان - لا سيما في المراحل الأولى لتاريخ الأندلس - اسمين لمكان واحد، وقد جرى كثير من المؤرخين، والجغرافيين على المزج بينهما[37]. (انظر الخريطة رقم 3)

1. قيام سلطان النصريين (بني الأحمر) على غرناطة:

لبثت غرناطة في ظل الدولة الأموية قاعدة متواضعة من قواعد الأندلس الجنوبية، وهي تحتل مكان إلبيرة شيئًا فشيئًا، حتى كانت أيام الفتنة عقِب انهيار

الدولة الأموية في أواخر القرن الرابع، فأخذت القواعد الجنوبية تغدو - بعد تخريب قرطبة، ونأيِ القواعد، والثغور الشرقية، والشمالية - مركزَ التجاذب، والتنافس بين زعماء الفتنة؛ ووقعت غرناطة يومئذٍ في نصيب البربر، واستولى عليها زعيم صنهاجة زاوي بن زيري، واتخذها دار ملكه، وقامت في قرطبة دولة بني حمود الإدريسية [38].

واستمرت الحرب، والفتنة مدى حين سجالًا بين المتغلبين من فلول بني أمية، وبني عامر، وفتيانهم، ومواليهم، وبين زعماء البربر، ولما ظهر المرتضى، وهو من عقب بني أمية، ودعا لنفسه بالخلافة، سار في عصبة الأمويين، والموالي إلى غرناطة لانتزاعها، واتخاذها دار مُلكه، فرده عنها صاحبها زاوي الصنهاجي في موقعة دموية (408هـ)، واستقر زاوي في حكم غرناطة، وأعمالها بضعة أعوام، ثم غادرها إلى دار قومه في تونس، واستخلف عليها ابن أخيه حبوس بن ماكسن، فحكمها حتى توفي في سنة 429هـ، وخلفه في ولايتها ولده باديس، وتلقب بالمظفر، واستولى على مالقة من يد الأدراسة (بني حمود)، واتسع ملكه، ولبث طول حكمه الذي استطال حتى سنة 467هـ، في قتال مستمر مع بني عباد أمراء أشبيلية، أعظم، وأقوى ملوك الطوائف يومئذٍ، ولما تُوفي باديس المظفر، خلفه في حكم غرناطة، وأعمالها حفيده عبد الله بن بلكين ابن باديس، واستمر في حكمها إلى أن عبر المرابطون البحر إلى الأندلس في سنة 483هـ بقيادة عاهلهم يوسف بن تاشفين، واستولوا على غرناطة، وعلى قواعد الأندلس الأخرى، وانتهت بذلك دول الطوائف، التي قامت على أنقاض الخلافة الأموية، وعاشت زهاء ستين عامًا [39].

تعاقب على حكم غرناطة عدة أمراء من اللمتونيين[40]، وسادتهم، ثم انهارت دولتهم، وتمَكن الموحدون من الأندلس في سنة 541هـ (1147م)، وسلم المرابطون بعد اعتصامهم في غرناطة المدينة إلى الموحدين، وذلك في سنة 551هـ (1156)، ولبثت غرناطة كباقي القواعد الأندلسية في أيدي الموحدين، يتناوب حكمها الأمراء، والسادة من بني عبد المؤمن، وقرابته، حتى كانت ثورة أبي عبد الله محمد بن يوسف بن هود سليل بني هود أمراء سرقسطة السابقين، على الموحدين، وانتزاعه معظم قواعد الأندلس من أيديهم، ولكن توفي ابن هود في عام 635هـ / 1138م،

وهو في ذروة نشاطه، وحروبه ضد النصارى[41] وفي ذروة سلطانه،ومشاريعه، ولم تطل وَثْبته التي بثت إلى الأندلس مدى لحظة قصيرة أملا خلابًا سوى بضعة أعوام، فانهارت بوفاته دولته، التي لم يُتَحْ لها كثيرٌ من أسباب الاستقرار، والتوطد، وكان المتوكل بن هود أميرًا شجاعًا كريم الصفات، يضطرم إخلاصًا، وغِيرة للقضية التي نصب نفسه للاضطلاع بها، ولكنه لم يكن بموارده كفؤًا لتلك المهمة العظيمة، واعتبرت جهوده نفس المثالب القديمة التي كانت تصدع دائماً من جهود الزعماء الأندلسيين، والتي تتلخص في مصانعة النصارى، ومداراتهم، ومساومتهم على حساب المصالح القومية[42].

وفي تلك الأونة العصبية التي أخذت فيها قلاع الأندلس العظيمة (قرطبة، وبلنسية، ومرسية، وأشبيلية) تسقط تباعًا، وواجهت الأندلس شبح الفناء من جديد كما واجهته أيام الطوائف... كانت عناصر الفتنة، والفوضى تتمخض عن قيام مملكة إسلامية جديدة في جنوبي الأندلس، هي مملكة غرناطة، كان قيام هذه المملكة في الطرف الجنوبي لدولة الأندلس القديمة، يرجع إلى عوامل جغرافية، وتاريخية؛ ذلك أن القواعد، والثغور الجنوبية - التي تقع فيها وراء نهر الوادي الكبير - كانت آخر الحواجز الطبيعية بين إسبانيا، والأندلس، وكانت أبعد المناطق عن متناول العدو، وأمنعها، وفي الوقت نفسه أقربها إلى الضفة الأخرى من البحر إلى عدوة المغرب، وشمال إفريقية حيث تقوم دول إسلامية، وحيث تستطيع الأندلس، وقت الخطر الداهم أن تستمد الغوث، والعون من إخوانها في الدين، وقد كان لها في ذلك منذ أيام الطوائف أسوة، بل لقد كان صريخ الأندلس يتردد في تلك الآونة ذاتها على لسان شاعرها، وسفيرها ابن الآبار القضاعي، حينما دهَم العدو بلنسية في سنة 635هـ (1237م)، وكان الصريخ موجهًا من أميرها أبي جميل زيان، إلى أبي زكريا الحفصي ملك إفريقية (تونس)، وهو الذي ردده الشاعر في قصيدته الشهيرة التي مطلعها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا	إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست	فلم يزل عز النصر منك ملتمسا

وحـــاش ممـــا تعانيه حشاشها   فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً   للحادثات وأمسى جدها تعسا
في كـل شـارقـة إلمـــام بائقة   يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكـل غاربة إجحاف نائبة   تثنى الأمان حذاراً والسرور أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم   إلا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفى بلنسية منها وقرطبة   ما ينسف النفس أو ما ينزف النَّفسا
مدائن حلها الإشراك مبتسما   جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا
وصيرتها العوادى العابثات بها   يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا[43]

وفي قول الشاعر يتمثل المغزَى التاريخي، الذي لبث أحقابًا يربط بين الأندلس، وبين الدول الإسلامية الشقيقة في عدوة المغرب، وقد كان يتمثل واضحًا كلما اشتد الخطر بالأمة الأندلسية، ولاح لها سبح الفناء في جزيرتها المنقطعة قويًّا رهيبًا.

لقد قامت مملكة غرناطة، التي شاء القدر أن تكون ملاذ الأمة الأندلسية، دهرًا طويلًا آخر في ظروف متواضعة؛ ذلك أنه لما ضَعُف أمر الموحدين بالأندلس، وخرج عليهم محمد بن يوسف ابن هود الملقب بالمتوكل كما قدمنا، وأخذت قواعد الأندلس تخرج من قبضتهم تباعًا؛ ينتزع بعضها ابن هود، وثوار النواحي، والبعض الآخر ينتزعه النصارى، كان من الزعماء الذين ظهروا أثناء الفتنة محمد بن يوسف النصري المعروف بابن الأحمر، سليل بني نصر، وهم في الأصل سادة حصن أرجونة من أعمال ولاية جيان (وهو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي)، ويرجع بنو نصر نسبهم إلى الصحابي سعد بن عبادة سيد الخزرج؛ فهم بذلك من أعرق البطون العربية، وقد أشار إلى هذا النسب بعض مؤرخي الأندلس، ومنهم الرازي[44].

كان لِبَنِي نصر، وجَاهة، وعصبية، ووُلد محمد بن يوسف في أرجونة سنة 595هـ (1198م)، ونشأ في مهاد الفضيلة، والتقشف جنديًّا وافر الجرأة، والعزم، يتزعم

قومه، ويقودهم إلى مواطن النضال، وبالرغم من تقشفه، وتواضعه كان يجيش بأطماع كبيرة، وكانت حوادث الأندلس يومئذٍ تقدم لأولي العزم، والإقدام كثيرًا من فرص الظهور، والمغامرة، فلما تفاقمت الفتنة، واضطربت الشئون في الثغور، والنواحي، وكثرت غزوات النصارى لقواعد الأندلس، وظهر ابن هود على الموحدين في الثغور الشرقية، لاحت لمحمد بن يوسف فرصة العمل، خاصة، وقد كان يبدو لكثير من الزعماء، وذوي الرأي معقد الآمال في إنقاذ ما بقِيَ من تراث الأندلس، فالتفت حوله الصحب، والأنصار، أولًا في أرجونة موطن أسرته، وعصبته، وفي الجهات المجاورة لها[45].

وبينما كان ابن هود يعمل لتوطيد سلطانه في شرق الأندلس، وجنوبها، كان محمد ابن يوسف يعمل من جانبه في الأنحاء الوسطى، ولم يلبث أن أطاعته جيان، وبسطة، ووادي أش، وما حولها من البلاد، والحصون، وبسط حكمه على تلك الأنحاء رغم معارضة ابن هود، ثم اتجه ببصره إلى القواعد، والثغور الجنوبية باعتبارها أقرب ميدان للعمل، وأبعد الأماكن عن متناول العدو، ورأى في الوقت نفسه، أن يستظِل بدعوة أحد الأمراء المسلمين الظاهرين، فدعا للأمير أبي زكريا الحفصي صاحب إفريقية (تونس) وتلقى منه بعض العون، وقيل أيضًا إنه حذا حذو ابن هود في الدعاء للخليفة المستنصر بالله العباسي، ونادت قرمونة، وقرطبة، وأشبيلية بطاعته لمدى قصير، وذلك في أواسط سنة 629هـ، ثم عدَلَت قرطبة، وأشبيلية عنه إلى طاعة ابن هود[46].

ولما اضطرمت الثورة في أشبيلية، واستطاع زعيمها القاضي أبو مروان الباجي أن يبسط حكمه عليها، وأن يخرج منها عامل ابن هود، بادر محمد بن يوسف إلى مخالفته، ومعارضة ابن هود، ومقاتلته، وهزماه سويًّا فى بعض المواقع، ولكن محمد غدر بعد ذلك بالباجي، ليخلو له الجو، ودسَّ عليه من قتله، ولم يمضِ على ذلك وقت طويل حتى أطاعته شَريش، ومالقة، وكثير من القواعد، والحصون القريبة، وذلك في عام 630هـ؛ أما أشبيلية، وقواعد غربي الأندلس؛ فاحتفظت باستقلالها في ظِل بعض الزعماء المحليين، وهرع إلى لوائه كثير من المسلمين، الذين غادروا المدن،

التي وقعت في يد النصارى، واستطاع أن يحشد جيشًا كبيرًا من الفرسان، والرجالة، يؤازره في تنفيذ خططه، ومشاريعه[47].

ولما قويت دعوة ابن هود، وامتد سلطانه نحو الغرب، والجنوب، واستولى على غرناطة، وأقره الخليفة العباسي على دعوته، رأى محمد بن يوسف (ابن الأحمر) مصانعته، والانضواء تحت لوائه؛ فانحاز إليه، وجاهر بطاعته (631هـ)، ولكن ابن هود ما لبث أن توفي أوائل سنة 635هـ، وانهارت دولته كما قدمنا، وعندئذ بادر محمد بن يوسف إلى العمل، لاجتناء تراثه في الأنحاء الوسطى، وكان ابن هود، قد ولَّى على غرناطة عتبة بن يحيى المغيلي، وكان خصماً لابن الأحمر يأمر بسبه على المنابر، وكان ظلومًا جائرًا، فلما اشتدت وطأته على أهل غرناطة، ثار عليه جماعة من أشرافها بزعامة ابن خالد، واقتحموا القصبة، والقصر في عصبتهم، وقتلوا عتبة، وأعلنوا طاعتهم لابن الأحمر، وبعثوا إليه يستدعونه، فسار ابن الأحمر إلى غرناطة، ودخلها عند مغيب الشمس في أواخر رمضان 635هـ (أبريل 1238م)، وهو يرتدي ثياباُ خشنة، وحلة مرقعة، ونزل بجامع القصبة، وأمَّ الناس لصلاة المغرب، ثم خرج من المسجد على قصر باديس، والشموع بين يديه، ونزل فيه مع خاصته؛ وبذا غدت غرناطة حاضرته، ومقر حكمه، وكان ذلك لأشهر قلائل فقط من وفاة ابن هود[48].

وما كاد ابن الأحمر يستقِر في حاضرته الجديدة حتى عول على افتتاح ألمرية، وسحق ابن الرميمي، وزير ابن هود، وقاتله، فسار إليها في بعض قواته، وحاصرها مدة، فلما اشتد عليها الحصار غادرها الرميمي من جهة البحر بأهله، وماله في سفينة خاصة، وسار إلى تونس مستظلًّا بحماية أميرها أبي زكريا الحفصي، وملك ابن الأحمر ألمرية، وامتد سلطانه إلى سائر الشواطئ الجنوبية[49].

وهكذا نشأت إمارة غرناطة الصغيرة في غمار الفوضى التي سادت الأندلس، على إثر انهيار سلطان الموحدين، ولكنها كانت في حاجة إلى الاستقرار، والتوطيد، وكان محمد بن يوسف يواجه في سبيل هذه المهمة كثيرًا من الصعاب، وكانت الأندلس، قد مزقتها الحرب الأهلية شيعًا، وانتثرت إلى حكومات، ومناطق عديدة، وكان ابن الأحمر يحظى بتأييد جمهرة كبيرة من الشعب الأندلسي، ولا سيما في الجنوب، ولم يك

ثمة ما يمنع من التفاف الأمة الأندلسية كلها حول لواء هذا الزعيم المنقذ، ولكن روح التفرق، والتنافس كانت متأصلة في نفوس المتغلبين، والطامعين، وكان أصاغر الحكام يؤثرون الانضواء تحت لواء ملك النصارى، والاحتفاظ في ظله بمُدنهم، وقواعدهم على مظاهرة ابن الأحمر، والانضواء تحت لوائه.

هكذا كان الخلاف بين أبناء الأمة الأندلسية في تلك الآونة العصيبة، يذهب إلى حد التضحية بأقدس المبادئ، وأسمى الاعتبارات، وكانت وشائج القومية، والدين، والخطر المشترك كلها تغيض أمام الأطماع الشخصية الوضعية، وكان فرناندو الثالث يرى في ابن الأحمر - بعد اختفاء ابن هود - زعيم الأندلس الحقيقي، والخصم الذي يجب تحطيمه، وكان ابن الأحمر يُقدر خطورة المهمة التي ألقاها القدر على عاتقِه، وكان يضطرم عزمًا، وإقدامًا[50] لاستخلاص الوطن من أيديهم.

فلما كاد يستقر في غرناطة حتى نشط إلى محاربة النصارى، وبدأ الصراع؛ حين ضرب ابن الأحمر الحصار حول قلعة مرتش في قوة كبيرة (636هـ)، لكن النصارى قَدِمُوا لنجدتها بسرعة، واضطر ابن الأحمر إلى رفع الحصار، ثم توالت المعارك بينهم حتى ظهر تفوق النصارى، عندما حاصروا غرناطة نفسها (642هـ/ 1244م)، ولكنهم رُدوا عن أسوارها بخسائر فادحة، فلما رأى ابن الأحمر تفوق النصارى، وعبث المقاومة، آثر مصانعة ملك قشتالة، ومهادنته؛ فسار إلى لقائه في معسكره، وقدم إليه طاعته، ونجد أن قدوم ابن الأحمر على هذا النحو إلى فرناندو، إنما كان تنفيذًا لاتفاق سابق؛ تم فيه التفاهم على تحديد مهادنة مملكة غرناطة[51].

على أي حال تم الاتفاق على أن يحكم ابن الأحمر مملكته، وأراضيه باسم ملك قشتالة، وفي طاعته، وأن يؤدي له جزية سنوية، وقدرها مائة وخمسون ألف قطعة من الذهب (دوبلاس)، وأن يعاونه في حروبه ضد أعدائه، فيقدم إليه عددًا من الجند أينما طلب منه ذلك، وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابي (الكورتيس)، باعتباره من الأمراء التابعين للعرش[52].

وسلم ابن الأحمر إلى فرناندو جيان، وأرجونة، وبركونة، وبيغ، والحجار، وقلعة جابر رهينة بحسن طاعته، ونزل له عن أرض الفرنتيرة لعجزه عن الاحتفاظ بها، وفي

مقابل هذا الثمن الفادح؛ عقد ملك قشتالة السِلم مع ابن الأحمر لمدة عشرين سنة، وأقره على ما بقي بيده من القواعد، والحصون، وذلك في سنة 643هـ/ 1245م[53].

هكذا أمنت غرناطة شر العدوان حينًا، وقبل ابن الأحمر أن يضحي باستقلاله السياسي، وهيبته الأدبية احتفاظًا بجزء من أراضيه، وتطلعًا إلى ظروف أفضل يستطيع فيها النضال، والصمود؛ وذلك لعدم وجود معاونة فعالة من أقرانه أصحاب البقاع الإسلامية الموجودة حين ذاك على أرض الأندلس، وعدم وجود مساندة فعالة من دول الإسلام حين ذاك، وتجاهُل حماسة القضية لدى المسلمين، وحكامهم في الشرق[54].

ولقد صور النقد الغربي الحديث صفات منشئ مملكة غرناطة، وظروف مملكته في عبارات منها: «كان محمد بن الأحمر من أبرع أولئك الأمراء الذين كان لهم فضل خلال العصور المضطربة، في الدفاع عن الإسلام، ومجد المسلمين، وكان جريئًا بعيد الغور، ولكن مكره لم يكن راجعًا إلى طبيعة خبيثة، وضيعة، بل إلى خلق خصومه الذين كان مُرغمًا مقارعتهم، ففي العصور الوسطى كان قانون الأمم، وعقد المعاهدات، ومجاملات الفروسية، وشروط السلم الشريف، تُفهم بطريقة ناقصة، وكثيرًا ما تُنتهك بعَمد، وكانت معظم نقائص هذا الأمير العظيم ترجع إلى أخلاق العصر المنحلة، وكانت بوادر خضوعه لأعدائه الألداء مظاهر فقط لسياسة محكمة التدبير، أقدم عليها لإحراز ملكه، وتوطيد سلطانه، وكان تقدم الغزو المستمر يرهق مملكته، ولكنها كانت تغدو أقوى، ويغدو الدفاع عنها أيسر، كلما انكمشت حدودها، وكان القشتاليون كلما احتلوا مدينة جديدة، هرعت منها جمهرة من المهاجرين العاملين إلى غرناطة؛ فتزيد سكانها كثرة على كثرة، يحملون معهم ثروات عظيمة، وصفات هي أثمن من الثروة لدولة منحلة: النشاط، والاقتصاد، والمقدرة على هضم الظروف الجديدة، وذكرى المظالم السابقة، وآلام المطاردة المحزنة، وأمل الانتصاف، وشعور لا يُقهر ببغض النصرانية، وكان الاندماج السياسي لهذه الجماعات المنفية المضطهدة في حماية الجبال التي تظلل ملاذها الأخير، هو الذي عاون في حفظ مملكة غرناطة الزاهرة لمجدها المستقبل، ومحنتها الغامرة»[55].

توفى محمد ابن الأحمر في 29 جمادى الثانية 671هـ/ ديسمبر 1272م على إثر سقطة من جواده، حين عودته من معركة رد فيها جمعًا من الخوارج، الذين حاولوا الزحف على الحمراء في منتصف جمادى الثانية من العام المذكور، فحُمل جريحًا إلى القصر، وتوفي بعد ذلك بأسبوعين، وقد قارب الثمانين من عمره، ودُفن بالمقبرة العتيقة بأرض السبيكة[56].

كانت مملكة غرناطة توطدت دعائمها نوعًا ما، واستقر بها ملك بني نصر الفتيُّ على أسس ثابتة، وكان من حُسن الطالع أنه لم يظهر في مملكة غرناطة في بداية أمرها زعماء خوارج ينازعون بني نصر زعامتهم؛ ولذا لم نشهد في هذه الأندلس الجديدة مأساة الطوائف مرة أخرى، مع أن كان تاريخ الدولة النصرانية لم يخلُ من الثورات، والانقلابات المحلية العديدة، وقد كان من غرائب القدر أن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة استطاعت غير بعيد أن تعيد لمحة من مجد الأندلس الذاهب، كما استطاعت بكثير من الشجاعة، والجلد أن تسهر على تراث الإسلام في الأندلس، زهاء مائتين وخمسين عامًا أخرى[57].

نهاية مملكة غرناطة:

كانت مملكة غرناطة عند قيامها في أواسط القرن السابع الهجري تشمل القسم الجنوبي من الأندلس القديمة، وتمتد فيما وراء نهر الوادي الكبير إلى الجنوب، حتى شاطئ البحر الأبيض المتوسط، ومضيق جبل طارق، ويحدها من الشمال ولايات جيان، وقرطبة، وأشبيلية، ومن الشرق ولاية مرسية، وشاطئ البحر المتوسط الممتد منها إلى الجنوب، ومن الغرب ولاية قادس، وأرض الفرنتيرة، وكانت تشتمل عندئذٍ على ثلاث ولايات كبيرة، وهي ولاية غرناطة الواقعة في الوسط، والممتدة جنوبًا حتى البحر، وأهم مدنها العاصمة غرناطة، ووادي آش، وبسطة، وأشكر، وحصن اللوز، ولوشة، والحامة، وأرحبة، والمنكب[58]، وشلوبانية، وولاية ألمرية؛ وهي تمتد من ولاية مرسية حتى البحر، وأهم مدنها ثغر ألمرية، وبيرة، والمنصورة، وبرشانة، وبرجة, ودلاية، وأندرش، وولاية مالقة، وهي تقع على البحر غربي غرناطة، وأهم

مدنها ثغر مالقة، وبلش مالقة، وطرُّش، وقمارش، وأرشدونة، وأنتفيرة، ورندة، ومربلة، ويلحق بها منطقة جبل طارق، والجزيرة الخضراء، وطريف[59].

كانت دولة غرناطة دولة إسلامية، ترحب باللاجئين القادمين من مختلف أنحاء إسبانيا، ولا تتكلم غير العربية، وعلى الرغم من وجود يهود فيها؛ فقد خلت من المستعربين، إن هذا التشبث بالإسلام، والدفاع عنه يبدو معقولًا بعد الاهتمام بالجهاد الذي أظهره المرابطون، والموحدون، وبعد حركة الاسترداد المتزايد خلال مرحلة النجاح من عام 1212م إلى عام 1248م، أما أزهى مراحل تاريخ دولة بني نصر؛ فكانت بين عامي 1344م و1396م، وهي الحُقبة التي بُنيت فيها أروع أقسام الحمراء، وكانت الدولة على العموم مزدهرة بفضل زراعتها الكثيفة، وحِرَفِها المتباينة، وتجارتها، غير أنها كانت تعاني صعوبات داخلية كثيرة؛ فالصراع على وراثة الحكم كان يتكرر بين أبناء الأسرة الحاكمة، خاصة ابتداء من العقد الأخير من القرن الرابع عشر، وكان لكل منهم مؤيدوه من أصحاب النفوذ[60]، ثم إن موقف الدولة المُلتزم كان يشجع على تزايد نفوذ الفقهاء، وهؤلاء كانوا مع المرتزقة الأفارقة، وبعض العناصر من أهل المدن يميلون إلى الحرب، وكان يقف في الجانب المعارض النخبة الحاكمة، والتجار، والفلاحون؛ الذين كان السِلم يخدم مصالحهم بصورة أفضل بكثير من الحرب، وعدم الاستقرار.

انتهى حكم النصريين بسبب ضعفهم الداخلي، وتعاظم قوة النصارى معًا؛ فهذه القوة ازدادت بفضل اتحاد مملكتي أرغون، وقشتالة؛ إثر زواج فرناندو، وإيزابيلا، ومع ذلك ربما كان بالإمكان تأجيل الانهيار النهائي لو أن الحكام المسلمين حافظوا على رباطة جأشهم، ولم يدعوا لنفاذ الصبر سبيلًا إلى نفوسهم، ففي عام 1481م، وقبل انتهاء مرحلة الهدنة، انتزع فريق من المسلمين حصن (الصخرة) من أيدي النصارى، فحمل هذا العمل الاستفزازي - والبسيط من غير شك - فرناندو، وإيزابيلا على توطيد العزم على وضع نهاية لوجود غرناطة، ومن هنا بدأت النهاية الفعلية لمملكة غرناطة، آخر الممالك الإسلامية على أرض إسبانيا، بسبب ضعف حكامها، وعدم المساندة الحقيقية من الشرق الإسلامي[61].

أحداث، وتداعيات نهاية مملكة غرناطة

تفاعلت الأحداث، وتشابكت حتى أتت الفرصة للإسبان لدخول غرناطة، لقد كانوا يتصيدون الفرصة، ويبحثون عن سبب يمكنهم من دخول غرناطة، وقد مَكنهم من ذلك الأمير الغرناطي مولاي أبي الحسن، ومن بعده ابنه أبو عبد الله الصغير، حيث تولى الأول عرش بني الأحمر منذ سنة 1465م، إلا أنه أراد أن يُحرر شعبه من الجزية أو الضريبة التي يؤدونها، لعرش قشتالة منذ عهد الملك فرناندو الثالث مستغلًّا الوضع، الذي توجد عليه المملكة، وأمام رفضه، وتماطله بعث له المَلكان الكاثوليكيان رسولًا يطالبه بالمال المفروض على إمارته، فقال مخاطبًا مبعوث الملكين: «عد وقُل لملكيك، لقد مات الغرناطيون، الذين كانوا يعطونكم المال، ويؤدون للمسيحيين عطاياهم، وأخبرهما، بأنه لا يوجد في غرناطة حاليًا إلا السيف، والحديد، والرماح التي نصوبها لنحور أعدائنا» استفز ذلك الرد فرناندو، وإيزابيلا، وقررا أن يخوضا من جديد غمار ملحمة الاسترداد[62].

ويرى بعض الباحثين الإسبان أن مولاي أبو الحسن بهذه الخطوة تعجل في سقوط غرناطة، وتجاهل أسباب عديدة اقتصادية، وسياسية، وغيرها؛ ونعتقد أن مولاي أبو الحسن اتخذ موقفه هذا انطلاقًا من عقيدته التي تحثه على الجهاد، والدفاع عن مملكته، ودينه، وهو السبب، الذي لم يضعه الباحث الإسباني في الاعتبار، رغم أهميته بالنسبة لحاكم مسلم متدين كمولاي أبي الحسن.

وهنا بدأ فرناندو الاستعداد، والاتحاد من أجل إسقاط آخر ممالك المسلمين في إسبانيا، فشن هجمات عديدة على المملكة، وحصونها، وهكذا فقد هاجم الزهراء، ودخل الحمراء في سنة 1481م، الأمر الذي زرَع الهلع في وسط المسلمين، وتداولت الأوساط الشعبية أغاني في وصف هلعهم، ترجم البعض منها، وهي كالآتي:

تصيد الملك المورو

خلال مسالك وأزقة غرناطة

من أبواب إلبيرة

إلى غاية بيرا رامبلا

آه للحمراء

وبينما أبو الحسن يستعد لاسترجاع الحمراء، كان الملوك الكاثوليكيين يجهزون لعملية استرداد جديدة، وفي 11 يوليو 1481م حصل اشتباك بين المعسكرين، توفي خلاله (دون رودريغو خيرون) ابن دييغوا القشتالي، قائد كثالا، والذي كان كذلك القائد الأعلى لكلترافا، وفرسان آخرون، وهنا هبَّ الملك دون فرناندو لإنقاذ المحاصرين، وتوجه نحو غرناطة، حيث اجتث الزرع، والغرس، وحاصر كل الحدود، ثم عاد منتشيًا إلى قرطبة[63].

كان هدف المسيحيين المرابطين في حدود غرناطة هو الاستيلاء على لوشة، فقدموا بعض رجالهم، لكن الصدام كان أقل حدة مما وقع في الجهة الشرقية؛ حيث فاجأهم جنود غرناطة بين جبال كوتار، وهو المكان الذي لازال يُعرف باسم «عقبة القتلى»، حيث هلك خلال تلك المواجهات (دون دييغو)، ودون لوبي، ودون بلتران، إخوة ماركيز قادس؛ ودون لورينثو، ودون مانويل، ابني عمه، وكذلك هلك عدد كبير من أفراد عائلته، وغيرهم، ولقد نشبت هذه المعركة في صباح يوم الجمعة الموافق 21 مارس 1483م[64].

ولقد عرفت الفترة نفسها خلافات حادة بين أبي الحسن، وابنه من زوجته عائشة (أبو عبد الله الصغير) الذي تمرد ضد أبيه؛ فطرده أبوه من غرناطة، وفي ذلك الوقت جهز أبو الحسن جيشًا من ثمانية آلاف مقاتل غرناطي لأجل اجتياز حدود إستجة، قبل أن يفيق الإسبان من صدمتهم، ولكن المحاولة فشلت، ودارت الدائرة على بني نصر، وهنا استسلمت مملكة غرناطة للإسبان، وتساقطت المدن، والقرى الواحدة تلو الأخرى في أيديهم، مثل كوين كرطامة روندة، وماربيا، ومكلين، ونقط أخرى، وقد سهل لهم تلك المسألة أبو عبد الله الكبير، الذي خلَف أبا الحسن في حكم غرناطة، وسادت الخلافات بين ملوك غرناطة، وخاصة أبي عبد الله، وعمه، إلى أن وجد نفسه مضطرًّا للدفاع عن نفسه ضد الجيش الغالب، جيش الملوك الكاثوليكيين[65].

وهكذا، وفي سنة 1486م، استولى دون فرناندو على لوشة، بينما كانت الأطراف المسلمة تقتتل فيما بينها، ثم سقطت في أيديهم بيليث، ولاحقًا مالقة، وبيثا، واستمرت المواجهة في الطرفين حتى ربيع سنة 1491م، حينما قرر الملوك الكاثوليك الاحتفال بعيد الفصح في أشبيلية، وفصل الربيع ليتجهوا بعد ذلك نحو غرناطة[66].

كانت تلك الحرب حدًّا فاصلًا في العلاقة بين المسيحيين، والمسلمين الذين انتهى حكمهم بعد ثمانية قرون من السيطرة، وخلال محاصرة الجيوش المسيحية للمسلمين تدخل اليهود لنجدتهم بقيادة إبراهام، وإسحاق أباربانيل، لقد كان لحركته وقعًا مهمًا على الجنود الإسبان، والملوك الكاثوليك، وبدورها قامت الملكة إيزابيلا بدعم الجيش خلال حِصاره لغرناطة، وأغدقت عليه العطايا، والمؤونة لدرجة إفراغ خزينة مملكتها، وبعد حصار استمر لأكثر من ثمانية أشهر، استطاع الملوك الكاثوليك فرض قوانينهم على المدينة المحاصَرة التي تفاوضوا بشأنها مع أبي القاسم، وفي 2 يناير 1492م استطاعوا الاستيلاء عليها، وأقسموا على اقتلاع معالم غرناطة الإسلامية كما تقتلع حبات الرمان واحدة تلو الأخرى[67].

وفي النصف الأخير من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، بدأت بوادر الضعف تظهر على مملكة غرناطة من انقسامات داخلية، وحروب على العرش، وظهر ذلك جليًّا في ضعف الحركة الفكرية في مملكة غرناطة خصوصًا بعدما بدا في الأُفق نذير سقوطها، فهجرها العديد من أبنائها المتميزين، وغادروها إلى بلاد المغرب، ومصر، والشام، ولم يعودوا إليها بعد مغادرتهم لها[68].

خلال هذه المرحلة ضعف أمر مملكة غرناطة، بسبب النزاع على العرش داخلها، ثم افتقادها الظهير المغربي بضعف دولة بني مرين، ثم ذهابها في سنة 869هـ / 1464م، ولم يكن خلفاؤها من بني وطاس من القوة، بحيث يستطيعون عون مملكة غرناطة، على أن الأهم من هذا كله ما جرى من تطورات في إسبانيا، ففي سنة 879هـ/ 1474م مات إنريكي الرابع ملك قشتالة، وخلفته أخته إيزابيلا (Isabel 1474 – 1504م)، وكانت متزوجة من الأمير فرناندو الأرغوني، وفي سنة 1479م ارتقى فرناندو عرش أرغونة، ثم اتحدت المملكتان الإسبانيتان، ليبدأ

عصر جديد في تاريخ إسبانيا، إبان ذلك كانت الحرب الأهلية قد دبت في مملكة غرناطة بين سلطانها أبي الحسن علي الملقب بالغالب بالله (867هـ/ 1462م - 890هـ/ 1485م) وبين أخيه أبي عبد الله الملقب بالزَغَل (أي الباسل) ثم بين هذا الأخير، وبين أخيه أبي عبد الله محمد، وانقسمت المملكة فصارت غرناطة، وأعمالها لأبي عبد الله، وصارت وادي أش Guadix وأعمالها للزغل[69].

أفاد القشتاليون من هذه الفرصة؛ فاستولوا على لوشة، ثم زحفوا إلى مالقة، ولم يستطع الزغل نجدتها، فسقطت في أيدي الإسبان سنة 892هـ/ 1487م، وأتبعوها بالمُنَكَّب، وبَسطَة Baza، ولم يتبقَّ سوى وادي أش، فلم يجد الزغل بدًّا من الاستسلام، والرحيل إلى المغرب، وبرحيله؛ دخل النصارى وادي أش، ودخلوا بعدها ألمرية[70].

وفي عهدها الأخير ظهر في مملكة غرناطة تيار قوي، ينحو لطلب العون من السلطنة المملوكية بالقاهرة، ومن السلطنة العثمانية بإسطانبول، وتكرر هذا الطلب عدة مرات، ولم تجاوز الاستجابة حد القول إلى الفعل[71].

بعد أن تخلص الملكان الكاثوليكيان من خصمهما الزغل، لم يتبقَّ لهما سوى مدينة غرناطة، وأحوازها، وكان يدافع عنها عشرون ألفًا من المقاتلة، يواجهون ما بين خمسين ألفًا إلى ثمانين من أعدائهم مزودين بالمدافع، وآلات الحصار، وبدوره شرع فرناندو في تخريب حقول البشرات، وفحص غرناطة؛ لمنع القوات عن المدينة، وهي القوات التي دعتها إيزابيلا شَنْتُفَى santa fe أي «الإيمان المقدس» ، ومنعت سفن النصارى الإمدادات الواردة من المغرب[72].

بدأ حصار غرناطة في 12 جمادى الثانية 896هـ/ 23 أبريل 1491م، وطال عدة شهور، ولم يعد لدى المسلمين جَلد على مجاهدته، وعرض النصارى معاهدة تضم ستًّا وخمسين مادة، وصل إلينا نصها العربي، كما وصل إلينا نصها القشتالي، في البداية كانت الروح العامة للمعاهدة طيبة، فهي تنص على بقاء المسلمين على حالهم التي كانوا عليها، وسمح لهم بحرياتهم الدينية كاملةً، وألا يؤدوا من الأموال إلا ما كانوا يؤدونه إلى ملوكهم، وأن يسيروا وفق شرائعهم، وسمح لمن أراد العبور إلى المغرب بأولاده، وأمواله، وذُيلت المعاهدة بأن الملكين الكاثوليكيين يؤكدان هذا

العهد، ويضمنانه بدينهما، وشرفهما الملكي[73].

وعند عرض الاتفاق على أهل غرناطة استقبلوه بوجوم، لكن المعارضة التي تزعمها موسى ابن أبي الغسَّان - وقد استشهد فيما بعد - كانت معارضة محدودةً، وفي 2 ربيع الأول 897هـ/ 2 يناير 1492م دخل الملكان الكاثوليكيان مدينة غرناطة، ونُصب صليب فضي كبير على برج الحراسة Torre de la vela وهو أعلى الأبراج بقصر الحمراء، ورُفعت إلى جواره راية القديس يعقوب، وراية قشتالة، وانطلق الرهبان يرددون «الحمد لله» Te Deum Laudamus[74].

ولنا أن نعقب على هذه المعاهدة، وظروفها، ولماذا قبِل بها الملكان مع أن كل بنودها كانت في صالح الطرف المنهزم، وأيضًا ليس له امتداد أو وجود بعد سقوط آخر الممالك الإسلامية على أرض إسبانيا، وهنا نجد أن نص بنود المعاهدة يحمل الروح الطيبة، وأن كل البنود كانت في صالح الطرف المنهزم، من حيث الحفاظ على الديانة، والممتلكات، والأعراض، وغيرها، ولكن كان ما وراء ذلك أمورًا غير واضحة، ينبغي التوقف أمامها لفهمها، وتفسيرها، وبيان سبب رضوخ الطرف المنتصر لهذه الشروط التي تُقلل من نصره، وتقلل من هيبته أمام الكنيسة بصفته المدافع القوي، وحامي الدين، والكنيسة، وشعبه، لقد كانت المصلحة السياسية العامة تغلب هذا.

⏮ ونستطيع القول أن من الأسباب التي جعلت الملكين الكاثوليكيين يقبلون هذه المعاهدة ببنودها، ما يلي:

أولًا: وافق فرناندو، وإيزابيلا على المعاهدة لتيقنهما، من أن بنودها لن تُنفذ، ولن يُعتد بها، وإنما هي حبر على ورق، فكيف تُنفذ بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس؛ بمعنى أنه لا توجد قوة تهددهم، وتعارضهم عندما لا تُنفذ بنود المعاهدة، لقد اعتبرا أنه لا توجد معاهدة طالما لا توجد قوة تحميها، وتصونها، وتدافع عنها؛ ومن هنا يمكن تفسير المعاهدة على أنها استسلام، وهو منطق سياسي بحت، حيث قاعدة (أن السلام بدون قوة تحميه، هو استسلام لا سلام).

ثانيًا: إن الرسائل المتبادلة بين وزيري أبي عبد الله الصغير (المليح وابن قماشة)،

وسكرتير الملكيين توضح ما سبق؛ حيث طلب الأمان لهم، ولضِياعهم، مقابل دخول الإسبان بجيوشهم غرناطة، وعدم تعرض الأهالي لهم، وهذا ما حدث بالفعل، ويؤكد هذا نصوص الرسائل التي تم العثور عليها، حيث تأكد الملكان من عدم إخلاص هؤلاء، واستسلامهم، فاستغلوا هذا، وحافظوا على جيوشهم، وأفرادها، وأحرجوا هؤلاء أمام شعبهم، وأمام التاريخ[75].

ثالثاً: نجد أن الملكان فرناندو، وإيزابيلا قد وافقا على شروط هذه المعاهدة بناءً على اتفاق مُسبق، وسري، بين وزيري أبي عبد الله الصغير، وبعلمه، لحفظ ماء وجه الملك أبي عبد الله الصغير أمام شعب غرناطة، وأمام ضميره تجاه دينه، وأيضًا حفظًا لهيبته، وذلك على أساس أنه عند قبول شروط المعاهدة من قُبل الملكين الإسبانيين، يخرج أبو عبد الله الصغير من مأزق كبير، وهو عدم التفسير، بأنه باع وطنه، وباع دينه، ولم يدافع عنهم لآخر قطرة دم، ولعَلّ هذا ما أوضحته الوثائق، والمصادر بعد ذلك، حيث أوضحت موقفه المُخزي، وثقته فيمن حاربوا دينه، وحاربوه على مدى عهود طويلة.

ونرى أن وزيريه (أبا القاسم المليح، ويوسف بن قماشة) هما من أوقعاه في هذا؛ وذلك لحفاظهم على أنفسهم، وضِياعهم، وأملاكهم، وخذلاه، وهذا ما تُوضحه الرسائل السرية بينهم، وبين الإسبان؛ لقد أقنعاه بقبول المعاهدة، وبقبول الإسبان لها، حافظوا على جيوشهم، ودخلوا غرناطة بروح الانتصار في ظِل انكسار أهل غرناطة، وملوكهم، وتحسرهم على موقفهم، وسلبياتهم؛ وأيضًا رأى الملكان بنظرهم أن هذا الاتفاقية مؤقتة، وغير مستديمه؛ فقبلوها.

رابعًا: إن أبا عبد الله الصغير كقائد، وملك؛ كان على يقين من أن بنود الاتفاقية كانت حبرًا على ورق، وأن الملكان الكاثوليكيان فرناندو، وإيزابيلا لا يَعتدان بهذه البنود؛ لأنهما متزعمين راية المسيحية، وهما من يقومان على حراستها، والعمل على انتشارها، فكيف يسمحون أن تقام شعائر دين الإسلام على أراضيهم، وهي في ذلك الوقت المتزعمة للمسيحية، فكيف خُيل لأبي عبد الله أن هؤلاء، سيحافظون على ما تم الاتفاق عليه، فإذا صدق هذا، فنرى أنه ليس لديه رؤية، وزعامة لتلك المملكة،

ومُلكه، فمن هنا يؤخذ عليه أنه لم يرفع راية البشرات، وعلى أحد جبال غرناطة نظر إليها، وأجهش بالبكاء، فقالت له أمه: «أجل، فلتبكِ كالنساء مُلكًا لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال»، هذا، وإن قاد الجهاد ضد الملكين الكاثوليكيين، ومات مدافعًا عن دينه، ووطنه.

في البداية غادر أبو عبد الله، وأمه الحرة عائشة مدينة غرناطة، وسُمي هذا المكان فيما بعد بزفرة المسلم الأخيرة[76](El Ultimo Suspiro del moro)، استقر أبو عبد الله - الذي دعاه الإسبان ب Boabdil والملك الصغير - El Rey Chico... استقر بقرية أَنْدَرَش Andarax، وكان فرناندو قد أقطعها له، ولم يتهيأ له المقام بها سوى عام، وبضع العام، ثم عبر البحر إلى المغرب، فقصد مليلة ثم فاس، حيث عاش إلى أن مات في سنة 940هـ / 1534م، وقد تدهورت الأحوال بولده بعده، وصاروا في زمن المقري (ت 1041هـ/ 1632م)، أي بعد مائة عام، ونحوها، يعيشون على أموال الصدقات[77].

هكذا كانت نهاية غرناطة، ونهاية آخر ملوكها أبي عبد الله الصغير، ولتأتي فترة أخرى في حياة المسلمين بعد السقوط، وهذا ما سنتناوله في الفصول القادمة.

مواقف القوى الإسلامية من الأندلس حتى سقوطها:

ساهمت أوضاع المسلمين في بقية العالم الإسلامي في زيادة تدهور وضعية مسلمي الأندلس.

موقف حكام المغرب: ففي المغرب - على سبيل المثال - كان الصراع على أشده بين بني وطاس، والسعديين، كما أن إسبانيا كانت لها اتفاقية مع الوطاسيين سنة 945هـ/ 1538م.

زِدْ على ذلك تحكم الإسبان، والبرتغال في السواحل المغربية؛ كل ذلك جعل من الصعب على المغاربة إنقاذ إخوانهم الأندلسيين، وحتى بعد تحقيق المغرب لوحدته الترابية، حالت ظروف مستجدة دون تقديم يد المساعدة لهم، وأهمها السيطرة التركية على الجزائر[78].

موقف دولة المماليك: كان موقف المماليك سلبيًّا، وإن اعتقد البعض أن السبب في ذلك يعود إلى بُعد الأندلس، بالإضافة إلى أن المماليك، لم يكن لهم أسطول قوي يستطيع مواجهة البحرية القشتالية، فلم يكن للمماليك عناية بأمر السفن؛ لأنهم أصحاب خَيْل، وقوتهم برية، وليست بحرية، كما أن المماليك كانوا قد رسموا سياستهم الخارجية على أساس الاتجاه نحو الشرق، لدفع خطر المغول، ثم للتصدي بعد ذلك لمشاريع الدولة العثمانية التي كانت تهدف لتقويض دولة المماليك.

وهكذا فرغم وصول أصوات الإغاثة إليهم، إلا أنهم تشاغلوا عن نجدة إخوانهم في الأندلس[79].

ونلاحظ أن أوضاع الأندلس لم يكن لها أدنى تأثير على العلاقات الودية التي كانت تربط المماليك بإسبانيا، ففي 2 يناير 1477م طلب فرناندو من البابا أن يأذن له ببيع القمح للسلطان قايتباي في مصر، وضرب بذلك عصفورين بحجر واحد؛ فقد تمكن عن طريق ثمن هذا القمح من الاستمرار في حربه ضد مسلمي الأندلس، كما اعتقد، أنه بذلك يقوي مركز المماليك ضد الأتراك العثمانيين، الذين كان ظهورهم خطرًا على دول أوروبا[80].

وسط هذه الأوضــاع راسل سلاطين المغرب السلطان قانصوة الغوري (1501 – 1516م) يلتمسون منه العون ضد الخطر الإسباني، وأن يقوم بطرد التجار الأوربيين المقيمين في بلاده، وغلق كنيسة القيامة في وجه حجاجهم، لكن المحاولة باءت بالفشل، وسرعان ما علم فرناندو بهذه الأنباء، وأرسل «ليدو مازكيردي إنجيرا» سفيرًا إلى الغوري، ونجح هذا السفير في تحسين العلاقات بين مصر المملوكية، وإسبانيا[81].

لقد اتجه الأندلسيون شرقًا إلى دولة المماليك بمصر، والتي كانت على دراية بأوضاعهم، لم يحاول أهل الأندلس الحصول على دعم عسكري، بل كان همهم الوحيد هو توسط المماليك دبلوماسيًّا لدى الإسبان، والتهديد بمعاملة المسيحيين في بيت المقدس – الخاضع لهم – بنفس المعاملة التي يعامل بها الإسبان المسلمين في الأندلس[82].

ونتيجة لزيادة الاتصالات بين الأندلسيين، وقوى إسلامية، ولتفادي حدوث أي تعاون بين الجانبين، قامت إسبانيا من جهتها بإرسال مبعوثها الخاص «بدرو مارتر» للحيلولة دون إلحاق أي أذى بالمسيحيين، وقد حاول هذا المبعوث إضفاء طابع الشرعية على الأعمال التي تقوم بها إسبانيا في حق الموريسكيين[83] بإعطاء مبررات واهية من قبيل أن للإسبان الحق في استعادة أرضهم، التي كانت ذات يوم مسيحية بيد القوط، أو القول بأن الموريسكيين اختاروا التنصير بمحض إرادتهم، فاستطاع بذلك إقناع المماليك بعدم جعل المسيحيين بالمشرق رهائن لمسلمي إسبانيا، بل تمكن من إقناع المماليك بإسقاط المغارم، والفروض عليهم، بأسلوب الترغيب تارة، وبالترهيب تارة أخرى[84].

موقف الدولة العثمانية: بعد الموقف السلبي للمماليك، عقد الموريسكيون آمالهم على العثمانيين، خاصة بعد النجاح الذي حققوه في شمال أفريقيا، وانتصاراتهم على الإسبان بقيادة خير الدين الذي لقيَ استحسانا كبيرًا من لدن مسلمي الأندلس. وهكذا، فمما جاء في رسالة بعث بها أهالي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني في سنة 948هـ/ 1514م: «وقد كان يُجَوِّز لنا الوزير المجاهد في سبيل الله خير الدين وناصر الدين، سيف الله على الكافرين علم بأحوالنا، وما نجده من عظيم أهوالنا لما كان بالجزائر، واجتمع أهل الإسلام على طاعة مولانا، ومحبته بالخواطر، والضمائر، وانتظم الشرع، والأمان في البادي، والحاضر، فاستغثنا به فأغاثنا، وكان سبب خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمردين، ونقلهم إلى أرض الإسلام، وتحت إيالة طاعة مولانا السلطان، ولعمارة مدينة برشك، وشرشال، ونواحي تلمسان...» [85].

استمرت آمال الأندلسيين متعلقة بالسلطنة العثمانية، فتواصلت المراسلات بين الطرفين، ومن الجانب الأندلسي أكثر، وتضمنت هذه الرسائل قصائد[86] تصف أوضاعهم المزرية، والاضطهاد الذي لاقوه من قبَل الإسبان، من جهتها قدمت الحكومة العثمانية بعض المساعدات للأندلس، ومن خلال دراسات بعض الأجانب، وصل إلى غِشت في عام 977هـ/ 1569م، 4000 رجل تركي، وبربري

من بين 25000 مقاتل ضمن مساعدة أخرى وصلت في يونيو تم ضبطها، وكشفها في الوقت المناسب[87].

ورغم ذلك ظلت هذه المساعدات غير كافية؛ ويرجع هذا إلى كوْن العثمانيين كانوا منشغلين بفتح قبرص، ثم بالمناوشات الواقعة بينهم، وبين روسيا المجاورة، وقد زاد الطين بلة هزيمة الأسطول العثماني في معركة ليبانتو أمام البحرية الإسبانية في عام 987هـ/ 1597م، مما جعل الدولة العثمانية تدخل في هدنة غير مُعلنة مع فيليب الثاني، وبالتالي تتخلى عن الجهة الغربية للبحر المتوسط[88] فتبخر حلم الأندلسيين.

موقف الجزائر: كانت تخوفات إسبانيا في محلها، فالجزائر كانت قد قررت مساعدة المسلمين على المستويين الشعبي، والرسمي؛ فعلى المستوى الشعبي نجد أن السكان - وبدافع الحماس الديني - هبُّوا لنجدة إخوانهم بما يملكون من الوسائل، وقد حمسهم خاصة المهاجرون الأندلسيون؛ أما على المستوى الرسمي فقد طبق بايات الجزائر الأوامر التي تلقوها من اسطانبول[89].

ومن خلال ما سبق يمكننا تسجيل الملاحظات التالية:

* أن الأحداث الدولية لمنطقة البحر الأبيض المتوسط خلال النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي، كانت تخضع لتأثير قوتين كبيرتين متصارعتين هما الدولة العثمانية، والدولة الإسبانية.

* أن حالة الضعف، والتفكك التي شهدها المغرب الإسلامي جعلته عرضة للأطماع الاستعمارية الأوروبية، وخاصة إسبانيا بدافع الحقد المسيحي، وتحقيق مشروع استعماري ضخم يهدف إلى ابتلاع المنطقة بكاملها.

* أن ظهور الإخوة بربروسا، وتأسيس ولاية الجزائر، قد جعل منها قلعة أمامية إسلامية حصينة في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وطرفًا فاعلًا في العلاقات الدولية آنذاك، هذه المكانة كان لها تأثيرات؛ منها الحملة الدولية عليها بزعامة إسبانيا في عام 948هـ/ 1541م.

المسلمين بعد سقوط غرناطة:

كان لسقوط غرناطة صدى كبير سواء في العالم المسيحي أو في العالم الإسلامي، وكان صدى مماثلاً للصدى الذي أحدثه فتح المسلمين للقسطنطينية قبلها بأربعين عامًا، كما كان لسقوط غرناطة أثر كبير على المدجنين، والمسلمين الذين أصبحوا «موريسكيين «.

وُضعت الاعتبارات السياسية في المقام الأول قبل الشئون الثقافية، والدينية في الحروب السابقة، وفي الاتفاقيات التي أُبرمت بين المسيحيين، والمسلمين منذ سنة 1484م ، وحتى سنة 1492م، وتعد بنود معاهدة سنة 1492م خير مثال على ذلك، كما اعتبر احترام الحقوق، والضمانات تقليدًا سائدًا، وذلك بموافقة بعض رجال الدين[90] إذ نهج الملوك الكاثوليك سياسة معتدلة نسبيًّا في السنوات الأولى بعد الانتهاء من حروب الاسترداد، معتمدين على دعم (جيرونيموس الأب) و(هيرناندو دي تالافيرا) رئيس أساقفة غرناطة ما بين سنة 1492و 1508م، وهو قسيس الاعتراف للملكة إيزابيلا الأولى، الذي كان هدفه عدم إرغام المسلمين الباقين في الأندلس على تغيير دينهم عن طريق الإكراه أو استخدام القوة، بل من خلال النشاط التبشيري، والإقناع غير العنيف.

ونتيجة لذلك شجع رجال الدين التابعين له على تعلم اللغة العربية، كما سعى خليفتاه المطرانين دي أبالوس(1528 – 1542م) وغيريرو (1546 – 1576م) إلى بناء شخصية رجال دين محليين في غرناطة[91].

اتخذت السلطات الإسبانية الكاثوليكية النيات الحسنة تجاه المسلمين بناء على طلب من رئيس أساقفة طليطلة، الكاردينال «فرانسيسكو خيمينيز دي ثيسنيروس»، ولكن بداية من سنة 1498م شرع في اتخاذ تدابير صارمة لتحويل المسلمين المتبقين في البلاد، والموسومين ب «المدجنين» إلى المسيحية، لقد استقر (ثيسنيروس) سنة 1499م في «غرناطة» بهدف القيام بالتنصير، وبذل جهدًا لترسيخ العادات، والتقاليد المسيحية، فألقى القبض على «محمد الزغري» الواعظ المسلم الأكثر تأثيرًا

في المدينة، وأمر بوضعه في السلاسل، وتجويعه حتى يدخل المسيحية، وقد تتابعت حوادث أخرى من النوع نفسه، من ذلك أنه أجبر (محمد الزغري) على إضرام النار الجنائزية في بعض المصاحف، وكتبًا عربية أخرى وُجِدت في غرناطة، فاعتبرت هذه التصرفات المشينة، من لدن المسلمين، إخلالًا بالعقود المبرمة بينهم، وبين المسيحيين، ما دفعهم للتمرد في سنة 1499م[92].

انطلقت شرارة التمرد من منطقة «البيازين» التي كان يقطنها موريسكيو (غرناطة)، وبذلك التصرف قبرت فترة التسامح السياسي، والديني القصيرة، ومن الجدير بالذكر أن السلطان المملوكي «قنصوة الغوري» كان قد شارك في جزء من المفاوضات التي تمت بين (المسيحيين) و(الموريسكيين) وهدد بالانتقام من المسيحيين الذين يعيشون في مملكته إذا واصل الملوك الكاثوليك نهج سياستهم مع المسلمين في إسبانيا، وأمام هذا الوضع أضحى المسلمون أمام اختيارين، ارتكز الأول منهما على المقاومة، والثاني على رفع نداء استغاثة للحصول على مساعدة من الخارج، إلا أن مسألة الحرب الدائمة بين الملوك الإسبان، والأتراك شكلت دافعًا لعدم احترام المسلمين في الأندلس، كما أنها تسببت في التباطؤ أحيانًا في حماية المجموعة المسلمة[93].

غادر جزء من المدجنين البلاد، وخضع الباقون للحكم المسيحي شريطة وقف انعقاد «محاكم التفتيش» ضدهم في غرناطة لمدة 40 سنة، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث؛ حيث ظهرت في غرناطة في 20 يونيو1501م نشرة ملكية تضمنت – بالإضافة إلى إجبار المسلمين على تغيير دينهم – حظر سفر الموريسكيين المقيمين في قشتالة إلى مملكة غرناطة، وطبقت أوامر تغيير الديانة قسريًّا على كل مناطق قشتالة، وذلك في 11 فبراير 1502م، وتلاها في فبراير من العام نفسه فرض حظر، وحصار على القشتاليين المسلمين بهدف إجبارهم على ترك قشتالة، الأمر الذي شكّل نسفًا لفرضية إمكانية وجود منفى اختياري إلى مناطق إسبانية أخرى[94].

وبعد تعميد المدجنين سنة 1502م حدث تغيير في الاصطلاح للدلالة على مسلِمي إسبانيا، ولهذا السبب انتشر مصطلح الموريسكيين، للإشارة إلى مجموعة سكانية غيّرت دينها، أي المدجنين، أو بمعنى آخر أولئك الذين كانوا في المناطق

القشتالية المسترجعة أو سكان «مملكة غرناطة»، وذلك بعد قمع انتفاضة (البيازين) مباشرة، كما أنه بعد عشر سنوات من الاستيلاء على غرناطة أصبحت «قشتالة» مسيحية بصفة كلية، إلا أن مملكة بلنسية كانت في ذلك الوقت ما تزال تحتضن كثيرًا من السكان المسلمين، الذين يتمتعون بحماية قانونية، أما (مدجنو غرناطة)؛ فكانوا على النقيض من ذلك[95].

دخلت الاتفاقية، التي تم الاستيلاء بموجبها على «بلنسية» سنة 1248م بالكاد حيز التنفيذ، ولم يتم التأكيد على مقتضياتها، إلا بعد أداء الملك (شارل الخامس) اليمين، وذلك عند اعتلائه العرش سنة 1518م، ومن المعروف أن المساجد في منطقة بلنسية كانت موجودة في كل مكان حتى سنة 1507م، وكان يُسمع صوت المؤذنون في العديد من الأماكن، ومع ذلك أضحى من الصعب على مدجني (بلنسية) و(أراغون) بعد سنة 1500م الوقوف، والصمود في وجه دعوات التنصير، وضغط الكنيسة الكاثوليكية من جهة، ومحاكم التفتيش من جهة أخرى، ومن المهم هنا ذِكر أن حقوق المسلمين كانت جزءًا من الحقوق الدستورية التقليدية المسيحية آنذاك، حيث كان سكان (أراغون) مستعدين للدفاع عنها بأي ثمن، إلا أن النية المُبيتة لبعض نبلاء (أراغون) المسيحيين كانت تهدف إلى سلب عقارات العمال، والصُناع المسلمين[96].

اتسمت سياسة الملكين الكاثوليكيين بالليونة في السنوات الأولى لسقوط غرناطة؛ فكان من نتائجها أن رغِب الناس في عدم الهجرة، فاستمروا في ممارسة أعمالهم، وحِرفهم، ووضع عنهم (فرناندو) المغارم حِيلة منه، وكيدًا، ليغريهم بذلك، ويثبطهم عن الجواز، فوقع الطمع لكثير من الناس، فاشترى كثير من المقيمين الرباع العظيمة، ممن أراد الذهاب للعدوة بأرخص الأثمان[97].

على أن هذه العهود، والمواثيق لم تكن لتقف أمام تحقيق فرناندو، وإيزابيلا لوحدة إسبانيا القومية، خاصة ما عُرف عن هذا الملك من نقض للعهود، والالتزامات، فبدأ في تغيير سياسته تجاه هؤلاء بإصدار مجموعة من المراسيم تحِد من حرياتهم، وتفرض عليهم التزامات جديدة؛ وهكذا «استطال عليهم النصارى، وفُرضت عليهم الفروضات، وثقلت عليهم المغارم»[98].

ولقد كانت أولى النتائج هجرة عدد كبير من مسلمي غرناطة إلى بلاد المغرب، مما أسهم في تقوية النظام الحضري في المجتمع المغربي، وكان في إعادة تأسيس مدينة تطوان - التي كان المسيحيون قد دمروها قبل مائة عام - شاهدًا على دور الأندلسيين المهاجرين[99].

شكل الواقع الاجتماعي الذي عاشه الموريسكيون عاملًا حاسمًا في عمليات الهجرة خارج إسبانيا، فلا المعاهدات، ولا الاتفاقيات, ولا الوعود المعقودة بين مسلمي الأندلسيين، والإسبان بعد سقوط غرناطة استطاعت أن تحفظ لهم حريتهم الدينية، وتقاليدهم الإسلامية، ولا أن يأمنوا على أرواحهم، وأموالهم؛ كانت أوضاع المسلمين قبل سقوط آخر معقل إسلامي بالأندلس - خاصة في الممالك الإسبانية - أحسن من الوضعية التي أصبحوا عليها بعد أُفول نجم غرناطة، حيث كانت سيادة المساجد، والتقاليد الإسلامية، واللغة، لكن سَرعان ما بدأت تتدخل الكنيسة في شئونهم، منذ عهد ألفونسو المحارب، فأصدرت قوانين ترفض الزواج بين المسلمين، والمسيحيين[100].

ولقد استفحلت الأوضاع بعد استسلام أبي عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر؛ ففي سنة 914هـ/ 1508م صدر أمر ملكي يمنع جميع الأندلسيين من أصل عربي، ودون استثناء، من لباسهم التقليدي، ومأكولاتهم، وترتيب أثاث منزلهم على طريقة آبائهم[101].

وقد أورد كاردياك عِدة أمثلة تدل على محاولة الإسبان استئصال جذور ما بقيَ من الحضارة الإسلامية بالجزيرة الأيبيرية، وملاحقة بقايا المسلمين هناك؛ فقد اتهم مثلًا جوان دوفلوراس Jean de Flores بطليطلة باتباعه للدين الإسلامي بسبب الإيمان الذي أظهره، وعاداته، حيث كان لا يجلس على كرسي، ولا يتناول طعامه على مائدة، وهو بهذا يحافظ على تقاليد مُحمد، ثم صدر حكم في حق المرأة أنادولينان Andelinan حرمها من حقوقها المدنية، لأنها لا تستطيع أن تحمل الذهب، ولا الجواهر، ولا الحجارة الثمينة، ولا الحرير، ولا الشملة، ولا القماش الرقيق أو أي شيء آخر[102].

هكذا كانت القوانين، وأوامر المملكة، وتعليمات دواوين التفتيش؛ التي مُنعت بموجبها الحقوق المدنية للموريسكيين، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فُرض على هؤلاء نظام الإقامة الجبرية في شبه الجزيرة الأيبيرية؛ ففي سنة 919هـ/ 1513م صدر مرسوم ملكي يمنع المسلمين من التجول في البلاد[103]، بل أكثر من ذلك فُرض عليهم الاستقرار في أحياء خاصة بهم بالمدن القديمة أو بالأرياض، مثلما كان الحال بالنسبة لليهود في العصور الوسطى، وقد عرفت هذه الأماكن المخصصة لإقامتهم باسم Las Morerias، ولقد أشار بردويل إلى وجود حيين من هذا النوع في مدريد[104].

كما وُجد بغرناطة أيضًا حيَّان مختلفان من حيث الكثافة السكانية؛ منهم حي صغير ضم حوالي 100 منزل، في حين ضم حي أكبر منه حوالي 5000 منزل، وكانت هذه الأحياء تفصلها عن أحياء النصارى أسوار كبيرة[105].

من ناحية أخرى أدى دخول عدد كبير من المسلمين غير المتشبعين بالثقافة الإسبانية (من حيث اللغة، والعادات) في المجتمع الإسباني إلى توقف عملية اندماج المدجنين، كما أدى دخول المسلمين للعالم السياسي الاجتماعي للمسيحيين إلى ردود أفعال شديدة من قِبل زعماء المسلمين، نظرًا للفروق الثقافية الهائلة بين المسلمين، والمسيحيين، وأعقب ذلك عملية دمج قاسية كانت تهدف لمحو الاختلاف، خاصة الاختلاف الديني، الذي كان مصدر عناصر الاختلاف الأخرى[106].

إن إلغاء لائحة المدجنين - التي كانت سارية في قشتالة، وأراغون، ونابارا منذ أربعة قرون - وضياع احترام الهوية الإسلامية للمسلمين في المجتمع المسيحي، كانت أبرز نتائج الاستيلاء على غرناطة، وبعد غزو غرناطة عام 1492م عين الملكان الكاثوليكيان إيرناندو دي تالابيرا أسقُفًا لها، فبدأ على الفور عملية تبشير بطيئة طابعها اللطف، وكانت هذه العملية، ووفقًا لرأي مؤرخ إسباني، تحقق بعض النجاح بالتدريج، والحقيقة أن المسلم كان من الصعب عليه أن يترك دينه سواء بلين أو قسوة، وذلك لقوة عقيدته.

وصل الكاردينال ثينسنيروس إلى غرناطة عام 1499م، ورأى أن الطريقة التي كان يتبعها سلفه لن تجدي في تحويل الغرناطيين إلى المسيحية، فانتهج سلسلة

من عمليات التنصير الإجبارية التي أدت إلى تذمر المسلمين، حيث عد ذلك انتهاكًا للمعاهدة، خاصة؛ وأن الكاردينال قام بأفعال أخرى وحشية؛ منها حرق المكتبات العربية، وكان ذلك سببًا في قيام ثورة البيازين، وهي الثورة، التي سرت روحها إلى أماكن عدة في غرناطة، ولم يتم التمكن من إخمادها إلا بعد عامين، حيث شهد عام 1501م نهاية الثورة، وفي نفس العام قرر الملكان تنصير مملكة غرناطة، وهذا يؤكد الرأي بأنهم لم يكونوا على اقتناع بالمعاهدة، وليس لهم نية تطبيقها، والحفاظ عليها، ولقد أسهَم كل ذلك في كراهية المسلمين لدين الغزاة، ولقد كتب بيرموديث دي بيدراثا: «إن جشع القضاة، ووقاحة رجال المَلك قد أديا إلى سخط الموريسكيين، كان القضاة، ورجال الملك يرتكبون كثيرًا من الظلم بحجة تنفيذ الأوامر، ولم يكن رجال الكنيسة أفضل حالًا؛ وهكذا فقَد الموريسكيون حبهم لديننا، وفقدوا صبرهم على معالجة ذلك»، وهكذا، فإن بيرموديث اعتبر أن التنصير كان محض خيال من هؤلاء[107].

كان الملكان – بصفتهما مسيحيين كاثوليكيين – يسعيان للحصول على منافع روحية لرعاياهما أكثر من حرصهما على مصلحتهما الشخصية الزائلة، كانا يودان لو أن الموريسكيين تمسكوا بالدين المسيحي؛ وكما يُقال أنهما أوْصيَا رجال القضاة بهم خيرًا، لكن كل ذلك كان زرعًا في الرمال، بل في الصخور، لقد اعترف بأن هذه الأعمال كانت عديمة الفائدة، فقد كان الموريسكيون (الأندلسيون المنَصرون) مسيحيون في الظاهر، ومسلمين في الحقيقة، وهو أمر يتفق، ومبدأ التقية في الشريعة الإسلامية[108]، ووفقاً لمؤرخ إسباني، كان الموريسكيون «يهتمون بممارسة شعائر، وأعياد طائفتهم أكثر من اهتمامهم بدين السيد المسيح ربنا، رغم أنهم كانوا يلقون من الملكين معاملة أفضل من تلك التي كانوا يلقونها من ملوكهم»[109].

ومع ذلك فإن الباحث يشكك في هذا القول، بدليل إقامة محاكم التفتيش، ومعاملة الراهب ثنسنيروس لهم وحرق الكتب، وغيرها من الأعمال المرتبطة بنقض للمعاهدة؛ وهكذا يمكن القول بأن المؤرخ الإسباني انحاز للملكين، رغم أن الواقع كان على غير ما يقول، ويتضح مُغالاة المؤرخ الإسباني عندما يشير إلى أن مسلمي

الأندلس تخففوا من الأعباء، والضرائب، وأساءوا فهم مغزى المعاملة الحسنة، فاشتاقوا إلى سابق عهدهم، وعندنا أن هذا لم يحدث إلا لفترة قصيرة بعد سقوط غرناطة، وبعد ذلك تغيرت المعاملة من سيء إلى أسوأ على هؤلاء من خلال محاكم التفتيش، وولاة الملك، إلى أغنامهم، وإلى صلاتهم، ورقصهم.

ونرى من وجهة النظر المسيحية أيضًا، فإن هؤلاء لم يكونوا مسلمين علانية، بل كانوا ملحدين مستترين، على أنه من وجهة نظر الإسلام أن الواحد من هؤلاء كان مسلمًا قويًا متمسكًا بعقيدته رغم ما تعرض له من أذي في كل ما يملك.

وأضافت وجهة النظر المسيحية القول بأن هؤلاء كان ينقصهم الإيمان رغم تعميدهم المتكرر، وكانوا يقومون ببعض الأعمال الحميدة من الناحية الأخلاقية، كانوا صادقين في التجارة، والتعاقدات، وكانوا يعطفون على الفقراء، ولا يحبون الدعة، بل كانوا يعملون جميعًا، لكنهم كانوا لا يواظبون على صلوات أيام الأحد، ولا يوقرون أعياد الكنيسة، وكانوا يحضرون الصلاة خوفًا من العقوبة، وكانوا يعملون في أيام الأعياد، وأبوابهم مغلقة، كانوا يعملون برضا يفوق رضاهم في الأيام العادية، وكانوا يوقّرون يوم الجمعة أكثر مما يوقرون يوم الأحد، وكانوا يغتسلون حتى لو في شهر ديسمبر، ويؤدون صلاتهم.

ونعتقد أن في ذلك دليلًا على تمسك الأندلسيين بإسلامهم رغم تعرضهم للأذى في أنفسهم، وأموهلم، لقد كانوا يعمدون أبناءهم تنفيذًا للقانون، وعندما كانوا يعودون إلى منازلهم كانوا يزيلون كل العلامات المقدسة بالماء الساخن، وكانوا يقيمون شعائرهم الإسلامية، وكانوا يطلقون على أبنائهم أسماء إسلامية، وكانت عرائسهم يذهبن إلى الكنيسة لكي يباركن، وهُن يرتدين أزياء مسيحية مستعارة، وعندما يعدن إلى منازلهم كُن يخلعنها، ويرتدين ملابس إسلامية، ويحتفلن بالزفاف بآلات موسيقية، وأغنيات موريسكية، وكُن يتعلمن الصلوات المسيحية الخاصة بالزواج، لأن القساوسة كانوا يمتحنوهن، وبعد الزواج كُن ينسينها.

وكانوا يعترفون بخطاياهم لكن اعترافاتهم كانت مقتضبة؛ أي كانوا يعترفون اليوم بما اعترفوا به بالأمس، كان أحد الموريسكيين على فراش الموت، فذهب إليه

القسيس، وأخذ منه القربان، ولما رأى القسيس أن الموريسكي حزين لكل ذلك قال له: «إذن هي ثلاثة أنواع من التعذيب في يوم واحد: الاعتراف، والقربان، والزيت المقدس»، وفي قرى البشرات، والساحل كانوا يلقون القبض على الأتراك، ومسلمي البربر الذين كانوا يسرقون الأطفال ليلًا، وكان الموريسكيون - كلصوص منازل - يقومون بهذه السرقات بشكل أفضل، وبعد ذلك كانوا يرحلون إلى بلاد البربر ليلًا، ومعهم الأطفال الميسحيين، وهنا نرى تناقضاً، حيث مدح الكاتب في عبارات سابقة الموريسكيين، وعطفهم على الفقراء وحبهم لعملهم، وأنهم جميعًا يسرقون، فكيف وهُم لا يحتاجون، ومطاردون، ومراقبون من قبل محاكم التفيش.. كيف يجرؤون أن يسرقوا أطفال مسيحيين رغم ما فيها من مخاطر عليهم، خصوصًا، وأنهم يعيشون في ظل دولة مسيحية متشددة، وتقيم لهم محاكم التفتيش، وتراقبهم، وترصد تحركاتهم، ونعتقد أن تلك الاتهامات كانت لشحن المسيحيين ضد الموريسكيين، وأخذها حجة لزيادة تعذيبهم، وترصدهم من قبَل الكنيسة، ومحاكم التفتيش [110].

هكذا كانت أحوال الموريسكيين (الأندلسيين المنصرين) بعد سقوط غرناطة؛ فنرى تنصيرًا، وحرقًا للتراث، وللكتب العربية، وهو ما يناقض نصوص معاهدة التسليم، لقد بدأت مرحلة جديدة، ومختلفة على هؤلاء، وهو ما سنتابعه لاحقًا.

وبعد سقوط غرناطة تحول نظام التعايش في الأحياء المنفصلة عن مدينة غرناطة بين المسلمين، والمستوطنين المسيحيين حسب نظام المدجنين القديم، لقد انتهى بوفاة كبار السن، حسب قول دييغو أورتادو دي ميندوثا، وهو يشير بذلك إلى كل من الراهب ايرناندو دي تالابيرا، وكونت تنديا الذي، كان أول قائد لغرناطة، ولقد جاء التغير من قِبل المسلمين؛ بسبب حملات التعميد التي قام بها الراهب فرانثيسكو خيمنيث دي ثيسنيروس اعتبارًا من عام 1499م، فغيرت وضع المسلمين بشكل جذري؛ حيث بدأت حملات التعميد الإجباري في عاصمة غرناطة، ثم انتقلت إلى مدن، وقرى غرناطة.

ومنذ عام 1500م ، وحتى عام 1502م تعين على كل مسلمي مملكة قشتالة أن يتقبلوا التعميد، وكان خيار النفي لا يكاد يوجد في تلك القرارات، لكن مسلمين

كثيرين اضطروا إلى الهروب من مجتمع لا يتسامح مع عقيدتهم[111].

لم يكن التعميد مجرد شعيرة دينية مسيحية، بل كان يعني بداية وضع اجتماعي، كان الشخص يتحول رسميًّا إلى مسيحي بعد التعميد؛ وعليه فإن أولئك «المسيحيون الجدد» كانوا يخضعون لسلطة محكمة التفتيش التي كانت تراقب تصرفاتهم، وتعاقبهم إذا رأت أنهم بعيدون عن العقيدة، والشعائر المسيحية[112].

ورغم أن التعميد، والتنصير كانا إجباريًّا، وبالتالي غير صالحيْن حسبما تنص العقيدة المسيحية، حيث الأصل الاختيار، وترى أن ممارسة الضغوط الاجتماعية لا تنفى حرية الاختيار، ولكن اجتمعت لجنة من أعضاء محكمة التفتيش في مدريد عام 1524م وقالت «إن المسلمين حين تلقوا ماء التعميد كانوا في كامل قواهم العقلية، ولم يكونوا مجانين، ولا سكارى «وأنهم» تلقوا التعميد بمحض إرادتهم»[113]، وهم بذلك لا يفهمون أن الشريعة الإسلامية تتضمن التقية التي تجيز للمسلم إخفاء عقيدته إذا كان إظهارها يعرضه للخطر، كما لا يسمح الإسلام بالمقاومة حتى الموت إلا في حالة الحرب الدينية في سبيل الله في دفاع شرعي عن المجتمع الإسلامي[114].

إن عملية التنصير، ونتائجها – التي بدأت في أوائل القرن السادس عشر في مملكة قشتالة – تكررت في مملكة أراغون بعد ذلك بسنوات عقب ثورات شعبية قام بها أهل فالنسيا للمطالبة بحقوق عُمالية في مواجهة الإقطاعين على مدى عامي 1521 – 1522م، وقد عرفت تلك الثورات ب «حروب الجماعات» Gernanias[115]، وخلالها قامت الطبقة المسيحية السفلى، والطبقات المتوسطة بالاحتجاج ضد سلطة الملك، وطبقة النبلاء[116]، وتوالت الأحداث، وعمليات التنصير، وعمليات القمع ضد هؤلاء العزل.

دعم (المدجنون) النبلاء المسيحيين، ومع ذلك تم خلال الثورة التعميد القسْري لنحو 70000 من المسلمين المحليين، وبسبب ذلك فقَدَ الإسلام مكانته الآمنة في مملكة بلنسية، فطلب (شارل الخامس) من البابا (كليمنت السابع) تحريره من اليمين الذي أداه سنة 1518م، ثم رفض طلبه، وبدلًا من ذلك تكونت لجنة خاصة للنظر في التعميد القسري برئاسة الرئيس السابق لمحاكم التفتيش (ألفونسو مانريكي)،

وقد قامت هذه اللجنة بإعادة النظر في شرعيته، وقانونيته إلا أنها أكدت في نهاية المطاف شرعيته[117].

وفي 20 أكتوبر 1525م أمر (شارل الخامس) كل المدجنين في مملكة (بلنسية) بين تغيير دينهم أو مغادرة الأراضي الإسبانية في تاريخ أقصاه 8 نوفمبر من العام نفسه، بعد ذلك نشر مرسومًا إمبراطوريًّا في هذا السياق، حثّ فيه على أنه يجب على جميع موريسكيي بلنسية، كباقي الطوائف الأخرى، الحضور للخُطب المسيحية، وارتداء أهلة (جمع هلال) من القماش الأزرق مرئية على قبعاتهم، كما أُبلغوا أنه لا يجوز لهم امتلاك أسلحة هجومية أو دفاعية، وترك العمل في الأعياد المسيحية، وكذلك عدم الاحتفال بالأعياد الإسلامية.

وفي العام التالي، تم تطبيق هذه اللائحة من الشروط على موريسكيي أراغون أيضًا، وعلى الرغم من كل هذه القيود، كانت السياسة المسيحية في النصف الأول من القرن السادس عشر تهدف إلى محاولة الإدماج الكامل للموريسكيين داخل المجتمع الكاثوليكي بدلًا من ترحيلها أو إبعادها عن شبه الجزيرة الأيبيرية، ذلك أن المراسيم كانت في كثير من الحالات تُطبق في النوازل بشكل معتدل[118].

وعلى مدى القرن السادس عشر، وحتى عملية الطرد النهائي بين عامي 1609 – 1614م كانت رغبة السلطات، والمؤسسات المسيحية من مراقبة تصرفات الموريسكيين الدينية تزداد، وكانت المراقبة أكثر إحكامًا، وتشمل أي اختلاف يمكن تفسيره على أنه دليل على الإسلام؛ من المأكولات، والمشروبات إلى طريقة الاحتفال بالأعياد[119].

ونرى أن كل تلك المواجهات كان مصدرها الخلط بين التنصير الإجباري، والتعميد غير الشرعي الذي قبله المسلمون لإنقاذ ما يمكن إنقاذه في مجتمع إسباني يسيطر عليه المسيحيون، ولايقبل بوجود اختلافات دينية، ونعتقد أن الخلط في المسائل الدينية هو أساس المشكلة الدينية للموريسكيين في المجتمع الإسباني، كان المسيحيون يعتبرونهم «مسيحيين غير متدينين» بينما كانوا هم يعتبرون أنفسهم مسلمين بقلوبهم، ولا يربطهم بالعقيدة المسيحية إلا الشكل الخارجي، وأنهم يفعلون

ذلك لكي يستطيعوا الحياة في ذلك المجتمع، الذي يضطهد المسيحيين غير المتدينين، ولا يَسمح بوجود غير مسيحيين، إن غموض الوضع يفسر اللائحة الدينية، والاجتماعية للموريسكيين أو المسلمين الإسبان طوال القرن السادس عشر، وأوائل القرن السابع عشر.

ولقد تمادت العجرفة الإسبانية في ملاحقة بقية المسلمين؛ حيث أصدر فيليب الثاني في حق حوالي 400 ألف موريسكي، أي ما يناهز 5٪ من نسبة سكان، مجموعة من الشروط مقابل السماح لهم بالاستقرار، أوردها Viardot[120] على الشكل التالي:

– عليهم تعلُم اللغة القشتالية في ظرف لا يتعدى ثلاث سنوات، ومن فاته الموعد، ولم يتعلم اللغة القشتالية، فلن يقبل منه الكتابة، ولا الكلام بالعربية.

– عليهم تغيير ملابسهم بالتخلي عن الملابس الإسلامية، على أن يكون لباسهم كلباس القشتاليين.

– احتفالات الزواج، والعرس، يجب أن تتم على الطريقة القشتالية، كما يجب عليهم ترك أبواب بيوتهم مفتوحة أيام الجُمع، والأعياد الإسلامية.

– التخلي عن أسمائهم الإسلامية، واتخاذ أسماء مسيحية.

– منع الاستحمام، وهدم الحمامات، حتى التي توجد في البيوت.

لكن السؤال يبقى مطروحًا: هل استطاعت الحكومة الإسبانية أن تجبر الموريسكيين على تطبيق هذه الشروط؟ وإلى أي حد نجحت في سياستها هذه؟ لقد تمكنت إسبانيا من تحقيق بعض هذه الشروط؛ فمثلًا فيما يخص اللباس أصبح بعض الموريسكيين يتزيون بالزي النصراني، كما هو الشأن في قشتالة[121].

وبالنسبة للأسماء فمن خلال الدراسة التي قام بها بنصار Bennassar لاحظ أن الأسماء لحقها في البداية تحريف؛ فمثلا حرف اسم يوسف إلى خوسي (Juce)، وأحمد إلى أميت (Amet أو Axarnet)، وعبد الله إلى أودالا (Audallas)، لكن في حي البيازين فُرضت الأسماء المسيحية بالقوة؛ فتم إحصاء 70٪ من حوالي 439 رجل يحملون أسماء نصرانية مثل خوان، فرانسيسكو، وألونسو، وهرناندو، في حين

تم إحصاء ٪87 من النساء تحملن هن الأخريات أسماء نصرانية من قبيل ماريا، وإسابيل، وكاطلينة [122].

وجدت هذه السياسة معارضة شديدة حتى من قِبل بعض النبلاء الإسبان الذين تولوا الدفاع عن الموريسكيين؛ فقد دافع فرانسيسكو مولي، وهو من إحدى الأسر النبيلة، عن الخصائص الثقافية للمجتمع الغرناطي التي صدرت ضدها التشريعات؛ فبالنسبة للغة قال: أليس من بين من يتحدث العربية مسيحيون طيبون في الشرق الأوسط ومالطا؟

وبخصوص الملابس أشار مولي إلى أن إسبانيا لها شأن عظيم بين الدول الأخرى، حيث يمكنها الافتخار بوجود أنواع كثيرة من الأزياء الإقليمية، أما عن التشريع الذي يمنع الحمامات العامة؛ فقال إن الحمامات موجودة دائماً في جميع الأقاليم، فإذا منع الناس من الذهاب إلى الحمامات للاغتسال، أو من الاغتسال في بيوتهم، فإلى أين يذهبون؟ لكن مذكرته هذه أخفقت في إقناع السلطات بالعدول عن رأيها، مما دفع بالموريسكيين إلى الاستمرار في تطبيق تقاليدهم، وذلك بطرق سرية، كطريقة الاحتفال بالزواج؛ حيث كان يتم الاحتفال به على الطريقة الأندلسية[123].

وبالإضافة إلى هذا عانى مسلمو الأندلس من أنواع الشتم، والسب، فقد كان الإسبان دائماً ينعتونهم بالبهائم لتحقيرهم.

وبينما كان الإسباني يعطي لنفسه صفة الأسد أو النسر؛ لعلاقة هذه الحيوانات أو رموزها بالنبلاء، كان يضفي على الموريسكي صفة الحيوان المتوحش أو يشبهه بالنمل أو الأرانب أو الفئران لكثرة ولادتهم أو باللصوص كالغربان[124].

وهكذا أخفقت إسبانيا، رغم الإجراءات التي اتخذتها في إدماج الشعب الموريسكي مع الشعب النصراني الإسباني في تحقيق وحدة إسبانيا القومية.

وفي نهاية هذا الفصل يمكن الخروج بعدة نتائج؛ لقد واجهت غرناطة العديد من المشكلات التي عجلت في سقوطها، كانت الأسباب الاقتصادية أهم تلك المشكلات التي أدت لانهيار أركان آخر معاقل المسلمين في الأندلس، ومنها مشكلة

التصدير؛ حيث وجود غرناطة على الحدود مع العدو المسيحي، مما أدى لتحكمه في عبور التجارة، والتجار الغرناطيين من أراضيهم، حتى أنهم حاولوا التغلب على ذلك بحمل هدايا من الإبل، والنعام للملوك المسيحيين، أما التنافس بين ملوك غرناطة على النساء، فكان من تلك الأسباب، حتى وقعت الحرب بين الملك أبو الحسن، وابن أخيه أبي عبد الله الصغير، وهو ما استفاد منه فيرناندو، كما أنهكت غرناطة من الصراعات الداخلية، والفقر، وزيادة السكان؛ بسبب لجوء المسلمين إليها، حتى استسلمت في 28 نوفمبر 1491م، ومن تلك الأسباب ضعف دولة بني مرين، حليف غرناطة في المغرب، ثم وجود حليف ضعيف آخر، وهم بنو وطاس؛ الذين لم يكونوا بالقوة التي تمكنهم من مد يد العون لغرناطة، وكذلك تخاذل المماليك، والعثمانيين، والعالم تجاه غرناطة، وأهلها.

أما الأسباب التي أدت إلى سقوط الأندلس، فكانت تتمثل في تفتت كيان الشمال الإفريقي بعد سقوط دولة الموحدين؛ حيث تحملت دولة بني مرين حمل الجهاد، وحدها في الأندلس، إلا أنها ضعفت، وعجزت عن أداء رسالتها الجهادية في الدفاع عما تبقى للإسلام في الأندلس، ومن ذلك سعي ممالك إسبانيا نحو الاتحاد، وهو ما تُوج بالزواج السياسي بين فريناند، الذي أصبح ملكًا لأراجوان، وإيزابيلا التي تبوأت عرش قشتالة.

وهناك الانغماس في الشهوات، والركون إلى الدعة، والترف، وعدم إعداد الأمة للجهاد، بالإضافة إلى الاختلاف، والتفرق بين المسلمين، وموالاة النصارى، والثقة، والتحالف معهم، والتخاذل عن نصرة من يحتاج إلى النصرة من ممالك الإسلام، وغدر النصارى، ونقضهم للعهود، وإلغاء الخلافة الأموية، وبداية عهد الطوائف، وعدم سماح ملوك الطوائف لنصح العلماء بالدفاع عن الإسلام، والاتحاد في وجها لمالك المسيحية القائمة، والرضا بالخضوع، والذل تحت حكم النصارى، والطاعة لهم، وسوء سياسة الولاء، وإرهاق الأمة بالجبايات؛ مما أدى إلى الثورات الداخلية في الأندلس، وبهذه الأسباب انتهى حكم المسلمين في الأندلس.

الفصل الثاني
المسلمون بين التنصير، والثورة
(1500 - 1609م)

تمهيد

فُقدت غرناطة آخر معاقل الإسلام في إسبانيا، ولم يعد للمسلمين مملكة خاصة بهم، وبنُظم حياتهم، ولم تعد لهم حكومة ترفع راية الإسلام، وتحافظ على شريعتهم، وممتلكاتهم، وتحاكمهم أمام قضاء، وفقهاء من أصحاب شريعتهم الإسلامية بفقهها، وبشرعها، فتغير الحال بعد السقوط، وذلك بعد عام 1492م، وهو تاريخ سقوط مملكة غرناطة في يد الإسبان، وبدأت مرحلة جديدة في حياة هؤلاء، وتغيرت ملامح الحياة، وبدأت مراحل جديدة من التضييق عليهم.

وعلى الرغم من وجود معاهدات، واتفاقيات تصون لهم حقوقهم، فإنها كانت حبرًا على ورق، طالما فقدت القوة، والكيان السياسي، ومع الوقت أصبح مسلمو الأندلس أقلية بعد أن كانوا الأغلبية، ولهم السيطرة، والحكم، والزعامة، وأصبحوا غرباء بعد أن كانوا أصحاب أرض، ووطن، وأصبحوا مضطهدين بصورة علنية رغم أنهم لم يفعلوا ذلك عندما كانوا يملكون كل شيء، لقد تمت محاربتهم في حقوق أصيلة لهم؛ مثل حق ممارسة شعائر دينهم الإسلامي، وذلك وفقًا لشروط المعاهدة بين أبي عبد الله الصغير آخر حكام غرناطة، والملكين الإسبانيين فرناندو، وإيزابيلا.

أما الأصعب فكان يتمثل في إجبار هؤلاء على التخلي عن دينهم، وإجبارهم على التنصير، مِن هنا أُقيمت محاكم التفتيش، واستعملت كل أدوات العنف، والتعذيب لإجبار هؤلاء على التنصير، فإن رفضوا عُذبوا، وشنقوا، وإذا كانوا رحماء معهم أجبروهم على التخلي عن ممتلكاتهم، وطردهم من إسبانيا، وعندما فشلت محاولات التنصير، كانت الفاجعة الكبرى المتمثلة، في طرد المسلمين جميعًا من أراضي إسبانيا، وممالكها، وذلك خلال الفترة (1609 - 1614م) في زمن فيليب الثالث، فشُرد هؤلاء، وتركوا أوطانهم.

أولًا: محاكم التفتيش، والإجبار على التنصير:

كان المسلم، والنصراني يتعايشان منذ زمن طويل في إسبانيا، وكان كل واحد منهما سيدًا في أرضه، ويتعامل مع الآخر معاملة المثل بالمثل، ولكن منذ دخول المَلكين الكاثوليكيين غرناطة أصبح المسلم في أي مكان من إسبانيا مهزومًا، وإذا كان الظاهر من الناحية القانونية أنه كان ما زال يتمتع بنفس حقوق المواطنة في إطار نوع من التعايش، فإن الواقع كان يؤكد أن ضغط المنتصر، وقهره كان يزداد يومًا بعد يوم، حتى وصل إلى التفكير بإنهاء وجوده.

إن اعتناق إسبانيا للمذهب الكاثوليكي على حساب المذهب الأريوسي، ثم النزعة الصليبية للكنيسة، ولرجال الدين، ورغبتهما في نشر المسيحية... كل ذلك شكّل سببًا في اضطهاد المسلمين، ومحاولة تنصيرهم قسرًا، ظهرت هذه النزعة منذ وقت مبكر في الأندلس، فقد أعفت الكنيسة الإسبان من المشاركة في الحملات الصليبية في المشرق، واعتبر البابا أن حروب ملوك إسبانيا مع مسلمي الأندلس هي حروب صليبية[125].

ولقد أوْرد ديفورك أن ألفونسو المحارب، أجبر المدجنين من قِبل رجال الدين على الاستماع للمبشرين في المساجد، اشتد الصراع في السنوات التي أعقبت سقوط غرناطة، علمًا بأن فرناندو كان يخشى في البداية عواقب الشروع في تنفيذ هذه السياسة لعدم توطد الأمن في المناطق المفتوحة، ولأن المسلمين لم يُنزع منهم السلاح تمامًا، وكان الضغط سيؤدي إلى الثورة، فتعود الحرب كما كانت، وأمام هذا التخوف استمرت ضغوط الكنيسة، ورجال الدين، وبدأت العملية بإرغام المسلمين، وإجبارهم على التنصر، والتخلي عن معتقداتهم الإسلامية[126].

يقول المقري: «وتعرفنا عن غير طريق، وعلى لسانٍ غير فريق، أن قطر الأندلس طرق أهله خطب لم يجد في سالف الدهر؛ وذلك أنهم أُكرهوا بالقتل إن لم يقع منهم النطق بما يقضي في الظاهر الكفر، ولم يُقبل منهم الأسر، وكان الابتداء في ذلك من أهل غرناطة، وخصوصًا أهل واسطتها؛ لقلة الناس، وكونهم من الرعية الذهناء، مع

عدم العصبية بسبب اختلاف الأجناس، وعلم النصارى بأن من بقيَ من المسلمين إنما هم أسارى في أيديهم، وعيال عليهم، بعد أن انتزعوا منهم الأسلحة والمعاقل»، وأضاف: «إن طاغية قشتالة، وأرغوان صدم غرناطة صدمة، وأُكره على الكفر من بقي بها من الأمة، بعد أن هِيض جناحهم، وركدت ريحهم، وجعل بعض جنده الخاص على جميع جهات الأندلس... والطاغية يزدهي في الكفر، ويختال، ودين الإسلام تُنثر بالأندلس نجومه، وتُطمس معالمه، ورسومه»[127].

وهكذا اعتنق عدد من المسلمين النصرانية، وخاصة مجموعة من الوزراء، والأمراء في مقدمتهم الأميران سعد، ونصر ولدا السلطان أبي الحسن من زوجته النصرانية دي سولس المعروفة بثريا، حيث تنصروا، ومُنحوا ضياعًا، وسُمي أحدهما باسم الدوق فرناندو دي جراندا، والثاني باسم دون أخوان دي جراندا، ثم الوزير بن كماشة الذي انتظم في سلك الرهبان[128].

اعتمدت إسبانيا في تحقيق هذه الأهداف على سياسة الإغراءات التي تمثلت في الهبات، والمنح، وكانت هذه المنح تشمل جماعة معينة أو منطقة بأسرها كما هو الحال بالنسبة لأهل وادي الكرين، والبشرات، فقد أصدر الملكان مرسومين في عام 906هـ/ 30 يونيو 1500م يُبرئ سائر أهالي هذه النواحي، الذين تنصروا من جميع الحقوق، والتعهدات المفروضة عليهم لصالح العرش، ورفعها عن منازلهم، وأراضيهم، وسائر أملاكهم المنقولة، والثابتة، وإلغاء ضريبة الرأس لمدة ست سنوات، وإقالتهم من الغرامة التي فُرضت عليهم من جراء ثوراتهم[129].

ورغم كل هذا وجدت الحكومة الإسبانية صعوبة في إدماج كل المسلمين، وتنصيرهم، فامتنع الكثير منهم؛ يقول المقري: «وبالجملة فإنهم (أهل غرناطة) تنصروا عن آخرهم بادية، وحاضرة، وامتنع قوم عن التنصر، واعتزلوا النصارى، فلم ينفعهم ذلك، وامتنعت قرى، وأماكن منها بلفيق، وأندرش، وغيرهما»[130].

وأمام فشل فاعلية القرارات، والمراسيم التي أصدرها الملكان، تم تفويض مهمة تنصير المسلمين، واجتثاث عقيدتهم إلى محاكم التفتيش، ودفعهم إلى الاندماج، وهنا يتوجب العرض لمحاكم التفتيش، وكيفية، وأسباب إنشائها، واختصاصاتها، وماذا

جنى المسلمون منها، وكيف يمثل لهم هذا المسمى ذكريات لا تُنسى، وحكايات مؤلمة بالنسبة لدينهم، وحياتهم، وأجسادهم.

محاكم التفتيش:

تختلف محاكم التفتيش عن المحاكم العادية من عدة أوجه، فهي تختص بنوع محدد من الجرائم، والتي تراها المحكمة نوعًا من الإلحاد، ثم إن المحكمة كانت تتولى النظر في الجرائم التي يرتكبها أصحاب ديانة معينة مختلفة عن المسيحية، حتى لو كانوا مسيحيون جدد أُجبروا على اعتناق المسيحية، ويمكن إدراك المسمى من الاسم (محاكم التفتيش) حيث تعني البحث، والتفتيش عن الملحدين، أي إنها لا تنتظر حتى يتقدم إليها أحد بشكوى، بل تتحرك من تلقاء نفسها بحثًا عن قضايا، كانت تلك المحاكم متنوعة، ومنتشرة، أما أشهر هذه المحاكم، فكانت محاكم التفتيش البابوية، ومحاكم التفتيش الإسبانية بداية من عام 1478م[131].

أ - محاكم التفتيش البابوية:

في عام 1095م أعلن البابا أوربان ضرورة «استرداد» بيت المقدس من أيدي المسلمين، ولكي يحشد متطوعين لذلك، أعلن أن الاشتراك في الحروب الصليبية يعدل التوبة عن أي ذنب، ويستحق صاحبه الغفران كذلك، ثم أصبحت صكوك الغفران تُباع للمساهمين في نفقات تشييد كاتدرائية القديس بطرس، وبعد ذلك أصبحت تلك الصكوك تُباع بأثمان زهيدة، ولأي سبب، والغريب أن الحملات الصليبية أتت بنتائج غير التي كانت تتمناها الكنيسة الكاثوليكية، فقد عاد المتطوعون إلى أوروبا، وهم يحملون مبادئ تخالف مبادئ الكنيسة[132].

ولما خشيت الكنيسة الكاثوليكية من حدوث انشقاقات عليها؛ أرسل البابا إينوثينثيو الثالث حملات تفتيشية حققت بعض النتائج المرجوة منها، إلا أن المخالفات استمرت، وأخيرًا دعا البابا للقيام ب «حملات صليبية داخلية» في جنوب فرنسا عام 1208م، وكان المشاركون في تلك الحملات يحصلون على الغفران، وعلى

الأراضي المصادرة من «الملحدين»، مما جعل عدد المشاركين يصل إلى 500 ألف متطوع، وقد استولى المتطوعون على مدينة بيزيرس Beziers، وذبحوا ستين ألفًا من سكانها من بينهم نساء، وأطفال، وكان الجنود يسألون القساوسة: كيف نفرق بين المسيحي المخلص، والملحد؟ فكانوا يجيبونهم: اقتلوا الجميع، وسيتولى الرب التمييز بين الفريقين[133].

ورغم كل ذلك استمر «الإلحاد» في تولوز، مما أدى إلى استمرار الصراع حتى عام 1253م، وكان البابا قد أصدر أمرًا بإنشاء محكمة التفتيش البابوية عام 1215، إزاء المجازر التي ارتُكبت ضد أبرياء في جنوب فرنسا، وتصاعدت صيحات الاحتجاج في أنحاء عديدة من العالم المسيحي، مما ترتب عليه عقد اتفاقية تولوز عام 1229م التي أقرت إنشاء محكمة التفتيش[134].

وهكذا تأسست محاكم التفتيش لأول مرة في إيطاليا سنة 629هـ/ 1231م بأمر من البابا هونوريوس الثالث، ثم في فرنسا سنة 631هـ/ 1233م، ثم في إسبانيا عام 633هـ/ 1235م بأمر من البابا غريغوريوس، وبدأت في قشتالة، ثم امتدت إلى الجنوب في عهد فرناندو، وإيزابيلا، وكانت الغاية من تأسيسها في أوروبا عامة، وفي إسبانيا خاصة محاربة الهرطقة، وتأمين وحدة الدين المسيحي عند الجميع، بالإضافة إلى مصادرة الأملاك، وأخذ الأموال[135].

بالإضافة إلى ما تقدم كان الباباوات يحثون ملوك أوروبا على إصدار قوانين تعاقب على جريمة «الإلحاد» بالإعدام، وقد استجاب الإمبراطور فريدريك الثاني لنداء البابا إينوثينثيو الثالث، وأصدر قانونًا يعاقب «الملحد» بالإعدام حرقًا.

وبمرور الوقت كان الباباوات يدعون الملوك إلى سن قوانين مشابهة، وكانت الأحكام التي تصدرها المحكمة قابلة للاستئناف أمام البابا، الذي كان يلغي الأحكام عادة نظير مبلغ يدفعه المتهم، أو نظير خدمة تراها الكنيسة ضرورية، وكانت محكمة التفتيش البابوية أحيانًا تصدر «عقوبات دينية» ضد من يخالف المنهج الذي تسير عليه الكنيسة، منها حضور جلسات وعظ، وأداء صلوات، وصيام، وغير ذلك[136].

ب - محاكم التفتيش الإسبانية:

نشأت محاكم التفتيش الإسبانية عام 1478م بقرار من الملكين الكاثوليكيين فيرنادوا، وإيزابيلا؛ ربما كان السبب الأول في إنشائها هو تحول الكثير من اليهود إلى المسيحية عام 1391م، وذلك بعد تعرضهم لضغوط شديدة؛ مما جعل ذلك التحول ينقصه الصدق، وجُعل محل ريبة، وشك من المسيحيين القدامى، والكنيسة، رغم أن اليهود أصبحوا مسيحيين، ولكن أطلق عليهم لفظ مسيحيين جدد، فأنابت محاكم التفتيش لمراقبتهم، والتفتيش عليهم[137].

وبعد وفاة أنريكي الرابع ملك قشتالة آل عرشه لأخته إيزابيلا عام 1465، وقد تزوجت الملكة الجديدة من فيرناندو، الذي تولى عرش أراغون بعد وفاة خايمي الثاني، كان القسيس التي تعترف أمامه الملكة إيزابيلا، وتحترمه هو «توماس دي توركيمارا» الذي كان له نفوذ واسع داخل القصر الملكي. ط

استمع توركيمارا لشكاوى المسيحيين القدامى من المسيحيين الجدد، فبدأ يتحدث عن أهمية إنشاء محكمة تفتيش في قشتالة في عام 1478م؛ وذلك بعدما اكتشف مجموعة من الأشخاص في أشبيلية تمارس طقوسًا غير معهودة في الديانة المسيحية، وهذا ما أقنع به الملكة، وجعلها تطلب من سفرائها في روما إذناً من البابا لإنشاء محكمة تفتيش في قشتالة، وأراغونه؛ من هنا أصدر البابا سيكستو الرابع مرسومًا في نوفمبر 1478م، يأذن فيه لملكيّ إسبانيا بتعيين أعضاء محكمة التفتيش، وقد وصل أعضاء محكمة التفتيش بالفعل إلى أشبيلية في ديسمبر 1480م، ومن هنا بدأت محاكم التفتيش الإسبانية عملها؛ حيث كان أول أعمالها محاكمة مجموعة من اليهود المَنصرين، وأصدروا حكماً بإعدام بعضهم حرقًا في فبراير 1481م[138].

كان ضحايا تلك المحاكم دائماً من العرب المسلمين، ومن اليهود، فبالنسبة لليهود يرى دسكولا أن المَلكين الكاثوليكيين لم ينسيَا الدور، الذي أسداه اليهود للمسلمين لتسهيل عمليات الفتوحات الإسلامية في الأندلس[139]، زِدْ على ذلك تشبثهم بعقيدتهم، أما بالنسبة للمسلمين، فقد تمكنت هذه المحاكم من التدخل في

الحياة اليومية لهم واستطاعت أن تسهل كثيرًا لكل مسيحي أن يقوم بإدانة الهرطقة متى كانت لديه معلومات أو باستدراج الأطفال للاعتراف بما كان يجرى بين أفراد الأسرة[140]، وبالموازاة مع عمليات الملاحقة، قامت إسبانيا، ومعها محاكم التفتيش، بمجموعة من الإجراءات لإنجاح مخططاتها، ومنها:

1 - تحويل مجموعة من المساجد إلى كنائس؛ فتم تحويل مائتين وثلاثة عشر مسجدًا في المناطق التابعة لمطرانية بلنسية إلى كنائس، وأربعة عشر في أسقفية طرطوشة،، وعشرة مساجد في سيكورى، وأربعة عشر في أوريولة[141].

2 - حرق مجموعة من المخطوطات الدينية، يقول أحد الشعراء واصفًا عملية الحرق التي تعرضت لها الكتب الإسلامية في رسالة إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني:

وكل كتاب كان في أمر ديننا ففي النار ألقوه بهزء وحقرة

ولم يتركوا فيها كتابًا لمسلم ولا مصحفًا يخلى به للقراءة [142]

3 - تشكيل إرساليات، ومدارس خاصة لتعليم أبناء الموريسكيين خلال القرن السادس عشر، ففي بلنسية جرى إعداد ست إرساليات تبشيرية كبرى؛ شكلت الأولى القرار التنفيذي لقرار الارتداد الصادر في عام 932هـ/ 1525م[143].

3. تأليف مؤلفات، وكتب تطعن في الإسلام، كمؤلف برناردیو بيريز «في مواجهة القرآن» الذي ظهر في قشتالة عام 936هـ/ 1529م، وفي بلنسية عام 939هـ/ 1532م، ثم كتاب «إزهاق القرآن» للراهب الفلورنسي ريكولودي فوتكروني الذي ظهر في أشبيلية منذ عام 906هـ/ 1500م، وفي طليطلة عام 908هـ/ 1502م، ثم كتاب «نور الإيمان ضد القرآن» من تأليف خوان دي تين، وظهر في بلنسية عام 921هـ/ 1515م، وغيرها من الكتب التي تعادي الدين الإسلامي[144].

ومع ذلك فإن كل هذه الإجراءات، ما كانت لتحول دون استمرار تشبث المسلمين بدينهم، خصوصًا بعد فتوى أحمد أبو جمعة الوهراني[145] التي بنى عليها الموريسكيون طريقة، وكيفية ممارستهم للشعائر الإسلامية، وكانت المنطلق الأساسي

لظهور التقية عند مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة[146].

وهكذا استمر المسلمون على عقيدتهم، ودينهم؛ مما جعل محاكم التفتيش تتابع خطواتهم، وتلاحقهم، وتحكم عليهم بأشد العقوبات، لمجرد تهمة بسيطة أو شبهة.

فكان إذا قُضي على المسلم بالإدانة فإن الحكم لا يبلغ إلى المتهم إلا عند التنفيذ، وبأبشع الإجراءات، فيؤخذ من السجن دون أن يدري مصيره الحقيقي، ويؤدي رسوم الإيمان الأوتودافي [147](Auto – da – fe) وهي الرسوم الدينية التي تسبق التنفيذ، ثم يؤخذ إلى ساحة التنفيذ، وهناك يُتلى عليه الحكم لأول مرة، وقد يكون الحكم في التهم الخطيرة بالسجن المؤبد، والمصادرة، أو بالإعدام حرقًا في حالة «الكفر» الصريح.

وقد يكون الحكم في حالة الذنوب الخفيفة بالسجن لمدة محدودة أو بالغرامة، وهو ما يُسمى حكم التوفيق، وكانت أحكام الإعدام هي الغالبة في عصور الديوان الأولى في قضايا الكفر، أما في حالة البراءة عند وجود ذنوب خفيفة، فيُعطى المتهم – بعد أن يطهر من كل شبهة للكفر وفقًا لإجراءات معينة – شهادة بطهارة من الذنوب، وهي كل ما يُعوض به عما لحقه في شخصه، وشرفه، وماله من ضروب الأذى، والألم[148].

مارست محاكم التفتيش أيضًا مختلف أنواع التعذيب بقصد اعتراف هؤلاء بخطاياهم، وتدل طرق التعذيب هذه على أبشع ضروب الوحشية، والبربرية التي ارتكبتها هذه المحاكم، ورجالها باسم الدين المسيحي، ومع ذلك استطاع المسلمون أحياناً الإفلات من قبضة محاكم التفتيش، عن طريق الرشوة خاصة، فمثلًا كان للمتهم أن يلتمس العفو من الكرسي الرسولي، وكانت الخزانة البابوية تغنم عن هذه الالتماسات أموالًا طائلة، فكانت فرصة لا يستفيد منها سوى الغني[149].

كان مقر محكمة التفتيش الإسبانية في أشبيلية، ثم انتقل بعد ذلك إلى طليطلة، وكانت سلطة رئيس المحكمة لا تناقش، وكان يرأس مجموعة من الأعضاء عددهم خمسة، وهم يشكلون المجلس الأعلى، وقد منح البابا كليمنت الثامن أعضاء المحكمة

الإسبانية سلطة النظر في المطبوعات، والمخطوطات، وحظر قراءة الكتب، والأوراق التي يرون أنها تخالف الآداب العامة أو عقيدة الكنيسة الكاثوليكية، ولقد كانت محكمة التفتيش تتكون من نائبين، وعالم لاهوت، وكان لهم زيًا خاصًا، وكان هناك قاض مهمته تقييم العقارات، والثروات، والمصادرة، وكان لكل هؤلاء عدد من المساًعدين من بينهم كاتب المحكمة، الذي يسجل الأسئلة التي تُوجه للمتهمين، وكذلك الأجوبة والاعترافات التي يدلي بها المتهم بعد تعرضه للتعذيب، وكان هناك في كل قرية أو مدينة لجان تتولى تنفيذ أوامر محكمة التفتيش، وإلقاء القبض على كل من تحوم حوله الشبهات[150].

كانت محكمة التفتيش تتولى ملاحقة الملحدين (والملحد في نظر هذه المحكمة، والكنيسة هو المسيحي الذي يُشك في إيمانه)، ومن هنا كان لا بد من أن يكون المسلم، واليهودي بمنأى عن خضوعهما لسلطة محكمة التفتيش، ولكن مع تنصيرهم، بإرادتهم أو بإجبارهم، خضعوا تلقائيًا لتلك المحاكم الظالمة التي جعلت أجسادهم تذوق كل لون من ألوان العذاب[151].

ومما سبق ندرك أهمية عمليات التنصير الجماعي التي قام بها الكاردينال فرانسيسكو ثينسيروس، ومن سار على نهجه.

إنه ببساطة أوجَد عملًا لأعضاء محكمة التفتيش، ومن هنا يمكننا أن ندرك سبب محاولات الموريسكيين الاتصال بروما وإخبار البابا بأنهم لم يلقوا ماء التعميد، أي إنهم غير خاضعين لسلطة محكمة التفتيش، ولما كان تمويل محكمة التفتيش الإسبانية ذاتيًّا، فإن ذلك يدعونا إلى القول بأن قسطًا وافرًا من القضايا التي نظرتها تلك المحاكم، كان يستند إلى دوافع اقتصادية، وهو ما يفسر تعنت المحاكم تجاه القضايا المنظورة أمامها[152].

محاكم التفتيش، وإجبار الأندلسيين (الموريسكيين) على التنصير

على إثر استلام غرناطة لم يحاول الملكان تحويل المسلمين عن دينهم بالقوة، كانوا يأملون أن ينتهي بهم المطاف إلى المسيحية، لكنهم - ومن وجهة نظر المؤرخين

الإسبان – لم يكونوا يعتزمون إجبارهم على ذلك، والحقيقة أن الملكين اعتزما تنصير هؤلاء، ولكن كان عليهم الصبر لبعض الوقت، ويلينوا لهم الأمر حتى إذا رفضوا وجدوا الذريعة لإجبارهم على التنصير عنوة، بدليل إنشاء محاكم التفتيش التي شجعوها على إجبار هؤلاء، وتعذيبهم.

بدأت محاكم التفتيش عملها في قشتالة ضد اليهود؛ فطردت ألوفًا منهم، وبعد صدور قرار التعميد الإجباري ضد الأندلسيين الموريسكيين سنة 906هـ/ 1502م، أصبحت محاكم التفتيش تتابع الموريسكيين بصرامة، ففي وصية فرديناند لشارل الخامس نجده يأمره: «بضرورة اختيار محققين أكفاء، ومخلصين للكاثوليكية، وتضييق الخناق على طائفة محمد»[153].

والواقع أن النص السابق يقطع كل حجة على من يدعي أن دواوين محاكم التفتيش لم تبلغ حملاتها درجة اللاإنسانية، ولعل هذا ما فندته باحثة عربية حين أوضحت أن ما ذكره المؤرخون المعاصرون، والقدماء عن مظاهر الاضطهاد التي طُبقت في حق المسلمين، معتمدين على مختلف الوثائق الإسبانية، والعربية، إنما يبقى «وصفاً ذابلًا أمام الصورة التي قدمها هؤلاء المضطهدون عن أحوالهم في نداء الاستغاثة الشعري، الذي وجهوه إلى السلطان بايزيد الثاني سنة 1505م»[154].

كان الإسبان يعتمدون على المهمة التبشيرية للمطران الأول (فراى إيرناندوا دي تلابيرا Fray Hernando de Talavera) الذي كان حريصًا على عدم التسرع، واستعمال الوسائل السلمية فقط، ولكن الملكان وجدا أن التنصير سيأخذ وقتًا طويلًا قبل أن يتحقق فأخذوا الخطوة التالية، وهو ما يؤكد ما سبق، وأن قلناه؛ ففي سنة 1499م كلف الكاردينال ثيسنيروس Cisneros بتسريع عملية التنصير، فشعر المسلمون بأن العهد الذي مُنح لهم قد نقض، ومن ثم ثاروا، مما أعطى للعاهليْن الذريعة، لإرغام جميع مسلمي مملكة قشتالة على التنصير، وفي سنة 1502م كانت انتفاضة ببلنسية «الأخويات المهنية 1522 – 1520 – Germanias» هي التي أدت إلى تغيير الوضع القائم، فقد استدعى الأسياد رعاياهم المسلمين لمحاربة المتمردين، وتم تعميدهم بالقوة، واعتُبر هذا التعميد شرعيًّا بموجب القانون الكنسي، حيث إن التعميد حتى،

وإن تم بالإكراه يخلق وضعًا لا رجعة فيه، فلا مجال إذن للعودة إلى الوراء، ومسلمو بلنسية كانوا محكومين بأن يظلوا مسيحيين، مهما أُجبروا على ذلك[155].

لقد وجدت محاكم التفتيش في الموريسكيين ميدان نشاطها المفضل خاصة، وقد سعت السياسة الإسبانية إلى تبني سياسة ضد الأتراك العثمانيين على جميع المستويات، ومما يؤكد ذلك جبروت محاكم التفتيش التي تأسست أساسًا من أجل الاختلاس، والاستيلاء غير الشرعي على أملاك الموريسكيين، ولتحقيق هذا الغرض الذي يقتضي بضرورة قطع الموريسكيين عن كل ما له صلة بالإسلام قولًا، وفعلًا، واعتقادًا، وزعت بيانات تكشف عن مظاهر اتباع الدين الإسلامي، للوشاية بأصحابها، ومما ورد فيه: «إذا تم الاحتفال بيوم الجمعة، وإذا احترموا تعاليم الإسلام الخمسة، وإذا تزوجوا على النهج المحمدي، وإذا غنوا الأغاني العربية، وإذا غسلوا موتاهم، ولفوهم في الكفن، وإذا سمعنا أن الدين الإسلامي هو الأحسن، وأنه لا يوجد غيره للوصول إلى الجنة»[156].

لقد وُجد هذا المظهر في سجلات محاكم التفتيش، ففي سنة 1538م قُدِّم الموريسكي «خوان دي بورقوص» إلى محكمة طليطلة لأنه كان ينظم في بيته اجتماعات ليلية تعزف أثنائها الآلات الموسيقية، ويقام رقص «الزامبرا» ويأكل الكسكس، وأُخذ عليه، وعلى ضيوفه أنهم يعيشون كأنهم في أرض الإسلام، ويغنون أغاني عربية، ويتنادون بأسمائهم الإسلامية[157].

ولقد بلغت نسبة الموريسكيين المقدمين لمحاكم التفتيش 3.3٪ من النسبة العامة حتى سنة 1530م، وقد ظهر الموريسكيون بشكل مكثف خلال سنة 1518م؛ إذ بلغ عددهم 219 في منشور العفو الصادر في 19 أبريل 1518، ويمكن تصنيف الأعمال المرتكبة من طرف الموريسكيين، والمعاقب عليها من قبل دواوين محاكم التفتيش إلى: الوضوء - الطهارة - الصلاة - صوم رمضان - الاحتفال بيوم الجمعة - عدم شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير - قراءة كتب عربية - القول بأن الديانة المحمدية هي الأصح - ختان الأطفال[158].

وقد تمادت محاكم التفتيش في غيها؛ فقد حاكمت امرأة اسمها «لويزة الأزرق»

التي اختلط عليها أسماء زوجها، وأبنائها السبعة، على أن تناديهم بأسماء لاتينية أمام أعضاء محاكم التفتيش، فأحرقت حية[159].

وهكذا أقرت محاكم التفتيش قطع الموريسكيين عن جذورهم، وعن هويتهم الثقافية، مما جعل المؤرخ الفرنسي «بروديل» يصر على «أن المشكلة الموريسكية هي صراع ديني، وبمعنى آخر صراع حضاري يصعب حله، فهو مدعو لأنه يستمر»[160].

ويرى «بيريز» أنه في عام 1526م وصلت الأمور إلى أبعد من ذلك؛ فقد تقرر تنصير جميع مسلمي مملكة أراغون، دون إعطاء أي تفسير، وعنده أنه بعد هذا التاريخ رسميًّا لن يكون هناك وجود للمسلمين بإسبانيا[161]، ومن الواضح أنه يقصد عدم استطاعة المسلمين إعلان دينهم كديانة مصرح بها، ومنعهم من إقامة شعائره، فأصبح جريمة أن يكون مسلمًا، ولعله كان محقًا في هذا بسبب شدة الاضطهاد.

أما الحقيقة فمختلفة تمامًا، فقد ظل الأندلسيون المنصرون مسلمين كما كانوا، كما أن المَلكين كانا يدركان تمامًا أن المتنصرين الجدد لن يصبحوا أبدًا مسيحيين، وهنا تأكيد لرأينا السابق، وتناقض في مواقف الكاتب تجاه الملكين؛ حيث ذكر من قبل أنهم لم يجبروهم، وهنا يصرح بأنهم يدركون أن هؤلاء لم يصبحوا مسيحيين بعد.

إلا أن الإسبان كانوا يأملون أن يصبح أولاد المسلمين، وأحفادهم كذلك، ولتسريع الاندماج طُلب منهم أن يتخلوا عن أعيادهم، وملابسهم التقليدية، وفي بلنسية سنة 1524م؛ أصدر المحقق العام بلاغًا، يدعو فيه إلى عدم التعرض للموريسكيين، إلا في الحالات التي تكون فيها مظاهر الكفر واضحة للعيان، وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر، تدَّخل «الديوان المقدَّس» بصرامة أكبر، ومع ذلك نجد عدد الموريسكيين المُدانين كان أقل بكثير من عدد اليهود المتنصرين، فعقوبة الإعدام نادرًا ما كانت تصدر في حقهم.

وفي سنوات 1550و1580م أربعة عشر شخصًا فقط أُرسلوا إلى المحرقة في غرناطة، وتجدر الإشارة إلى أن ستة منهم أُدينوا بسبب مشاركتهم في ثورة 1569م، وهو ما يعتبر عدداً ضئيلاً لا يتناسب مع من شاركوا في هذا الثورة، وفي أغلب

الأحيان، كان الحكم المفروض على الموريسكيين هو «التصالح» مع الكنيسة مرفقًا بمصادرة الممتلكات[162].

وفي بلنسية ما بين 1530 - 1609م تعرض أكثر من خمسة آلاف شخص للملاحقة، أغلبهم من الموريسكيين، إلا أن قلة منهم هي التي حُكم عليها بالإعدام، وكانوا غالبًا ما يُتَّهمون بالتواطؤ مع قراصنة الجزائر، أو بالدعوة إلى الإسلام في إطار محيطهم، إذن كان التآمر السياسي، والتبشير الديني أخطر الجرائم التي يمكن أن يرتكبها الموريسكيون[163].

لم تظهر المشكلة التي طرحها الموريسكيون بنفس الحدة في جميع المناطق، حيث توقف الأمر على نسبة كثافتهم داخل المناطق التي سكنوها، كما ارتبط بتقلبات حروب الاسترداد.

هناك بعض الاستثناءات، التي كانت فيها حرب الاسترداد فعلًا مرفقة أو ملحقة بهجرة أو طرد للمسلمين، فعلى سبيل المثال، وفي منطقة نييبلاNiebla المسترجعة سنة 1262م، لم يبقَ هناك مسلم واحد، كما أن الوثائق لم تسجل تنصيرات في حقهم، وهو ما يدفعنا لاستنتاج أن الساكنين الأصليين، قد أُجبروا على الرحيل، وقد تكررت هذه الوضعية بعد قرن، على إثر استرداد الوادي الكبير Guadalquivir، فالمسلمون الذين كانوا يعيشون هناك جلُّهم طُردوا، ولم يكن المدجنون يمثلون سوى 0،5/ من سكان الأندلس، الذين تحولوا إلى المسيحية[164].

وفي القرن السادس عشر أصبح عدد الموريسكيين قليلًا بشكل عام، وتوزعوا في تجمعات حضرية صغيرة؛ حيث كانوا في طريقهم إلى الاندماج، ولم يكن هناك ما يميزهم في الظاهر عن المسيحيين القدامى إلا في ثلاث مناطق؛ أراغون، وبلنسية، وغرناطة، ففي المنطقتين الأوليين، الأقدم من حيث تاريخ «الاسترداد»، كان الموريسكيون يعيشون حياة غير مستقرة، ودون زعماء (الاسترداد) حديثي العهد، حافظ الموريسكيون على نخبهم الدينية، والاجتماعية، إلا أنهم أينما وجدوا كانوا خاضعين لسيطرة النبلاء الإسبان الذين كانوا يستغلونهم، ولكن في نفس الوقت يحمونهم من مضايقات السلطة، بما أنهم كانوا يمثلون يدًا عاملة مُجِدَّة، ومطواعة، وذات كفاءة، في

ظل هذه الظروف، نفهم على نحو أفضل كيف تمكن المسلمون من الاستمرار في إسبانيا خلال القرن السادس عشر؛ لقد اقتصر تطبيقه على بعض المظاهر البسيطة، كالامتناع عن أكل لحم الخنزير، وشرب الخمر، وتلاوة القرآن، وصيام شهر رمضان، والاحتفال بأهم الأعياد الدينية، ورغم رقابة محاكم التفتيش، ظلت الكتب العربية متداولة، وكان الموريسكيون مسيحيين رسميًّا لكن مسلمين في الواقع[165].

ومن أجل إدماج الموريسكيين، كرست جهوداً كبيرة، ففي غرناطة سنة 1559م، أوكل المطران بيدرو غيريرو Pedro Guerrero إلى الرهبان اليسوعيين إدارة مدرسة أساسية تقع داخل الحي الموريسكي بالبيازين Albaicin، لتلقين الأطفال مبادئ القراءة، والكتابة، وبعض الصلوات في سنة 1568م، كانت هذه المؤسسة تضم ثلاثمائة تلميذ، ثلثهم فقط من الموريسكيين، فقد كان الآباء يسحبون أبناءهم بمجرد أن يصبح هؤلاء قادرين على العمل، عند بلوغهم سن الثامنة أو التاسعة، ولقد بذل بعض اليسوعيين الآخرين مجهودًا للتبشير باللغة العربية، لكن سرعان ما يفقدون هذه الحماسة أمام لا مبالاة المستمعين[166] وهو ما نعتبره دليلًا على قوة إيمان الأندلسيين المجبرين على التنصير، بشهادة مؤرخ إسباني.

كما قام الرهبان بعمليات تبشير في المنطقتين الأخريين للموريسكيين؛ أراغون، وبلنسية في المنطقة الأخيرة نُبرز على وجه الخصوص، جهود دوق غاندية Gandia «فرانسوا بورجيا Francois Borgia» الذي فتح مدرسة خصَّصها لاستقبال الشباب الموريسكيين، وعندما التحق الدوق بالرهبان اليسوعيين سنة 1546م تنازل عن هذه المؤسسة لطائفة «عصبة المسيح» لكن كانت النتائج محبطة؛ فما بين سنتي 1554 - 1555م، ظلت المقاعد الاثني عشر المخصصة للموريسكيين شاغرة[167].

أما القديس «توماس دي بيلايبا Thomas de Villanuea» فقد كان أقل طموحًا؛ حيث اقترح إجبار الموريسكيين، على الالتزام بالممارسات المسيحية العلنية، واعتبر أن الباقي سيأتي بشكل طبيعي، في استباق لمقولة بسكال «تظاهروا بالسذاجة»، أما خلفه خوان دي ريبيرا Juan de Ribera ، فكان أكثر تطلُّبًا من سابقه، كان لديه كرْه لكل ما هو عربي، والذي كان بنظره مرادفًا للهرطقة.

لذلك منع رجال الدين من تعلُّم اللغة العربية، في الوقت الذي كان فيه الكثير من الموريسكيين لا يفهمون اللغة الإسبانية.

ولنُضف أخيرًا أن المناطق التي كانت مأهولة بالموريسكيين كانت الكنائس فيها أكثر إهمالاً منها في المناطق المسيحية، إذ نادرًا ما كان هناك من يقوم عليها، وفي غالب الأحيان كانوا أشخاصا ذوي ثقافة محدودة [168].

ونعتقد أن هذا السبب ضعيف، ولم يكن ليمنع دخول الموريسكيين المسيحية، فالكنيسة حتى، ولو مشيدة، ورجالها على أرقى مستوى، فإن الموريسكيين بقوا ثابتين على عقيدتهم، إن من ضحى بما يملك من مال، وولد في سبيل تمسكه بعقيدته، حتى ولو أخفاها، ولو تعرض لأبشع سبل العقاب، والتنكيل.. أيمنعه شكل، ومدى الاهتمام بالكنيسة من دخول المسيحية، لقد خفي عن الجميع السر، وهو إيمان الموريسكي العميق بدينه الإسلامي، ومدى اقتناعه بهذا الدين، ورسوخه بداخله.

إن المسيحيون القدامى الذين قطنوا المناطق القروية لم يكونوا يعامَلون أحسن من أقرانهم سكان المناطق الحضرية؛ فمعظمهم لم يتلقوا أي ثقافة دينية، ومع ذلك لم يكونوا ليعتبروهم مسيحيين غير حقيقيين، لكن الموريسكيين كانوا يختلفون في كل شأن عن باقي المجتمع؛ في اللغة، في طريقة لباس المرأة، وتزيُّنها، في عادات الحياة اليومية، في عادات الأكل؛ حيث كانوا - على سبيل المثال - يطبخون بالزيت، لا بشحم الخنزير، كان المسيحيون القدامى يعتبرون هذه الخصوصيات تعود إلى الدين الإسلامي، وأن هذه المظاهر من مظاهر الإسلام، إلا أن وجه التعارض بين المسيحيين القدامى، والموريسكيين لم يكن الدين، وإنما الحضارة، وأسلوب الحياة[169].

وفي سنة 1566م؛ قرر مجلس قشتالة تطبيق التدبيرات التي كانت قد تقررت سنة 1526م، وظلت حتى ذلك الحين حبرًا على ورق، لقد منع بالفعل على الموريسكيين، ومنذ ذلك التاريخ، الحديث باللغة العربية، والاحتفال بالأعياد التقليدية، واستخدام الحمامات العمومية، وارتداء ملابس خاصة، كما منعت النساء من ارتداء الحجاب، ولقد كلَّف الموريسكيون شخصاً منهم للتفاوض مع السلطات، وهو فرانثيسكوا نونييث مولاي Francisco Nunez Muley، الذي حاول التأكيد على أن اللباس لا علاقة له

بالدين؛ فكل إقليم بإسبانيا له لباسه التقليدي، فلماذا لا يُعتبر لباس الموريسكيين اللباس الخاص بإقليم غرناطة؟ لم يرغب فيلب الثاني في الاستماع إلى أية حجة، فالقرارات المتَّخذة يجب أن تُنفَّذ دون تأجيل، إلا أن وقت التنفيذ ما كان ليكون أسوأ اختيار[170].

وعبر تاريخ محاكم التفتيش، يُلاحظ أنها كانت مقرونة بجشع ديني، ومادي، الأمر الذي جعل الموريسكيين دائما يشعرون بالحقد تجاهها، ويصف أحد عمال محاكم دواوين التفتيش أعمالها، ومآلها بالقول:«فهم الإسبانيين أخيرًا أن تحويل شعب عن دينه جملة بطريق الإكراه عمل عقيم لا يؤدي إلى النتيجة المنشودة، ولم يجد نفعًا ديوان التنقيب، ما قام به من الفحص البليغ عن هؤلاء المتنصرين في الظاهر، ومن ضروب العقوبات البربرية كالتعذيب والتخويف» [171]، وهنا نورد إحصاء بعدد الذين أُحرقوا في مدينة مرسية بين أعوام 1557 و 1563م.

السنوات	عدد الذين أحرقوا	عدد من أحرقوا على صورة تمثال	عدد الذين تلقوا عقوبات
1557	11	–	43
1559	33	05	43
1560	14	22	29
1560	16	08	48
1562	23	–	17
1563	17	04	47

مصدر الجدول

لوي كارداياك: الموريسكيون الأندلسيون، مرجع سابق، ص106

ففي سنة 1564 تلقى موريسكي مائتي جلدة، وقضى خمس سنين في الأشغال الشاقة بالبحر، أما المدعو «رودريقوا الروبيوا» ، فحجز عنده عدة كتب من مخطوطة من طرف نظام التفتيش الديني في أراغون 1567[172].

ونلاحظ من الجدول ازدياد أعداد المعاقبين من قبل محاكم التفتيش من عام

1560 إلى 1563م، وهذا يفسر شدة الاضطهاد فى هذه الفترة، التى ستكون عاقبتها تمرد الموريسكيين، وقيام ثورة البشرات.

غرف آلات التعذيب:

كتب الكولونيل «ليمونسكي» أحد ضباط الحملة الفرنسية في إسبانيا عام 1809م عن تلك الغرف ناعتًا إياها بأنها: «غرف آلات التعذيب، وتمزيق الأجساد البشرية»، ولقد جاء في وصفه المؤثر أن تلك الغرف «امتدت إلى مسافات كبيرة، وكانت كلها تحت الأرض، وقد رأينا بها ما يستثير النفس، ويدعوها أن تتقزز ما عاشت، وامتد بها العمر[173].

رأينا غرفًا صغيرة بحجم الإنسان، بعضها عمودي، وبعضها أفقي، فيبقى سجين العمودية فيها واقفًا على رجليه مدة سجنه حتى يُقضى عليه، ويبقى سجين الأفقية ممددًا حتى يموت، وتبقى الجثة في السجن الضيق حتى تُبلى، ويسقط اللحم عن العظم، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من الأجساد البالية، فُتحت كُوّة صغيرة إلى الخارج، وقد عثرنا على عدّة هياكل بشريّة لا تزال في أغلالها سجينة مقيدة؛ أما السجناء، فرجال، ونساء، تتفاوت أعمارهم بين الرابعة عشرة، والسبعين[174].

وعن آلات التعذيب، كتب الكولونيل «عثرنا على آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم؛ وكان يبدأ بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر، والرأس، واليدين؛ كل ذلك على سبيل التدريج حتى تأتي الآلة على كل الجسد، فيخرج من الجانب الآخر لها كتلة واحدة»[175].

وأضاف: «عثرنا على صندوق في حجم رأس الإنسان تمامًا، تُوضع فيه الرأس بعد أن تُربط أيدي، وأرجل صاحبها بالسلاسل، فلا يقوى على الحراك، وتقطر على رأسه من ثقب في أعلى الصندوق نقط الماء البارد، فتقع على رأسه بانتظام، في كل دقيقة نُقطة… وقد جُن الكثيرون بسبب ذلك اللون من العذاب قبل الاعتراف، ويبقى المُعذب على حاله هذه حتى يموت» وعثرنا على آلة ثالثة للتعذيب تُسمى «السيدة الجميلة» وهي عبارة عن تابوت تنام فيه صورة امرأة جميلة، مرسومة على

هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها، وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة؛ وكانوا يطرحون المعذَّب الشاب فوق هذه الصورة، ويطبقون عليه باب التابوت بسكاكينه بعُنف؛ فتمزق السكاكين جسم الشاب، وتقطعه إربًا... كما عثرنا على عِدّة آلات لسَل اللسان، ولتمزيق أثداء النساء، وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب حديدية حادة، ومجالد من الحديد الشائك لجَلد المعذبين، وهم عرايا حتى يتناثر اللحم من العظم»[176]، وفي هذا الإطار من الوصف نجد الكثير من آلات التعذيب التي وقعت رقاب الموريسكيين تحتها (انظر ملحق رقم 9).

من التنصير إلى الثورة (1500 - 1568م):

هناك إجماع حول فترات ثلاث من الصراع بين المسيحيين، والموريسكيين في إسبانيا، وتلك الفترات يمكن ربطها بثلاثة أحداث مهمة: تنصير مسلمي قشتالة (1500 – 1502م)، وثورة مسلمي غرناطة (1568 – 1570م)، والطرد النهائي للموريسكيين (1502 – 1609م).

كان الحدث الأول يُمثل نهاية التعايش الذي كان موجودًا في العصور الوسطى، أما التاريخ الثاني فمثَّل خيبة الآمال في إيجاد مجرد تفاهم متبادل بين الفئتين، بينما يمثل الحدث الثالث، انفراد الكاثوليكية بالنفوذ في إسبانيا، التي رأى حكامها آنذاك أن في ذلك تحول عظيم في توحيد إسبانيا، بمعنى أنه كان يوجد جماعتان، وديانان، فأصبح المجتمع متوحدًا بدين الكاثوليكية، وقُضيَ على الجماعة الأخرى التي كانت سببًا في الانقسام، ونعتقد أن ذلك كان بمثابة أخذ حق أصيل من مواطنين؛ لأن الخلاف كان فقط في العقيدة، فكيف يُطرد هؤلاء عن وطنهم.

ويبدو جفاف هذا التقسيم بوضوح، إذا اعتبرنا أن الأحداث كانت متحركة بقوة دفع تاريخية، فإلى جانب وجود الجماعتين المسيحية، والمسلمة رغم وجود أحداث مؤسفة، وُجد الصراع، الذي امتد لأكثر من قرن، وانتهى بتصفية كاملة للموريسكيين، وبين محاولات الاحتواء الأولى التي قامت بها الأغلبية، وثورة الطرف الآخر الموريسكي، توجد فترة زمنية تصل إلى سبعين عامًا، بينما مدة الصراع

من هذه الثورة حتى الطرد العام، لم تستغرق سوى أربعين عامًا، وكان المشهد أكثر تعقيدًا من وقت لآخر.

لقد استجدت ألفاظًا في ساحة العلاقات الاجتماعية، مثل: مسيحي جديد، موريسكي، وهي ألفاظ لم تكن تُستعمل قبل يناير 1500م؛ حيث بدأ حينذاك التنصير الجماعي للمسلمين، لكن هذا لم يحدث إلا نتيجة نهائية لمرحلة طويلة تطور من خلالها الوضع السياسي للأشخاص أنفسهم (أي المسلمين) من مسلمين إلى مدجنين، ثم إلى موريسكيين.

كان المسلم، والمسيحي يتعايشان منذ زمن طويل في الأندلس/ إسبانيا، وكان كل واحد منهما سيدًا في أرضه، ويتعامل مع الآخر على قدم المساواة، على أنه، ومنذ الثاني من يناير 1492م، وهو تاريخ سيطرة الملَكين الكاثوليكيين على غرناطة، أصبح المسلم في أي مكان من إسبانيا مهزومًا، وإن ظل في الظاهر، ومن الناحية القانونية، يتمتع بنفس حقوق المواطنة.

ويمكن الحديث عن وجود مزدوج للجماعتين، لكن في الحياة الواقعية العامة بدأ ضغط المنصرين، وقهرهم يشتد يومًا بعد يوم، حتى وصل الأمر إلى التفكير في إنهاء وجود المنهزمين، أما النصوص القانونية التي كانت تعكس بتسامحها ميراث المعايشة السلمية، والاحترام المتبادل؛ فقد انتُهكت يومًا بعد يوم بتعارض أصَم بين الجماعتين.

ولا ندرى كيف تستطيع الأقلية الموريسكية - من وجهة نظرهم - انتهاك اتفاقية ترمي إلى التعايش السِلمي مع المسيحيين الإسبان، الذين كانوا يبحثون عن أي فرصة للتعبير عن أنفسهم بعصبية، وعنف؛ يدل على ذلك ما سجلته وثائق بلدية غرناطة؛ حيث أُحيلت شئون المدينة عام 1492م إلى لجنة مختلطة، وفي 3 أكتوبر 1497م سجل الحاضرون امتناع الفريق المسلم عن الحضور، وقد سجل تاريخ مملكة غرناطة هذا الحدث في الفترة بين عامي 1492 و1500م، أما لائحة المدجنين التي كانت تطبق على كل مسلمي إسبانيا، فتحولت إلى شيء غير مناسب لزمانه[177].

وبعد عام 1492م، وهو الفصل الأخير في حروب الاسترداد، وسقوط غرناطة،

عُقدت مواثيق بين منتصرين، ومهزومين، وقد أبرز «ميغيل أ.لأدير» ثلاثة أنواع من المواثيق كانت النقاط المشتركة فيما بينها هي: الاعتراف بالحرية الشخصية، والإبقاء على الهيكل الاجتماعي، والتنظيم الديني، والقانوني، والثقافي للمهزومين[178].

وتتميز الاتفاقيات التي وقعت عام 1487م بإمكانية محافظة المسلمين على أموالهم، أما آخر المواثيق، فكانت عام 1491م، ومنحت الأسرى الحرية بطريقة تلقائية، وهكذا يتضح أن الكرم في منح الحقوق، وهي السمة العامة لتلك المواثيق، كان يتزايد مع مرور الوقت، واقتراب نهاية الحروب، ولكن هذه النوايا الحسنة التي تميز المواثيق النظرية؛ لم تصمد طويلًا أمام الواقع؛ فبعضها لم يطبق مطلقًا: مثل السماح للمسلمين بحمل السلاح الذي حُرِّمَ عليهم بسرعة، وكذلك حُرِّمَ حق شراء الأراضي على مسلمي غرناطة؛ وذلك تسهيلًا لتوطين النصارى في المنطقة، ولعل أكثر الأمور خطورة هو ما حدث في عامي 1495 و1499م؛ حيث فَرض الملك ضرائب جديدة على المسلمين فقط، فأُصيبوا بخيبة أمل، وهم الذين توقعوا نظامًا ضرائبيًّا أفضل من النظام، الذي كان مطبقًا في الماضي[179].

وقد حاولت السلطات بصفة عامة الالتزام بالمواثيق، لكن التعديلات التي أُدخلت عليها توضح إلى أي مدى كانت المعايشة صعبة، ولم تصمد طويلًا أمام الواقع الجائر، ففي 18 ديسمبر 1499م ثار مدجنو[180] البيازين في غرناطة ضد عملية التنصير الإجباري، الذي كان الكاردينال سيثنيروس رمزًا لها، حيث وصل إلى تلك المدينة في أكتوبر من العام نفسه، ولا نعرف ما إذا كانت حملته موجهة إلى المسيحيين أو إلى أبنائهم من الذين كانوا قد أسلموا لردهم عن دينهم الجديد أو إلى المسلمين كافة، والجدير بالذكر أن طريقة سيثنيروس في التنصير كانت تتناقض مع الطريقة التي اتبعها أسقف غرناطة الأول الراهب إيرناندو دي تالابيرا، والتي كانت تعتمد على الصبر، والإقناع على مهل، فاستسلم الثائرون بعد ثلاثة أيام مقابل عفو يخص كل من يتنصر[181].

وإذا كان الغرناطيون قد عادوا إلى الهدوء، فسرعان ما اندلعت الثورة في أماكن أخرى في المملكة، في منطقة البشرات Alpujarra ، ففي عام 1500م استولى الثائرون

بقيادة إبراهيم ابن أمية على العديد من الحصون الساحلية، واستمرت العمليات لثلاثة أشهر، وانتهت باستيلاء المسيحيين على لانخارون Lanjaron في الغرب، وعلى أندراكس ANDARAX في الشرق؛ ثم اندلعت ثورة أخرى في ألميرية، وصمد الثائرون في بيليفيكى وينخار حتى يناير 1501م، وفي أماكن أخرى حتى منتصف العام، أما الثورة الرابعة، والأخيرة، فكان مسرحها جبال روندا، ودارت منذ يناير إلى مايو من العام نفسه، وحضر أعمالها الحربية الملك فرناندو شخصيًّا بعد هزيمة منكرة للمسيحيين، ومات فيها السيد ألفونسو دي أغيلار في مارس، ثم وضع الملك حدًّا للعمليات الحربية بعد أن تحول المدجنون جماعات إلى النصرانية، وذلك على ما قيل[182].

وهو الأمر الذي يتناقض مع واقع المدجنين الذين عاشوا مسلمين منذ زمن في ممالك نصرانية، فهل يُعقل بعد هذا الزمن من وضعهم في ظل ممالك نصرانية أن يتنصروا.

وقيل إنهم تحولوا للمسيحية بعد أن ساد بينهم الرعب؛ لإنقاذ أرواحهم، وللحصول على شروط أفضل للتسليم.

ووفقاً للكتابات الإسبانية، فإن مدجنو المنطقة الباقية من قشتالة Castill كانوا يختلفون تمامًا عن سكان الأندلس الشرقية Andalucia Oriental، فهم يعيشون حياة بلا تاريخ في أحياء معزولة تحت الحماية الملكية تم تخصيصها لهم، وكانوا مجبرين على عمل علامات خاصة في أزيائهم، ورغم هذه الممارسات، ووسائل الإذلال العنصرية التي اتُّخذت ضدهم خلال القرن الخامس عشر، فإن ذلك - في رأي البعض - لم يكن يصل في قسوته إلى درجة التنصير الإجباري، وهو ما نراه يتناقض، ومحتواه، حيث إن أحداث غرناطة جعلت منهم ضحايا لأحداث لم يشاركوا فيها على الإطلاق، حيث صدر في 12 فبراير 1502م قانون ملكي يُخيرهم بين التنصير الإجباري أو النفي[183].

لقد كان التنصير في تلك الأحوال نقطة بداية، وكانت السلطة على يقين بأنه ليس من الممكن أن يتحول الموريسكيون إلى نصارى حقيقيين بسرعة بين يوم، وليلة، ولهذا، ففي السنوات التالية، أي حتى عام 1510م، اتبعت سياسة خاصة بتنفيذ الوسائل الضرورية بغية الوصول بهم إلى تنصير حقيقي صريح، فأُنشئت بصورة

نهائية شبكة من الكنائس، والإرساليات، وحتى عام 1506م كان يتم تعميد صبيان من البشرات، ومما يكشف عن الوضع النفسي الذي كان سائدًا بين المتنصرين في تلك الفترة تلك المواثيق التي وُقِّعت بين الدولة، ومجموعات من المسلمين في مملكة غرناطة مثل طابيرناس Tabernas في 18 سبتمبر عام 1500م، وباثاBaza في 30 سبتمبر من السنة نفسها، وأويسكار Huescar في 26 فبراير 1501م، وفي تلك المواثيق يتمنى الموقعون أن يندرج المسيحيون الجدد في النظام العام، وأن يُلغى النظام الضريبي الخاص بهم؛ بحيث يدفع الموريسكيون الضرائب نفسها التي يدفعها المسيحيون الآخرون، وأن تُمنح لهم الإعفاءات نفسها، وأن يشتركوا في إدارة الشئون المحلية، وأن لا يُقرر شيء جديد في الاستغلال الجماعي للمراعي الخاصة بهم، وأن يُعاقب النصارى القدماء الذين يسخرون من الموريسكيين فينادونهم بلفظ مسلمين[184].

ومن الواضح هنا التبرير الذي أورده المؤرخ الإسباني لإثبات أن هؤلاء الفئة تنازلت عن هويتها الإسلامية برضا نفس، واقتناع، رغم أن الأحداث تثبت غير هذا، وتوضح ثبات هؤلاء، وتمسكهم بدينهم رغم ما لاقوه من عذاب.

كانت هذه المواثيق لا تختلف كثيرًا عن مواثيق عام 1490م إلا في الناحية الدينية الصرفة؛ حيث يبدو أنه كان الموضوع الأكثر أهمية، ولهذا، ففي 12 أكتوبر 1501م صدر أمر يقضي بإحراق كل الكتب التي لها علاقة بالإسلام؛ وفي هذا الخط نفسه صدرت تعليمات بشأن ذبح الحيوانات، حيث اعتُبر أمرًا دينيًّا تم تحريمه في اتفاقيات عامي 1500و1501م[185]، بينما لم تعتبر الحمامات، والثياب الخاصة أمرًا دينيًّا رغم اختلافها عن الأخرى الخاصة بالمسيحيين.

وهكذا فرقت هذه الوثائق بين ما هو ديني، وماهو ثقافي، مما يعني أن سياسة الإدماج كانت تعالج الجانب الديني فقط، ومن المحتمل أن روح نصوص، ومواثيق تسليم المدن لم تُنسَ بالكامل بعد، وبهذه الطريقة أعلنت السلطات ثقتها الساذجة في جدوى الوسائل المتخذة للوصول بالمسلمين إلى تنصير حقيقي، وتبين عدم فهم السلطات العميق لطبيعة الحقائق الثقافية، حيث كان الموريسكي في نظرهم يعتبر مسيحيًّا سيء التدين مؤقتًا.

ورغم ذلك تُعتبر السنوات العشر التالية، ما بين 1500و1510م، هي السنوات التي عاصرت تغيرًا جذريًّا في طريقة إدراك المشكلة، وتصورها؛ حيث تُرجم ذلك في مجموعة من الأوامر الملكية التي صدرت بداية من عام 1511م، بعد أن فشلت حملات التنصير فشلًا ذريعًا، وثبت خطأ الاعتقاد بأن المسلمين غير القابلين للتنصير قد رُحِّلوا جماعات، وأنه قد بقيَ فقط في مملكة غرناطة الذين يميلون لتقبل المسيحية بسرعة، وأدركت السلطات أن الإسلام، إلى جانب أنه من المستحيل استئصاله، يبدو في الظاهر أنه قلل من أهميتها في البداية، من ناحية أخرى كان أكثر الموريسكيين يعتقدون أنهم بمجرد تعميدهم سيُتركون، وشأنهم بسلام، لكن الإجراءات التي اتُّخذت بين عامي 1500 – 1502م أظهرت أنهم كانوا على خطأ، إن الخروج الجماعي لبعض الموريسكيين، ورحيلهم عن البلاد في تلك الفترة يعبر عن خيبة الأمل التي عانوها، وكذلك عُمق جذور الثقافة الإسلامية، كما يعبر عن عدم إمكانية الجمع بين ثقافتين في شخصية واحدة، وكانت المساعدة التي قدمها الموريسكيون للحملات الجريئة، والمتكررة للقراصنة من البربر علامة أخرى على معارضتهم، ونقمتهم، وكانت سببًا في قلق كبير، كما استمرت أعمال النهب؛ وبعد مراجعة مطردة، تم التوصل لتعريف جديد للحالة الموريسكية، أكثر شمولًا من السابقة[186].

وفى الفترة بين عام 1511 ، وعام 1526م تراكمت مجموعة أخرى من القوانين، التي إذا نُظر لها بصورة منعزلة تبدو قليلة الأهمية، وهو ما يفسر قلة الاهتمام بها، لكننا عند تجميعها نجد أنها تمثل ميزات عامة لسياسة تتأكد على مر الأيام، وإن كنا لا نعرف دائمًا هوية، واضعيها؛ كان أول هذه النصوص يرجع لعام 1508م؛ حيث يشير نوني مولاي في مذكراته إلى لائحة ملكية تحدد استعمال ملابس الموريسكيين[187].

كما صدرت خمس وثائق عام 1511م، إحداها في 20 مايو تحدد استعمال، وشكل بعض الأدوات كالسكاكين التي يخشى استعمالها كأسلحة، وصدرت لائحة أخرى في 10يونيو تدور حول الكتب العربية، بالإضافة إلى ثلاثة قرارات أخرى بشأن ذبح الحيوانات، وتحديد ولي الشخص من الرجال، وولي الشخص من

النساء[188] عند التعميد، والزواج [189].

ولقد كانت هذه الإجراءات نتيجة لسياسة مدروسة خططت لها السلطات الرسمية، التي قررت استئصال خصائص الثقافة الموريسكية كلها، ولما كان تطبيقها في البداية محدودًا، فقد صدرت بها قرارات مرة أخرى في فبراير 1512م، كما تم التركيز على طريقة الذبح الإسلامية، والثياب، وحُرم على الموريسكيين العمل بمهنة سك النقود[190] بهدف منع المساعدة التي يقدمونها للقراصنة من البربر، وقد صدرت قوانين مكملة لذلك في 29 يوليو 1513م ومايو 1520م[191].

إن نقطة التحول في التطور الذي بدأ بين عامي 1501و1502م كانت في عام 1526 عندما أُعلنت النتائج التي وصلت إليها لجنة انعقدت في غرناطة بمرسوم ملكي في 7 ديسمبر، كانت هذه الوثيقة التي صدرت عن اللجنة تميل إلى إزالة كل خصائص الموريسكيين، وسماتهم، فقد حرم أو حدد استخدام اللغة العربية كتابة أو مشافهة، وكذلك الملابس كالملحفة[192]، والتعاويذ، والرقى، والحلي، وأي رمز له صلة بالإسلام؛ مثل الختان، وامتلاك العبيد، والأسلحة، والطريقة الإسلامية في ذبح الحيوانات، وقد تعرضت لتنقلات السكان، أما عقود الزواج، فكانت موضع مراقبة خاصة.

ولكي تطبق هذه القوانين بحَزم، صدر قرار يقضي بإنشاء محكمة تفتيش في غرناطة[193].

نرى إن الطابع الأساسي لهذه الوثيقة يبدو من أول وهلة، حيث حَوت قائمة مطولة بعادات تلك الأقلية، وهي قائمة ستستخدم لوقت طويل، كوسيلة للتعرف على الانتماء إلى الإسلام في إسبانيا، فلم يعد المسلم هو ذلك الذي لا ينتمي للدين المسيحي فقط، وإنما هو الذي يحتفظ بأي عادة مهما كانت صغيرة تكشف عن أصله، إن المُنصرين المسيحيين الذين اهتموا في البداية بالناحية الدينية فقط، وتسامحوا في الجانب الثقافي، والعادات، اكتشفوا أهمية تلك المظاهر؛ ولذلك كتبوا قائمة بها، من أجل استئصالها بالكامل؛ ففي البداية كانوا يرفضون الكافر، أما الآن فكانوا يرفضون الآخر.

ولما كانت سياسة الاستيعاب السريعة لونًا من المثالية المفرطة، فقد تم إهمالها سريعاً، وبعدها قسم المجتمع إلى مسيحيين قدامى (حقيقيين) ، ومسيحيين جدد (مزيفين)، كذلك لم تستمر وثائق عام 1501م التي أقرت المساواة الضريبية بين كل الرعايا، ففي عام 1501م فُرض على الموريسكيين فقط نظام ضريبي معقد، وشائك يُسمى «الفارضة»، وقسمت هذه الضريبة إلى أربعة أنواع، اشتملت الثلاثة الأول منها ما عرف ب «الفارضة الكبرى» ، وضمت ضريبة عادية سنوية قيمتها 21 ألف دوكية، وثانية غير عادية قيمتها 5 آلاف دوقية، وثالثة قيمتها 10 آلاف خصصت لدفع تكاليف إنشاء قصر الملك كارلوس الخامس في غرناطة، أما «الفارضة الصغرى» أو «فارضة البحر» فشارك في دفعها المسيحيون القدامى، واستُخدمت لدفع رواتب حرس السواحل، وهكذا ففي كل المجالات كان يعامل الموريسكي كشخص مختلف[194].

كما أدى الموريسكيون ضريبة بلغت 150000 دوكة ذهبية مقابل عدم تنفيذ المرسوم الذي أصدره كارلوس الخامس في عام 1526م، وكان يقضي بمنع اللغة، والملابس، والعادات الإسلامية[195].

لم تكن الإجراءات المتخذة تجاه موريسكيو قشتالة لتمر دون أن تلفت انتباه المدجنين في مملكة أراغون، فبين عامي 1502 و1520م كان المدجنون الأراغونيون يخشون صدور قرار بطردهم أو تنصيرهم إجباريًا، وفي عام 1503م تدخل سادتهم النبلاء المسيحيين أمام مجلس برلمان مدينة برشلونة للحصول على ضمانات لإبقائهم، وفي عام 1517م اضطر الملك كارلوس الأول إلى تكذيب ما يُنسب إليه من نية بطردهم[196].

ولكن كما كان يحدث في مملكة غرناطة؛ كانت الخصومة بين النصارى، والموريسكيين على المستوى الشعبي على أشدها في أراغون، وقد أسهمت حركة الجماعات في تفجير الموقف؛ ففي عام 1509م سُمح لرجال الجماعات بحمل السلاح؛ لرد اعتداءات القراصنة الأتراك، ولقد أفصح هؤلاء الرجال عن عدائهم للمدجنين (وبالأحرى الموريسكيين) بصورة مكررة، وعنيفة؛ فعندما اغتال المسلمون اثنين من السود في 20مايو 1521م، كان رد الفعل عنيفًا، واضطرت

السلطات، لإرسال قوات كبيرة للحد من انتقام المسيحيين.

وفي يونيو قام المسيحيون بمهاجمة بعض قرى الموريسكيين، وكذلك في 15 يوليو هاجم 400 مسلح قرية موربيدرو، وفي أغسطس أُجبر 15000 مسلم على التنصير الإجباري، وبخاصة في قرية بولوب التي حاصرها أحد زعماء رجال النقابات (بيثنتي بيريس)، وفي مارس 1522م قام المسيحيون الثائرون، بقيادة زعيم غامض، بالإغارة على بعض القرى المسلمة مثل البيريكي، والقصير، وبعد نهاية حركة النقابات أصبحت مشكلة المدجنين مطروحة بكل خطورتها، فلقد عاد هؤلاء لإيمانهم القديم[197].

في مارس 1523م تمت معالجة الموضوع من خلال مراسلات محاكم التفتيش، وحاول المفتش العام عقد اجتماع في عام 1524م ، لمعالجة قضية الموريسكيين (الأندلسيين المنصرين عام 1521م)، وبعد تأجيل الاجتماع لمرات افتُتحت أولى جلساته في 19 فبراير 1525م، وامتدت مداولاته حتى 22 يونيو، وكانت النتيجة إقرار التعميد، واعتباره سليماً[198] ، وأن الذين فعلوه يجب أن يعيشوا مسيحيين.

ونتيجة لذلك عُين مسئولون لإعادة الإيمان لموريسكيي جنوب مملكة فالنسيا، حيث تبين صعوبة المهمة بعد أن قاوم بعض المسلمين في مرتفعات بيرنيا بأليكاتنى Alicante، ولما أحسوا بعدم جدوى حركتهم انصاعوا للأمر، وهكذا كانت الخطوة الأولى الحاسمة[199].

أما المدجنون في الأماكن الأخرى من مملكة أراغون فتمتعوا بهدنة صغيرة، لقد حاول كارلوس الخامس تغيير موقف المقاومة الذي أبداه بعض النبلاء دفاعًا عن رعاياهم من الموريسكيين؛ حيث كان هؤلاء يفضلون لأسباب نفسية، ومادية بقاء رعاياهم على دينهم، لكن سرعان ما حُرموا حق تغيير مكان إقامتهم، ونُظمت حملة جديدة لتنصيرهم، وفي النهاية، وفي 8 ديسمبر 1525م، صدر أمر يقضي بتنصيرهم، لقد وصل إلى بلاط الملك رسولان مسلمان؛ فلم يستطيعا أن يغيرا شيئًا رئيسيًّا في الموضوع الرئيسي الخاص بفرض التنصير عليهم، و كان ذلك أمرًا لا مفر منه، لكنهم حصلوا على بعض التسهيلات عند نهاية المحادثات

في يناير 1526م مقابل دفع 40000 ألف دوقية (والمبلغ يساوي سبعين مليون بيزيتًا إسبانية)، ورغم غموض القرار، فقد تمكنوا بذلك من منع محاكم التفتيش من التدخل في شئونهم.

كما سُمح لهم أيضًا باستعمال لغتهم لعشرة أعوام، وكذلك ثيابهم، واعترف بعقود الزواج التي أُجريت، واعترف لهم بمقابر خاصة، وأن يُدفع للفقهاء، الذين تنصروا راتباً من أوقاف المساجد التي صودرت لصالح الكنيسة، وأقرت المساواة بينهم، وبين المسيحيين القدامى في الضرائب[200].

لكن هذا الاتفاق الذي ظل من الناحية الرسمية سريًّا حتى عام 1528م؛ لم يحل كل المشاكل، ولقد أثبت ثيسار، وغارثيا كراثيل، أن المبعوثين المسلمين كانا من الأغنياء، والمعتدلين سياسيًّا، ومن ناحية أخرى؛ فإن بعض نبلاء المسلمين (مثل هاثينتلاعمدة قرية بال دي شلبا، وعبد الله بن عامر) حصلا من الملك على هدايا قيمة نتيجة تعاونهم في عملية التنصير.

لكن الطبقات العامة لم تكن غنية، وإذا كان الأرغونيون قد بقوا هادئين، فإن بعض مناطق فالنسيا اشتعلت بالثورات.

وعلى الرغم من قصور أعمالهم الحربية لافتقادهم الجيش النظامي، فإن مقاومتهم كانت شرسة، مثلما حدث في بناغواثيل، وإسبادان التي لجأ إليها عدد كبير من سكان وادي بالنثيا Palancia ، وكانوا مسلمين مخلصين، إن الصراع بين تلك الجماعات غير المنضبطة، والقوات النظامية كان غير متكافئ إلى حد بعيد؛ لهذا لم تستمر الثورات وقتًا طويلًا؛ ففي المونانيد استسلموا في 14 فبراير 1526م، وفي 17 مارس استسلموا في بناغواثيل، وفي إسبادان ، قاوموا حتى 18 سبتمبر، وواصلوا مقاومتهم في مويلا حتى 10 أكتوبر، وكان ذلك يمثل البؤرة الأخيرة للثورة[201].

وبنهاية العام، ووفقاً لما ذكره البعض بشكل غير دقيق، لم يبقَ مسلمون في أرض إسبانيا، من الناحية النظرية على الأقل.

وخلال ربع قرن مضى، تحققت خلالها الوحدة الدينية، كذلك استطاعت

السلطات أن تحدد المناهضين، والمقاومين لسياستها التنصيرية، من خلال تفاصيل دقيقة لسلوكهم، كما تم التوصل لطرائق مؤثرة للوصول إلى تنصير حقيقي، بالإضافة إلى إعداد قائمة طويلة بالمحرمات التي تحولت لسيفٍ مُصَلَّت على رقاب الموريسكيين، ومنذ ذلك الحين اختفت من الناحية النظرية كل ألوان الغموض، وأصبح وجود تلك الأقلية نفسها موضع نقاش، وأخذت المشكلة مظهرين: قهرًا مسيحيًا، ومقاومة موريسكية، وكان لدى كل طرف إمكانياته، التي قد تؤدي إلى تجميد الإجراءات المتخذة أو الصراع المفتوح، والحرب الشاملة[202].

لقد سجل عام 1526م توقفًا ملحوظًا، لعملية القهر ضد الموريسكيين، لعدة أسباب أهمها إمكانية الاندماج بين الفئتين، والنتائج الكثيرة لذلك، والتي بدت مشجعة أمام الحكام، ومن ناحية أخرى فإن التنصير الرسمي للمدجنين أرضَى جميع الأطراف المتدخلة في الصراع في مملكة أراغون، حيث كان مصحوبًا ببعض مظاهر الإجراءات الرحيمة؛ من أجل تهدئة النبلاء الخائفين على مصالحهم[203]، ولم يكن هذا الموقف يختلف عن الوضع في غرناطة حيث جُمِّد إلى حين قرار 7ديسمبر 1526م، وتوقف كل ما يقضي بتحريم عادات الموريسكيين[204].

وفي يونيو 1526م وصل كارلوس الخامس إلى غرناطة، وبقي فيها حتى ديسمبر، فاستقبله ممثلي الطرفين؛ مما ساعده على فهم كل أبعاد المشكلة، ورغبة منه في استكمال دراسة المشكلة، قام الملك بتكليف غسبار دي أبالوس، وأنطونيو دي غيبارا، وخوان دي كنتانا، والقسيسين فرانثيسكو دي أوتيل، وبدرو لوبيث، لإجراء تحقيق، وقد أنهوا مهمتهم في سبتمبر، وكانت النتائج التي وصلوا إليها تدعو للأسف؛ وخلاصتها أن الموريسكيين كانوا يعانون من ابتزاز مستمر، ومتعدد من جانب المسيحيين، فهم يُشتمون، ويُستغلون ويُنزع الحجاب عن نسائهم[205].

في هذه الظروف اجتمع المجلس الملكي في غرناطة، ورأى ضرورة حصر الإجراءات الممنوعة، وتعدادها، كما ركز على تحديد مدى اعتبار الموريسكيين غير مسئولين عن كفرهم، وفي 14 ديسمبر كتب كارلوس الخامس رسالة إلى البابا جاء فيها: «إن اعتناق المسيحية من الموريسكيين لم يكن بإرادة الكثير منهم، ثم إنهم بعد

ذلك لم يتعلموا عقيدة إيماننا الكاثوليكي»، وفي 29 سبتمبر؛ وقَّع الملك 40 قرارًا ملكيًّا يقضي بإلغاء أو بوضع حد للاستغلال الذي كان الموريسكيون يتعرضون له، وبالإضافة لتوصيف الحالة الموريسكية الخاص ب7ديسمبر 1526م، أخذت في الاعتبار تعليمات أسقف غرناطة بيدرو دي ألبا، التي حاول فيها إجراء حملة كنسية في أقرب وقت ممكن لتعليم الموريسكيين، وتنصيرهم، وفي النهاية تجب الإشارة، إلى أن الموريسكيين عرضوا من جانبهم بأن يدفعوا ضريبة خاصة قدرها 90000 دوكية خلال ست سنوات[206].

تبع ذلك مرحلة من الهدوء النسبي لمدة ثلاثين عامًا تعايش فيها الموريسكيون، والمسيحيون القدامى تبعًا للقواعد المقررة عام 1526م، وكانت السياسة المتبعة في معاملة الموريسكيين تتأرجح بين الاحتواء، والقمع، وبشكل عام سادت سياسة الاحتواء في هذه الفترة؛ رغم كل الصراعات التي تعارض هذه السياسة، ومن الصحيح أن وعود عام 1526م لم تكن دائمًا موضع الاحترام، فمحاكم التفتيش بدأت منذ عام 1526م في مطاردة الموريسكيين في فالنسيا، وفي غرناطة منذ عام 1529م، كما احتفظ النبلاء بكل حقوقهم نحو رعاياهم لاسِيما الاقتصادية منها، أما رقصة السامبرا، وهي رقصة غرناطية موريسكية كانت تُمارس في الأعياد، فبدأ النقاش بشأنها في بداية عام 1532م[207].

لقد كانت الميزة الرئيسية لهذه الفترة تكثيف حملات التنصير، وتنظيم دقيق لدورات تعليم قواعد الدين، فلقد أشارت المجالس البرلمانية في سيغوبيا إلى الطريقة المناسبة لذلك في قشتالة عام 1532م، وبلد الوليد Valladolid عام 1537م، ومجالس مونثون البرلمانية[208] في أراغون عام 1537م، وأكدت هذه المجالس على ضرورة التنصير بمستوى رفيع، وبالطبع لم يُطبق برنامج التنصير كما يجب، فالاجتماعات الكنسية – التي كانت يجب أن تُعقد بصورة عاديه كل خمس سنوات – عُقدت مرات قليلة حينذاك، والزيارات الدعوية للكنائس، التي كان من المقرر أن تتم سنويًّا لم تتم إلا نادرًا، ومع كل هذا يجب الاعتراف بأهمية الجهود التي بُذلت، واستمراريتها.

وإذا كان الموريسكيون حتى منتصف القرن كانوا لا يزالون – في رأي البعض

من الإسبان - مسيحيين سيئين؛ فذلك يعود لقدرتهم على المقاومة، وعدم رغبتهم في الدين الجديد، مع أنه تم في مملكة غرناطة وحدها إنشاء المدارس، والقيام بحملات تنصير منظمة، كما قام مجلس الأساقفة بزيارة إلى المنطقة في عام 1537م، وكذلك قام أسقف غواديكس Gudadix بزيارتين بين عام 1550 ، وعام 1554م، وانعقد مجلسان كنسيان؛ الأول في غرناطة عام1541م، والثاني في غواديكس عام 1554م[209].

إن إصرار القيادة المسيحية على تنصير الموريسكيين، وإنهاء مشكلتهم يمكن أن يظهر في السياسة الملكية، التي وضعت تحت تصرفها خبراء حقيقيين في المشكلة الموريسكية، مستفيدة في ذلك من سلطة الملك في تعيين الأساقفة للاستفادة من خبراتهم الواسعة في هذا المجال، والمثال على ذلك الأسقف الراهب أنطونيو دي غيبارا، وهو واعظ ملكي، وكاتب مهم في نثر عصر النهضة، وفي عام 1525م قام بالوعظ بين الموريسكيين في فالنسيا، وفي نهاية العام التالي اشترك في اجتماع غرناطة، وفي عام 1529م عُين أسقفا لغواديكس، وبقي في هذا المنصب حتى عام 1537م[210]؛ مثال آخر هو غاسبار دي أبالوس الذي تشبه حياته حياة الأول لحد كبير؛ فقد عُيِّن أسقفًا لغواديكس عام 1525م، واشترك في حملات التنصير بفالنسيا، وكذلك في مجلس غرناطة قبل أن يصبح أُسقفًا لها 1528 - 1542م، ومن بين رجاله يمكن أن يُذكر مارتين بيري دي أيالا أسقف غواديكس أعوام 1548 - 1560م، وبعد أن أقام فترة صغيرة في سيغوبيا، عمل أسقفًا في فالنسيا عام 1564م ومات بعد ذلك بعامين[211].

ويمكن أن يُضاف إلى هذه القائمة بيدرو غيريرو مطران غرناطة 1546 - 1576م، وكل هؤلاء كانوا أساقفة إصلاحيين، ولعبوا دورًا ليس بالقليل في اجتماع ترينتو، كما كانوا المسئولين الرئيسيين عن سياسة الاحتواء في الفترة التي ندرسها.

من ناحية أخرى فإن دراسة النصوص المستخدمة في التنصير تكشف بصورة واضحة استمرارية الأهداف، فهناك تعليمات 10ديسمبر 1526م، وتعليمات مطران غرناطة، وكذلك تعليمات المجلس المنعقد في يناير وفبراير 1554م، بالإضافة إلى

تعليمات/ ملاحظات حول طريقة تعليم الموريسكيين العقيدة المسيحية، والتي يعود تاريخها إلى عام 1530م، ويُلاحظ أن التجديد كان قليلًا، كما كانت التعليمات تهدف إلى احتواء الموريسكيين، وهي لا تدعو القساوسة، والأساقفة فقط إلى التعاون في تلك المهمة، وإنما تدعو كل الشعب المسيحي للتعاون في ذلك[212].

كان الأساقفة على وعي بأن التنصير الكامل لا يمكن أن يتم إلا بعمل متواصل، ولهذا فبالإضافة إلى ضرورة القيام بالنشاطات في المناسبات المهمة؛ مثل صلاة الأحد، وصوم الأربعين، والاعتراف، فإنه يجب تكميلها بالتعليم اليومي، وبنشاط التجمعات الدينية، وهذه الطريقة يمكن وصفها في هذا المجال بالشعبية، وقد أُلغيت الطريقة التي كانت تدعو إلى تنصير صفوة القيادات الموريسكية، التي كانت موضع احترام، وهي التي اتُّبعت في الفترة الأولى، وكان الهدف من ذلك أن يقلد الشعب تلك النخبة المنتصرة، وقد تبنى اليسوعيون هذه السياسة نفسها فيما بعد، فلم تُترك تمامًا، وإن لم تعد تمثل الطريقة الرئيسية، ومن ثم تم توجيه الدمج إلى كافة الموريسكيين دون استثناء، وخاصة النساء، والأطفال الذين أصبحوا موضع اهتمام مركز في كل مواد الوثائق التي وردت بهذا الشأن، ولم تُنسَ كذلك العقوبات في تلك الوثائق، لكنها كانت على وجه الإجمال خفيفة، وتقتصر على الغرامات المالية، وتأتي في المقام الثاني، ومن المعلوم أن عملًا من هذا النوع يرتكز على الإقناع أكثر من قيامه بإجراءات قمعية، ويحتاج إلى وقت، وصبر طويلين، ولكي يُتوج هذا العمل بالنجاح، فإنه يجب أن يُعطى أدلة مطردة على فاعليته، وبدون ذلك، فإن العداوة المتأصلة بين الفئتين، وصراع المصالح الناتج عن ذلك لا بد أن يظهرا من جديد[213].

وكمثال على ذلك فإن الجلسة المنعقدة في سان بدرو مارتير في طليطلة، والتي استمرت من 4 فبراير، وحتى 27 مارس 1539م، أظهرت استمرار التوتر العميق بين المجموعتين، وفي هذه الجلسة دُرست طلبات الموريسكيين الغرناطيين، وكان يدور معظمها حول ممارسات محاكم التفتيش، من حيث التفريق بين الشعائر الإسلامية، واليهودية (حيث اتُّهم الموريسكيون كثيرًا بممارسة الشعائر اليهودية)، والإبلاغ بالاتهام، والعفو العام عن العقوبات السابقة، ولقد أُجيب طلبهما الأول

فقط، كما سُمح لهم بممارسة رقصة السامبرا (هي رقصة خاصة بالموريسكيين، وكانت تُرقص في احتفالات الزواج)؛ أما الطلبات الأخرى فرُفضت بعبارات واضحة، ومباشرة[214].

من هنا نرى أنه لم تكن هذه الجلسة في الحقيقة تهدف إلى منح امتيازات للأقلية الموريسكية، ولكنها على العكس من ذلك كانت تهدف إلى استئصال صفاتهم الخاصة كلها عاجلًا أو آجلًا، وأما الذين تجرأوا على الدفاع عنهم من النبلاء، فعُوملوا دون اعتبار، ولا احترام، ومنهم ماركيز مونديخار، الذي كان يؤيد طلبات الموريسكيين الغرناطيين بجفاء.

وخلاصة القول أن نظام المعايشة، الذي قررته مواثيق عامي 1525م ، و1526م أصبحت في حالة متردية، وكذلك انهار التوازن الذي تحقق بكل صعوبة خلال ثلاثين عامًا، في الفترة بين عام 1555م ، وعام 1568م.

وتؤكد الوثائق أن التوتر بدأ يزداد فجأة بين الجماعتين بعد أن فشلت سياسة الاحتواء، لقد أصبح الموريسكيون أكثر تمسكًا بالإسلام، وعاداته من أي وقت مضى، وقرروا هذا، وعزموا عليه، واكتشفوا أن النية الاحتوائية للمسيحيين لم تتغير، وأن المبالغ التي دفعوها لم تحقق لهم شيئًا، وهكذا فإن الهُوة التي تفصل بين الموريسكيين، والمسيحيين زادت عمقًا بنهاية تلك السنوات.

ومن بين أهم المشاكل السياسية التي كانت تشغل الحكام حين ذاك برزت مشكلة الموريسكيين باعتبارها أهم المشاكل خطورة؛ حيث بدأ القراصنة البربر، والأتراك يهددون بصورة متزايدة الشواطئ الإسبانية على البحر المتوسط، واسترد الأتراك طرابلس عام 1551م، كما هُزم الأميرال الجنوي أندريا دي أوريا في بونثا، وفقدَ الإسبان مضيق بينيون دي بيليث ودي لاغوميرا في عام 1554م، وبجاية عام 1555م[215].

ومع بداية حكم فيليب الثاني بقي فقط لإسبانيا على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط مليلة، ووهران، ومز الكبير، وحلق الوادي، وأصبح الموريسكيون بمثابة

الطابور الخامس داخل إسبانيا، ويمكنهم أن يسهلوا، ويساعدوا هجمات الأعداء.

والحقيقة أن الاتصالات بين اسطانبول من ناحية، والغرناطيين، والفالنسيين من ناحية أخرى، كانت واقعًا مستمرًّا، وقليلًا قليلًا اكتشفت المراسلات المتبادلة بين الطرفين، وكثيرًا منها يعود إلى عام 1560م، فعلى سبيل المثال كان هناك مشروع تحالف بين سلطاني المغرب، والدولة العثمانية ضد فيليب الثاني، وقام بدراسة ذلك الراهب داريو كابانيلاس، وكذلك مناشدة الموريسكيين، والدولة العثمانية لمساعدتهم[216].

في هذه الظروف تزايد الخوف بين المسيحيين، وكبر الأمل بين الموريسكيين، حتى كثرت التنبؤات المتداولة بينهم، وأشار معظمها إلى مجيء الأتراك لنجدتهم، وأعلن أحد الموريسكيين، ويُدعى زكريا أمام محاكم التفتيش أنه تبعًا لما ذكر في الكتب، والحكايات التي كان يملكها، فستعود هذه البلاد إلى مسلمي البربر مرة أخرى بعد فقدها[217].

في الوقت نفسه تطورت القرصنة البربرية، والموريسكية بعد أن كانت محدودة منذ نهاية حرب الاسترداد، لقد اشتدت منذ عام 1560م، حتى أن حاكم فالنسيا قام في 20يوليو 1560م بمنع الموريسكيين من الصيد؛ لأنهم جميعًا موضع شبهة بتعاونهم مع القراصنة[218].

لقد أصبح البحر المتوسط يحكمه المسلمون، وأصبحت هجمات القراصنة أكثر جرأة، وقد أحدث بعضها انطباعًا خاصًّا عندما تغلغل بعضهم داخل البلاد، مثل هجوم عام 1560م ، والذي نزل فيه القراصنة في كستيل دي فيرو Castel de ferro حتى وصلوا إلى قرية نوتايث Notaez التابعة للبشرات، وكذلك هجوم عام 1565م ، الذي كان هدفه أورخيبيا، وأخيرًا هجوم عام 1566م ، الذي كانت ضحاياه بعض قرى ألمرية Almeriaمثل تابيرناس ولوكانينا[219].

أما الموريسكيون المجاورون للأماكن المهاجمة؛ فكانوا ينتهزون الفرصة للهرب مع القراصنة إلى شمال أفريقيا، ولقد أفصح لوبي دي أوبريغون عضو مجلس بلدية

غرناطة بدقة عن الانطباع، الذي تحدثه هذه الهجمات عندما كتب بعد أحداث أورخيبيا للملك بخطاب جاء فيه: «ما حدث كان شيئًا جديدًا في هذه المملكة؛ لقد أحدث دهشة كبيرة لدى الجميع، فالمسيحيون القدامى الذين يعيشون في أماكن موريسكية عانوا من خوف كبير، لدرجة أنه بدا لهم أن مجموعة أخرى من القراصنة ستأتي لمهاجمتهم، كما ظهر أن للموريسكيين دورًا فيما حدث؛ حيث إنهم على اتصال بالمسلمين في الجانب الآخر، بالإضافة إلى أن الدفاع كان ضعيفًا، والاتصالات بطيئة»[220].

ولقد رد المسيحيون على الخطر المتزايد بصور متعددة، وبإجراءات تراوحت بين القمع، والابتزاز، إن التسامح النسبي الذي مُنح للموريسكيين عام 1526م ، كان يمثل جزءًا من سياسة أطلق عليها بيير شانو سياسة انفتاحية، وكانت تمارس هذه السياسة أيضًا مع أتباع إبراسمو، وكذلك مع اليهود المتنصرين، ومنذ عام 1555م على وجه التقريب، أي عند وصول فيليب الثاني للحكم، أصبح من المستحيل التساهل مع المنشقين، حتى إن كارلوس الخامس نفسه انزعج عند معرفته بدخول البرتوستنتينية لإسبانيا، ونصح ابنه بالحزم، وهكذا اتخذت المملكة الكاثوليكية موقفًا دفاعيًّا له أبعاده السياسية، فماكينة محاكم التفتيش تعمل بكل قوتها، وكان الموريسكيون ضحية لغيرتها الدينية، ووقعوا تحت سلطان هذا الإجراءات التي كانت توقفت سابقًا أو أخذت لونًا من الاعتدال، ثم بدأت تأخذ بعدًا جديدًا[221].

ومن الأمور التي كانت تقلق كثيرًا امتلاك الموريسكيين للأسلحة، ولهذا فليس من الغريب أن تتخذ محاكم التفتيش في أراغون إجراءات إجراءات للوصول إلى نزع كامل للسلاح في عام 1559م، وقد أسهم في فشل هذه السياسة معارضة النبلاء الذين كان يضرهم نزع سلاح رعاياهم كثيرًا، وكانت المحاكم تسعى لنزع سلاح الفالنسيين أيضًا، إلا أن النبلاء تضايقوا من ذلك، واستطاعوا تأخير إصدار هذا القرار[222].

على أن وقوع بعض الحوادث المزعجة كضياع 25 سفينة محملة بالأسلحة في إيرادورا التابعة لغرناطة في أكتوبر 1562م، وكذلك استعداد الجزائريين لمهاجمة وهران؛ كل ذلك ساعد على الإسراع بصدور قرار نزع السلاح الذي وُقِّع في 2يناير

1563م[223]. وبذلك فُتش 16377 منزلًا موريسكيًّا موزعة بين 415 قرية، وكانت المحصلة مصادرة 330 قطعة سلاح نارية و27145 قطعة سلاح أبيض[224].

وفي عام 1565م كانت مدينة غرناطة بدورها مسرحًا لعملية تحريات، وعلى الرغم من أهمية الأسلحة المكتشفة، فإن المشكلة لم تُحل بالكامل، فالكثير من الأسلحة أُخفي، ثم اكتُشف في الفترة بين عامي 1564م و1566م أن الموريسكيين في مناطق كاتايود، وبيافيلتشى بأراغون يصنعون الأسلحة، ويصدرونها لإخوانهم في فالنسيا[225].

وأما ابتزاز المسيحيين فلم يتوقف، بل سجّل زيادة في تلك الفترة، وهذا ما أعلنه أحد رؤساء الموريسكيين «فرانثيسكو نونيث مولاي» في مذكراته بقوله: «كل يوم يزداد حالنا سوءًا، والمعاملة السيئة تزيد في كل الأحوال، وبمختلف الطرق، وذلك من قبل إدارات القضاء المدني، ورجالها الرسميين، وكذلك الكنيسة، وهذا واضح جدًّا، ولا يحتاج لتأكيد»[226].

وبين عامي 1559 و1568م أحس الموريسكيون الغرناطيون أنهم ضحية عملية نهب كبيرة، عندما صدر قرار من مستشارية بلد الوليد Valladilid بإرسال القاضي الدكتور سنتياغو ليراجع حدود الأراضي، ووثائق الملكية، وفي حالة عدم حيازة الوثائق - وكان ذلك حال الأغلبية - كان يجب دفع غرامة، وإذا لم تُدفع الغرامة في حينها تُصادَر الأرض، ويُعاد بيعها، وهكذا تم تغيير ملكية 100000 هكتار، ومن بين الذين استفادوا من هذه العملية رجال الإدارة في غرناطة، وكذلك الأديرة، وقد كتب بدرو دي ديثا رئيس مجلس السكان إلى الملك في 2 مايو 1573م: «إنه نتيجة لهذه العملية استلم المحاسب إيرناندو دي باريلا مبلغ 2420997 مرابطيًّا، وهو ما يعادل 71000 دوكية»[227].

ويمكن تخيل حقد الموريسكيين الذين كانوا ضحية هذه الابتزازات، يُضاف إلى ذلك مصاعب تربية دودة القز التي بدأت تزداد منذ عام 1550م، إن تربية دودة القز، ومعالجة المادة الخام، وتسويقها كانت تمثل منذ زمن طويل النشاط الاقتصادي الأكثر ربحًا في تلك المقاطعة؛ حيث إن أغلب قرى المنطقة كانت تمارس تلك المهنة المربحة،

التي كادت أن تكون الحرفة الوحيدة في منطقة البشرات، فقد كان الفلاحون يُعدون الحرير خلال الشتاء، ويبيعونه صيفًا في غرناطة، وألمرية، وملقة؛ والأمر الأساسي في ذلك أن الحرير كان مهنة الآلاف من العمال في الحضر، وكان الحرير الغرناطي مشهورًا عالميًّا، لكنه كان يُعتبر مرتفع السعر بسبب الضرائب الباهظة المقررة عليه، ولهذا عانى الموريسكيون من منافسة الحرير الرخيص من منطقة مرسية، والذي كانت تفرض عليه ضرائب أقل، ويُهرب بكميات كبيرة إلى غرناطة[228].

بل لقد فقد الحرير الغرناطي مكانته أيضًا أمام منافسيه الأوربيين من خارج إسبانيا، وهكذا أضرت السلطات الإسبانية بمصلحة بلدها في غمار اضطهادها للموريسكيين، مما أثر كثيرًا على صغار الفلاحين في إقليم أندلوثيا.

تفاقمت القطيعة بين الفئتين، ولم تعد تحتاج لأسباب أكثر لتكون خطيرة، وقام الأساقفة بالخطوة الحاسمة في الإجراءات القهرية بعد أن خاب أملهم في نتائج حملات التنصير.

ففي عام 1565م عُقد مجلس كنسي في غرناطة كان لقراراته أهمية خاصة؛ لأنها وضعت بصورة مدروسة نهاية لسياسة الملاينة من جانب الأساقفة حتى تلك الفترة، فقد حوى نص القرار النهائي تسع مواد دعت لتطبيق كل اللوائح الصادرة قبل ذلك، والتي توقف تطبيقها منذ عام 1511م، ولم تُستعمل تلك الكلمات مثل: التبشير، والوعظ، وتعليم العقيدة المسيحية، بل استعملت كلمات تحمل صبغة القهر، والإكراه. ولم تترك تلك الوثيقة أي مظهر من مظاهر الثقافة الموريسكية إلا، وذكرته؛ مثل اللغة، والثياب، والحمام، والشعائر الدينية، ونصح الأساقفة الملك باستئصال تلك الخصوصيات كلها إلى جانب منع الموريسكيين من امتلاك العبيد، وأصبح الموريسكيون الوافدون من ذوي الأصل الأفريقي غير مسموح لهم بالإقامة في مملكة غرناطة، كما طلبوا من محاكم التفتيش أن تكثف نشاطها، وحزمها، وأن تشدِّد عقوبتها بإصدار أحكام أكثر بالتجديف في السفن.

وتناولت الوثيقة كل شيء حتى السكن؛ حيث أمروا بأن تقيم اثنتا عشرة عائلة على الأقل من المسيحيين في كل قرية من قرى الموريسكيين، وينبغي أن يستقبلهم

السادة، ثم يقدموا لهم أماكنهم، ومساكنهم ليقوموا بزيارات دورية لبيوت الموريسكيين أيام الجمع، والسبت، والأعياد، ليتأكدوا من صدق تطبيق الموريسكيين للتعليمات[229].

وفي النهاية نصح بأن يُعار كبار الموريسكيين، ورؤساؤهم عناية خاصة؛ حيث يُراقَبون بدقة، ويُعاملون معاملة خاصة ليكونوا مثالًا يُحتذى للآخرين، وقد كتبوا في هذا يقولون: «نرجو من صاحب الجلالة أن يأمر بإرسال أبناء أمراء الموريسكيين إلى قشتالة القديمة، وعلى حساب أولياء أمورهم؛ كي يربَى هؤلاء على العادات، والتعاليم المسيحية فينسوا عاداتهم، ودينهم القديم إلى أن يصيروا رجالًا» ، وقد نفذ ما أمر به رجال الدين؛ لأنه في العام التالي اجتمع رجال لاهوت، وقانونيون، وعسكريون في مدريد، وتبنوا طلبات رجال الدين، وأضافوا إليها تحريم الكتب العربية لمدة ثلاث سنوات، وقد نشر هذا القرار النهائي لذلك الاجتماع في 1 يناير 1567م[230].

وكالعادة حاول الموريسكيون التفاوض من أجل إلغاء تلك الإجراءات التي تهددهم، ولما كان الوضع خطيرًا فقد أرسلوا فرانثيسكو نونيث مولاي، وهو شيخ مهيب لا يشك أحد في ولائه، إلى الرئيس الجديد للمستشارية العُليا بدرو دي ديثا، الذي لم يستمع للرجاء المعبر الذي قدمه مولاي، ورغم فشل هذه المحاولة، فقد توسلوا إلى خوان أنريكيث - وهو مسيحي قديم - أن يقوم بالدفاع عنهم، وصاحبه اثنان من كبار الموريسكيين، هما إرناندو الحاباقي، وخوان إيرناندث مودافال، حيث ذهبوا إلى مدريد، واجتمعوا بالكاردينال دييغو دي إسبينوسا - رئيس مجلس قشتالة - ولم يغيِّر الكاردينال موقفه، وفشلت هذه اللجنة كما فشل تدخل ماركيز مونديخار[231].

كانت الفئتان، ولمدة عامين، في انتظار الحدث التالي، وعلى استعداد له؛ أما الموريسكيون فقد بدأوا يدعون إلى الثورة؛ كما يقول مارمول: «وازداد عقد الاجتماعات السرية بينهم في البيازين من خلال مظاهر مصطنعة مثل اجتماعات الرابطة الموريسكية لقيامة المسيح، أما المسيحيون، فكانوا يخافون أن تحدث الثورة

خلال الخميس المقدس لعام 1568م، ولتجنب ذلك زادوا من الإنذار، واحتجاز الموريسكيين»، وأما رجال الإدارة فكانوا يعُدون لطرد الموريسكيين الغرناطيين، واستبدال سكان من الشمال بهم، وهكذا تم تنفيذ طلبات عديدة بهذا المعنى رُفِعَتْ إلى المسئولين في الأشهر السابقة[232].

لقد أصبحنا الآن بعيدين عن تلك الأجواء التي كانت تُناقش فيها وسائل الاحتواء التدريجي، وأصبح أُولو الأمر يريدون احتواءً سريعًا، وكاملًا بأية وسيلة، أما الموريسكيون فاتخذوا الخطوة الحاسمة؛ وذلك بإعلان تمرد 24 ديسمبر 1568م.

ثالثًا: ثورة البشرات (1569 - 1571م)

تُعتبر معركة غرناطة (1568 – 1570م) من المعارك الكبرى، التي لم تأخذ حقها في كتب التاريخ؛ حيث أنها من المعارك الفاصلة في حياة الوجود الإسلامي بعد سقوط الأندلس عام 1492م؛ وكانت معركة تحدٍّ للمسلمين لرد اعتبارهم في مواجهة الإهانات، والاستفزازات لهم حتى وصل الأمر إلى دينهم، وإجبارهم على التنازل عنه، ومن هنا بدأت انتفاضة المسلمين ضد الحكم المسيحي، كان القانون الغاشم الذي أعلنته السلطات الإسبانية في أول يناير 1567م كموعد نهائي لتخلي المسلمين نساء، ورجالًا عن لباسهم الإسلامي، ولغتهم العربية، وعن كثير من عاداتهم، وجعل الشرطة مختصة بمراقبة المسلمين، مما زاد غضب المسلمين، واستفزهم، وأوغرت هذه التصرفات صدور المسلمين؛ مما دفعهم للانتفاض ضد الظلم.

الأسباب العامة الثورة: مع صعود فيليب الثاني إلى سدة الحكم سنة 1556م، حصل تغيير كبير تجاه سياسة الأقليات في إسبانيا، حيث تميزت هذه الحقبة بارتفاع التعنت، والتزمت الدينيين، فبالإضافة إلى مراقبته لفرنسا، والفرنسيين، عُرف فيليب الثاني في جميع أنحاء أوربا كقائد للمقاومة المسيحية ضد توسع النفوذ التركي برًّا، وبحرًا؛ وقد ارتفعت في ذلك الوقت بشكل لافت أصوات أولئك الذين كانوا يخشون تحالف الأتراك (عدو أوربا الموروث) مع (موريسكيي) إسبانيا، ولم يعد مغزى التحريض السياسي – ولو بشكل إلزامي – خلق الاندماج الاجتماعي

المطلق، ونسج تقارب للأقليات الدينية، والثقافة الإسلامية مع مجتمع كاثوليكي معين، ولكن الهدف الأساس كان التمييز، والفصل بإبعاد السكان الموريسكيين عن السكان الكاثوليك المتواجدين بالبلاد[233].

لقد زاد الخطر العثماني بشكل كبير على مدى خمسين عامًا مضت بسبب الخسائر الإسبانية المختلفة في منطقة البحر المتوسط، وكان هذا هو السبب الكامن وراء موجة الخوف عند الحكام المسيحيين من مؤامرة حِيكت خيوطها ضدهم بين المغاربة المسلمين، والدولة العثمانية، وفي هذا الإطار تطور جهاز بيروقراطي لا يرحم، كان المسئولون عنه يحملون أفكار الملك فيليب الثاني، وقد ساعدهم في ذلك التغيير المتسارع، والواضح لمحاكم التفتيش[234].

الأسباب الاجتماعية والحضارية: أصدر فيليب الثاني في عام 1567م مرسومًا تضمن اتخاذ إجراءات قمعية، بحيث حظر على موريسكيي غرناطة استخدام اللغة العربية، حديثًا أو كتابة، ومنع تداول الكتب أو الوثائق المحررة بالعربية، أيًّا كان محتواها، وحظر عليهم ارتداء ملابسهم التقليدية «اللباس الموريسكي»، كما حظر على النساء تغطية جزء من الوجه، ولا يستخدمن الحناء في نقش الأيدي أو الأقدام أو في صبغ الشعر، وحظر عزف الموسيقى الموريسكية في حفلات عقد القرآن، والزفاف، كما حرم عليهم استخدام الحمامات، أو استعمال أسماء، وألقاب عربية، وصدرت الأوامر بأن يترك الموريسكيون أبواب دورهم مفتوحة، إضافة إلى منعهم من تملك العبيد، وقد أثار ذلك ذهولًا كبيرًا في غرناطة[235].

أدى هذا المرسوم لظهور نص اكتسب أهمية غير عادية، تمثَّل في عريضة قدمها النبيل الموريسكي نونييث مولاي إلى محكمة غرناطة أكد فيها بالحجج؛ أن اللباس الموريسكي لا يرمز إلى الدين، ولكنه شكل من أشكال التنوع، والسمات الإقليمية الخاصة بالمنطقة؛ إذ يختلف اللباس الغرناطي عن اللباس القشتالي أو الفالنسى، وأن العربية لا تعني الإسلام، لأن المسيحيين في الشرق يتحدثون العربية، وأن وضع الغرناطيين اللغوي إنما هو علامة تمييز إقليمية شأنهم في ذلك شأن القطالونيين أو الجليقيين Gallegos؛ فهم يتحدثون بلغة مختلفة دون أن يكون لهذا علاقة بالعقيدة،

إذن كانت هذه محاولة من جانبه[236].

لقد أراد نونييث مولاي أن يفصل المعالم الثقافية الغرناطية عن الهوية الدينية، لكي يجمع الموريسكيين في هوية إقليمية لا تتناقض مع المسيحية على الإطلاق، بدليل الوجود المسيحي في الشرق، كما أراد أن يوضح أن الغرناطيين لم يكونوا متفردين، لأن أبعاد التباين واضحة في اللغات، والأزياء، والعادات بين مختلف أقاليم إسبانيا، وشدد كثيرًا على أن الموريسكيين، وعاداتهم «ينتمون إلى الأرض»، وأشار إلى أنه من الصعوبة تغيير الاسم على وجه الخصوص؛ لأن ذلك يعني ضياع الأسر، والأنساب، أحد أركان الهوية الموريسكية، وكذلك الارتباط بالجماعة، وبمنع اللغة أيضًا ستضيع الوصايا، ومحررات الأراضي، والعقود، فهل يتساوى الجميع بدون نسب، وبلا ميراث أو عبيد؟ هكذا سجل النبيل الموريسكي احتجاجه، وأن هذا المرسوم في المجتمع الإسباني المعروف بتعدد الطبقات، من شأنه أن يحكم على الموريسكيين بالتهميش، وجعلهم في أدنى طبقات المجتمع، إضافة إلى محو سماتهم الثقافية الخاصة إلى الأبد، إلا أن أحدًا لم يُعِرْه أي اهتمام[237].

ومما سبق نرى أن الموريسكيين كانوا أمام مؤامرة كبيرة تهدف إلى طمس الهوية، والعقيدة على السواء، فكان من الطبيعي أن يتحرك كبرائهم لعرض الأمر أمام المسئولين، لقد بدأوا محاولتهم بعقلانية، نلاحظ ذلك في رفع اعتراضهم من خلال النبيل الموريسكي مولاي، لكنهم لم يجدوا اهتمامًا بمذكرته، وشكواه، فكان من الطبيعي أن يتحرك هؤلاء لعرض اعتراضهم بطريقة أخرى يفهمها المسئولون على أرض الواقع، وهكذا كانت ثورة البشرات التي خسر فيها الجميع.

الأسباب الاقتصادية: اعتمد الأندلسيون في قشتالة على الزراعة، وصناعة الحرير، وكانوا بصورة عامة مبعدين عن شغل الوظائف الحكومية أو المراتب العالية كمعظم الأقليات، وكان من بينهم التجار الصغار، والعمال، وأصحاب المهن الصغيرة، ومع أن بعضهم تصادف أنهم كانوا من الأثرياء، فإن مستوى معيشتهم كان منخفضًا بصورة عامة.

أما الاضطهاد الذي تعرض له الأندلسيون، خاصة في غرناطة، فأدى إلى اعتماد

أهل المدينة على الاتجار بالحرير وصناعة الملابس الحريرية، ولذا فإن ثروتهم الأساسية، كانت إما في الحرير أو الذهب، والأحجار الكريمة التي يمكن إخفاؤها أو نقلها بسرعة لو استدعت الضرورة ذلك، إضافة إلى هذه الأنشطة عمِل آلاف الأندلسيين في الموانئ، والنقل، ولاسِيما باستخدام الحمير، والبغال في عمليات نقل البضائع.

ولابد أن أعدادًا كبيرة منهم كانت تشتغل في مصانع صغيرة لإنتاج الورق، والسكر، والصابون، والتبغ فيما بعد، ولاسيما في المعمل الذي أُقيم في أشبيلية، ولقد عرف عن الأندلسيين الجد، والنشاط حيثما وُجِدوا، فقد يصل الأندلسيون منفيين أو مرتحلين من غرناطة، لسبب أو لآخر، إلى منطقة ما دون أن يكون معهم الكثير، ولكن جدهم كان يوفر لهم الدخل، ومع الزمن كانوا يجمعون ثروة، وقد يوظفون البعض من سكان المنطقة التي يقيمون فيها لمساعدتهم[238].

ثم جاء اضطراب الأوضاع في غرناطة، وتقاتل أطراف السلطة هناك على النفوذ، في وقت تعرضت فيه صناعة الحرير لكساد عام بسبب سياسة الحكومة التي عمدت أولًا لمنع تصدير الحرير المصنوع في غرناطة، ثم إلى فرض ضرائب باهظة على الحرير اعتبارًا من سنة 1562م، فكان أهل غرناطة المتأثرين الوحيدين تقريبًا من هذه السياسة الموجهة، ومن ثم كان الالتفات إلى الزراعة لتحقيق دخل أكبر يخفف من الاعتماد على صناعة الحرير المضطربة.

على أن ذلك اصطدم بمشاكل جديدة، خاصة، وأن محاكم التفتيش كانت تصادر أراضي الأندلسيين المتهمين بالهرطقة.

لقد كانت السلطات تختلق كل الأعذار لزيادة دخل عمالها، وكانت الحكومة مشغولة بإعادة النظر في توزيع أراضي غرناطة، ومصادرة ما تعتقد أنه ملك للإمبراطور، يُضاف إلى هذه الصعوبات ارتفاع الضرائب التي كانت تُفرض على الأندلسيين، واضطرارهم لاستضافة جنود الحاكم العسكري في البيازين، فكان ذلك عبئًا اقتصاديًّا كبيرًا على مصادرهم المحدودة، وكان مضايقة اجتماعية هائلة، خاصة لأن الجنود كانوا مجرد أعين للدولة يحملون إلى قادتهم أخبار تصرفات أهل البيت، الذي ينزلون فيه، ويتلصصون عليه، وفي مثل هذه الظروف كان السعي وراء

زيادة دخل الأسرة الأندلسية مضنيًا، فالحكومة كانت لهم بالمرصاد، وتحسن مستوى أسرة ما كان بادرة لفرض ضرائب إضافية عليها، ولذا فإن الدوافع النفسية التي يجب أن تتوفر لتحسين الدخل كانت معدومة في السنوات القليلة التي سبقت اندلاع ثورة البشرات[239].

الأسباب الثقافية: قامت السياسة الإسبانية بتهميش المجتمع الموريسكي، وتجهيله تمامًا بعد أن قدم رصيدًا فنيًّا، وحضاريًّا، ومعرفيًّا لم تعرفه مجتمعات البحر الأبيض المتوسط الأوربية إلا مع عصر النهضة، لقد حرمت عليهم تعليم اللغة العربية، وأمرت بالاستيلاء على كل المدارس، وملاحقة الفقهاء، والمعلمين الذين كانوا يقومون سرًّا بتعليم الأطفال المسيحيين، ومنعت الالتحاق بالجامعة، ولا الحصول على الثقافة العلمية بسبب قوانين صفاء الدم[240].

وتشير بعض الوثائق الإسبانية إلى محاكمة أحد الموريسكيين من طرف محاكم التفتيش، ومعاقبته كجداف على ظهر السفن الإسبانية، بسبب العثور على عدد من الكتب العربية في بيته[241]، ولقد أنتج هذا الصراع الحضاري الثقافي أدب «الألخميادو»[242] حيث ترك الموريسكيون تراثًا ثقافيًّا عمَد مؤلفوه إلى تسجيله بلغة جديدة، وخصاله تُعدُّ من ابتكاراتهم؛ إذ تؤكد المصادر التاريخية انتشار هذه الثقافة الهجينة في إسبانيا على امتداد القرنين السادس عشر، والسابع عشر[243].

ومن هنا؛ فإن المخطوطات الموريسكية نتاج مرحلة ارتبطت زمنيًّا، ومكانيًّا بالصراع الحاد في إسبانيا بين ديانتين، ونظامين حضاريين يختلفان سياسيًّا، واجتماعيًّا، وثقافيًّا؛ مما أدى بالموريسكيين إلى اتباع مقاومة ثقافية ترفض كل أشكال الثقافة الإسبانية، وهذا ما يؤكده «لوي كاردياك» بقوله: «يبدو لنا الموريسكيون، وهم يعيشون عيشة مزدوجة؛ إحداهما رسمية، ومسيحية، والثانية دخيلة إسلامية، وإن ذلك ليظهر في أعظم الأوقات من حياتهم، حيث يجتمعون بين شعيرتين»[244].

ونلاحظ أن التراث الموريسكي الأندلسي شمل كل مناحي الحياة، مما لا يدع مجالًا للشك في أن محاولة إذابة المجتمع الموريسكي في المجتمع الإسباني قُتلت في مهدها، وحكم عليها بالفشل.

الأسباب المباشرة للثورة، ومقدماتها، وأحداثها:

عشية أعياد الميلاد عام 1568م اجتمع الثوار، وأعلنوا عصيانهم، وثورتهم، في قرية بيثنار Beznar (في وادي لكرين)، وأعلنوا إيرناندوا دي كوردوبا ملكًا لهم، فاتخذ له اسمًا إسلاميًّا هو «ابن أمية»، وفي اليوم نفسه تمردت العديد من قرى مناطق أورخيبا، وبوكيرا، وخوبيليث، ثم تبعتها أغلب قرى البشرات، وفي ليلة ذلك اليوم توجه مساعد ابن أمية، فرج بن فرج، على رأس العشرات من أتباعه إلى البيازين، وحاول دفع سكانها للثورة، ولكنهم لم يتحركوا؛ فترك الحي، وعاد أدراجه مع مئات من تابعيه المخلصين[245].

أما الأسباب المباشرة لذلك، فكانت تتمثل في حضور القسيس بيدرو جيريرا مجمع تارانت، حيث أظهر فيه كثيرًا من الحماسة، فلمع اسمه فيه، وعندما عاد إلى إسبانيا جعل من نفسه مراسلًا يوافي الفاتيكان بأنباء إسبانيا، وخصوصًا بأنباء العرب فيها، وحالتهم، ويقول الكونت سيركور إن تقارير جيريرا ما كانت تدل على وعي، وفهم للواقع، وكان من نتيجتها غش البابا بيوس الرابع، وخداعه، ولما رأى البابا حماسة جيريرا، كلفه بأن يبلغ الملك فيليب الثاني؛ أنه يستنكر تسامحه مع العرب في ممارسة ديانتهم، وعاداتهم، وتقاليدهم التي تُعتبر في نظره نوعًا من الهرطقة، ويطلب إليه اتخاذ تدبير صارم بحقهم، ليجتث جذور هذه العادات، والتقاليد[246].

ولما بلغ جيريرا الملك أمر البابا، تردد الملك في اتخاذ تدبير قد يزيد الأمر تعقيدًا، ولم يقطع في الأمر، وإنما تركه للزمن يحله، لكن جيريرا عاد يراسل البابا، ويلح على الملك باسم الفاتيكان، وفي سبتمبر 1565م دعا الأساقفة، وحملهم على توقيع طلب إلى الملك يرجونه فيه تطبيق الأمر الملكي الصادر عام 1526م بحق العرب، وفي تلك الأثناء مات المحقق العام «دون فيرناندو فالدس»، وحل محله الكاردينال «دون داسبينوزا» الذي تصفه الروايات الغربية بأنه كان خصمًا لدودًا للعرب، فاتفق مع كاردينال غرناطة على أخذ العرب بالشدة، وعلى تعيين مفوضين يطوفون أنحاء المملكة، ويقدمون تقاريرهم عن حالة العرب؛ ثم تألفت لجنة لمناقشة التقارير، وفحص حالة العرب، وتقديم المقترحات التي تراها مناسبة، كانت اللجنة مؤلفة من

كبار رجال الدين، وبعض كبار الموظفين المدنيين، والقادة العسكريين، وبعد عدد من الاجتماعات تغلب رأى رجال الدين، فقدمت اللجنة توصياتها الرامية إلى التشدد في تطبيق الأمر الصادر عام 1526م، ولم يجرؤ المدنيون على معارضة رأى رجال الدين، وكان مما اقترحته اللجنة:

1. منع استعمال اللغة العربية، والعادات، والتقاليد العربية منعًا باتًّا.
2. منع التسمي بأسماء عربية، وتحريم لبس الألبسة العربية.
3. هدم الحمامات، وكل ماله مظهر حمام أو جامع.
4. منع العرب من أن يمتلكوا عبيدًا.
5. إجبارهم على ترك أبواب بيوتهم مفتوحة خلال الأعياد لمراقبة ما يجري فيها.
6. إجبار النساء العربيات على كشف وجوههن حينما يسرن في الشارع[247].

قدمت اللجنة تقريرها، ومقترحاتها إلى الملك بواسطة الكاردينال «دوديسا» رئيس الإدارة المدنية في غرناطة، فأصدر الملك بها أمره المؤرخ في 17 أكتوبر 1566م، كان القائد العام المركيز (دو مونيخار) في البلاط حين صدور الأمر، ولما علم به انتقده أشد الانتقاد، وأبدى مخاوفه من مغبة تطبيقه، وحاول أن يحول دون إعلانه، فلم يقبل الكاردينال المحقق العام «دا سبينوزا» بإدخال أي تعديل على الأمر، وطالب بتنفيذه كما جاء[248].

ولما وصل الأمر إلى غرناطة قرر «دوديسا»، أن يجعل إعلانه يوم يناير 1567م، وهو يوم الذكرى السنوية لسقوط غرناطة، وحاول أن يمهد للأمر ليخفف من وقعه على العرب، لكن زعماء العرب لم يقبلوا التعاون معه، فتولى هو دعوة العرب إلى ميدان باب البنود، الذي كانت تجري فيه مراسم الاحتفال بارتقاء ملك جديد للعرش في عهد بني الأحمر، ولما أذاع دوديسا الأمر على العرب علاهم الوجوم، وبدت عليهم علائم الثورة، فكيف لهم أن ينسوا كل الماضي العريض لقومهم في الأندلس؟ وحاول العرب وقف الأمر أو إبطاله بالمراجعات الرسمية، فلم يفلحوا، وشرعت السلطات بملاحقة العرب لتنفيذ الأمر الملكي، كما زادت في تعسفها،

ومضايقاتها تنفيذًا للأمر المتعلق بمنع المسلمين من حمل السلاح إلا برخصة[249].

سببت الملاحقات كثيرًا من المشاكل، والمآسي، وابتزاز الأموال، فلم يجد الناس ملجأ لهم من السلطة، والقضاء إلا في معاقل المنفيين بجبال الثلج (سيرا نيفادا)، وهناك تزايد عددهم، وأصبحوا يشكلون قوة لا بأس بها، وبدأت فكرة الثورة تختمر في رءوس المنفيين، وزعماء البشرات، وأصبح الجميع يرون أن الثورة هي الوسيلة الوحيدة لوقف التعسف الإسباني، وكان آخر ما ألحقه دوديسا بالعرب من إساءات هو تجنيد قوة من الشرطة، أجبر العرب على تحميل نفقاتها، لتقوم بالسهر على الأمن في الأحياء العربية، وتقصي المعلومات عن نشاطهم، وتحركاتهم[250].

أدرك القادة الغرناطيون أن الثورة أصبحت أمرًا لا غنى عنه، وقدروا أنه ليكتب للثورة النجاح لا بد لها من توافر عنصرين؛ أما العنصر الأول، فيتمثل في المشاركة الفعلية لجماهير العرب في مملكة غرناطة، وفي المناطق المحيطة بها على أوسع نطاق؛ ليتوافر للثورة الرجال المحاربون، وليجعل اتساع نطاق الثورة صعبًا على السلطات الإسبانية حصرها، والقضاء عليها في مهدها، وأما العنصر الثاني فيمثل في العون المادي بالرجال، والسلاح من السلطات الإسلامية في المغرب، والجزائر بسبب قربهم من إسبانيا، وسهولة وصول الإمدادات من خلالهم، ولقد كان هذا العون ضروريًا لنجاح الثورة؛ لأنه يوفر لها الأسلحة الحديثة التي لم يكن لدى الشعب الأندلسي كثير منها، كما يوفر للثورة الرجال المتطوعين المُلمين بأصول الحرب، واستعمال السلاح الناري[251].

ومن هنا شَرع هؤلاء القادة بالاتصال بالسلطات المغربية، وبالسلطات التركية في الجزائر من جهة، ومن جهة أخرى بالاتصال بإخوانهم الأندلسيين في المناطق المحيطة بغرناطة، لمعرفة مدى استعداد هؤلاء، وأولئك للمساهمة الفعالة الجدية في الثورة القادمة إذا ما نشبت.

بذل القادة الغرناطيون جهدهم للوقوف على استعداد إخوانهم الأندلسيين للمساهمة في الثورة، وعملوا بتكتم شديد لكيلا تطلع السلطات الإسبانية على شيء من مخططاتهم، فتحبطها، ولاحت الفرصة المواتية لهم للعمل، والطواف في المناطق

الإسلامية، فاغتنموها، فقد أُجيز للعرب تأسيس جمعية خيرية لمساعدة الفقراء، والمرضى منهم، وشرعوا في مستشفى لهم خارج أسوار غرناطة، ولكن المال نفد قبل إكمال البناء، فاقترح قادة الثورة على رئيس الجمعية إيفاد بعض أعضاء الجمعية لجمع المال من عرب المناطق المجاورة، فوافق[252].

وبعد موافقة دوديسا على الطلب، وسماحه للجمعية بجمع المال، أرسلوا شخصان من أعضاء الجمعية المؤمنين بفكرة الثورة للطواف، وكلفوهما بزيارة جميع البيوت، وتقصي رغبات إخوانهم، وإمكاناتهم، ومدى استعدادهم للمساهمة المادية في الثورة، كما طلبوا إليهما إحصاء الأشخاص القادرين على حمل السلاح الذين تتراوح أعمارهم بين 20و40 سنة، والذين يرغبون في الانضمام للثورة إذا اندلعت نيرانها، ولقد كان الموفدان مثالًا للذكاء، فعملا بنشاط، وتكتم شديدين، وبحثا الأمر، ووقفا على رغبات من اتصلا بهم دون أن يفطن أحد إلى مهمتهما، واتخذا لنفسيهما صندوقين يضعان في أحدهما المبالغ المجموعة للإعانات، وفي الثاني يضعان قطعة نقدية عن كل ذكر قادر على القتال، وراغب في الاشتراك فيه، وتذكر الروايات الإسبانية إن الموفدين المذكورين دخلا 120 ألف بيت، وبحثا الأمر مليًّا مع جميع من اتصلا بهم، ولكن بحذق كبير، وشددا على إخوانهما بضرورة الكتمان، ولما عاد المرسلان إلى غرناطة، فتح القادة الصندوق المخصص لإحصاء القادرين على الاشتراك في القتال، والراغبين فيه، فتأكد لهم أن فيه 45 ألف قطعة نقدية، وهذا يعني أن الثورة تستطيع أن تعتمد على مساهمة هؤلاء فيها[253].

كما أوفد القادة رسلًا إلى السلطات المغربية، وإلى السلطات التركية في الجزائر، يبحثون الأمر معها، وقد تكللت مساعي الموفدين بالنجاح؛ إذ وعدهم شريف مراكش بالنجدة إذا استطاعوا حشد قوات ذات أهمية يمكنها إحداث أثر على سير الأحداث، أما علوش علي باشا والي الجزائر التركي، فوعدهم بإرسال قوات تنزل في شواطئ الأندلس، حينما يطلبون ذلك، وأرسل معهم عددًا من المتطوعين الجزائريين مسلحين بأحدث الأسلحة [254].

إن نتائج الاتصالات بالعرب الأندلسيين، وبالسلطات الإسلامية في المغرب،

والجزائر، شجعت قادة الثورة على المضي في استعداداتهم، وجرأت الوعود قادة المنفيين فأخذوا ينزلون من معاقلهم إلى مرج غرناطة في وضح النهار، يعاقبون الإسبان على ما يرتكبونه من جرائم بحق العرب، وراجت إشاعات كثيرة عن وصول قوات تركية جزائرية إلى إسبانيا، وتقول الروايات الإسبانية إن الجميع من عرب، وإسبان، أدركوا أن شيئًا ما سيقع، دون أن يدري أحد ماهو، ومتى يقع، ولم يكن هناك إلا شخصان لم يقتنعا بإمكان حدوث الثورة، وهما دوديسا (رئيس الإدارة المدنية) ، والماركيز (دو مونيخار) القائد العام للجيش، فقد اعتقد كل منهما أن الأمر لا يعدو أن يكون شائعات، وأن العرب إذا كانوا سيقومون بثورة، فإنهم ألفوا التكتم، والحرص[255].

وخشي القادة افتضاح الأمر؛ فذهب أحدهم إلى دوديسا، يشكو إليه باسم العرب من الإشاعات المغرضة التي تلفق حول قرب نشوب ثورة يقومون بها، وقال له إن مُثيري هذه الشائعات، إنما يقصدون من ذلك زيادة التعديات على العرب، والانتقام منهم، وعرض أن يقدم العرب للسلطات 300 رهينة، وطالب بإجراء تحقيق في الأمر، ومعاقبة من تثبت إدانته، فصرفه دوديسا معتقدًا أن الأمر لا يعدو الشائعات[256].

وفي الوقت نفسه عاد القائد العام «المركيز دو منديخار» من البلاط بعد أن أكد للمسئولين أن العرب لن يثوروا، واتصل بوجوه الأندلسيين، وأكد لهم أنه سيمنع عنهم تعديات الكاردينال دوديسا إذا تعاونوا معه، وأنه سيحل قوة الشرطة التي ألفها دوديسا، وألزم العرب بنفقاتها، فوعدوه بالتعاون معه، وأرسل الماركيز تقريرًا إلى البلاط ضمنه نتائج اتصالاته بالعرب، وطلب الموافقة على حل فرق الشرطة، فوافق البلاط عليه، لكن دوديسا تمكن بعد حين من استصدار أمر من الملك بإلغاء الأمر الصادر بحل فرق الشرطة، وفي ذلك الحين كانت تتوالى الأخبار على البلاط بقرب ثورة العرب، فكان يحيلها لسلطات غرناطة للتحقيق في مضمونها[257].

كان بين الكاردينال دوديسا، وبين القائد العام دو مونديخار تنافس شديد، وقد خدم هذا التنافس العرب في ستر حركتهم؛ إذ كان كل منهما يسعى لإفساد خطط الآخر؛ فدوديسا كان يحاول إقناع البلاط بعدم وجود نية لدى العرب للقيام بحركة؛ ليمنع

الماركيز من تدعيم سلطانه، وزيادة قواته، وزيادة نفوذه، وانفراده بوضع المخططات بحجة المحافظة على الأمن، ومنع وقوع الثورة، والماركيز يحاول إقناع البلاط بهدوء العرب ليتوصل إلى إضعاف نفوذ الكاردينال عن طريق حل فرق الشرطة الخاصة التي أقامها الكاردينال، وألزم العرب بدفع نفقاتها، وأصدر دوديسا على سبيل الاحتياط أوامر ترمي إلى ضمان الهدوء، ومنها أمر يقضي بإبعاد جميع الغرباء عن حي البيازين بدون استثناء، وأمر يقضي بعقوبة الأشخاص الذين يتعاونون مع المنفيين[258].

وفي الأول من يناير 1568م صدر أمر يقضي بأن يسلم العرب أولادهم الذين تتراوح أعمارهم بين 3 سنوات و15 سنة إلى السلطات لإدخالهم المدارس، وتلقينهم المسيحية، واللغة الإسبانية، ولقد كان لهذا الأمر أبعد الأثر في دفع العرب إلى الثورة؛ إذ أدركوا أن السلطات الإسبانية تلاحقهم بلا هوادة، ولا أمل لهم في حملها على التراجع عما اعتزمته من اضطهادهم[259].

جاء رد الملك على مراجعات العرب حاسماً لا يقبل المناقشة، فأدى ذلك لاتخاذ العرب قرارهم بالثورة، وشرعوا في إعداد العدة لإعلانها في الوقت المناسب، ونشط القادة الغرناطيون في عقد الاجتماعات مع زعماء البشرات الذين ستكون منطقتهم منطلق الشرارة الأولى للثورة[260].

وفي الاجتماع الثاني الذي عُقد في غرناطة تقرر أن يكون يوم الخميس المقدس 14 أبريل 1568م موعدًا لإعلان الثورة، ووزع المجتمعون المهام فيما بينهم، للإسراع بإتمام الاستعدادات قبل حلول الموعد، والاتصال بسلطات الجزائر، ومراكش لتأمين السلاح، والمتطوعين، وبقادة المناطق الأندلسية، ليكونوا على استعداد للتحرك في الموعد المحدد[261].

لم يستطع الرسل، الذين كُلفوا بالاتصال بقادة العرب في مملكتي مرسية، وبلنسية، إقناع إخوانهم في المملكتين بالثورة في نفس الوقت الذي تنطلق فيه ثورة عرب غرناطة، ولا يدري أحد اليوم الأسباب التي دفعت بعرب هاتين المملكتين إلى اتخاذ هذا الموقف المتخاذل، ولكن من المُرجح أنها تعود إلى الموقف المتربص، الذي وقفه عرب مملكة غرناطة إبان ثورات بلنسية[262].

لم يعلن الأندلسيون ثورتهم في 14 أبريل 1568م كما كان مقررًا، وإنما أجلوا الموعد مرتين، وفي 27 سبتمبر 1568م دعا ابن جوهر قادة الثورة لعقد اجتماع في حي البيازين، وشرح لهم في هذا الاجتماع الأسباب التي تدعوهم إلى إعلان الثورة في أسرع وقت، وتعيين القائد العام لها ليتمكن من إدارتها، وتنظيمها، وبعد أيام استدعى ابن جوهر ستة وعشرين شخصًا من مُختاري البشرات، وجميعهم من رؤساء التنظيم في حي القصبة، وطالبهم بانتخاب الشخص الذي يرونه أهلًا لأن يكون ملكًا للمملكة العربية التي ستعلنها الثورة من جديد، ورشح لهم ابن أخيه فرناندو محمد، فوافق المجتمعون على انتخابه بالإجماع[263].

كان فرناندو في الثانية والعشرين، وسيمًا شجاعًا، ومن أحفاد بني أمية، ولما تم انتخابه اتخذ اسم مولاي عبد الله محمد بن أمية ملك غرناطة (وتسميه الرواية الإسبانية دون فرنانديللو ملك البشرات)، ثم نصبه أصحابه وفقًا للمراسم العربية، فألبسوه ثوبًا أحمر، ووضعوا على رأسه عمامة، وأجلسوه متجهًا جهة القبلة على أربعة أعلام تتجه حرابها للجهات الأربع، ثم نهض؛ فصلى بالحاضرين، وأقسم أمامهم على أن يموت دفاعاً عن دينه، وحريته، ومملكته، وشعبه، وتقدم الحاضرون بعد ذلك، فرفعوه على أكتافهم، وأخذوا في التهليل، والتكبير، ودعوا الله أن يبارك ملكهم، ويوفقه، وينجح ثورتهم، وبعدها عيَّن الملك عمه ابن جوهر قائدًا عامًّا للثورة، ثم عين ضباطه، واتفق الحاضرون على أن يكون موعد إعلان الثورة ليلة عيد الميلاد عام 1568م[264] (انظر لوحة رقم 4 – 5 لانتخاب محمد ابن أمية قائد للثورة).

كما تم الاتفاق على أن يكون إعلان الثورة بالشكل التالي: حينما تظهر الإشارة المتفق عليها من أعلى مرتفع جبل الحمراء، ينتظم أهل البيازين في ثلاثة كتائب، ويزحفون إلى ساحة باب الرملة، ولا يتوقفون في طريقهم إلا لإخلاء السجون، والقبض على القضاة، وحينئذ يسرع ثمانية آلاف رجل من أهل مرج غرناطة، ووادي الكرين لمهاجمة أبواب المدينة، ويلبس هؤلاء زي الجنود الأتراك أو الزي البربري ليظن الناس أنهم نجدات، فيشتد عضدهم، ويتقدم في نفس الوقت ألفا رجل من «المنفيين» بقيادة القائدين «البرطال» و«الناقص» عن طريق «وادي شنيل» ليكمنوا بالقرب

من غرناطة، حتى إذا أُعلنت الثورة تقدموا لمهاجمة الحمراء من جهة جنة العريف، للاستيلاء عليها، وإذا ما حصل لبس في الإشارة يُستعمل المدفع كإشارة ثانية[265].

بحلول شهر ديسمبر تحدث الناس عن قرب وصول ستة آلاف جندي تركي إلى إسبانيا ليلة عيد الميلاد، وفي 23 ديسمبر جاء إلى أحد القسس رجل، تقول الرواية إن اسمه فرانسوا بن آدم، ليعترف لديه، فأفضى إليه بمعلومات منها أنه أعطى بعض المسلمين معلومات عن مقاييس سلالم الحمراء، فأبلغ القسيس ذلك فورًا للكردينال دوديسا، وللقائد العام، فلم يصدقا هذه الأقوال، وكان كل ما اتخذه القائد العام من احتياطات هو زيادة عدد الدوريات، وفي ليلة 23 ديسمبر هرب ابن أمية من غرناطة إلى البشرات، وتختلف الروايات في أسباب هربه؛ فمنها ما يقول إنه هرب لقرب موعد اندلاع الثورة، ومنها ما يقول إنه إنما هرب ليثبت حقه في البشرات، ويحصل على البيعة، ويفوت الفرصة على منافسه فرج بن سراج[266].

في ليل 23 ديسمبر وقع حادث في البشرات لم يترك للعرب خيارًا، فحملوا السلاح، وأعلنوا الثورة؛ ووفقاً لرواية إسبانية فإن مفرزة إسبانية مؤلفة من ضابط، وخمسين جنديًّا كانت تنقل شحنة بنادق إلى البشرات، وكان من عادة هذه المفارز ارتكاب ما يحلو لها من سلب، ونهب، والقيام بالتعديات، ولما حل المساء اتجهت المفرزة إلى قرية للمبيت فيها، ويبدو أن بعض أفرادها خرجوا يبحثون عن شيء يسرقونه، فالتقى بهم «استيبان البرطال»أحد قادة المنفيين، فقتلهم، ثم أمر ابن جوهر المنفيين بالقضاء على بقية رجال المفرزة، والاستيلاء على أسلحتهم[267].

كانت تلك الحادثة الشرارة التي أشعلت فتيل الثورة، وبعد ثلاثة أيام كان لهيبها قد عَم كل مكان في مملكة غرناطة، فوصلت إلى المرية، ووادي الكرين، ثم انقضَّ الثائرون على رجال الحاميات الإسبانية في المناطق الثائرة، فقتلوا بعضهم، وأسروا أكثرهم، ولم يستطع هؤلاء المقاومة نظرًا لاتساع نطاق الثورة، وشمولها كل مكان، ولم يبقَ بيد القوات الإسبانية إلا قريتا «أورجبة»، و«أجيجر»، وهنا اتجه ابن جوهر مع القوات لحصار «اوشيخار»، وذهب فرج بن سراج إلى غرناطة لإشعال نار الثورة فيها، وفقًا للمخطط الموضوع[268].

تَوَجَّه فرج مع 180 رجلًا من المنفيين إلى غرناطة، وكان الجو باردًا، والأرض تكسوها الثلوج، اتصل فرج، وأصحابه بقادة البيازين، محاولًا حملهم على تنفيذ الخطة المتفق عليها، وإعطاء إشارة الثورة، لينطلق رجال البيازين، ورجال المرج، ووادي الكرين لتنفيذ المهام المنوطة بهم، فرفضوا ذلك لما رأوه من قلة رجال فرج، وقالوا له: كيف تريدنا أن نقدم 8000 رجُل بينما تأتي أنت مع أربعة من الحفاة، ولما يئِس فرج من إقناعهم، هددهم بأنه سيحملهم بالقوة على الثورة أو تركهم يهلكون[269].

بعدها تفرق رجاله في غرناطة ينادون بإعلان ثورة الإسلام، وبعث المملكة الأندلسية، ويحثون الناس على النهوض لحمل السلاح للثأر لكرامتهم المهانة، ودينهم المضطهد، والانضواء تحت علم الثورة، لكن أهل غرناطة لم يتحركوا، ولم ينفذوا ما تعهدوا به في المؤتمر التحضيري للثورة، مع أن القائد العام الإسباني لم يتخذ أي تدبير احتياطي حتى ذلك الحين، بل إن البرد، والثلوج أجبر دوريات الجيش على قصر أعمالها على ما لابد منه[270].

لكن جميع الجهود، والمحاولات التي بذلها فرج، وأصحابه لم تفلح في حمل أهل غرناطة على الثورة، وفي الصباح انسحب فرج، وأصحابه من البلدة، وساروا تحت لوائهم بانتظام أمام سمع الإسبان، وبصرهم، فلم يجرؤ أحد منهم على اللحاق بهم، ولما وصلوا إلى وادي نهر شنيل، توقفوا هناك لبعض الوقت، لعل مدافع الحمراء تنطلق، فيلتبس الأمر على رجال المرج، ويقوموا بهجومهم المقرر، ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث، فانسحبوا إلى البشرات[271].

هنا تحرك نصارى غرناطة يتنادون إلى السلاح، والانتقام من المسلمين، فأخذ المسلمون يهربون بنسائهم، وأطفالهم إلى البشرات، وينضمون إلى جماعة فرج، وأرسل القائد العام بعض القوات لمطاردة الهاربين، وقبضوا على بعضهم، وخاف أناس من المسلمين، وقوع نسائهم، وبناتهم في يد الإسبان، فقتلوهن إنقاذًا لشرفهن، وإن تمكن فرج، وأصحابه من إنقاذ الكثيرين؛ إذ تمركزوا في بعض المرتفعات، وسددوا نيران أسلحتهم إلى الفرسان الإسبان، واضطروهم إلى الارتداد[272].

بعد أن عاد فرج من غرناطة، وتمت التسوية بينه، وبين ابن أمية، كلفه الملك بأن يتجه إلى المناطق الأخرى لإشعال نيران الثورة فيها، والعودة سريعًا لاتخاذ الترتيبات التي يقتضيها الموقف، قام فرج بالمهمة خير قيام، وتصف الروايات الإسبانية فرجًا؛ بأنه رجل نشيط بعيد النظر، وأنه كان له الفضل الأكبر في وضع خطة حربية، لو تمكن من إنفاذها لقلبت الموقف رأسًا على عقب، وتضيف الرواية الإسبانية إن العرب في المناطق الثائرة تمكنوا خلال وقت قصير من السيطرة على الموقف في كل منطقة البشرات، وأنهم عاملوا الإسبان بنبل، واعتدال، رغم ما لاقوه من عسَفهم، وإزعاجهم، واعتداءاتهم؛ ففي بعض المناطق كانوا يحتفظون بمن يقبضون عليه منهم كرهائن، وفي مناطق أخرى كانوا يؤمِّنُون انسحابهم إلى حيث يشاءون، دون أن يصيبهم ضر، ولا أذى، حتى إن بعض الإقطاعيين الإسبان قاموا على رأس عصابات من أتباعهم بمهاجمة الثائرين، فحاربهم المسلمون، وانتصروا عليهم، وقتلوا بعضهم، وأسروا آخرين، ولما تم للمسلمين النصر، قادوا الأسرى إلى (شلوبانية)؛ ويقول الكونت سيركور إنه ظهرت في هذه الآونة الحساسة، أمثلة كثيرة تدل على نبل العرب، وأمانتهم، وإخلاصهم[273].

في 28 ديسمبر تمكن الثائرون من إلحاق هزيمة كبيرة بالقوات الإسبانية في «وادي الكرين» ، فانسحبت من المراكز الأمامية الواقعة بين «جسر الطبلات»، و«دركايل»، وأصبح جميع «وادي الكرين» في قبضة الثائرين[274] (انظر الخريطة رقم5 توضح الثورة الأندلسية الكبرى).

عين ابن أمية عددًا من القادة لإدارة العمليات في المناطق الثائرة، فكان ميجيل دو غرانادا شعبان قائدًا لوادى الكرين، وأمره بمهاجمة «دركايل»، كما عين ماركوس الزمار في منطقة قوجر، وماتيو الرامي في منطقة المرية، وكلفه بمهاجمتها، وعين فرناندو الغُرِّي قائدًا لوادي المنصورة، وفرانسيسكو بورتو كاريرو بن مكنون قائدًا للمنطقة الشرقية، وجير ونيمو المالح قائدًا لمنطقة زينيت، ووادي أش، وكلف «مرتين قايد» بمحاصرة أدرا، مع ثلاثة من القادة تحت إمرته لمعاونته في الدفاع عن البشرات، وهم الناقص، والرانداتى، وجير نسيلو الأرشيدوني[275].

لم يخفف اندلاع الثورة من حدة التنافس بين القائد العام، وبين الكاردينال، وليزيد الكردينال في نكاية القائد العام، وإزعاجه عمَدَ إلى اتخاذ إجراءين: فمن ناحية ألَّف حرسًا وطنيًّا تحت قيادة ضابط من ضباط البلدية، ينتسب إلى عائلة شديدة الخصومة لآل مندوثا، عائلة الماركيز القائد العام، ومن ناحية أخرى كتب إلى الملك يرجوه تكليف قائد منطقة مرسية (مركيز بلش) (دون لويس فاخاردو) - وهو أيضًا من عائلة شديدة العداوة لعائلة القائد العام - ليهاجم البشرات من المنطقة الشرقية، فوافق الملك، وأمر الماركيز دوفيليس بالاستعداد للقيام بالعمليات من الشرق، وكان من نتيجة ذلك أن استاء الماركيز دومونديخار، وأصدقاؤه، وخفت حماستهم[276].

أسرع الماركيز (دوفيليس - مركيز بلش) في جمع ثلاثة آلاف رجل من أتباعه ومن جنود الحرس الوطني (المليشيا) في منطقة لورقة، واتجه بهم إلى منطقة ألمرية في 4 يناير 1569م، وتابع سَيْره حتى بلغ سفح جبل البشرات، وهناك وافته قوات من بسطة، وفي 11 يناير تلقى أمر الملك بتعيينه قائدًا عامًّا فوق العادة لمنطقة ألمرية، وكان لتحرُك هذا المركيز أثر رادع؛ إذ شل حركة عرب وادي نهر المنصورة، ومنعهم من الانضمام إلى الثورة[277].

ولما علم الماركيز (دومونديخار) القائد العام لمملكة غرناطة، بتعيين خصمه، أراد أن يثبت وجوده، وينهي الثورة قبل أن يتسع الخرق، ويفقد مركزه، ومكانته، لقد أسرع على رأس 2400 رجل إلى منطقة وادي الكرين، وعسكر في (البذول)، وتقدمت مقدمة جيشه إلى (دركال)، ولما علم القائد العربي (شعبان) بتقدم الإسبان إليه، هاجم مقدمتهم بقوات كبيرة تبالغ الروايات في تقديرها؛ إذ تجعلها 6000 مقاتل، احتل شعبان دركال، وقتل كثيرًا من رجال المقدمة، ولكن بعضهم لجأ إلى الكنيسة، وتمركز فيها، وقاوم طوال الليل، وفي الصباح سمع القائد الإسباني طلقات النار، فأسرع على رأس قوة من فرسانه إلى دركال، فاضطر المسلمون إلى الانسحاب، وحينما رأى القائد الإسباني كثرة جيش (شعبان) أدرك أهمية الثورة العربية، ففضّل عدم المخاطرة بدخول البشرات قبل أن تصله نجدات جديدة، وبقي حيث هو[278].

وعن سوء سلوك هؤلاء الجنود، كتب الكونت سيركور: «إن رواية أحد مرافقي الجيش تشير، إلى أن بين جنود المركيز ال 2400 رجل ألفًا ومائتين على الأقل لا يخجلون إذا دعاهم الإنسان لصوصًا، وقد أصدر إليهم القائد العام أوامر مشددة بعدم الإساءة إلى السكان العرب على اعتبار أن الجيش أتى لتهدئة الثورة، وليس للسلب، والنهب، والتعسف، ولكن الجنود لم يهتموا بأوامر قائدهم، ولم يحترموها، وكان أول من خالف أوامره ابنه (الكونت دوتانديلا) ، الذي بدأ بالاتجار بالمغانم، كما أن الضباط الآخرين كانوا يدفعون جنودهم إلى السلب، والنهب»[279].

بقي القائد العام معسكرًا في دركال حتى وصلته من مدن مقاطعة الأندلس نجدات من المغامرين النبلاء الطامعين في الثراء عن طريق المغانم، فبلغ تعداد جيشه حوالي خمسة آلاف رجل، فشرع في 9 يناير 1569م في الزحف على البشرات، حتى وصل «جسر الطبلات» الذي كان يمتد فوق غور سحيق تمر به طريق البشرات إلى غرناطة، كان ابن أمية نفسه يقف أمام هذا الجسر على رأس خيرة رجاله لصد الإسبان؛ لأنه كان يقدر أنهم سيحاولون سلوكه للوصول إلى أورجب لنجدة حامياتها التي أخذت مقاومتها في الانهيار[280].

وتقدر الروايات الإسبانية قوات ابن أمية بأربعة آلاف رجل، يؤلفون ثلاث كتائب، يقودها تحت إشرافه ثلاثة من القادة هم: «الناقص» و«الرنداتي» و«جير ونسيلو الأرشيدوني». وليمنع ابن أمية تقدم الإسبان أمر بهدم الجسر، ووضع ألواحًا من الخشب تسمح بالعبور لشخص واحد، وأقام الرماة في مرتفع يسيطر على الجسر، ويؤمن حمايته، وحينما تقدم الإسبان من الجسر، أطلق عليهم المسلمون نيران أسلحتهم فتراجعوا مذعورين، وأحدث هرَب المقدمة اضطرابًا في الجيش كله[281].

لم يتمكن الماركيز من السيطرة على الموقف، ومنع جنوده من الهرب إلا بصعوبة بالغة، وتقدم أمام الجيش، فأصابته قذيفة لم تلحق به أذى كبيرًا، اشتعلت المعركة، وشرعت المدفعية بإطلاق نيرانها على مراكز المسلمين، وكان ابن أمية يدير العمليات، ويعطي الأوامر، ويشجع المقاتلين، وبعد قصف شديد من المدفعية الإسبانية، اضطر المسلمون للتخلي عن مواقعهم المسيطرة على الجسر، فتقدم الإسبان لعبوره، ولكنهم

ذعروا من العبور على ألواح خشبية ضيقة، وغير مثبتة، إلا أن أحد الرهبان خاطر بنفسه، وعبره أمامهم، فعبروه، وسقط بعضهم في الخندق فدُقت أعناقهم، حاول المسلمون مهاجمة الذين عبروا الجسر، فردتهم المدفعية، واضطرتهم إلى التراجع، وانسحب القادة المسلمون برجالهم إلى مواقع حصينة، وتابع الإسبان تقدمهم حتى وصلوا «أورجبة» فوجدوا حاميتها في حالة صعبة، وقد أتاح للإسبان تمركزهم في أورجبة السيطرة على المنطقة الثائرة، وتهديدها[282].

ويصف المؤرخون الغربيون حذق ابن أمية، وبُعد نظره، وكفاءته الحربية، وأنه لو كان تحت إمرته جنود مدربون لأمكنه أن يتعادل مع الماركيز «دوموندیخار»، ولكن جنوده كانوا فلاحين بسطاء تؤثر في نفوسهم الهزيمة، والتراجع، وتضعف من ثقتهم، وهممهم[283].

ترك الإسبان في جسر الطبلات قوة من رجالهم تحميه، وتحرس الممر، فلما ابتعدوا قام القائدان العربيان (الناقص - والأرشيدوني) بمهاجمة مفرزة الحراسة، وقضيا عليها قضاء تامًّا، ولكنهما انسحبا من المنطقة دون أن يدمرا الجسر أو يتركا عنده قوة تحميه، وتقطع الطريق على الإسبان، ولو فعلا ذلك لهددا جيش الماركيز «مونديخار» تهديدًا خطيرًا، ولأجبراه على الانسحاب متراجعًا من حيث أتى أو على استدعاء ابنه مع القوات الموجودة في غرناطة، وكلاهما شديد الخطورة بالنسبة إليه، ولما انسحب العرب من منطقة الطبلات، أرسل الإسبان قوة احتلت الجسر، وتابع الماركيز تقدمه[284].

دارت عدة معارك في المنطقة الغربية، وفي الجهة الشرقية:

فمن أهم المعارك تلك التي دارت في الجهة الغربية، حيث تمركز ابن أمية بعد انسحابه من جسر الطبلات في «بوبيون» حاضرة منطقة «بكيرة»، ووضع قوتين كبيرتين في الجناحين، وقوة صغيرة في القلب مهمتها استدراج الجيش الإسباني إلى المكان المناسب لتطبق عليه قوتا الجناحين، تقدم الماركيز فناوشه القلب، وهو يتراجع، فاندفع الإسبان في الهجوم، كل منهم يريد الفوز بمغنم، وحينئذ انقض عليهم العرب من كل جانب، فانهزمت فصيلة الرماة، ودبَّ الخلل في صفوفها، ولم

يستطع الماركيز إعادة النظام إليها إلا بجهد كبير، ولما وجد العرب أنهم فقدوا عنصر المفاجأة، اضطروا إلى الانسحاب، وغنم النصارى مغانم لا تُحصى مما خلفه العرب، وانتصر قائد وادي أش الإسباني على جيرونيمو المالح في مضيق رباحه، فانسحب المالح، وجيشه إلى البشرات، كما هاجم 800 من العرب الإسبان المتمركزين في «بطرة»، وكان الضباب كثيفًا، فهزموا الإسبان هزيمة منكرة، ولما انقشع الضباب وجد الإسبان أنهم أمام قوة غير كبيرة، فعادوا إلى الهجوم، فانسحب العرب[285].

وبالنسبة لمعارك الجبهة الشرقية، كان القائد فرناندو الغُرى مكلفًا بقيادات القوات الثائرة فيها، وبعد معارك عديدة خاضها الإسبان، ارتد إلى منطقة وادي المرية، وأقام معسكره في «جيسيخا» الواقعة على نهر المرية، ورمّم فيها بعض التحصينات، وزاد في عدد الحواجز، والمتاريس، وإغراق الأرض بمياه الأقنية ليعيق تقدم الفرسان في مسالك الجبال.

وتقدر الروايات الإسبانية عدد القوات التي كانت تحت إمرة (الغُري) بحوالى عشرة آلاف، ولما أصدر الملك أمره إلى مركيز بلش بمهاجمة المناطق الثائرة من الجهة الشرقية، تقدم على رأس قوة تُقدر بحوالي خمسة آلاف رجل وثلاثمائة فارس، وإن اعتبرهم «بيرس دوهيتسا» لصوصاً في مجموعهم، ليس لهم هم غير السلب، والنهب، وهتك الأعراض، والقتل، فكانوا يسرقون كل ما يقع تحت أيديهم حتى القطط، وذلك لكيلا يفقدوا عادة السرقة، ولم يكن قائدهم المركيز بأشرف منهم، وقد كلف أخاه بقسمة الغنائم، فكان يختصه بأفضلها، وفي 12 يناير 1569م وصل الماركيز إلى (جيسيخا) فالتحم به الثائرون، وفي النهاية تمكن الفرسان الإسبان من الاشتراك في المعركة، وبعد قتال شاق، ومرير، دافع فيه العرب عن مواقعهم شبرًا شبرًا، اضطروا إلى الانسحاب، ثم توقفوا، وعادوا إلى الاشتباك مع الإسبان، واتجه «الغُرِّي» إلى «أندرش» لينظم صفوفه، وينضم إلى ملكه[286].

أما القائد «ابن مكنون»؛ فقام بمناورة بارعة ليحول دون المركيز، ودون مطاردة المنسحبين، ونجح في ذلك، فقد سار ابن مكنون بقواته – التي تقدرها الروايات الإسبانية بثلاثة آلاف رجل – باتجاه المرية، متظاهرًا أنه يريد مهاجمتها، فخاف الماركيز

من هذه الحركة، وتخلى عن مطاردة «الغُزِّى»، وجماعته، وسار للقاء ابن مكنون[287].

استقر ابن مكنون في فيليش (filix) على السفح الجنوبي لجبال «غدر»، فسار إليه الماركيز بقوات بلغت بمن انضم إليها من المغامرين، حوالي ثمانية آلاف رجل، وتذكر الروايات الإسبانية أن جيش المركيز كان في حالة من الفوضى لا تُوصف، وبلغ تذمر الجند أشده بسبب الطريقة التي كانت تُقتسم بها الغنائم، وقد بلغ الاستياء بالجنود حد القسم أن لا يبقوا عربيًّا يقع في يدهم حيًّا، وتردد الماركيز كثيرًا في خوض المعركة مع ابن مكنون بهذه الحثالات من الجند الفوضويين، لكنه قرر أخيرًا خوضها[288].

وتصف الروايات الإسبانية ابن مكنون بأنه خبير في أمور الحرب، وأنه لما رأى تقدم الماركيز نحوه، وضع خطته على أفضل وجه، فأقام أكثر الجيش في سهل أمام القرية، ووضع مفرزتين من حملة البنادق لتغطية جناحيه، ووضع على جناحه الأيسر خمسمائة رجل تمركزوا في جبل منيع، وألبس الأطفال، والنساء ملابس المحاربين، وأقامهم في أسفل الحصن القديم بين الصخور ليظن من يراهم من بعيد أنهم احتياطي قوي للجيش، وأقام كمينًا من خمسين راميًا في مدخل الوادي، ولما اقترب الماركيز من ميدان المعركة في 18 يناير، فهم خطة القائد العربي، فأمر مُشاته بأن يتجهوا إلى خط الدفاع العربي، وأن يتوقفوا على مدى مرمى البنادق، دون الدخول في معركة، إلى أن يصل الفرسان الذين كلفهم بأن يقوموا بالتفاف كبير لتطويق مسيرة العرب، لكن خطة الماركيز فشلت بسبب حماسة أحد الجنود الإسبان الذي أخذ بإطلاق النار، وتبعه غيره، ونشب القتال، واشتبك كل الجيش الإسباني فيه، وبعد معركة عنيفة دامت لوقت طويل، اضطر العرب إلى الانسحاب، فاجتاز قسم منهم السهل إلى الطرف الآخر، ولم يحاول الإسبان مطاردتهم، أما القسم الآخر فلجأ إلى الحصن القديم يَحتمي به، فهاجمهم الإسبان، وحمي القتال في المعركة بشكل لم يسبق له مثيل، واستبسل المسلمون استبسالاً كبيرًا، واشتركت النساء، والأطفال في القتال، ولكن العدو كان أكثر منهم عِدة، وعددًا، فاضطر القائد «ابن مكنون» للانسحاب بعد أن لم يبقَ معه إلا قلة من الرجال، وبعد أن أدى واجبه كقائد، وجندي على أفضل وجه، وقُتل اثنان من كبار قادته هما «فتى – Futey» و«تيسير – Tesir»، والسلاح في أيديهما،

وقُتل عدد كبير من النساء، والأطفال المقاتلين، وقذفت كثير من النساء بأنفسهن من أعلى الحصن لئلا يقعن في أيدي الإسبان سبايا، ولم يوقر الإسبان الأطفال، والرضع، فكانوا يقتلون كل من يقع تحت أيديهم. وإثر المعركة غنم الإسبان مغانم لا تُحصى، وأسروا حوالي 2000 من النساء، والأطفال؛ فاسترقوهم، بينهم (ابن القائد ابن مكنون، وأختاه)، ولما امتلأت أيدي الجنود الإسبان من المغانم حاولوا التهرب من القتال، والعودة إلى بيوتهم، وتطاولوا على قائدهم الماركيز، واستخفوا به[289].

ويروي «دوهيتا» الذي حضر المعركة، أن القسوة التي ارتكبها الإسبان ذلك اليوم لا يمكن وصفها لبشاعتها، وروى قصة امرأة وُجدت قتيلة ممددة بين أبنائها الستة صبية، وبنات، ويبدو أنها خافت على رضيعها، فنامت فوقه لتنقذه، فأجهز عليها الجنود، وضربوا الرضيع بالسيف فقطعوا لسانه، وتركوه يسبح في دم أمه، ظنًّا منهم أنه مات فأنقذه دوهيتا، وتُبالغ الروايات الإسبانية كعادتها، فتقول إن خسائر العرب كانت نحو ستة آلاف قتيل، منهم أكثر من ألف محارب، ولم تذكر عدد قتلى الإسبان، وإن اعتبر الكونت سيركور أن عدد القتلى الإسبان لا يمكن إلا أن يكون كبيرًا جدًّا بسبب عنف المقاومة العربية[290].

وتشير الروايات الإسبانية إلى أن الهزائم التي لحقت بالثائرين حركت النفوس الضعيفة لتطالب بالمفاوضة لتقرير شروط الاستسلام، وأن ابن جوهر – عم الملك ابن أمية – هو الذي تزعم المطالبة بالاستسلام خوفًا من طغيان ابن أخيه، وحمل من اجتمعوا إليه في قرية قبالة على إرسال رسولين إسبانيين، كان العرب قد أنقذوهما من أيدي بعض الثائرين، لمفاوضة القائد الإسباني، وكلف ابن جوهر الرسولين بأن يعرضَا على مونديخار الاستسلام لقاء تأمين الثائرين على حياتهم، ولم يستطع مونديخَار أن يبت في الأمر مخافة رفض الملك الاتفاق، وفي ليل 18 يناير وصل الماركيز قرية قبالة فسلمها له أهلها مع عدد كبير من الأسرى النصارى الذين كانوا فيها، فأمن أهلها[291].

لكن ابن جوهر غيَّر رأيه فجأة، وأقنع ابن أخيه بمواصلة القتال، وأثر الانسحاب في نفس بعض ضعفاء النفوس، فتقدم عدد كبير منهم إلى الماركيز يعلنون

له طاعتهم، فمنحهم الأمان، جمع الماركيز النساء، والأطفال العرب الذين كانوا في قرية قبالة، وكانوا قرابة 2400 شخص، فوضع بعضهم في الكنيسة، وبعضهم الآخر بقي خارج الكنيسة، وكان من بقي خارج الكنيسة قرابة ألف امرأة، وثلاثمائة رجل من الشيوخ، وفي الليل تقدم أحد الإسبان يحاول اغتصاب إحدى الفتيات، فدافع عنها أحد المسلمين، وقتله في أثناء العراك بينهما، ولما علم النصارى بما أصاب زميلهم اندفعوا يقتلون المسلمين رجال، ونساء، وأطفال، حتى قضوا على جميع الذين كانوا خارج الكنيسة[292].

تجددت المعارك في المنطقة الغربية، حيث أراد الملك أن يضع حدًّا للتنافس بين ماركيز «موندخار» و»بلش»، فأرسل فرانسيسكو دو كوردوفا إلى المرية بصفة قائد عام، كما أرسل دون ديكو دو مندوثا للاطلاع على الحالة في «قبالة»، فأدرك الماركيز موندخار أن عليه أن ينتهي من أمر الثورة إذا أراد أن يحتفظ بمنصبه، فترك قبالة في 23/ 1/ 1569 متجهًا إلى باسط أجيجرة لمطاردة الثائرين، ولمنعهم من الاجتماع، والتمركز في مكان[293].

وعندما علم ابن أمية بحركته، عقد مجلسًا حربيًّا حضره عدد من قادة المنفيين بينهم «الغُزِّي» و«الشنيش» و«البرطال»، فاقترح عليه هؤلاء القادة ترك مدينة أوشيخا الواقعة في سهل مفتوح، والانسحاب إلى جبال سيرانيفادا؛ لأنه من الصعب الدفاع عن مدينة واسعة ضد عدو مزود بالمدفعية، كما أن الجبال تيسر للثائرين سبيل الانسحاب حال الهزيمة، والملاحقة؛ إلا أن والد زوجة ابن أمية «ميجيل الكريمي» الذي كان يريد إنقاذ أملاكه الموجودة في منطقة أجيجر، وستر السرقات التي ارتكبها في أموال الثورة بصفته خازنها، كان يريد حصر الثائرين، وجعلهم تحت رحمة الإسبان، ومن ثم مفاوضة الإسبان على الأمان لقاء تمكينهم من القبض على الملك، وقادة الثورة، فطن قادة الثورة لخدعته، فقتله ابن أمية، وقتل أفراد عائلته، ثم انسحب الثائرون من أجيجر، وتبعهم أكثر أهلها، فدخلها الماركيز دون قتال، وجاءه عدد من مختاري القرى مستسلمين، فأمنهم، وأمّن من يصل إليه واضعًا سلاحه[294].

فى 26/1/1569م عادت كتائب الاستطلاع الإسبانية لتخبر مركيز «موندیخار» أن ابن أمية، والثائرين يتمركزون في موقع حصين جدًّا في «بطرنة» قرب قمم جبال الثلج «سيرانيفادا»، فقرر السير إليهم فورًا، رغم كل المحاذير، والمخاطر، وفي ذلك الوقت جرت اتصالات بين الملك ابن أمية، والقائد الإسباني للاتفاق على حل مقبول لإنهاء الثورة[295].

وتذكر الرواية الإسبانية أن ابن أمية أصبح يميل لإيجاد تسوية سلمِية بعد أن أثرت في نفسه، ونفوس جنوده الانكسارات السابقة، وأنه أصبح يخاف نتيجة المعركة المقبلة، فأرسل إلى موندیخار يعلمه بأنه يريد أن يستسلم، وأنه يريد مقابلته، وطلب إليه أن يتوقف الجيش عن الزحف ليمكن إيجاد الحل، وأرسل المركيز رجلًا من قبله يحمل رده، ولكن الجيش استمر في تقدمه حتى أصبحت مقدمته أمام معاقل الثوار في «أنيسة»، وعلى مرمى أسلحتهم[296].

اقترب قائد الميسرة الإسباني من معاقل المسلمين أكثر مما يجب، فنشب القتال بدون إصدار أمر من القادة، وحينما نشب القتال كان ابن أمية يستمع من رسول الماركيز إلى رده، فاعتقد أن في الأمر خدعة، فترك الرسول في مكانه، وامتطى جواده، وانطلق إلى ميدان المعركة ليقود جنوده، اشتد القتال الذي شاركت فيه جميع القوات من الجانبين، وبعد معركة غير متكافئة، اضطر ابن أمية إلى الانسحاب، بعد أن أبلى أحسن البلاء، تفرق المسلمون في شعاب الجبال، ولاحق الإسبان ابن أمية لكنه تمكن من النجاة؛ إذ ترجل عن حصانه، واختفى بين الصخور، واستولى الإسبان في «بطنة» على كثير من المغانم، وأسروا أم ابن أمية، وأخواته، وإحدى زوجاته[297].

كان العرب يحتلون خارج البشرات موقعين هامين هما «قوجلر Guejar» و«اينوش Inose»، وكان قائد الثورة في «اينوش» هو «فرانسيسكو» كما تُسميه الروايات الإسبانية، استطاع الثوار هناك إقامة عدد من مراكز المراقبة حول المدينة، وراجت في ذلك الحين شائعات عن قرب وصول قوات تركية مؤلفة من 700رجل، وعن إرسال ابن أمية أخاه عبد الله إلى الجزائر، ليطلب من والِيها التركي التعجيل بإرسال إمدادات الرجال، والأسلحة بقيادة «غوسالى» لمساعدة لويس، دارات

معارك طاحنة بين المسلمين، والإسبان في اينوش، حيث قتل الإسبان كثيرًا من المسلمين، وأسر القائد فرانسيسكو لويس 2700 امرأة، وطفل استرقوا جميعًا، وتقدِّر الروايات الإسبانية المغانم التي حازها الإسبان ب 500 ألف دوكة، ثم هاجم الإسبان «جواخارس» حيث قتل العديد من الأطفال، والنساء، ولم يرحم الماركيز أحدًا، وقبضوا على قائد المسلمين (الزمار)، وعذبوه، حتى قرضوا لحمه بالحديد المحمي، وهرب «الأرشيدوني»، وتفرق جمعه[298].

زاد من نقمة الموريسكيين مذبحة جرت في سجن غرناطة، وكان فيه مئة وعشرة من أثرياء الموريسكيين غير المحاربين رهائن، من بينهم والد ابن أمية (ضوان أنطونيو دي فالور) وشقيقه (فرنسيسكو دي فالور)، ولا يستغربن أحد مثل هذه الأسماء؛ فقد أُرغم المسلمون في كثير من الأحيان على تبديل أسمائهم بعد التعميد، والتنصير قسرًا[299].

لقد هجم الحراس على الرهائن ليلًا، وأخذوا يذبحونهم دون سابق إنذار، وكان السجناء يدافعون عن أنفسهم بالحجارة، والعصي، والأدوات التي كانوا يستخدمونها للأعمال البيتية.

دام ذلك الدفاع سبع ساعات، وأسفر عن قتل كل الرهائن باستثناء والد ابن أمية، وأخيه؛ إذ كان قد نُحِّيَا عن الغرفة التي جرت بها المذبحة، وقد يكونوا قد تُركوا ليكونوا وسيلة ضغط على ابن أمية للخضوع، والاستسلام، ولما سمع أهالي مملكة غرناطة بالمذبحة، ثارت ثائرتهم، واستطاعوا هزيمة ثمانمائة إسباني كانوا بقيادة «البرو دي فلورس Alvaro de Flores» و«أنطونيو دي أبلة Antonio de Avla» وقتلوا القائدين وجل جنودهما، وفي «طرن Turon» ثار الأهالي كذلك، وقتلوا والى عذره «دييغو دي غاسكا Diego de Gasca»، إزاء ذلك قام المسيحيون بردة فعل قوية؛ فقتلوا العديد من الشيوخ، والنساء، والأطفال، وكانوا ينتظرون على أحرٍّ من الجمر وصول ضوان خوان النمساوي معتقدين أن مجيئة سيحل كل المشكلات[300].

وفي 6 أبريل 1569م ودع ضوان خوان النمساوي أخاه الملك فيليب الثاني متجهًا من أرنخوث Aranjuez إلى غرناطة، يرافقه مربيه، وراعيه ضوان لويس

كيخاذا Luis Quijada [301]، وفي 13 أبريل دخل غرناطة بين صفين كبيرين من عشرة آلاف شخص يحتفلون بمقدمه، بيد أن بيدرو ديسا Pedro Deza رئيس المجمع الملكي هيأ له غير ما توقع ليزيد نقمته، وحماسه لحرب الموريسكيين، فاستقبله بأربعمائة مسيحية من اللواتي فقدن أزواجهن في هذه الحرب يطالبنه بالثأر لهن، ولدى وصول ضوان خوان النمساوي إلى غرناطة، وعد بإخراج مسلميها الذين تتراوح أعمارهم بين عشر سنين وستين، وإرسال معظمهم إلى قشتالة حتى لا يلتحقوا بالثوار، ونتج عن ذلك فرار مجموعة من الموريسكيين إلى الجبال، والتحقوا بجيش ابن أمية[302].

وفي 14 أبريل توجه إليه وفد من أثرياء الموريسكيين، ووجهائهم الذين نُصِّروا قسْرا يشكون سوء المعاملة من قتل، واحتقار، وانتهاك أعراض، وسلب ممتلكات، فوعد بالحماية لكل من يخلص للنصرانية، وبدراسة الشكاوى الموجهة اليه.

وبعدها دعا إلى اجتماع المجلس، الذي شكله الملك من أجل الاستشارة، وكان أعضاء ذلك المجلس هم: دوق سيسا (Duque de Sesa) حفيد القائد العام، ورئيس أساقفة غرناطة، ورئيس المجمع الملكي ديسا، والماركيز موند يخار، وضون لويس دي ريكسنس رئيس الرهبانيات العسكرية في ليون؛ تضاربت الآراء في المجلس؛ فصوت دي موند يخار إلى جانب الهدنة التي يرغبها الموريسكيون، على حين صوت الرئيس ديسا إلى جانب التهجير للموريسكيين كافة من حي البيازين، والغوطة، وتوطينهم في قرى قشتالة، لكن خوان النمساوي لم يصوت إلى جانب التهجير، وظلَّ منشغلًا بتعزيز الحاميات المسيحية، وتقويتها في البشرات، وتعيين قواد مناسبين للفرق، وأكد على وجوب الانضباط الدقيق، ومنع إجازات الجند في انتظار معرفة موقف الملك من التهجير أو الهدنة[303].

في هذه الأثناء كان ابن أمية يتهيأ للمبادرة بالهجوم، وكان يقيم في البشرات من ناحية اجيجر (Ugijar) حيث وصلته قوة جزائرية بقيادة التركي حسين، فوزع القيادات على من يثق بهم، وأمرهم بحرب خاطفة لإرهاق الإسبان[304].

لقد وزع الموريسكيون فِرقهم في أراضي المرية، ومالقة، وسلسلة جبال بنتوميث مهددين الغوطة، وأخذت قواتهم تهزم من صادفها من الفرق المسيحية، هنا جمع

اريفلودى ثواثو (Arevalo de Zuazo) القائم بأمور القضاء في بلش جيشًا كبيرًا أراد أن يحتل به صخرة فريخليانا (Frigiliana) التي تحصن فيها الموريسكيون، ودارت المعركة، فخسر اريفلو معظم قواته، وانهزم إلى بلش ليتقدم الموريسكيين في البلاد[305].

أراد ماركيز بلش لفت نظر خوان النمساوي إلى بطولاته، وقدرته على مهاجمة ابن أمية في برجه، فتقدم على رأس جيش من عشرة آلاف مقاتل، واستطاع بالفعل صد ابن أمية، وعمه الصغير عن برجه؛ إذ هاجمهما من ثلاث جهات في وقت واحد، وقُتِل في تلك المعركة ألف وخمسمائة موريسكي، وانسحب ابن أمية إلى قاديار (Cadiar) ليعيد تنظيم قواته[306].

بالإضافة إلى ذلك، ففي 28 أبريل 1569م قدِم كبير أعيان، ورئيس الرهبانيات العسكرية في ليون ضون لويس دي ريكسنس (Luis de Requesens) من إيطاليا ليأخذ مكانه في المجلس الاستشاري، وكان برفقته قوة بحرية قوامها 24 سفينة نزلت على الشاطئ، واشتبكت مع الموريسكيين، وقد خسرت هذه القوات المدربة كثيرًا من خيرة أفرادها، لكنها نجحت في 11 يونيو 1569م في احتلال صخرة فريخليانا، التي عجز ماركيز دي بلش عن احتلالها قبل شهر، وبعد احتلال الصخرة قتل أفراد حاميتها، وأسر ثلاثة آلاف من الموريسكيين وغنم غنائم كبيرة[307].

هكذا جهز الإسبان كل ما لديهم من قوة جمعوها من كل أرجاء شبه جزيرة أيبيريا لإبادة الموريسكيين أو إخماد ثورتهم في البشرات، وتأكيداً لذلك قرر دييغو أورتادو دي مندوسا (Diego Hurtado de Mendoza) نائب الملك في مقاطعة قطلونية بتاريخ 13 مايو 1569م السماح لكل المتطوعين بالالتحاق بالجيش الإسباني، الذي كان يحاصر، ويحارب الموريسكيين في البشرات، حتى بلغ المتطوعين حينئذ ألف متطوع، كما أجاز في 18 من الشهر نفسه حرب الموريسكيين في البشرات لكل جنود مقاطعة برشلونة، وأرغون، وبلنسية، وللجنود الفرنسيين الذين وصلوا متحمسين ليقدموا خدماتهم للملك فيليب الثاني، ولقد كان أولئك الفرنسيون بقيادة خوان بوئيل دي ارينوس (Don Juan Bohil De Arenos) من بين الحشود التي تجمعت لحرب الموريسكيين، كما وصلت ثماني عشرة سفينة حربية من البلدان

المسيحية المجاورة في طريقها إلى غرناطة لنجدة لويس ريكسنس (Lui Requesens) ، وفي مسارهم اصطدموا بموريسكيي بلش مالقة فانتصروا عليهم، وشردوهم[308].

كما جاءت فرقتا مشاة إلى برشلونة، واتجهتا إلى غرناطة، وكانت إحداهما بقيادة موسن سريرة (Mosen Sarriera)، والأخرى بقيادة موسن لوبيا (4 (Mosen Lupia، لتشتركا مع المشتركين في تلك المجزرة التي كانوا يعدونها للموريسكيين[309].

وهكذا فرغم ما كان بين المسيحيين في تلك البلاد من نعرات، وصراعات مذهبية، كانوا يلتقون في حرب الموريسكيين، ومحاولة إزالة كل أثر ديني، وحضاري لهم، ولا تختلف هذه الصورة في قليل أو كثير إلا من حيث المكان عما كان يجري في الحروب الصليبية، فكانت حروباً دينية يوجهها رجال الدين ضد الموريسكيين؛ فيؤاخذون بالزلة الصغيرة، ليشعلوا حربًا لا تُبقي، ولا تذر[310].

وجه ابن أمية حملة نحو نهر المنصورة، حيث تمرد كل سكان المنطقة، فاحتل قصور أوريا (Oria) والكهوف، واستسلمت بعدها سيرون (Seron)، وهي من أفضل الحاميات، وذلك بعد أن هزم ضون إنريكى إنريكس (Enrique Enriquez) الذي جاء لنجدة تلك الحامية من بسطة (Baza) وكان استسلامها في 11 يوليو 1569م[311].

كانت المعارك تحتدم في البشرات، بينما كان ضوان خوان النمساوي مضطرًّا إلى البقاء في غرناطة منشغلاً عن المعارك بحضور جلسات المجلس الذي فرضه عليه شقيقه فيليب الثاني، وجاءت أوامر الملك فيليب الثاني بتهجير الموريسكيين بعد فجر 23 حزيران 1569م، حيث كان جيش غرناطة مستعدًّا، كذلك كانت فرق الغوطة، وفي هذا الوقت طاف المنادون يعلنون وجوب التحاق الموريسكيين المنصرين برعوياتهم، وأن من يُطيع فإن ديسا (Deza) يمنحه الأمان، ورغم معرفة الموريسكيين بطباع رئيس المجمع الملكي؛ إلا أنهم أذعنوا، والتحقوا برعوياتهم غير مطمئنين على مصيره[312].

لقد ظلوا في الكنائس طوال الليل تحرسهم الجنود، وفي الصباح نقلوا إلى المستشفى، وأُخرجوا منه طبقًا لكشوف بأسمائهم، ونُقلوا إلى أقضية أخرى بعيدة

ليستوطنوا هناك بعيدًا عن وطنهم، وخلال تلك الرحلة كانوا يُعامَلون أسوأ معاملة؛ فيقتل بعضهم، وينهب بعضهم الآخر، وظلت منازلهم خالية مهجورة مرعبة[313].

كذلك كان خوان النمساوي، وأتباعه منهمكين بإقصاء الشيوخ، والأبرياء العزل، على حين كان ابن أمية قد احتل كل الحقول، وأراضي نهر المنصورة، وتملأه انتصاراته عزًّا، وفخرًا، ويجند الجند، ويعد العدة من السلاح، والخيل.

علم ابن أمية بما جرى لأبيه، وأخيه، وبالقصاص الذي أنزلته بهما المحكمة، فعرض فدية لهما ثمانين أسيرًا في رسالة إلى خوان النمساوي ليخلي سبيلهما، وإن لم يستجب إلى طلبه فإنه يهدد بأعمال انتقامية فظيعة، أثارت هذه الرسالة بلبلة، وخلافًا في الرأي، في مجلس ضوان خوان النمساوي، ثم اتفقوا على عدم الإجابة على الرسالة، وأرغموا والده أن يكتب إلى ابنه ناهيًا إياه عن متابعة العنف نافيًا ما جاء في رسالة ابنه من تعذيب أو إساءة لحقته من محاكم التفتيش[314].

على أن الخلافات استشرت في المجلس، حتى أوقفت كل العمليات الحربية، وهو ما أدى إلى أن يدعو الملك فيليب الثاني الماركيز دي موند يخار لمقابلته بحجة الاستفسار عن نتائج الحرب، وبعدها لم يعد الماركيز إلى غرناطة أبدًا، وفي النهاية استطاع المجلس أن يحد من شوكة مناوئيه، ثم قرر أن تستمر الحرب، ومنع أن تكون هناك مهادنة البتة[315].

وقد تم الأمر باستمرار الحرب ضد كل من تُسول له نفسه أن يقوم بالثورة في غرناطة، وأنحائها.

في غمرة النصر كانت خيوط المؤامرة تُحاك ضد ابن أمية، وكان المسئولون عن تلك المؤامرة يتهمونه بالتقاعس في حرب الإسبان، ويتهمونه بالتعامل مع الإسبان بالشفقة، والرحمة؛ أما المشتركون في هذه المؤامرة فهم القائد التركي حسين الذي جاء من الجزائر حسب رغبة دييغولوبث (ابن عبو)، ودييغو الغواثيل الموريسكي(Digo Alguacil)، فخنقوا ابن أمية، وهاجموا بيته، واستولوا عليه، ووزعوا ممتلكاته؛ وبذا طُويت صفحة هذا المُجاهد، الذي أعاد للموريسكيين بعضًا من عزتهم، وجمع

جيوشهم، ووحدها، وجعل منها قوة مهيبة الجانب تهدد الإسبان، وترعبهم حتى لايجرؤ أحدهم، بل، ولا تجرؤ جماعة منهم، على الخروج إلى الحقول[316].

طُويت صفحة هذا البطل بالاغتيال على يد أقرب الناس الذين كان يرجو لهم، وبهم كل نصر، وخير، ولعل سر التقاعس الذي رُمي به ابن أمية يرجع إلى أَسْرِ أبيه، وأخيه في السجون الإسبانية، ووقوعهما تحت رحمة محاكم التفتيش، لاسِيما أنَ أخاه كان يرسل له رسائل بين حين، وآخر تبين كيفية العذاب الذي كانا يلْقيانه في السجون من محاكم التفتيش، وهو ما قلّص من عزيمة ابن أمية، وخفض نوعًا ما من روحه المعنوية، واندفاعاته ضد الإسبان، ولقد استخدمت محاكم التفتيش أسلوبًا استغلاليًّا ذكيًّا عندما أنقذت أخا ابن أمية، وأباه من أن يُقتلا في السجن مع مَن قُتل، فاستغلتهما لترجيح كفة المعركة لصالح الإسبان، ولتفت في عضد ابن أمية، وتخضعه لشروطها[317].

بعد اغتيال ابن أمية انتُخِبَ أحد المتآمرين ملكًا مكانه، وهو دييغو لوبث (Diego Lopez)، واتخذ اسم مولاي عبد الله محمد بن عبو ملك الأندلسيين، وقد وافق على انتخابه علي باشا نائب السلطان في الجزائر، وبعث للوبث بعض التعزيزات، فنجح الأخير في حملاته الحربية الأولى ضد الإسبان، وطوق جيشه مدينة أُرجبة (Orjiba) ، وقلعتها، فتوجه سيسا (Duque Sesa) بجيش لإنقاذ الحامية المطوقة، فرد الدوق، وجيشه على أعقابهما، واحتل دييغو قرية غاليرا(Galera)، وكانت مركزًا استراتيجيًّا ممتازًا.

وقد جاءت لمساعدة الدوق سيسا جيوش من اشكر(Huescar)، فهزمهم «ابن عبو»، ونقل المعركة متحديًا إلى غوطة غرناطة[318].

وبناء على أوامر الملك فيليب الثاني ظل ضوان خوان النمساوي في غرناطة، وأرسل إلى أخيه يوضح له سلبية هذه الحرب، ونتائجها الخطرة على مملكتي مرسية، وبلنسية إذا تمرد فيهما الموريسكيون اقتداء بموريسكي غرناطة، وأبلغه كذلك برغبته في أن يخرج، ويقود الحملات بنفسه، وبقلقه من جراء ذلك[319]، ونزولًا عند رغبة خوان النمساوي، أمر فيليب الثاني بتكوين جيشين أحدهما بقيادة شقيقه خوان النمساوي ليحارب حول نهر المنصورة، والثاني بقيادة دوق سيسا ليحارب في البشرات[320].

فرح الجنود، والفرسان بتعيين ضوان خوان النمساوي قائدًا لهم، وسار معه عدد كبير منهم، كان أول ما قام به خوان احتلال غويخار (Guejar)، فهرب منها الموريسكيون الذين كانوا يعترضون القوافل الإسبانية في طريقها من الغوطة إلى البشرات، فالتحقوا بقائدهم «ابن عبو»، ومن ثم وصلت من بسطة (Baza) تعزيزات إلى جيش ضوان خوان النمساوي قوامها اثنا عشر ألف مقاتل، فطوق غاليرا (Galera) التي عجز ماركيز بلش عن احتلالها قبلًا، ووضع الألغام، والمتفجرات، وقصفها بالمدفعية حتى محاها تمامًا في 10 فبراير 1570م، وأمر بهدم ما بقي من مبانيها، وأمر أن تُرش أرضها بالملح ليُسرع في إذابة الثلج حتى لا يعين الموريسكيين على الاختفاء[321]، وفي هذه المعركة تم قتل 2400 موريسكي و400 امرأة، وطفل.

وبينما كان يقوم خوان بجولة استطلاعية في حِصن سيرون كاد يذهب ضحيتها برصاصة اصطدمت بدرعه القوى إذ ذاك شهد مصرع ضون لويس كيخادا (Don Luis Quijada) برصاصة بندقية، وكان كيخادا هذا صديق الملك شارل الخامس، وكاتم أسراره، وكان خوان يعتبره بمثابة الأب فحزن حزنًا عميقًا عليه[322].

وفي 5 مارس 1570م، وبعد تعزيز الجيش، عاد خوان بهم إلى سيرون (Seron) ولم يكن الموريسكيون يعلمون بتسلل هذا الجيش، الذي أشعل الحرائق في البلدة، والحصن، فهرب سبعون ألف موريسكي إلى الجبال ليتحصنوا بها[323].

ومن هناك توجه خوان النمساوي إلى تيجولا (Tijola) وكان الموريسكيون قد انسحبوا منها سرًّا تحت جنح الظلام، دون ضوضاء، فلم يجد خوان، وجيشه فيها إلا أربعمائة امرأة، وطفل، وغنائم كبيرة، فاقتادوهم أسرى، وأمر ضوان خوان بتدمير البلدة، وبعد ذلك استولى الإسبان على حصون برشينا (Purchena) وكانتوريا (Cantoria) وتهالي (Tahali) وغيرها، وكان الموريسكيون قد أخلوها من قبل.

عندئذ اتصل فرناندو الحبقي بخوان النمساويFernando el Habaqui مقترحًا مهادنة الموريسكيين، وأنه سيتولى إقناع «ابن عبو» بالتخلي عن حصون نهر المنصورة، والانسحاب إلى البشرات، على أن يُعطى الأمان على الأرواح له، ولجماعته؛ حتى يتوقف سفك الدماء[324].

وافق خوان النمساوي على ذلك، فأعلن منشورًا يعفو فيه عن كل موريسكي، ويعد بأن يحق الحق، ويبطل الباطل، وينتصر لكل مظلوم كان سبب تمرده العنف الذي عومل به، كذلك وعد بجائزة لكل موريسكي عمره بين الخامسة عشرة، والخمسين، سن القدرة على حمل السلاح، حتى لا يستغل الموريسكيون الشروط، فيقدموا شيوخًا، وأطفالًا من أجل إطلاق سراح محاربين، وقد جعلوا للتسلم مراكز تابعة لضوان خوان النمساوي، والدوق سيسا، على أن يتعرض للموت كل موريسكي لا يخضع لتلك الشروط، في الوقت نفسه كان المستعرب كاستيلو (Castillo) يتقن العربية، فزور رسائل على لسان أحد الفقهاء تدعو الموريسكيين الثائرين للاستسلام تخلصًا من الويلات التي يجرها عليهم استمرارهم مع «ابن عبو»، وفي هذه الأثناء قضى دوق سيسا على ثورة كثير من الموريسكيين، وأسر معظمهم، وعزز حصون كومبته (Competa) ومارو (Maro) ونرجه (Nerja) وفرض الأمن، والهدوء، وهجر إلى داخل إسبانيا سكان برجي (Borje) وقمارش (Comares) وقوتار (Cutar) وبن مارغوسا (Benamargosa)[325].

وفي 19 مارس 1570م هُجِّر كل الموريسكيين المسالمين من غرناطة، وحُكم بالموت على كل من يبقى متخفيًا هناك، ونُقل المهجرون إلى قرى المانش (Manch)، وقشتالة، وعوضوا بدل ممتلكاتهم غير المنقولة[326]؛ أما الدوق سيسا فقام بحملات سيطر فيها على كثير من الموريسكيين، ثم اجتمع ضوان خوان النمساوي، ودوق سيسا في بادول (Padules) واتفقا على مواصلة الحرب مهما كلف الأمر دون أن يتخليا عن شروط الهدنة المعروضة، وأمرا بأن يكتب «ضوان الونسو دي غرناطة» (Don Alonso de Granada) وهو أحد الموريسكيين الذين نُصِّروا، قسرا، ومباشرة إلى «ابن عبو» موضحًا شروط الاستسلام، ومع أن كل العوامل كانت ضد الموريسكيين، فإن «ابن عبو» رد رافضًا الاستسلام، مدافعًا عن عدالة الثورة، موصيًا ألونسو بأن يجتمع بنفسه بالحبقي، جاعلًا إياه ممثلًا مؤتمنًا له[327].

وفي 13 مايو 1570م اجتمع الونسو، والحبقي في فوندون اندرش (Fondon de Andarax) ممثلين عن «ابن عبو»، فاقترح الحبقي شروط الاستسلام، وأرسلت

إلى ضوان خوان النمساوي، فاجتمع مجلس خوان، وقرر أن يفاوض الحبقي «ابن عبو» ، ويعطى الحبقي تفويضاً كاملاً ليرسل الموريسكيون معه عريضة تبين ما يريدون تجنباً للشكوك.

وفي 19 مايو 1570م عاد الحبقي إلى اندروش يحمل عريضة التفويض الكامل للاستسلام من «ابن عبو»، فتم الاتفاق على الشروط التي تضمن للموريسكيين حياتهم، وأملاكهم، وتؤمنهم من الاعتداء عليهم، وتسمح بإقامة العلاقات بينهم من زواج، وغير ذلك، وقد تم كل ذلك في بادول (Padules) في الثاني 22 مايو[328].

وتنفيذاً لذلك الاستسلام تقدم الحبقي ممثلا عن «ابن عبو» إلى خيمة ضوان خوان النمساوي، التي كانت محاطة بمستشاريه، وقادته، وألقى سيفه، وعلم الاستسلام عند قدمي دون خوان، فأعاد إليه سيفه، ومنحه الأمان بألا يعتدى عليه، ولا يُزعج، ولا يُلاحق، ولا يُنهب هو، والموريسكيون، على أن يعيشوا بأمان مع أسرهم ضمن المملكة إلا البشرات، عاد الحبقي إلى «ابن عبو» ليعلمه بمراسيم الاستسلام التي جرت، ويسلمه وثيقة الاستسلام، وعين دون خوان مندوبين لقبول استسلام الموريسكيين، لكن «ابن عبو» لدى اطلاعه على فحوى الوثيقة، عرف حقيقة الأمر، وأنها مزورة تختلف عن التي وقعها، وعلم أن الحبقي خانه، فرفض الاستسلام[329].

عاد الحبقي منزعجًا باتهامه بالخيانة، وعرض على ضوان خوان أن ينفذ الاتفاقية بنفسه، وأن يحضر له «ابن عبو» مقيدًا، فوافقه خوان على ما عرضه، وسار الحبقي لتنفيذ المهمة برفقة بعض أتباعه، وأخذ يبحث عن «ابن عبو»، فأمر ابن عبو بدوره بعض الموريسكيين المخلصين بقتل الحبقي،، فقتلوه، ودفنوه سراً، وظل «ابن عبو» يخفي قتله ثلاثين يوماً، حاول خلالها «ابن عبو» خداع ضون خوان النمساوي واعدًا بتنفيذ اتفاقية الاستسلام[330].

وفي 30 يوليو 1570م بعث ضوان خوان مبعوثاً يتفاوض معه حسب طلبه، وعندئذ أخبره «ابن عبو» بكبرياء «ما دمت قد انتخبت ملكاً فإنني لن أستسلم، ولو بقيت وحدى في البشرات، ثم إن لدى عند الملهات كهفًا فيه من الماء، والغذاء

ما يكفيني ست سنوات، وهذه المدة كافية لأحصل فيها على مركبة تقلني إلى بلاد البربر»، وهنا، وبعد أن بلغ ضوان خوان النمساوي كبرياء «ابن عبو» ، ومقالته، شكل جيشين على رأس أحدهما ريكسنس (Requesens) ليدخل البشرات، وتوجه خوان، ودوق سيسا إلى وادي اش ليلتقي الجيشان في وسط الجبال[331] .

في هذا الإطار، وفي سبتمبر 1570م شن ريكسنس (Requesens) هجومه الشامل على البشرات، فقتل الشيوخ، والأطفال، وبقر بطون الحوامل، ووزع النساء الموريسكيات على جنوده، وأسر الكثير فبيعوا عبيداً، وكان يشعل النيران على مداخل الكهوف ليخنق من في داخلها، فإن حاول بعضهم الخروج حرقته النار، وإلا مات مختنقًا[332]، وفى 28 أكتوبر 1570م أمر الملك فيليب الثاني شقيقه، ودوق بيدرو سيسا بإخراج جميع الموريسكيين من مملكة غرناطة سواء كانوا مسالمين أو مستسلمين ليرسلوا إلى قشتالة.

في عام 1571م قام موريسكيون، أرسلهم الإسبان، باغتيال ابن عبو، لقد كانوا من أقارب ابن أمية، وذهبوا ليتفاوضوا معه، لكنهم قتلوه مع جميع مرافقيه من الموريسكيين، وبعد هذا الاغتيال نكلوا «بابن عبو» فاستلوا أحشاءه، واستبدلوها بالملح الذي ملأوا به جثته، ثم حملوه على فرس في قفص حديدي ليراه الناس[333]، وفى عام 1573م استطاع ضوان خوان النمساوي إخضاع مناطق لم تكن قد استسلمت في البشرات، وهي: غاليرا (Galera) وسيرون (Seron) وبرشينا (Purchena).

بعد ثورة البشرات زاد التوتر، لا سيما في بلنسية وأرغون.

لقد أشعله الموريسكيون الذين شُردوا من مملكة غرناطة، وزاد من هذا التوتر وصول المسلمين الأتراك لنجدة إخوانهم ضد فيليب الثاني، كما زاد من التوتر تلك العلاقة التي أقامها الموريسكيون مع بروتستانت برن (Bearn)، ومن هنا اتخذ الملك فيليب الثاني خطة جديدة تتمثل في تسليح لنصارى، وخلع سلاح موريسكيي أرغون، ومضاعفة مراقبة الشواطئ[334].

لقد كان قد تم توزيع موريسكيي غرناطة خاصة بين غرناطة، وقشتالة، ولامانتشا، واسترامادورا (Castilla، La Mancha Y Extremadura) ووصل

كثير من الموريسكيين إلى أبرشية بطليوس، وكان أسقفها في عام 1572م هو ضوان دييغو غومث دي لا مدريد (Don Diego Gomez de Lamadrid) الذي كرس حياته لتنصير الموريسكيين، فوضع سلسلة أنظمة نشرت في مجمع الأساقفة عام 1583م، تبين سلوك الرهبان الواجب اتباعه إزاء الموريسكيين الذين تم تنصيرهم عام 1580م، كان موريسكيو الأندلس في أشبيلية، وقرطبة، واستجه، وجيان، وبتخطيط من الموريسكي فرناندو مولاي، يعدون لإنزال مسلمي شمال أفريقيا الذين كانوا على اتصال معهم إلى شبه جزيرة أيبيريا، ورغم إحباط هذا الاتفاق؛ فقد انتقم النصارى، فوضعوا وجوه الموريسكيين تحت المراقبة الشديدة، لاسيما في مالقة، والمدن التي تم ذكرها سابقاً[335].

وفى عام 1583م اكتشفت محاكم التفتيش في بلنسية مؤامرة أخرى كانت قد حكيت بين الموريسكيين، وفرنسي بيرن (Bearn)، وفي عام 1585م قامت حرب أهلية في أراغون بين الموريسكيين، والنصارى الإسبان الذين كانوا يقطنون الجبال، فحامت الشكوك حول علاقات بين الموريسكيين، وفرنسي بيرن مؤداها أن الموريسكيين كانوا يحمون فرنسي بيرن الذين كانوا قد قدموا لمساعدتهم، ثم عقد الملك فيليب الثاني مؤتمراً فوق العادة عام 1588م في الباردو (مدريد) ليبحث في المشاكل، التي كان يحدثها الموريسكيون لتتخذ في شأنها الحلول الجذرية[336].

ولقد زاد من مشاكل الموريسكيين سياسة انطونيو بيريث (Antonio Perez) حاكم مدينة أرغون، إذ كان قد تقرب إلى فرنسا، وحظى بتأييد هنري الرابع، الذي صار ملك فرنسا فيما بعد(1594 - 1610م)، وعندما اجتمع مجلس الدولة عام 1596م، قرر وجوب نزع سلاح الموريسكيين، على أن يستقروا في أراضيهم، ويكون ذوي النفوذ منهم على مقربة من النصارى، وأن تراقب علاقة موريسكيي أرغون، وبلنسية[337].

توزيع موريسكي غرناطة على مختلف أنحاء شبه جزيرة أيبيريا، ومصادرة ممتلكاتهم: لم يستقر وضع سكان شبه جزيرة أيبيريا قبيل عهد فيليب الثاني، وفي أثناء حكمه ظل الموريسكيون يتحينون الفرصة للتململ، وقد كان لثورة 1568م التي

تمخضت عن إخراج الموريسكيين من مواطنهم (مملكة غرناطة) أكبر الأثر على مصير حياتهم، وبعد طردهم من غرناطة، دخل الموريسكيون مملكة بلنسية،، وبدرجة أقل إلى مملكة أراغون، وقد عرفت قشتالة، ونافارا جراء هذه الهجرة نموًا سكانيًا كبيرًا، ما أثار مخاوف الغالبية المسيحية، فأخذت فكرة طرد الموريسكيين من كل شبه الجزيرة الأيبيرية تتبلور، وتترسخ بشكل متواصل، ومضطرد؛ ومع ذلك كان المسيحيون يخشون من التأثير الاقتصادي السلبي نتيجة طرد الموريسكيين، نظرًا لكونهم خبراء في مجال هندسة المياه، والبيئة، ولم يكن هناك أي من الفلاحين المسيحيين الذين يمتلكون نفس القدر من معرفتهم، وخبرتهم في هذه المجالات، علاوة على ذلك كان المطارنة الإسبان، والفاتيكان يتخذون موقفًا إيجابيًا تجاه فكرة الطرد هذه، ذلك أنه، وفقًا للرأي السائد، فإن الموريسكيين رغم التعميد لم يكونوا سوى مسيحيين مزيفين، حيث كانوا يمارسون سرًا شعائرهم، وصلواتهم[338].

وهنا نشير إلى أن سكان غرناطة كانوا على النقيض بالنسبة لمناطق الشمال، وبقية شبه الجزيرة، فقد كان النبلاء طبقة قليلة العدد، وكانت أهم الطبقات في غرناطة طبقة التجار، والصناع، والفنانين، والخدم، والنصارى الذين كانوا يستغلون الأرض مقابل الضرائب التي كانت تزيد كثيرًا عما كان يدفعه الموريسكيون من جزية، وضرائب، ولقد كتب «باروخا» أنه «نظراً لهذه التركيبة الاجتماعية المختلطة، فقد اختلفت نسبة عدد السكان باختلاف المناطق، فكان الموريسكيون يقيمون في المناطق الريفية، وكانت نسبتهم في مدن بسطة، ووادي أش، والمرية، ومطريل تتراوح بين 30 – 40/ من نسبة السكان»، أما نسبة الموريسكيين في غرناطة؛ فوصلت إلى 50٪، وكان عددهم قليلاً للغاية في المنطقة الساحلية التي تمتد من فيرا إلى استيبونا (Estepona)، وقد حظر على الموريسكيين سُكنى السواحل حفظاً لسلامة النصارى، وكانت الفكرة السائدة هي أن الموريسكيين كانوا يشكلون أغلبية السكان في مملكة غرناطة حتى ثورة 1568م[339]، أما مارتين رويث (Martin Ruiz) ، فيعتقد أن عدد النصارى كان حوالي 155.000 نسمة، بينما كان عدد الموريسكيين 120000 نسمة، أي 43/ من عدد السكان[340].

وعلى نقيض ذلك أشار دومنغيث وفينسينت[341] إلى أن عدد الموريسكيين وصل إلى 150000 تقريباً، وكانوا يشكلون أغلبية عظمى بالنسبة إلى النصارى في المنطقة، ولقد أوضحا توزيع السكان على النحو التالي: -

المكان	عدد السكان
غوطة غرناطة، وادي لكرين، مطريل، وضواحيها، البشرات، أراضي ماركيز سينيتى، منطقة بسطة(باستثناء العاصمة)، المرية، والمقاطعات، ووادي المنصورة (ماعدا أراضي ماركيز بلش)	23771 أسرة
غرناطة	5280 أسرة
بسطة	600 أسرة
وادى أش	1000 أسرة
فنيانة - أبلة - ابلوثينا	480 أسرة
أراضي ماركيز بلش	1350 أسرة
أراضي رنده ومربلة	1500 أسرة
أراضي مالقة وبلش مالقة	1700 أسرة

والجدول السابق يعنى أن مجموع السكان الموريسكيين بلغ (35681) أسرة في أثناء ثورة البشرات عام 1568م.

وتشير المراجع الإسبانية في ذلك الزمن إلى أنه كان في مملكة غرناطة (85.000) بيت مسلم حسب سجلات الإحصاء، يضاف إلى ذلك (15000) بيت لم تكن مسجلة هرباً من الضرائب، ويذكر نونيث مولاي في كتابه (ميموريال - Memorial) أنه كان في مملكة غرناطة (50000 بيت) يتراوح عدد أفراد كل منها بين 5 - 6 أشخاص، أي أن عدد السكان كان يتراوح بين 250.000 - 300.000 نسمة، بيد أن كارو باروخا يقدر حديثاً عدد الموريسكيين حتى عام 1568م بما يقارب 152.000 موريسكي غرناطي[342].

على كل فقد قرر المجلس الملكي في 5 مارس 1570م إقصاء كل الموريسكيين عن مملكة غرناطة، ففي 29 مارس تم نقل الكثير منهم إلى مونتييل وثيوداد ريال ليبقوا فيها[343]. وفي 28 أكتوبر أرسل فيليب الثاني إلى ضوان خوان النمساوي يكرر أمره، بإخراج الموريسكيين من مملكة غرناطة، سواء من استسلم منهم أو من لم يشترك في الثورة، وصدر الأمر بأن يوزعوا كالتالي: موريسكيو غرناطة، والغوطة، ووادي لكرين، وسيرا دي بنتوميث، واوية دي مالقة، وجبال رندة، ومربلة يحملون إلى استرامادورا، وجليقية، ينتقل موريسكيو وادي آش، وبطة إلى نهر المنصورة، أما موريسكيو البسيط، ومنتشا، وطليطلة، وحقل قلعة رباح، والمونتيل فيوزعون على قشتالة القديمة، ومملكة ليون، وموريسكيو المرية، وما حولها يحملون بحرًا إلى أشبيلية، ولم يسمح بالبقاء لأي موريسكي في مرسية، ولا بلنسية، ولا في أي مكان في الأندلس، وللقضاء على الخطر الموريسكيي، حاول الملك تشتيتهم على أوسع نطاق حتى لا يقتربوا من بلنسية، وأرغون، وجعل مراقبتهم دائمة منذ أول ديسمبر 1570م تجنباً للتعقيدات، وخوفًا من الثورة نظم قوائم تحدد عدد الموريسكيين، بأسمائهم، ومساكنهم، لعلاقة الموريسكيين بالمغاربة، والأتراك المسلمين[344].

شكل الموريسكيون في جل مدن قشتالة جماعات غريبة بالنسبة للسكان، وكانوا يُسَخرون غالبًا كأيدي عاملة رخيصة ليشتغلوا بأعمال كالزراعة أو التجارة قليلة الأهمية كبَيع الفضة، والماء، والمأكولات، وصناعة الأحذية/ كما كان يقوم قليل منهم بالحِرف الحرة البسيطة، أو يحتلون وظائف ذات قيمة متوسطة، ورغم كل محاولات التشتيت التي قام بها الملك فيليب الثاني؛ فقد ظلت بين الموريسكيين علاقات عائلية في مختلف أنحاء قشتالة[345].

كما تدل الوثائق على أنه رغم كل محاولات الطمس، والتشريد، ظل الموريسكيون يعتزون بأصلهم، ويحافظون على هويتهم بالوسائل المتاحة، رغم ملاحقتهم، واضطهادهم، وجعلهم يعيشون على الهامش من الناحية الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية.

وفي منتصف عام 1571م رؤى من المناسب، بعد أن استقر عشرون ألف

موريسكي في الأندلس، إبعادهم، وقد صدر قرار بذلك ونشر في 22 نوفمبر، وبتنفيذ القرار أخرج زهاء عشرة آلاف موريسكي باتجاه الشمال، وقد نقل الموريسكيون في الدفعة الأولى حسب الجدول التالي[346]: -

الوطن قبل التهجير	الوطن بعد التهجير
جيان jaen	وادى الحجارة
اندوخر	وادى الحجارة
ابده	
بياسه	اوكانيا وجبس
كاثورله	
مرتش	طليطلة
استجه	بلاسنثيا

تلت ذلك دفعة أخرى من التهجير حسب الجدول التالي: -

المكان قبل التهجير	المكان بعد التهجير
طليطلة	مدينة ديل كامبو - وتورديسياس
بلاسنثيا	مدينة لذريق

وفى نهاية عام 1571م تم توزيع موريسكيي مملكة غرناطة في أنحاء شبه جزيرة أيبيريا على النحو التالي: أكثريتهم في قشتالة الجديدة (طليطلة)، مانتشا (المدينة الملكية، البسيط، كينتنار)، الأندلس (أشبيلية، قرطبة، استجة)، كما وزعت أقلية منهم في قشتالة القديمة، وكان عددهم في استرامادورا، وسطاليس قليلاً، أما في المناطق الشمالية (بلاد البشكنس واشتريس وجليقية) فلم يوجد من الموريسكيين أحد[347].

ورغم كل ما جرى لموريسكي غرناطة، ظل عددهم يتزايد.

لكن ذلك أَدى لصدور عدة مراسيم ملكية بنفيِهم، وإبعادهم، فصدرت فرمانات في 6 مايو 1576م، وفي 26 يناير 1581م، وفي العام الأخير هاجر إلى قشتالة 3000 – 3500 موريسكي لمناجم المعدن، وكانت تقيم في سوكويلاموس من أعمال مانتشا (قشتالة) 49 أسرة مسلمة في عام 1581م، قست على كثير منهم أحكام محاكم التفتيش التي وصلت بالكثير منهم إلى التهلكة ما بين عامي 1582 – 1585م3، وظلت عمليات التهجير القسْري مستمرة، ففي أغسطس 1585م هجر زهاء 400 موريسكي إلى استرامادورا[348].

أما طريقة التهجير فتمت على الشكل التالي: قسمت المملكة إلى سبع مناطق، ووضع كل منها تحت رعاية مسئول أو أكثر، ليقودا عمليات الترحيل من خلال مراكز التجميع التالية (روندة، مالقة، غرناطة، غواديكس، باثا، بيرا، ألمرية)، وكان يساعد هؤلاء آخرون، وكان كل واحد منهم مسئول عن جمع عشر قرى[349].

ولقد استمرت هذه المرحلة أسبوعًا، عانى فيها الموريسكيون بسبب العديد من المصاعب التي واجهتهم، وتمكن بعضهم من الاختفاء أو الهرب، في حين قاومت مجموعة ثالثة قوات المسيحيين، وكانت بصورة عامة مقاومة لرد استفزازات القوات[350].

ونعتقد أن هذه المقاومة لم تكن مقبولة رغم محدوديتها، لأن الموريسكيين أصبحوا في وضع المنهزم، وارتضوا بالأمر الواقع.

ووفقاً لوثائق جديدة، ذكر دومنغيث، وفينست أن الإسبان استطاعوا أن يجمعوا داخل المصحات، والكنائس بالأماكن المذكورة سابقًا، أكثر من خمسين ألف شخص؛ منهم خمسة آلاف من ملقة وروندا، واثنا عشر ألفًا من غرناطة، واثنا عشر ألفًا من غواديكس، وستة آلاف من بيرا، وثمانية آلاف وخمسمائة من ألمرية، وبالإضافة إلى هذا العدد الذي يقدر ب 43500، ينبغي إضافة مجموعة باثا التي تكونت من 2400 رجل أعمارهم بين 14 – 60 سنة، بصحبتهم عدد كبير من

العجائز، والمسنين، والأطفال، وبالتالي فالمجموع يتعدى الخمسين ألفًا، وهو الرقم الذي أثبته مسئولو الطرد، حتى كتب أحدهم «إن أكثر من خمسين ألف موريسكي أرسلوا إلى قشتالة»، أما فرانثيسكو غوتيريث؛ فأثبت بدقة الرقم في خطاب وجهه إلى الكاردينال سيغوينثا، قائلًا: «قلت لك في خطاب سابق إنه قد أخرج أكثر من 35000 شخص من الموريسكيين؛ لكنى عرفت فيما بعد أنه قد أخرج من جانب بر المنصورة 11000 آخرين، وهكذا فمجموع ما أخرج من المملكة كلها 50000 تقريبًا» [351].

صدرت الأوامر للوكلاء، بأن يستعملوا كلمات طيبة مع الموريسكيين قبل المسير، وسمح لهم أيضًا بأن يبالغوا في الآمال الكاذبة لتحفيز الموريسكيين على المسير، هذا ما يمكن فهمه من الأوامر الموجهة إلى وكيل باثا – ألونسو دي كاربخال: «نظرًا لأن الأرض لم تُزرع نتيجة اضطرابات الحرب، فنتيجة لذلك قَلَّ المحصول هذا العام، فقد أصبح من المستحيل على هذه المحافظة أن تغطي حاجاتها الغذائية، لهذا، فإن صاحب الجلالة قرر أنه سيخرج المسيحيين الجدد من هذه المملكة، ويرحلهم إلى قشتالة، وإلى محافظات أخرى حيث يوجد الكثير من الغذاء، لأنها لم تعانِ الحرب، والمحصول فيها وفير، وبذلك يستطيع كل منهم أن يجد الراحة، والغذاء في عامهم هذا، وسوف يتم دراسة متى وكيف يمكنهم العودة إلى منازلهم بعد ذلك، ويمكنهم حمل أموالهم دون أن يؤخذ منهم أي شيء، باختصار يجب أن يقال لهم كل الكلمات الودودة التي يعرفونها»، أما ما حدث بالفعل، فلا يتفق مع هذه الصورة، لقد أهملت الخطة الأساسية التي كانت ترمى إلى ترحيل أعداد كبيرة إلى إلباثيني، وإشلبية، وسبب ذلك أن الظروف الجوية التي لم تكن مواتية جعلته غير قابلة للتنفيذ، فالعواصف الواردة من البحر المتوسط عطلت النقل، والمطر، والثلج عرْقلا عملية التموين على طول طريق إلباثيتى، وقد حدث كثيرًا أن تمت هذه الخطة الأصلية في اللحظات الأخيرة، واضطر الموريسكيون إلى السير في ظروف صعبة للغاية لمدة أسابيع، مما أثار الشفقة في قلوب المسئولين عن الترحيل[352].

ونجد أن شهادة خوان دي أوستريا مشهورة في هذا المجال بفصاحتها، ويمكن

أن نثبت شهادات أخرى لمثل خيرونيمو دي فوينتس، أرسلها من إلباثيني إلى الكاردنيال دي سيغوينثيا، ومما ورد فيها: «إنه لشيء مؤسف يدعو إلى الحزن رؤية هذا العدد من الأطفال، والنساء، يصاحبهم الحرمان، الذي يصعب القضاء عليه مع سوء الأحوال الجوية، وكثرة العدد... لقد كان من الصعب إكمال كل ما يجب مهما كانت طبيعة الحاجات[353].

وفي النهاية وصل 5500 إلى أشبيلية، و21000 إلى إلباثيتى، و12000 إلى قرطبة، و6000 إلى طليطلة، وكان ما حدث بالنسبة للكثيرين هو نهاية المرحلة الثانية فقط لسياحتهم الإجبارية، لأن السلطات لم تكن تسمح بترك هذه الأعداد مجتمعة بهذا الشكل في مكان واحد، فستة آلاف من الموريسكيين الذين وصلوا قرطبة، تابعوا طريقهم إلى إكستريمادورا، و7500انطلقوا من إلبانثتي إلى وادي الحجارة أو طليطلة أو تالابيرا دي رينا، و6000 تركوا طليطلة إلى سيغوبيا، وبلد الوليد، وفالنسيا، وسلمنكا، بعد هذه المراحل بقيت المرحلة الأخيرة، وهي توزيع الموريسكيين على القرى التابعة للمدن المذكورة بهدف تشتيتهم بأكبر صورة ممكنة، ويمكن اعتبار أن هذه المرحلة انتهت في 20 ديسمبر، بعد عملية ترحيل كانت مليئة بالمعاناة، وعذاب استمر لمدة شهرين[354].

وليس من الغريب أن تكون النتيجة النهائية للعملية سلبية، إن لابيري يظن أن نسبة الوفيات الحادثة من أول نوفمبر 1570م حتى ربيع 1571م، وهو التاريخ الذي تم فيه الإحصاء، تصل إلى حوالي ٪20.7، وهي نسبة أقل من الواقع، ففي إكستريمادورا وصلت النسبة إلى ٪30، هذا بالإضافة إلى أن الذين بقوا على قيد الحياة كانوا في حالة يُرثى لها، فقد انتشر بينهم التيفود، وأدخل عدد كبير منهم المصحات، إن انتشار هذا المرض الذي كانوا هم حاملين له لم يكن ليوفر لهم استقبالا جيدًا في المدن التي ذهبوا إليها، لقد حاولت بعض المدن رفض السكان الجُدد، ولكن دون جدوى، فقد كان على هؤلاء التعساء أن يستقروا في مكانٍ ما(2). وهذا جدول أعده دومنغيث وفينسينت، لتوضيح المواطن الأصلية للموريسكيين والأماكن التي تم توطينهم فيها[355].

الأماكن التي تم توطينهم فيها	المواطن التي أتوا منها
إلباثيتى، تشينشسيا	غواديكس – دائرة ماركيز لوس بيليث، بورتشكيانا، باثا، أويسكار أوخيجار
ألكالأ دي إناريس	باثا – كانيليس
إلكانتارا	ألموخيا – أنتاس – وأوهانيز – وتيخولا
الكاثار دي سان خوان، كرانسيويقيرا	دائرة ماركيز دي ثينيتى، بينا ماوريل
الماغرو، مانثاناريس	دائرة ماركيز دي ثينيتى
فالدييبنياس	دائرة غواديكس
كاثيريس	فيريرا – أورخيبا
كارمونا	غرناطة، ألفاتوسيين وتولوكس
قرطبة	غرناطة – ريف غرناطة – البشرات – ريو ديل المنصورة – سورباس – بيدار – لورين – توروكس – كانياس دي استيونا – كوماريس
أشيخا – إيستيبا – أوسونا	كاساربونيلا – غرناطة – جبال روندا – تولوكس – موندا – غوارو
غواداكانال	إيرناتى
غوادألخارا – زوريتا	دائرة ماركيز دي ثينيتى
جيان	غرناطة – البشرت – غواديكس – روندا
لوركا	أويسكار
مارتوس	غرناطة – ريف غرناطة
كينتانار دي لا أوردن	دائرة ماركيز لوس بيليث
سيغورا دي ليون	هويا دي ملقة

سيغوبيا	غواديكس – أرياف غواديكس
أشبيلية	ألمرية
تيمبليكى	إلسالار
طليطلة	أرياف غواديكس – البشرات – دائرة ماركيز دي ثينيتى
أوكليس – أويتى	ريو دي المنصورة
قشتالة – لابيخا (القديمة)	غرناطة – ريف غرناطة – موتريل – تريفيليت

إن طرد نوفمبر 1570م ؛ لم يكن الطرد الوحيد الذي عانى منه الموريسكيين، لكنه الأكثر أهمية، والمحوري في عملية تتكون من ثلاث مراحل، فمن ناحية، وقبل الوصول إلى ذلك الطرد العام، كانت السلطات ترغب في تسهيل العمليات الحربية في بعض القطاعات، ولهذا قامت بإجراء طرد جزئي سريع.

ومن ناحية أخرى فبعد نوفمبر 1570م بقي بعض الموريسكيين المتخفين، والثائرين في أرض غرناطة، فتم البحث عنهم، والقبض عليهم[356].

ويتحدث مارمول كاربخال عن العمليات الواقعة في البيازين في يونيو 1569م، وفي ويسكار في نوفمبر، وفي البورخي، وكوتار، وكومارس، وبينامارغوسا في ريف غرناطة في مارس 1570م، وفي تولوكس، وموندا في مايو، ففي كل هذه العمليات رحل جزء كبير من السكان، وبعضهم استثنوا من ذلك، والبعض هرب، وفي نوفمبر 1570م بقي 165 شخصا في كوماريس، وبلا شك عدة آلاف في البيازين كانت السلطة على معرفة بأن الإجراءات المقررة لم تنفذ بكاملها، ومع ذلك، فقد رضيت بالنتائج التي وصلت إليها، واعتبرتها واقعية[357] .

وهذا ما عبر عنه بدرو لوبيث دي ميسا في خطابه إلى الكاردينال دييغو دي إسبنوسا بشأن طرد يونيو 1569م ، حيث كتب:» بإضافة عدد المحتجزين إلى عدد المسجونين يصل الرقم إلى 4000 باستثناء المسنين، والأطفال، على الرغم من تغيب

بعضهم، واختباء البعض الآخر، لكننا مع ذلك سعداء لأن إخراج 4000 من الأعداء من غرناطة – حيث يعيش الأغنياء، والمهمين من الشخصيات – أمر سيكون له آثاره الكبرى، لأنهم حينما يخرجون سيتركون أبناءهم، ونساءهم، وأموالهم رهينة لدينا»[358].

ونعتقد أن موقف الرضا عن النتائج، التي تحققت لا يعني التخلي تمامًا عن الهدف الأصلي. فعندما سمحت الظروف، تم جمع الموريسكيين، ونفيهم خارج المملكة، مثلما حدث في غرناطة، والأماكن الأخرى.

إن عمليات الترحيل المذكورة لم يدوَّن المؤرخون أحداثها مطلقًا رغم كثرتها، وقد وصف بيدرو دي ميسا عملية نفذت في ديسمبر 1569م، فقال:» لقد أمرني السيد خوان دي أوستريا أن أحتجز كل الموريسكيين الذين بقوا في هذه المدينة في أربع كنائس من أجل ترحيلهم إلى خارج المملكة، وقد احتجزنا 2800 شخص، ومن هؤلاء تم ترحيل أكثر من النصف، أما الباقون فقد تركوا لكونهم من المرضى، والعجزة، وبقي 150 حرفياً بين خباز، وحداد، ومهن أخرى، وأشخاص آخرين أصحاب تجارة، ومعاملات كثيرة ليباشروا أمر محلاتهم، وممتلكاتهم، حيث أمهلوا مدة خمسة عشر يومًا، ثم قام كل منهم بتجهيز أمواله للرحيل، ويومًا بعد يوم يخرج بعضهم»[359].

إن عدد الذين طُردوا من مملكة غرناطة قبل الطرد الرئيسى لن يكون دقيقًا، وإنما تقريبيًا، حيث بلغ عدد الذين رحلوا قرابة 20000، منهم ما بين 4و5 آلاف من غرناطة، في يونيو 1569م، وأكثر من 2000 في ديسمبر ويناير، وبين 5و6 آلاف من مرج غرناطة في مارس 1570م، و 1000 من تولوكس، ومونda، وغواروا، دون أن يحسب فيها عدد الأطفال، والنساء، وذلك في مايو 1570م من ناحية أخرى، وكقاعدة عامة لهذا الطرد، كان يتم التخلص من الرجال أولاً، ثم من النساء، والأطفال، ولهذا يجب اعتبار العشرين ألفاً حداً أدنى، وليس حداً أقصى[360].

أما الحملة الأخيرة من الطرد فتبدأ من عام 1570م وهي الأكثر تعقيدًا، ومن الصعب معرفة الفريق الذي تنتمي إليه ضحايا هذ الحملة بدقة، فهم ما بين أناس بقوا في أرضهم الأصلية حتى ذلك التاريخ، أو من المتمردون الذين استمروا في المقاومة، ثم وقعوا أسرى، أو موريسكيين عادوا إلى أرضهم بطريقة غير قانونية

بعد طردهم منها؛ كما أن عددًا كبيرًا منهم ينتمي إلى أرض تابعة لبعض الإقطاعيين الذين حاولوا الإبقاء على رعاياهم، فدخلوا في مفاوضات مع الملك ليسمح لتابعيهم بالبقاء، وبعد إصرار شديد منهم سمح لأولئك بأن من له أراضٍ في قشتالة يمكنه إرسال تابعيه، الذين رحلوا من غرناطة إلى هناك، حيث تم إرسال 3500 في ديسمبر 1570م، وتبعهم في ذلك 51 موريسكيًّا من دائرة ماركيز لوس بيليث وصلوا إلى طليطلة في أبريل 1574م[361].

تحولت طليطلة إلى مركز لاستقبال الموريسكيين الغرناطيين، حيث استقبلت مجموعة كبيرة في يونيو 1571م، ثم 74 قادمين من ألمرية في نوفمبر 1572م، و32 من بورتشينا، وموتريل في فبراير 1573م، و11 من المونيكار، وموتريل في أغسطس؛ وهكذا يمكن أن يزيد عدد ضحايا هذه الحملة من الطرد – بعد نوفمبر 1570م – عن 5000، وربما يصل إلى 10000 شخص[362].

ومما سبق نخلُص إلى أن عدد ضحايا المراحل الثلاثة هو 80000 شخص، وهو عدد قد يقترب من الواقع، ويمكن الحصول عليه بجمع الأرقام الجزئية، التي تبلغ عشرين ألفًا في المرحلة الأولى، وخمسين ألفًا في المرحلة الثانية، وعشرة آلاف في المرحلة الثالثة.

الفصل الثالث

مأساة الطرد النهائى 1609 - 1614م

أسبابه، ومبرراته - نتائجه

أسباب، ومبررات السلطات الإسبانية قبل الطرد:

كان الطرد واحدًا من الحلول المختلفة، والمتكاملة المطروحة منذ عقود، للمشكلة التي يمثلها - بالنسبة للعقلية السياسية الدينية في ذلك العصر - وجود أقلية تدين بدين يختلف عن دين غالبية المجتمع الإسباني، لكن لا التوترات كانت مهمة، ولا أنصار ذلك الحل كانوا كثيرين، لذلك يجب أن نعرض بإيجاز عناصر الأزمة، والشخصيات أو المجموعات التي كانت تدافع عن ذلك الحل.

كان أساس القضية فكرياً، ومواجهة دينية بين مسلمين، ومسيحيين، حيث كتب لوي كارادياك: «تلك المواجهة لم تكن حربية في الأراضي الإسبانية، وإن ترتب عليها مظاهر عسكرية، لم يكن هناك خطر على العقيدة المسيحية، لأن الموريسكيين لم يكونوا يجادلون المسيحيين، ولم يكونوا يقومون بنشاط دعوِي لتحويل المسيحيين إلى مسلمين»[363].

أما ميكيل دي إيبالثا، فذكر أن الأمر عبارة عن رفض غالبية المسلمين الموريسكيين لأن يكونوا مسيحيين، كانت مشكلة دينية سببها عدم فعالية الجهود الكنسية لضم أولئك «الكفار» إلى المجتمع المسيحي الإسباني عن طريق تغيير دينهم، إن كل الوسائل التي وُضعت لخدمة ذلك الهدف لم تكن ذات جدوى، أو كانت نتائجها ضئيلة في مجال التنصير الحقيقي لغالبية الموريكسيين: الوعظ، والتعليم، والتعميد الإجباري، والمراقبة، والمحاكمات اللينة، ثم الشِدة أمام محاكم التفتيش، مع تشتيت الموريسكيين بين المجتمع المُسيطر... كان في ذلك الاختلاف الديني واضحا»[364].

كانت الآراء متعددة في أوساط الكنيسة، ويرى البعض أن رئيس الكنيسة الكاثوليكية، وهو بابا روما، لم يكن له دور عدواني في طرد الموريسكيين، كما

أثبت بيريث بوستادانتي استنادًا إلى وثائق الفاتيكان، استشير البابا باولو الخامس بورغيس(1605 – 1621م) في طرد الموريسكيين، ولما لم يكن مؤيداً لذلك الإجراء، لم يتم إعلامه بقرار الطرد إلا بعد اتخاذه بالفعل؛ أما ميكيل دي إيبالثا فيرى أن البابا كان يتحرك من منطلق حب مخلص تجاه الموريسكيين، ويرغب في تجنيبهم العقاب في الآخرة إن هم رحلوا إلى بلاد إسلامية، أكثر من رغبته في تجنب الصعوبات التي يمثلها طردهم من بلدهم، وليس من المستبعد كذلك أن تكون السلطات البابوية في روما – التي كانت على علم بالمشاكل السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية الإسبانية – قد وضعت في اعتبارها الآثار الاقتصادية السيئة التي يمكن أن يحدثها طرد الموريسكيين، من إسبانيا خاصة، على تمويل محاكم التفتيش، وعلى دخل الكنيسة[365].

وفي النهاية فإن البابا، والفاتيكان لم يكونا من أنصار طرد الموريسكيين، ولا عارضا ذلك الإجراء، ولم يقبلوا في دولتهم الموريسكيين المطرودين كما فعل أُمراء إيطاليون لأسباب اقتصادية؛ إن الآراء السابقة تعكس انحيازًا للبابا لإضفاء الروح الإنسانية على تصرفاته، فكيف لا يعلم بابا الكاثوليك بالطرد، وهو الأصل، والمرجع، والمتحكم في كثير من أمور السياسة، وهذه السِمة الغالبة في هذه العصور، فإن لم يكن البابا يعلم فمن يعلم إذًا.

ومن بين الأساقفة الإسبان كان خوان دي ريبيرا أسقف فالنسيا، وبطريرك أنطوكية أشد المتحمسين لقرار طرد الموريسكيين[366]، وبذل الأموال، والجهود – الشخصية، والكنسية – من أجل تنصير المسلمين، إن اقتناعه الشخصي بعدم جدوى الجهود الكنسية، والمكانة السياسية التي تتمتع بها؛ إنما جاء لأنه كان نائبًا للملك في فالنسيا لعدة سنوات، كل ذلك أدى إلى تحمُسه لطرد الموريسكيين، رغم علمه بالنتائج الدينية، والاقتصادية السلبية التي يمكن أن تترتب على ذلك القرار السياسي، وقد رأى هو نفسه بعض هذه النتائج السلبية قبل موته عام 1611م[367].

لم يكن معظم رجال الكنيسة من أنصار قرار الطرد، مثل أساقفة فالنسيا، وسيغوربي، وأورى أويلا، وطرسوس، ولكن كان هناك أساقفة يشاركون ريبيرا ضرورة الطرد، ومن بين هؤلاء رجل الكنيسة خايمي بليدا، الذي كان متحمسًا

بشدة لطرد الموريسكيين من إسبانيا؛ ويمكننا القول بأن القساوسة الذين اتصلوا بالموريسكيين اتصالاً مباشرًا، هم الذين اعترفوا بفشل عملية تنصيرهم، وكانوا من أنصار عملية الطرد، كان هذا وضع كل من ريبيرا، وبليدا، لكن هناك تقارير حول الموضوع – من بينها تقرير بدرو دي فالنسيا – كانت تعرض رأيًا مختلفًا، ربما لأنها لم تكن متأثرة بفشل عملية التنصير[368].

ويرى البعض أنه على مستوى إسبانيا كلها لم يكن الرئيس العام لمحاكم التفتيش، الكاردينال نينيو دي غيبارا، من أنصار طرد الموريسكيين كلهم، فقد رفض الحل الذي قدمه بليدا.

كانت هناك أسباب مادية وراء موقفه، منها الأثر المادى الذي يُحدثه طرد الموريسكيين على تمويل محاكم التفتيش؛ من ناحية أخرى لم تكن أهداف محكمة التفتيش تجميع المخالفات، و»الجرائم الدينية»، بل إنقاذ الأرواح من عذاب الآخرة بالمحافظة على سلامة العقيدة المسيحية، وثانيًا بمحاولة إقناع المذنب بالتوبة، فينقذ نفسه من عذاب الآخرة؛ ومن وجهة نظر محكمة التفتيش، كان طرد الموريسكيين هو الحل الأخير[369].

ويختلف الباحث مع هذا الرأي في تبريره لأهداف محاكم التفتيش، فكيف تكون الدعوة لدين، وتعليمه بسلب الابن، والمال؟! وكيف يعلم دين بأبشع طرق التعذيب!! هل هذا ما يدعو له الدين المسيحي؟؟!! الإجابة بالنفي، ولكن رجال الكنيسة شغلتهم الدنيا، أكثر مما ذكر المؤرخ، لا يهمهم إنقاذ روح، ولا يشغلهم دخولهم في الدين المسيحي، بدليل فشلهم في إقناع الموريسكيين في التنصر، حتى لو فقدوا الابن، والمال؛ إن من دافعوا عن عدم الطرد، من الناحية الدينية، لم يكن من قساوسة الكنيسة، بل كانوا من خارجها.

كان الملوك الإسبان يعتبرون أن مستقبل الدين المسيحي، يُشكل إحدى قضايا الدولة التي عهد الله بهم إليهم، لذلك كان للملك فيليب الثالث، والملكة مارغريتا دي أوستريا؛ دور مهم في طرد الموريسكيين، كان القرار الأخير من اختصاصهما، وأحاطا نفسيهما بمستشارين دينيين، ومدنيين، وعسكريين، لكن المَلكين كانا

مقتنعين بأن الأمر له أهمية دينية، وكان القرار نابعًا من ضميريهما، كما تؤكد ذلك نصوص كتبت في تلك الفترة، خاصة نصوص قرار الطرد[370].

ونرى عند اتخاذ فيليب الثالث قرار طرد الموريسكيين، كان يُحركه عامل الوحدة الدينية في ممالكه تحت راية العقيدة الكاثوليكية، التي كان يدافع عنها من خلال السياسة الخارجية في أوروبا، وما وراء البحار، كان هناك من ينتقد الوضع المتناقض حينذاك، والمتمثل في ضم شعوب العالم الجديد إلى الكاثوليكية، في الوقت الذي يكون فيه في إسبانيا أناس من «الوثنيين» أو «الكفار»؟! وبطبيعة الحال فإن هذا يدل بوضوح على سماحة الحضارة الإسلامية، وملوكها الذين أقاموا حضارة في نفس المكان، وكان يعيش في كنفِها يهود، ومسيحيين، ومسلمين، الكل عاش في عدل، ولم يجبر أحد على ترك دينه أو سلب ماله أو اضطهاده، وقامت حضارة تضم كل الأديان.

يقول خوان باوتستا بيلار إن السياسة الدينية للملك تأثرت، بأنه في عام 1609م عقد اتفاقية سلام مع بروتستانت هولندا بعد سنوات من الحروب لفرض الكاثوليكية هناك، وأراد حينذاك إحداث توازن بين تلك الاتفاقية الناتجة عن توحيد العقيدة، واتخاذ طرد المنشقين عن الوحدة الإسبانية من الموريسكيين، كما حدث مع اليهود، والبروتستانت، والايرازميين، وغيرهم من المتهمين بإضعاف الصفة الكاثوليكية للمملكة الإسبانية[371].

كان الأطفال الموريسكيون - وهم غير مسئولين بحكم سِنهم عن اتباع الإسلام - يمثلون دائمًا موضوعًا للمناقشة: إذا انتزِع الأطفال من أُسرهم المسلمة فسيتحولون إلى مسيحيين مخلصين، وهكذا تنقذ أرواحهم في الآخرة، كانت المشكلة الرئيسية هي الأمل في تنصير الموريسكيين، واندماجهم في المجتمع المسيحي، إذا لم يكونوا قد تنصروا حتى الآن، فإن هناك أمل في تنصيرهم عندما يريد الله ذلك[372].

كانت تلك التساؤلات الدينية ماثلة في ذهن فيليب الثاني، الذي قرر ترحيل الموريسكيين من غرناطة، وتوزيعهم على أنحاء مملكة قشتالة بعد حرب البشرات، لتسهيل اندماجهم في المجتمع، لم يكن فيليبى الرابع من أنصار طرد الموريسكيين، فقد امتنعت حكومته عن ملاحقة بقايا الموريسكيين ممن بقوا في إسبانيا أو عادوا إليها، أما

بالنسبة لفيليب، ومارغريتا دي أوستريا، فقد كانت لديهما أسباب عميقة لم تكشف عنها الوثائق، وربما لن نعرف ذلك أبدًا، إذ أنها أسباب تتعلق بالضمير الديني الداخلي، ولأنه ليس من الممكن توثيق المحادثات، التي جرت بينهما، وبين مستشاريهما المقربين[373].

من هنا، وإزاء تلك التساؤلات ذات الطابع الديني، غلبت على الملك عوامل المصلحة السياسية، التي كانت تؤيد عملية الطرد، لقد كان الرأي العام، كما يثبت دومنغيث - فينسينت، قليل الأهمية عند اتخاذ قرارات من ذلك النوع، لم يكن الرأي العام يرغب في اختلاف الأديان، والعادات، خاصة في حالة وجود خطر سياسي عسكري من جانب المسلمين، والأتراك، الذين كان الموريسكيون في تحالف طبيعي معهم؛ لكن المعارضة الموثقة لقرار الطرد كانت قليلة، وكانت المعارضة تأتي من قطاعات محلية في المجتمع الإسباني[374].

كان توزيع الموريسكيين بعد حرب البشرات، هو الذي أسهم في تعريف قطاعات الشعب الإسباني بمدى تصلب الموريسكيين أو المسلمين المتخفيين، لقد أثار الموريسكيون مشاكل اندماج في الأماكن التي ذهبوا إليها؛ ففي فالنسيا كانت العلاقة بين البرجوازية، والقساوسة من جانب، والموريسكيين من جانب آخر، في غاية الصعوبة منذ حرب الجماعات.

وكانت النصوص التي تدعو إلى اتخاذ إجراءات ضد الموريسكيين في المجتمع الإسباني تقتصر على منع القراصنة في السواحل، والتي كانت تتم بتواطؤ الموريسكيين، وعلى عقوبة عمليات السلب في القرى، والتي انتشرت على يد الغرناطيين المُبعدين من بلدهم، في المجتمع الطبقي في القرن السادس عشر؛ كانت هناك وسائل تمنع قيام «المسيحيين الجدد» بممارسة وظائف معينة أو مناصب عامة أو الانضمام إلى المنظمات الدينية، لم يكن سوى تعبير عن المنافسة، والخصومة داخل المجتمع، ولا يبدو أن عدد الأيدي العاملة في أوائل القرن السادس عشر كان كبيرًا، لكن قدرة الموريسكيين الفائقة على العمل، ونجاح بعضهم أدى إلى خط الطبقات الشعبية الإسبانية[375].

لذلك نجد أنه لم تكن هناك مطالبة ملِحة في أوساط الرأي العام بطرد الموريسكيين، كان المجتمع الإسباني يرى أهمِية الوحدة الدينية، والثقافية، لكن

الوضع الاجتماعي للموريسكيين لم يكن مصدرًا للمشاكل أو لانعدام الأمن، إذن فلابد أن أسبابًا خاصة بالسياسة العسكرية، والدولية هي التي كانت العوامل الحاسمة في اتخاذ قرار طرد الموريسكيين، الذي أيده مجلس الدولة في جلسته التاريخية المنعقدة في 4 أبريل 1609م، وكان دور كبير الوزراء، دوق ليرما، حاسمًا[376].

كانت علاقة الموريسكيين بأعداء المملكة معروفة، خاصة بالنسبة للعسكريين الإسبان، الذين أذهلتهم شدة مقاومة الغرناطيين في حرب البشرات، سواء في مشاكل الحدود مع فرنسا أيام هنري الرابع، أو في هجوم المسلمين على سواحل فالنسيا، كان الموريسكيون يمثلون خطرًا على أمن البلاد في نظر المسئولين الإسبان، ورغم أن الخطر التركي لم يعد كبيرًا في الجزء الغربي من البحر المتوسط، فإن فشل الحملة البحرية الإسبانية على الجزائر، وانتهاء الحرب الأهلية في المغرب قد أدَّيَا إلى الخوف من تزايد ضغوط المسلمين على إسبانيا، التي كانت جيوشها موزعة بين أوروبا، والعالم الجديد، كانت اتفاقية السلام الهدنة الموقعة في هولندا، والتي تستمر اثنا عشر عامًا مع البروتستانت تُهيئ المناخ لكي يتفرغ الإسباني «للعدو الداخلي» في نظر بعض المسئولين الإسبان[377].

قدم الموريسكيون إعانات مالية كبيرة للخزينة الملكية، ضمنت لهم البقاء في مأمن عن محاكم التفتيش لفترات من الزمن، ففي سنة 1525م، على سبيل المثال، دفع موريسكيو بلنسية 50 ألف دوكة، وحظيت الصفقة بقبول الكاردينال مطران، وكاردينال أشبيلية، ورئيس محكمة التفتيش[378].

وتدل هذه السياسة على جشع الحكومة الإسبانية التي كانت في عوز دائم للسيولة النقدية، مما جعل الموريسكيين يلجأون كثيرًا لتزوير النقود، كما هو الحال بالنسبة لموريسكيي هوناتشوس[379]، وإذا كانت لهذه السياسة إيجابياتها على خزينة الدولة، فإنها انعكست سلبًا من الناحية الدينية، وساهمت في إخفاق التنصير، الذي كان أهم شعار رفعته إسبانيا لتحرير البلاد من «الهرطقة».

ويصف المبعوث البندقي نافيخيرو Navigero الوضع الذي سنة 1526م بعد ثورة الإخوة Germania بقوله: «إن عناية أولئك المتنصرين بالدين المسيحي كانت قليلة جدًا، وكان غرض رجال الدين الأعظم هو جمع المال، وهذا ما جعل العرب،

والمسلمين يبقون على إسلامهم أو دون دين، بل إن كثيرًا من المحققين لا يتورعون عن ارتكاب الغصب، والرشوة وغيرها لملء جيوبهم، فكانت بذلك أحكام الغرامات، والمصادرات أخصب مورد لاختلاس المحققين، وعمال الديوان، وقضاته، وتنعمت الخزينة الملكية ذاتها بمئات الألوف من هذه الموارد[380].

لم تكتفِ سياسة إسبانيا بعمليات المصادرة، وفرض الغرامات، بل أصبحت ترى في طرد الموريسكي أفضل حل لتحقيق المزيد من الثراء، والحصول على موارد أكثر أهمية، وبذلك أصبح قرار الطرد حُجة تذرعت بها الحكومة الإسبانية، باعتبار أنه القرار الكفيل بإنقاذها من الأزمة المالية التي تتخبط فيها الدولة، وتمكينها من تسديد ديونها الهائلة التي كانت تتعاظم عليها باستمرار، ولا شك أن الأموال التي حصلت عليها الدولة من أملاك المنفيين بطريقة جشعة، كانت عظيمة للغاية، فقد جاء في تقرير القس المالي، في أكتوبر 1610م، أن معظم أملاك العرب المسلمين في أوكانا Ocana ، ومدريد بِيعت، وبلغ ما أحرزته مالية الدولة من ذلك البيع مائتي ألف دوكة، لكن إذا كانت إسبانيا تدعِي أن حل الأزمة رهين بالطرد الموريسكي، فهذا الادعاء كان مجرد شعار لتحقيق الثراء، ليس للبلاد، وإنما لأشخاص معينين، فقد جاء في رسالتين للسفير الإنجليزي «السير فرانس مؤرختين» الأولى في 4 مارس، والثانية في 16 مايو 1028هـ/ 1616م أن المفوضين كانوا يرسلون إلى المقاطعات لبيع بيوت المنفيين، ومزارعهم، وأن الملك لم يكن في نيته تخفيف العبء المالي عن الدولة، وإنما كان همه الوحيد توزيع المال من ذلك البيع على أصفيائه، فقد كان نصيب ليرما Lerma مئتين وخمسين ألف دوكة، ونصيب ابنه دوق أوسيدا مئة ألف، ونصيب ابنته دوقة ليموس Lemos خمسين ألف، ونصيب زوجها مائة ألف[381] .

لم تكن هذه السياسة لتحقق النتائج المتوخاة، بل أبانت عن نتائج عكسية، فإذا كانت إسبانيا تراهن بالفعل على تجاوز أزمتها بمجرد طرد الموريسكيين، فإنها في حقيقة الأمر زادت من تعميق الأزمة، فأسفَر الطرد عن نتائج وخيمة في مختلف الميادين، والأصعِدة، ومن هنا اعتبر العديد من الكتاب زمن فيليب الثالث، وما بعده بأنه رغم إيجابيات النفي من الناحية السياسية، والدينية، فهو ضار؛ إذا نظرنا إليه من

الوجهة الاقتصادية، والديمغرافية[382]، فكان الطرد بمثابة الضربة القاضية لرخاء إسبانيا، ومواردها، فانحط الإنتاج الزراعي، الذي برع فيه الموريسكيون، وخربت الضياع الكبيرة بفقد الأيدي الماهرة، وكسدت التجارة التي كان الموريسكيون من أنشط عناصرها، وركدت الصناعة التي كان الموريسكيون أساتذتها[383].

كما تناقص عدد السكان، وانكمشت المدن الكبرى، وتراجع عمرانها، وتضاءلت موارد الخزينة العامة، وشلت جهود الإصلاح، والتقدم، وعمَّ الفقر، والخراب مئات المناطق، كل ذلك ناتج عن تعصب إسبانيا، وإصرارها على مطاردة، وملاحقة الفلاحين، والتجار الموريسكيين بأية وسيلة حتى لا يبقى أمامهم سوى خيار واحد: إما الاندماج أو الطرد[384]؛ لكن إذا كانت إسبانيا خسرت اقتصاديًا من جِراء طردها للموريسكيين، فهل استطاعت أن تُنصر، وتُعمد أكبر عدد منهم؟!

الطرد النهائي: من العرض السابق نجد أن ترتيبات إقصاء الموريسكيين الأندلسيين من إسبانيا، وطردهم كان من أسبابه الجوهرية المقاومة المستمرة التي أبداها المسلمون في الأندلس طوال عدة أجيال 897 - 1018هـ/ 1492 - 1609م.

وتوضيحًا لهذا الأمر الجلل الذي أحاط بالموريسكيين الأندلسيين عقِب هذا التهجير، والطرد النهائي من أراضيهم، نطرح هذا التساؤل: هل كانت قرارات الطرد النهائي دفعة واحدة؟ وهل مَست جميع مسلمي الأندلس، أم تعرضت له كل مدينة على حِدة؟ وما موقف الموريسكيين الأندلسيين من هذا القرار؟ لقد اختلفت الآراء، وكانت مقترحات رجال الحكومة الإسبانية حول هذا الأمر تدور في تسعة حلول[385].

الحل الأول: اقترحه الراهب « فرانسيكو دي رباس» سنة 990هـ/ 1582م، وألونسو كوتريس» سنة 995هـ/ 1588م، ويعتمد على جمع الموريسكيين الأندلسيين، الذين يرفضون النصرانية.

الحل الثاني: اقترحه الراهب «تريخوس» سنة 981هـ/ 1573م، واعتمد على اختطاف كل الأطفال الموريسكيين الأندلسيين، الذين لا تتعدى أعمارهم 6 سنوات،

وتسليمهم للنصارى لتربيتهم على دين النصرانية.

الحل الثالث: اقترحه مطران «ربيرا» وهدف القضاء على الموريسكيين الأندلسيين بالاسترقاق، وأخذ بضعة آلاف منهم كل سنة للعمل في السفن، والمناجم حتى يتم إفناؤهم.

الحل الرابع: اقترحه بعض وزراء الملك فيليب الثاني، وقام على جمع كل الموريسكيين الأندلسيين، وحملهم على السفن، وإغراقهم في عرض البحر.

الحل الخامس: اقترحه «مارتين دي سالبيتيرة» أسقف «سقروبة» بمملكة بلنسية، وقام على إخصاء كل الذكور الموريسكيين الأندلسيين.

الحل السادس: اقترحه أيضًا «ألونسو كوتريس» ، وقام كذلك على الإخصاء، لتحديد نسلهم.

الحل السابع: بقتل الأندلسيين دفعة واحدة، وقتل البالغين منهم، واسترقاق الباقين، وبيعهم.

الحل الثامن: اقترحه «بيدرو بونسي دي ليون»، واعتمد على إرسال الشباب الموريسكي ممن تتراوح أعمارهم بين 18و40 سنة للعمل في السفن، وبذلك يقل عددهم، وينقرضوا بمرور الوقت.

الحل التاسع: وقام على طرد الأندلسيين خارج إسبانيا، وهو الحل الذي يتم تطبيقه عام 1609م.

اتخذ قرار الطرد في ربيع عام 1609م واستمر تنفيذه من خريف 1609م حتى عام 1614م ، ويلخص بيرنارد فينسنت الجوانب الأساسية في القرار بينما كانت المناقشات الشكلية في المجتمع الكنسي تتواصل اتخذ مجلس الدولة في 4 أبريل 1609م قرار الطرد كان المستشارون هم – دوق آليا؛ – وكونت آلبا – ماركيز بيلادا قائد قشتالة؛ قائد ليون؛ كاردينال توليدو ربما كان صوت دوق ليرما، هو الذي قاد الأصوات الأخرى استند القرار إلى أمن البلاد، واحتلت القضية الدينية مرتبة ثانوية، وكان ذلك في عهد الملك فيليب الثالث.

ونجد أن إحدى الوسائل التي تم اتخاذها قبل نشر القرار كانت بجمع القوات

العسكرية، ووسائل النقل البرى الكافية لإتمام عملية الطرد، أحسن الموريسكيون بقرب إصدار قرار طردهم، فعمل الأغنياء منهم على أخذ إجراءات تنقذ ما يمكن إنقاذه، إما بالهروب بأموالهم أو بتسريب أموالهم خارج إسبانيا، كانت أول منطقة يتم فيها تنفيذ قرار الطرد مملكة فالنسيا، حيث أعلن نائب الملك ماركيز كاراثينا القرار في 22 سبتمبر، وشهدت موانئ فالنسيا من أليكانتي حتى بينادوث رحيل أكثر من 120 ألف موريسكي في سفن ملكية، وقوارب خاصة في جو من الكراهية، والاعتداءات من جانب المواطنين المسيحيين، وكذلك أمكن إحضار ثلاثة آلاف طفل سرقوا من عائلات موريسكية، وبقوا مع عائلات فالنسيا[386].

أما القرار الخاص بموريسكيي أندلوثيا، ومملكة قشتالة فلم يصدر قبل عام 1609م، كان القرار يشمل مصادرة جزئية لأملاك الموريسكيين لصالح الخزانة الملكية، بدلًا من بيع الممتلكات بشكل كلي كما حدث في فالنسيا، كما كان القرار يقضي بأن تتخلى الأُسر الموريسكية عن أطفالها، الذين تقل أعمارهم عن سبعة أعوام، إلا إذا توجهت الأسر إلى بلاد مسيحية، وقد أدى القرار إلى أن تتوجه الأسر الموريسكية إلى فرنسا، لكن السفن المتجهة إلى فرنسا غيرت طريقها من البحر، واتجهت إلى السواحل المغربية؛ والجدير ذكره أنه لم تكن هناك مقاومة أثناء عمليات الترحيل في ملقة، وأشبيلية، وهناك شواهد على حزن الناس على الموريسكيين المطرودين، وهو ما يتضح من اللوحة الأدبية التي رسمها غاسبار دي أغيلا، والتي تحدثت عن الأمر بصورة مفزعة [387].

بعدها بدأت تنتشر قرارات الطرد في أنحاء المملكة، حيث إن موريسكيو إكستريما دورا، وقشتالة بدأوا هجرتهم منذ عام 1609 ونشر القرار في 10 يوليه 1610م، وتوجهوا إلى فرنسا، وفي أراغون نشر القرار في 29 مايو، وشمل بقاء الأطفال ممن تقل أعمارهم عن أربع سنوات، وفي 8 أكتوبر 1610م أعلن قرار طرد موريسكي مملكة مرسية، واستثنى منه موريسكيو وادي ريكوتي[388]، ويذكر بيرنارد فينسيت، على ضوء وثائق محفوظة في يورد، أن عدد الموريسكيين المطرودين بلغ 275 ألفاً، فإذا أضفنا من هاجر سرًا، بلغ العدد الإجمالي 300 ألف[389]، وهناك وثائق إسبانية تشير إلى أن العدد 272 ألف، بل، وتشير إلى أعداد الموريسكيين في كل مدينة، وهو

ما يوضحه الجدول التالي [390].

م	أعداد المنفيين	المنطقة الإسبانية المنفيين منها
1	117464 موريسكيًّا	منطقة فالنسيا
2	60818 ألف موريسكيًّا	منطقة أراغون
3	44625 ألف موريسكيًّا	كاستيا وألستيا دورا – قشتالة
4	30000 ألف موريسكيًّا	من غرب الأندلس
5	13552 ألف موريسكيًّا	من مورسيا (موريثا)
6	3716 ألف موريسكيًّا	من إقليم كاثولوينا (قطالونيا)
7	2026 ألف موريسكيًّا	غرناطة (ويرجع ضائلة النسبة أن موريسكيًّا غرناطة قد نُفوا من ضواحها، وخاصة بعد ثورة 1568م تدريجيا طيلة القرن 16م

والسؤال: هل نستطيع اليوم وضع جدول تقريبي بأعداد، ونسب المطرودين من الأندلس، والذين استقروا في المدن، والموانئ المتوسطية الجنوبية منها، والشمالية؟ لنذكر الإحصائيات الدقيقة، التي قدمها الفرنسي هنري لابيري في دراسته المونوغرافية: جغرافية إسبانيا الموريسكية، والتي أكدت على أن المُهجرين العرب من الأندلس بلغ عددهم 275،000 نسمة[391] وهو الرقم الذي اعتمده جل المؤرخين، والدارسين لاحقًا، لقد أثبتت العديد من البحوث، والدراسات أن عدة آلاف فقط من هؤلاء الموريسكيين استقروا بالموانئ، والمدن الفرنسية، والإيطالية، والبلقانية، وفقًا للجدول التقريبي الذي أمكننا تحديده على الشكل التالي[392]:

عدد الموريسكيين، وأماكن وجودهم بإسبانيا	جهة الطرد
500 موريسكي	تحولوا إلى سالونيك
1100 موريسكي من الأراغونيين، والإشبيليين	تحولوا لمركز الدولة العثمانية

80.000	تونس
50.000	المغرب الأقصى
25.000	الجزائر

وهذا وفقًا للمعلومات القديمة نسبيًا، حيث كان مجموع من التجأ إلى البلدان المغاربية 155.000 ألفاً، وفى ضوء ذلك إذا قبلنا مبدئيًا، بالرقم الذي قدمه المؤرخ الفرنسي هنري لابيير، وهو 275.000 ألفاً، فإن الفارق بين الرقمين يكون 120.000 ألفاً، والتساؤل الذي يفرض نفسه الآن، إلى أين التجأ بقية المطرودين؟[393].

هناك مصادر عديدة ترصد عدد الموريسكيين بأعداد أكبر من ذلك، لقد اختلف المؤرخون في تقدير أعداد هؤلاء، ومنهم بيناسار B. Bennassar ، الذي ذكر أن عددهم بلغ 400 ألف أثناء صدور قرار الطرد[394].

هذا في حين أورد رزوق أرقامًا نقلًا عن مصادر إسبانية بلغت في بعض الأحيان مليون شخص[395].

ونعتقد أن أقرب الأعداد للصواب هو ما ذكره رزوق، حيث إن المسلمين كانوا هما الأغلبية في كافة المدن الإسبانية، أما الكونت ألبير فأورد أعداد المهاجرين من مختلف المدن الإسبانية كالتالي:[396]

عدد المطرودين..	المدينة
الهجرة الأولى	
150.000	بلنسية
80.000	الأندلس
64.000	أراغون
44.000	قطالونيا
82.127	قشتالة

مورسية	6.552
قلعة رباح	1.100
فال ريكوت	2.500
الهجرة الثانية	
بلنسية	6.000
قشتالة	17.317
المجموع	453.596

هذا بالنسبة للمصادر الأجنبية؛ أما فيما يخص المصادر الموريسكية، والمتمثلة في مصدرين أساسيين، فالأول يورد أن الأندلسيين الذين شملهم قرار الطرد بلغ 600.000[397]، في حين أوصل الثاني الرقم إلى 800.000 شخص[398]، ولتوضيح عدد الموريسكيين الأندلسيين المطرودين من إسبانيا، حسب المؤرخين الإسبان، نورد جدولا أعده محمد رزوق[399].

المدينة	عدد الموريسكيين
Bleda	يقدرهم بحوالي موريسكي340.672
Moncada	400,000 موريسكي
Penaiosa	يقدر بحوالي 310.000 موريسكي
Escolano	600.000 موريسكي
Salazarde - Mondoza	313،000 موريسكي
Rodrigo - Mendez silva	900.000 موريسكي

ونذهب إلى الاعتقاد بأن أعداد اللاجئين الموريسكيين إلى المغرب الأقصى، والجزائر كانت أعلى بكثير مما هو معروف اليوم، وعلى كلٍ فإن استقراء توزيع

المطرودين في الفضاء الجغرافي المغاربي، تحتم علينا إعادة النظر تمامًا للأعداد الحقيقية للاجئين إلى الجزائر، وكذا للمغرب الأقصى، وهي حتمًا أعداد أعلى بكثير مما هو معروف اليوم.

نتائج الطرد النهائي

- الآثارالاقتصادية لطرد الموريسكيين: خلال قرون عديدة أُثير جدل حول الآثار الاقتصادية للطرد، لكن في السنوات الأخيرة يوجد جهد ملحوظ لدراسة الموضوع من وجهة نظر علمية، بعيدًا عن المقدمات الخاطئة، بدأ هذا الجدل منذ اللحظة الأولى لحدوث الطرد، ورغم أن الفرصة أتيحت أكثر لسماع صوت المؤيدين للطرد، لأن الأصوات غير المؤيدة كانت تنزوي وتخشى أن تقوم بنقد قرار ملكي قائم على أسس دينية، لم يكن أحد يستطيع أن ينفي الآثارالاقتصادية المدمرة للطرد، لكنهم كانوا يسعون للتعبير عنها بأساليب لطيفة، تعبر في ذاتها عن الكراهية التي يحملونها نحو تلك الأمة المنغلقة، ونحو عقلية بعيدة عن سلوك الفرسان.

فالرجل القشتالي يقدر المال، وهو مستعد لعبور المحيطات، وخوض المعارك من أجل كسبه، ليس ذلك لقيمة المال في ذاته، وإنما لأنه وسيلة للحصول على الشرف، والجاه، والوجاهة، بينما الكدح، والاجتهاد الموريسكي يبدو لهم استجابة لغريزة قائمة على الشح، والبخل.

يقول كريستوبال بيريث دي إيرايرا في تقرير له: « كان يظن أنهم مهرة، وخاصة في زراعة البساتين، ولكن عند التدقيق في الأمر، يتضح أنهم لم يكونوا يُجيدون شيئًا، وكان همهم أن يأخذوا أموالنا فقط، حيث كانوا حمالين، وبائعين للأطعمة، وكانوا بهذه الطريقة يمتصون خيراتنا، بينما كانوا يتعاونون حتى لا يبقى منهم فقير، ويحرمون المسيحيين من تلك الفوائد... ولم يكونوا ينفقون شيئًا مما يكسبونه، حيث لا يشترون الخمر، وهو أحد أبواب الإنفاق الرئيسية بالنسبة لعامة الناس، وهو الذي يساعد على دفع الضرائب، كما أنهم لا يشترون خنزيرًا، وغيره من الأطعمة المرتفعة الثمن، وكانوا يدفعون ضرائب أقل منا»)[400].

والحقيقة أن هذا النص يحمل قدرًا هائلاً من الاتهامات التقليدية الشائعة ضد الموريسكيين، والتي ليس لها صلة بالبخل أو الشح كما تم الزعم، وإنما هي من أسس الدين الإسلامي، ومنها التكافل للمحتاجين، والفقراء (من خلال الزكاة)، وعدم شرب الخمر، والجد في العمل، إن هذه الاتهامات نابعة من عدم معرفة المؤرخ بالإسلام، من ناحية أخرى كانت هذه الكتابات حينئذ غرضها التشويه لتلك الفئة لألا يرغبهم عامة الإسبان، ووسيلة، وحجة لتبرير الفشل الاقتصادي، وتوليد روح الكراهية نحو هذه الفئة بحجة أنهم يسرقون أموال العامة، وسبب فقرهم.

وحول الخسارة الناتجة عن رحيل الموريسكيين توجد الكثير من الأصداء في أعمال كتاب معاصرين، إن كابريرا دي كوردوبا - على سبيل المثال - يعطينا فكرة عن البلبلة التي حدثت في أرغون لعدم دفع الضرائب المفروضة على الموريسكيين، والتي كانت تصل لستة ملايين، وبموت فيليب الثالث، غير ابنه، وخليفته النظام السياسي، ففقد كثير من الحكام نفوذهم، ولم يتورع الكتاب عن انتقاد قرار الطرد باعتباره مضرًا، أما بالنسبة لمؤرخي عصر التنوير (مثل كامبومانيس، وأوريال، وكابارويس)، فقد تحول الموضوع لفرصة مناسبة لنقد النظام السابق، أما مؤيدو الإجراء (مثل بورونات)، فإنهم وإن قللوا من آثار الإجراء، إلا أنهم لم ينفوها، وموقف «إيرل ج. هاميلتون» يبدو مثيرًا، حيث انطلق من دراسة حركة الأسعار بإسبانيا في القرن السادس عشر، واستنتج أن عدد الموريسكيين يجب أن يكون أقل بكثير مما قيل، وأن تأثيرهم في الاقتصاد لم يكن خطيرًا؛ لأنه بعد عام 1609م لم يحدث ارتفاع مفاجئ في الأسعار بسبب رحيل تجمع عمالي كبير، وقد أيد هذا الافتراض جون ساليرا دون إضافة أدلة جديدة[401].

وإذا كان موقف هاميلتون، وسالير - الذي كان يميل للتقليل من الآثار الاقتصادية السلبية - يُعتبر رد فعل على مدرسة قائمة على المبالغة، إلا أنه سقط بكامله عندما أثبت لابيري أن الخسائر في عدد السكان الناتجة عن قرارات 1609 - 1610م وصلت إلى 300 ألف شخص، أي ما يساوى 4٪ من إجمالي عدد سكان إسبانيا، ومع أن النسبة منخفضة، إلا أنها تمثل نسبة مرتفعة من السكان القادرين

على العمل؛ حيث لم يكن يوجد بين نسبة كبيرة من الموريسكيين نبلاء محتالون، ولا جنود، ولا رهبان، ولا متسولون[402]..

ونرى هنا أن المؤلف يعدد الفئات التي لا تعمل، وبالتالي يكون أغلب الموريسكيين الذين طُردوا من أبناء الفئات العاملة.

وعند «ألونسو فيرنانديث»، وهو مؤرخ من بلاسنثيا أنهم لم يكونوا يسمحون لأحد منهم أن يتسول، لم يكونوا يمثلون نسبة عالية بين الطبقة العاملة فقط، بل كانوا يكدحون، ويجدون، ربما بسبب الحاجة أو بسبب الموهبة، والعادة، وحول هذه النقطة يوجد الكثير من النصوص المتفقة فيما بينها؛ فبعد الاستيلاء على غرناطة قام الألماني مونزيرMonzer برحلة عبر إسبانيا، وترك حديثا مليئًا بالملاحظات الدقيقة، فمنذ مروره بأراغون لاحظ أنه يعيش حوالي ستين موريسكيًّا في مكان لا يتسع لخمسة عشر مسيحيًّا، وذلك لمهارتهم في الري، وغيره من النشاطات الزراعية، وهم كما يقول:»زهاد في طعامهم، ويخفون الكثير من المال»، بعد ذلك بقرن قام الكاهن اليسوعي «بدرو دي ليون» بزيارة لإسبانيا، ومع أنه لم يَرَ مباشرة السكان القدامى الموريسكيين في البشرات، فإنه بعد أن جمع آثارًا لهم، وذكريات عنهم، استطاع أن يقارن الموريسكيين مع السكان الجدد، ومع أن السكان الجُدد قد أخذ كل فرد منهم نصيب ثلاثة أو أربعة من الموريسكيين، فإنهم كانوا يموتون جوعًا؛ لأنهم لم يكونوا يعملون بجد، وكدح مثل الموريسكيين[403].

أما لبيير تشانو Pierre Chano فناقض هاميلتون، حيث رأى في طرد الموريسكيين أحد الأسباب في تردي الأوضاع الاقتصادية الإسبانية عبر الأطلنطي، وكتب: «من المحتمل أن النتائج المباشرة للطرد، بالإضافة إلى عوامل أخرى، قد أدت إلى تدهور في مستويات حركة النقل إلى الهند (أمريكا اللاتينية) حيث انخفضت تلك الحركة في فترة (1614 – 1622) ولم تبلغ الأرقام القياسية التي حققتها في فترة (1605 – 1613)، وعند صدور قرار الطرد في خريف 1609م لقي ترحيبًا كبيرًا من قِبَل الشعب الإسباني، ولم يرتفع صوت واحد نزيه في صالح الشعب الموريسكي، أما شكاوى النبلاء فلم تكن نزيهة، لأنهم يخافون على مصالحهم، وأن ذلك الترحيب

الذي تم في حينه يمكن أن يُقارَن بما يحدث عند الحصول على قرض، حيث لا نعرف الحقيقة إلا عندما نكتشف الثمن الباهظ الذي دفعناه»[404].

وهنا نرى تأكيدًا على أهمية تلك الفئة في المجال البحري، والنقل، وأهميتهم في معرفة الطرق البحرية إلى الهند، وهناك العديد من الأقوال بأن الموريسكيين كان لهم دور كبير في اكتشاف العالم الجديد، وأن كولمبس استعان بهم في رحلته.

أما أصوات الشعب الإسباني فلم ترتفع بسبب تعبئة الكتاب، والكنيسة بكراهية هؤلاء، وتشويه صورتهم، باعتبارهم السبب في فقرهم، وربما جاز لنا القول بأنه تم تجاهل أصوات الشعب، ولم يجرؤ أحد على رصدها أو التحدث عنها، بصفة أنها قضية دينية سياسية.

لقد فرض الوضع الإقليمي نفسه بقوة في هذا المجال، كما فرضها في مجالات أخرى، ففي بعض الأحيان كان الرأي يوصف بأنه يمثل كل مملكة قشتالة، عندما تكون هناك رغبة في عرض افتراض، فعلى سبيل المثال، صدر قرار في المجالس البرلمانية عام 1610م لفرض ضرائب على الحرفيين، وعمال الحقول؛ نظرًا لارتفاع أجورهم، وعُلِّلَ ذلك برحيل الموريسكيين، ومرت الأعوام، وتغير الملك، ورجال الإدارة، وكجزء من سياسة اقتصادية جديدة، أصدرت إدارة الملك فيليب الرابع قرارًا في 22 سبتمبر 1922م بصدد تخفيض الضرائب بنسبة 5٪، وكتبرير لذلك الإجراء ذكروا أن انخفاض عدد السكان بسبب طرد الموريسكيين جعل الكثير من تلك الدوائر غير قادرة على دفع الضرائب العالية.

وبعدها بثلاثة أعوام طلبت المجالس البرلمانية خفض نوع معين من الضرائب، ومن بين الأسباب ذكروا: «الانخفاض الشديد في المعاملات، والتجارة بسبب طرد الموريكسيين؛ لأن الكثير منهم كانوا أصحاب معاملات، حيث كانوا يعملون في زراعة الأرض، وأعمال أخرى هي التي عليها تلك الضريبة، وقد توقف كل ذلك»[405].

وبعد ذلك بعشرات السنين أصبح تردي الأوضاع المعيشية في قشتالة أمرًا

بديهيًا؛ لهذا كتب الراهب الفرنسيسكاني «خوان دي سولانا» مقالًا في سبع نقاط «حول أمراض إسبانيا».

وعندما وصل إلى النقطة الخاصة بنقص الأيدي العاملة، والفقر، لم ينسَ أن يذكر طرد عام 1609م، وعلق عليه بأنه إجراء كان دافعه التقوى، ولكنه في الأمور الدنيوية سبب نقصًا كبيرًا، وأن الناس الذين لديهم أرض زراعية لا يجدون من يزرعها لهم، وهكذا يوجد فقر كبير»[406].

وفي بلدية أشبيلية لا نجد شكاوى، رغم أن غياب سبعة آلاف شخص بنسبة 6٪ من عدد السكان من الضروري أن يكون له أثر في الحياة الاقتصادية للمدينة، وفي مدن أخرى أصغر كانت الآثار السلبية أشد، وفي عام 1623م أعلن المجلس الكنسي لمدينة ثيوادريال أن عدد السكان وصل لألف أسرة، وكلهم تقريبًا فقراء؛ لأن طرد الموريسكيين أدى لخروج حوالي خمسة آلاف شخص منها، وهم الذين كانوا يساهمون في كل الضروريات، ويزودون المدينة بما تحتاجه[407].

وفي جلسة برلمان طليطلة أعلن المسئول القانوني عن المدينة «خوان بيوغا دي مونكادا» استحالة دفع الضرائب المقررة عن المدينة بسبب طرد ثلاثة آلاف أسرة من الموريسكيين ممن كان أكثرهم من التجار، وأصحاب المعاملات؛ أما مجلس المالية في مدينة أبيلا، فقام بخفض الضرائب في عام 1612م بسبب الحاجة، ولنقص عدد السكان الذين انخفض عددهم؛ ووصل إلى ألف ومائة بسبب طرد الموريسكيين.

ومع أن الموريسكيين لم يكونوا كثيرين في بلد الوليد، فإن رحيلهم كان له أثر محسوس، ومن بين المؤشرات حول هذا الأمر، وجود مراسلات للملك فيليب الثالث مع رئيس الكاتدرائية بشأن بعض المؤسسات الخيرية، التي كان الملك قد أمر بإنشائها بالأموال التي تركها الموريسكيون[408].

عندئذ أعلم رئيس الكاتدرائية الملك أنه بعد دفع مستحقات محاكم التفتيش، لن يتبقى إلا إيراد قليل قيمته 300 دوكة؛ لأن ما تركه الموريسكيون كان عبارة عن منازل قديمة، إلى جانب أن كثيرًا من المنازل التي كانوا يعيشون فيها في حي سانتا

ماريا كانت للكاتدرائية بالإضافة إلى بعض البساتين، ثم علق قائلًا: «بسبب الأضرار الناجمة عن رحيل الموريسكيين القدامى، وكذلك القادمين من غرناطة، وبسبب الأضرار الحادثة في المبالغ المدفوعة عن أملاكهم والتي كان مقررًا عليها ضرائب أبدية، ولا يوجد من يأخذها، وكذلك النقص في العشور؛ حيث إن الموريسكيين هم الذين كانوا يزرعون البساتين، وأكثر أراضي بايادوليد، وكانوا هم المصدر الرئيسي للدخل.. لهذا فإن رئيس الدير لن يستطيع إدارة هذه الأمور إلا بصعوبة كبيرة، أما بالنسبة لمرسية؛ فقد كانت الآثار السلبية خطيرة للغاية سواء في المدينة نفسها أو في المناطق الريفية، ومع رحيل الموريسكيين بدأت الشكاوى من ممثلي المدن أمام البرلمان، فقد طلبت المدينة تخفيضًا في توزيع الضرائب؛ وذلك لذهاب حوالي ألف أسرة، وكان حوالي ثمانية أو عشرة آلاف موريسكي يأتون من فالنسيا إلى مرسية لبيع الحرير، فتوقفوا عن المجيء، هذا إلى جانب «أن هؤلاء الناس هم الذين كانوا يدفعون الضرائب، سواء الخاصة بالخدمة العادية أو غير العادية، ويدفعون الحركة التجارية في هذا البلد، وهذه المملكة، وأما الذين بقوا فيها فهم أقلية، وعندما نطرح منهم رجال الكنيسة، وغيرهم من الذين لا يدفعون الضرائب، يصبح من المستحيل دفع هذه الضرائب»[409].

وفي 1617م أعلن أحد نواب مرسية في البرلمان، أن رحيل 970 موريسكية أدى إلى أثر سيء في إنتاج الحرير؛ لأنهم كانوا يحبون العمل، ويفهمون ذلك جيدًا، وقد أصبحت 22قرية مهجورة، وقد تخرب المدينة أيضًا إذا لم يتم إيقاف استيراد حرير أجنبي[410].

كان من المنطقي أن تعاني مملكة غرناطة آثارًا سلبية أكثر من أي مملكة أخرى؛ لارتفاع نسبة الموريسكيين فيها أكثر من أي مكان آخر، وانخفاض دخل الكنيسة، والذي كان يقوم على ضرائب العشور التي تُدفع من الإنتاج الزراعي، وتربية الماشية، وتشير الوثائق إلى أثر التباين في مختلف المناطق، حيث سجل أعلى أثر سيئ في ألمرية، أما الأقل فكان في ملقة، أما ألمرية فكانت دائمًا مملكة فقيرة، ولهذا فحتى قبل الطرد لُوحِظَ أن الشخصيات الكنسية الثمانية، والخمسين المعينة من قبل

الملكين الكاثوليكيين تعاني فقرًا شديدًا؛ ولهذا خُفض عددهم، وانخفض الدخل من 1728569 إلى 949418 عام 1568م؛ وفي عام 1609م أعلن رئيس دير ألمرية أن الإقليم أصبح خرابًا «حيث كان يسكنه الموريسكيون، وقد تم توطينه بطريقة سيئة، إلى جانب أن أرضه سيئة، والناس لا يعملون فيه بجد، وهم اليوم في فقر شديد، وبسبب المجاعة التي حدثت في السنوات الأخيرة؛ فإن الكثيرين تركوا أرضهم، وأموالهم، ورحلوا»، على أن كل ما حصل عليه مسئولو المدينة كان تأجيل عملية دفع الضرائب، فتواصلت الشكاوى للتعبير عن الحالة المؤسفة، وانخفاض الدخل، الذي عانت منه أسقفية ألمرية أيضًا، حتى وصل دخلها إلى 2500 دوكية، وهو ما يعادل راتب الكاهن في أشبيلية أو طليطلة، وإذا كان رجال الكنيسة الكبار قد عانوا الفقر، والحاجة، فمن السهل تصور حال الخدم، وغيرهم من أصحاب الوظائف في الكنيسة، ففي عام 1606م قال أصحاب الرواتب الكنسية في ألمرية أن رواتبهم انخفضت إلى 20000 مرابطي، وإنه بسبب قلة السكان قلت دخول البنود الأخرى، وأصبحت شيئًا لا يُذكر، وكان وضع الراهبات أكثر سوءًا، فالفرانسيسكات أبلغن مجلس السكان عام 1584م أن الفقر اشتد بهن، لدرجة أن راهبتين ماتتا جوعاً[411].

وهنا نلاحظ أنه كان قد مر 16 عامًا على الثورة، و12 عامًا على إعادة توطين الإقليم، ولكن التوطين كان بطيئًا، وغير كافٍ، ولم يحدث الأثر المطلوب بسبب الأزمة الزراعية الحادثة.

وحول أثر طرد أعوام 1609 - 1614م على الاقتصاد، وعلى عدد السكان في إسبانيا، نجد أنه رغم اختلاف تأثيره من إقليم لآخر، فإن التأثير كان واضحاً؛ فالشكاوَى من قلة الأيدي العاملة، وارتفاع الأجور زادت من أهمية أعمال الخدمة، والأيدي العاملة الأجنبية (ويبدو أن عدد العبيد قد وصل إلى أعلى مستوى له في تلك الفترة)، وبسبب طرد الموريسكيين عانت حرفًا معينة كانت احتكارًا عليهم، كما ظهرت شكاوى مرسية بسبب تدهور صناعة الحرير، وكذلك نجد شكاوى رئيس بلد الوليد بسبب اختفاء عمال البساتين، وحدث الشيء نفسه بشأن حِرف، ومهن أخرى، وربما كان الأثر الأكبر قد حدث في مهنة النقل (البغالة) لأنها كانت من

الحِرف المفضلة للغرناطيين المشردين في قشتالة، ولهذا يقول بدرو لوبيث دي رينو: «وسائل النقل انخفضت لغياب خمسة آلاف بغال موريسكي»[412].

كان حجم هذه الخسائر أكبر بكثير في مملكة أراغون، بل، وفي كل تلك الأقاليم التي كان الموريسكيون يمثلون نسبة مرتفعة من السكان فيها، مثل فالنسيا، وأراغون، وجزء من قطالونيا، ونابار، وتوديلا التي طلب مسئولها الكنسي من الملك التدخل لدى الفاتيكان لعلاج الانخفاض الشديد في دخله.

وحول أثر الطرد على مملكة أراغون، نجد أنها عانت من قلة السكان، وكان الموريسكيون (حوالي سبعين ألفًا) يمثلون سدس العدد الإجمالي للسكان أو سبعُه، لكن توزيعهم لم يكن منتظمًا متساويًا، فقد كانوا يتمركزون حول نهر الإيبرو، ومجاريه، وفي رأي لابيري أن مساحة 40 كيلومتر جنوب الإيبرو بقيت مهجورة[413].

أما الجغرافي البرتغالي لابانيا، الذي قام برحلة بعد الطرد مباشرة، فلاحظ الكثير من المناطق التي عانت من رحيلهم، مثل مويل، حيث بقيَ في قرية ماركيز كامراسا 16 فردًا بعد رحيل ألف من الموريسكيين، كما رحل من بورخا 300 أسرة، وكان بالمدينة 800 أسرة، أما ميديانا، وخيلسا Jelsa ، فقد فقدت كل منهما نصف سكانها، وفي مناطق أخرى كان الأثر إما ضعيفًا، وإما لا يوجد على الإطلاق[414].

ولقد كتب لكالاتايود: «إن طرد الموريسكيين الذي أدى لخروج عدد كبير منهم من تاراثونا، وبورخا، وموراتا، لم يؤثر في كاتايود، ولا قراها، أما قرى مورانا، وموسونيس، وغوتور، وكل إقطاعيات عائلة لونا، تلك القرى التي كانت مليئة بالموريسكيين؛ فقد عانت كثيرًا، رغم بقاء الكثير من الموريكسيين تحت حماية الكونت أو بحجج مختلفة»، أما في كالاتايود، فإن الطرد قد أثّر فقط في منطقة سيبولكرو، التي كان بها موريسكيون في توبيد، وكودوس، وتورالبا لوس فرايليس[415].

ولقد استطاع السادة ممن لهم نفوذ في العاصمة، والبلاط أن يبينوا مدى تضررهم من قرار الطرد، ففي عام 1613م تقدم دوق بيا إيروموسا بطلب للملك، يعرض عليه الأضرار التي لحقت بقُراه في إستانا، وإسباديا، وباجات، وتورتشيبا، التي رغم

إعادة توطينها، فإن السكان الجدد لم يكن لديهم الخبرة في محاصيلها التقليدية، وقد اضطر الملك لتخفيض الضرائب عنهم، ومنحهم امتيازات، بل وصل الأمر إلى أن القُرى الخمس التي بها مسيحيون قدامى أصبحت تدر عليه عائدًا أقل مما سبق؛ لأن جزءًا من سكانها نُقلوا إلى القرى التي أصبحت خالية، وقد حصل الدوق على وصاية روداس، والقرى التابعة للأملاك الأميرية، التي كان بها موريسكيون، وكانت قريبة من منطقته، ومع ذلك ظلت حالة دوقيته المالية بائسة، ولهذا حصل في عام 1646م على 3 آلاف سنويًّا «بسبب النقص المالي الذي يعاني منه دوق بيا إيرموسا، عضو مجلس الدولة والحرب»[416].

كانت الآثار الاقتصادية للطرد خطيرة، وليست بالقليلة، وظهرت نتائجها بصورة متأخرة حتى عانى من تلك النتائج أولئك الذين ظنوا أنها لن تؤثر عليهم، وقد رأينا كيف أن مجلس أراغون كان يعتقد عام 1610م ، أن الإجراء لن يؤثر في دخل أساقفة سرقسطة، حيث إن الموريسكيين لا يدفعون لهم ضرائب مباشرة، على أنه، وبعد بخمس سنوات، اعترف بأن ذلك الدخل انخفض من 60 إلى 36ألف، كذلك عانت محاكم التفتيش خسائر كبيرة، قدّرها رجالها بمبلغ 43593 ريالًا سنويًّا، وطلبوا تعويضًا؛ وحصلوا على تعويض قدره 471533 جنيهًا من بيع الأملاك المصادرة من الموريسكيين في أراغون، وتورتوسا، أما المستشفى العام في سرقسطة، والمجمع الكنسي؛ فلم يحصلا على تعويض[417]، وكما ذكر لاكار، فإن الطرد تسبب في زيادة حالة التدهور التي بدأت في القرن السابق، وقد أخذت شكلًا حادًّا، وخطيرًا، وأثرت في جميع الطبقات الاجتماعية، والقطاعات، حيث كان من الصعب الإضرار بقطاع دون أن تتضرر قطاعات أخرى من ذلك[418].

ولم تغِب النتائج التي ترتبت على الطرد حتى عن أكثر الناس تأييدًا لذلك الإجراء، فقبل ذلك بعام كتب البطريرك ريبيرا إلى الملك فيليب الثالث: «إن الآثار ستكون مُهلكة بالنسبة لمملكة فالنسيا»، لكن الأسقف يهمه ما يعتقد أنه ضرورة إيمانية أكثر من اهتمامه بتلك الخسائر التي يعتبرها مؤكدة الوقوع» وأضاف: «وأؤكد لجلالتكم أنني عندما أفكر في هذا تأتيني رغبة شديدة في أن يقبض الرب روحي قبل

أن أرى تلك المصائب التي لن يستطيع أحد علاجها، والرب يعلم أنني لا أهتم كثيرًا بالفقر الذي ستعاني منه هذه المدينة، بل إنني أفضل أن أحتاج إلى الخبز الجاف من أن أرى وجوه أولئك الهراطقة الذين يعدون من أبناء دائرتي الكنسية»[419].

وكما نرى فإن هنا إثباتاً على أن العامل الرئيسي للطرد متعلق بالأمر الديني، باعتباره انتصار للعقيدة المسيحية من وجهة نظر السلطة، والكنيسة، وهذا ما يؤكده كلام البطريرك ريبيرا.

أما مدينة فالنسيا، فقد أعلن بنكها المحلي إفلاسه عام 1613م، ولم يكن به أية إيداعات، ربما لا يكون طرد الموريسكيين هو السبب المباشر في ذلك، لأن مظاهر كساد الاقتصاد الفالنسي، وتدهوره ظهرت ملامحه منذ بداية ذلك القرن، لكن الرحيل المفاجئ لجزء كبير من السكان القادرين على العمل - إلى جانب أنه الجزء الأكثر جدية، ومعاناة، والذي تحمل كل الأعباء - يجب أن يكون قد تسبب في زيادة عملية التدهور، وأدت عوامل أخرى خاصة بتلك الفترة إلى إطالة تأثيرها، وجعلها أكثر خطورة، كما حدث نقص كبير في العملات بسبب الكميات الكبيرة التي أخرجها الموريسكيون من كل إقليم، بشكل قانوني أو غير قانوني، وقد أدى ذلك إلى تعقيد المشكلة المالية التي وصلت لدرجة الخطورة، وتبع ذلك ما كان قد سجل في قشتالة من التضخم الكبير في العملات النحاسية، والفضية، فتبعًا لبيانات البارو دي كاستيو في سنوات 1608 - 1613م تم سك 501527 ماركًا من النحاس[420].

أما آثار الطرد في مجال الزراعة؛ فخطيرة، ومع أن هاميلتون أكد أن محصول السكر لم يكن للطرد أثر فيه، فقد ثبت أن زراعة قصب السكر، الذي كان مصدر الدخل الأهم في دينيا، وأوليبا، عانى من ضربة قاسية، فعندما تم إعادة توطين المنطقة، استطاع السكان الجدد أن يحسنوا الوضع شيئًا ما، لكن منافسة السكر البرتغالي، والأمريكي أدت إلى تدهوره نهائيًا، أما محصول الأرز فانخفض، ومن أجل سد النقص في الحبوب، سمح باستيراد قمح قشتالي، وكذلك من سردينيا[421].

وعندما اتجه السادة لمعاملة المستوطنين المسيحيين الجدد بالمعاملة التي كانت تُطبق على الموريسكيين، نسوا أنه بالإضافة إلى العوامل الاقتصادية، توجد عوامل

سيكولوجية توجد فروق عميقة بين مجموعة، وأخرى؛ فقد كان الموريسكيون يكوِّنون أقلية مضطهدة مطيعة، وبالإضافة إلى دفع الضرائب، كانوا يقومون بخدمات، ويقدمون هدايا، ويقبلون أن يكونوا ضامنين لديون سادتهم، أما المستوطنون الجدد، فكانوا يرفضون ذلك، وإذا قاموا بشيء منه فعلى غير رغبتهم[422].

ولما كانت الهجرة ضعيفة بين أقاليم إسبانيا الداخلية، فإن إعادة توطين الأماكن المهجورة، كانت على حساب أماكن أخرى في فالنسيا، وقد عانى التوزيع السكاني من ذلك بعمق.

يدل على ذلك وثائق منها وثيقة بعنوان «توزيع السكان، والأراضي التي بقيت غير مسكونة بطرد الموريسكيين في مملكة فالنسيان»، وكذلك الطلب رقم 364 لبرلمان فالنسيا الذي عقد عام 1645م ، وطلب من الملك أنه «نظرًا لأنه يوجد في فالنسيا آلاف القطع من الأرض الجيدة التي بقيت جدباء دون زراعة، ولا محصول، كما أنها لا تؤجر، ولا تُباع خوفًا من الديون، والقروض الكثيرة المستحقة عليها؛ لهذا نرجو أن تأمروا مؤسسات العدل أن تنشر إعلانًا في القرى، والمدن الموجود بها تلك الأراضي يقضي بإمكانية زراعتها على أن يقسم إنتاجها بين الملاك، والدائنين»[423].

نرى إن التناقضات السابقة تبين صعوبة تقدير آثار الطرد، وإصدار حكم عام عليه، فالفرق بين القطاعات، والمناطق كان كبيرًا، وقد أبطل كاسي رأي هاميلتون الذي اعتمد على استقرار الأسعار بعد عام 1609م، فرد عليه كاسي - ومعه الحق - بأن العاصمة التي أخذ منها قائمة الأسعار ربما تكون المدينة التي عانت حدًّا أدنى من الآثار السلبية، في حين أن الآثار كانت خطيرة في مدن أخرى[424].

وفي النهاية لابد من القول بأن الطرد كان سببًا في خراب معظم مدن إسبانيا، وكان عاملًا مهمًّا - من بين عوامل أخرى - جعلت من القرن السابع عشر قرنَ تردٍّ، وانحطاط.

وفي ختام هذا الفصل نستطيع أن نستخلص أن الموقف الدولي تغير مع وصول فيليب الثاني إلى العرش؛ حيث بدأ الأتراك، ومسلمو شمال أفريقيا في تهديد غرب

البحر المتوسط خلال خمسينات القرن السادس عشر، من هنا بدأ المجتمع الإسباني ينظر إلى الموريسكيين على أنهم جواسيس يشكلون خطرًا على الدولة الإسبانية؛ وبدأت الاضطهادات، والعمل على التضييق على حياتهم، وكبتهم داخل المجتمع، كما بدأت سلسلة الاضطهادات، والتنصير؛ مما جعل هؤلاء يثورون على هذا الحكم الظالم، وكانت ثورة البشرات (1568م - 1571م) التي كان من أسبابها ظلم محاكم التفتيش، التي تم إنشائها عام 1483م (لملاحقة المارقين عن الدين المسيحي).

ولن ينسَ التاريخ القس الجزار «توماس دي تركيمادا» الذي عُين مفتشًا عامًّا لهذه المحاكم، التي باشرت أفظع جرائم الإنسانية في حق هذه الأقلية العُزل.

أما أهم ما نستخلصه من حرب غرناطة (1568 - 1571م)، فمنها أنه يجب النظر إلى حرب غرناطة، وفهمها على أنها المحاولة الأخيرة للحفاظ على الفروق الثقافية، والدينية المنابرة للبيئة المحيطة، أما هزيمة الثوار، فتُعتبر الخطوة الأولى التي قامت بها إسبانيا في إفناء هذه الأقلية، في الوقت نفسه تعتبر إسبانيا هزيمة الثوار بالنسبة للمسيحيين نهاية موقف خاطئ في بلد يُعتبر معقلًا للمسيحية.

لقد أدت الحرب إلى تأصيل التطرف؛ فأصبح الموريسكي يشعر بأنه أكثر إسلامًا محاولًا الهجوم، وتدمير آله أعدائه، والدفاع عن دينه، وفي النهاية تم نفي سكان غرناطة، وتوزيعهم، وتشتيتهم على كل أنحاء إسبانيا، لقد أُشير للملك فيليب الثالث أن الموريسكيين، لا يزالون مشدودين بالحنين إلى ماضيهم أكثر من رغبتهم في الاندماج في الدِيار الكاثوليكية، ما يدفعهم في المستقبل إلى التحالف مع المغرب، والدولة العثمانية التي أصبحت سيدة البحر الأبيض المتوسط، وكانت سفنها تَغير على شواطئ شبه الجزيرة الأيبرية، كما رغب الملك فيليب الثالث في وضع حد لضغط بابا الفاتيكان، ناهيك عن الاتهامات الرائجة في باقي دول أوروبا، التي تعتبر إسبانيا الدولة الكاثوليكية الوحيدة التي تعيش بين ظهرانيها أقلية مسلمة؛ ومن ثم أخذ قرار الطرد، ووفقاً لما ذكرته بعض الكتابات الإسبانية فإن قرار، وعملية الطرد للأندلسيين تمثل أول تصفية عِرقية، ودينية تشهدها أوروبا.

الفصل الرابع
الموريسكيون في المنفى

تمهيد

لم يعد الموريسكيون بعد طردهم من إسبانيا موريسكيين، فالكتابات التاريخية الأوربية فقط هي التي تسميهم بهذا الاسم؛ لأنهم هم أو أجدادهم كانوا موريسكيين عندما كانوا مقيمين في إسبانيا، وبعد وصولهم إلى البلاد التي هاجروا إليها، واندمجوا في المجتمعات الجديدة، اختفى هذا الاسم تمامًا، ففي البلاد الأوربية كان يُطلق عليهم لفظ «موريسكيون» أو «غرناطيون» إبان سنوات الطرد (1609م – 1614م)، أما في البلاد الإسلامية فلم يكن يُطلق عليهم هذه التسمية، بل سيكون اسمهم في البلاد العربية «الأندلسيين» وأيضًا سيكون لهم أسماء أخرى أكثر تحديدًا مثل: الغرناطي؛ البالنسي؛ الثغري (القادم من حدود أراغون، وقطالونيا، وفالنسيا[425].

كما احتفظوا بالألقاب الإسبانية لعائلاتهم خلال فترة طويلة، مثل: عائلات طرويل؛ وفالنسيانو؛ وثاراغوثانو، ولكن هذه الأسماء ستختفي مع مرور الوقت، وتُبدل بأسماء إسلامية، وعربية.

بعد قرار الطرد توجه الأندلسيون، تحت تهديد السلاح، وفي ظروف صعبة، وقاسية، إلى موانئ الترحيل، وهو ما تؤكده شهادة الأب «أثنار كردونا» التي أوردتها الدكتورة «ماريا تيريثا» حيث كتب: «غادر هؤلاء البؤساء في التوقيت الذي حدده لهم الضباط الملكيون، ونزحوا سيرًا على الأقدام أو على أحصنتهم، وقد أخذت منهم الحرارة كل مأخذ، وهم يجهشون بالبكاء في مشهد امتزجت فيه أصواتهم مع شكاواهم، مصطحبين نساءهم، وأطفالهم، ومرضاهم، وأقاربهم المسنين، وجميعهم يلفهم الغبار، وهم يتصببون عرقًا، ويلهثون[426].

كان البعض منهم في عربات تجر أغراضهم، وما يملكون من أشياء، أما بقية المُهجرين فكانوا راكبين مع ما لديهم، من سروج، وبرادع، وقنب كانت مخصصة لحمل الماء، وجميعها محاطة بحاجز معدني، وأكياس المؤن، وقوارب الماء، ومجموعة

من السلال، وأدباش، وأقمشة من نسيج الكتان، ومعاطف، وأشياء أخرى من نفس هذه الأنواع، وحمل كل واحد منهم ما يقدر عليه؛ إذ كان بعضهم يمشي على الأقدام، منتعلًا أحذية قماشية، أما البعض الآخر، فوضع دثارًا حول أعناقه، والبعض الثالث يجر أحمالًا صغيرة، وقد تمكنت نساؤهم من حمل ما قدِرن عليه من حلي، ورزم أخرى، والجميع يقوم بتحية من كان ينظر إليهم مرددين على أسماعهم (كان الله في عونكم ورعاكم)»[427].

لا شك أن الهجرات الأندلسية إلى الفضاء المغاربي، كانت متواترة، ومنتظمة قبل سقوط غرناطة، بحكم رحلة الحج إلى الأماكن المقدسة منذ العصور الإسلامية الأولى، وتواصلت بشكل منتظم، وكانت تتم أساسًا عبر الفضاء المغاربي، ثم عبر أرض الكنانة، والتي بها تنضم قافلة الأندلسيين، والمغاربيين إلى قافلة الحجيج المصريين، وقد مكَّن ذلك الأندلسيين من استيعاب الخصوصيات المغاربية في جميع الميادين، بدءًا من آليات الحكم المطبق، ثم المناخ الفكري، والوضعية الاقتصادية، والاجتماعية السائدة يومئذٍ، وقد طاب المقام لبعض الأندلسيين بالتراب المغاربي، وكانوا يومئذ عنصر إثراء على جميع المستويات[428].

وتتفق المصادر على أن الموريسكيين كانوا منفتحين على العالم الغربي بإتقانهم عدة لهجات، ولغات مثل القشتالية، والأراغوانية، واللاتينية، وكانوا رجالًا، ونساءً، وأطفالًا يتكلمون اللغة الإسبانية، بل الأغرب من ذلك أن استعمالهم لهذه اللغة تواصل بعد قرن كامل من طردهم من الأندلس، وذلك بشهادة رحالة فرنسي زار مدينة تستور الموريسكية بإيالة تونس في أوائل القرن الثامن عشر، حيث ذكر: «لقد وجدت النساء، والأطفال يتكلمون اللغة الإسبانية بشكل جيد».

بل إن الجالية الموريسكية بتونس قامت بعد سنتين فقط من وصولها لمدينة طبرية التونسية بفتح مدارس لتدريس الإسبانية، وهي ظاهرة عالية الدلالة على هذا الانفتاح اللغوي،والفكري، إذا ما قورنت بالفضاء العربي المَشرقي المسلم، الذي قد لا يكون قد شهد مثل هذه القناعة الانفتاحية على الغرب لتدريس لغة أوربية[429].

وقد مكنت هذه الممارسة اللغوية الغربية الموريسكيين من معرفة مجهرية للدين المسيحي، وللعقلية، وللسلوك، وعادات الإسبانيين، وتقاليدهم، وكذا اطلاع الموريسكيين الدقيق، والجيد على القوانين الإسبانية، والأوربية عمومًا، وهو الأمر الذي لم تعرفه المجتمعات الشرقية يومئذٍ، وهذا درس مهم جدًّا قدمه هؤلاء الموريسكيون إلى العالم العربي، والإسلامي على حد سواء منذ بداية العصر الحديث، كما أن هذه الصفات الاستثنائية أهَّلتهم للعب دور المترجمين الرسميين لدى البلاطات المغاربية مثل بلاط مولاي زيدان (1607 – 1630م) ملك المغرب الأقصى، وقبل ذلك لدى بلاط أحمد المنصور السعدي ثم لدى الباب العالي؛ وبرزت شخصيات علمية، مثل الحجري، الذي استوعب آليات الجدال الديني مع الطرف المسيحي باقتدار، وفعالية مطلقة، عندما أجرى مناظرات، وجدالًا رفيع المستوى في باريس، وبوردو، وهولندا مع أقطاب من المسيحيين، واليهود[430].

كما احتفظ الموريسكيين ببعض التراث ذي الأصل الإسباني، لكنهم اندمجوا في المجتمعات التي هاجروا إليها، وفي هذا الفصل سندرس مراحل اندماجهم في المجتمعات، التي هاجروا إليها؛ وكيف أثَّروا، وتأثروا في هذه المجتمعات، ومن ثم سنتناول المغرب، التي كان للموريسكيين فيها مشروعاً سياسياً مستقلاً في مدن مثل سلا، وتطوان، والجزائر التي يمكن أن نرى فيها شكلاً اجتماعياً للاندماج في نظام الدولة العثمانية التي رحبت بالموريسكيين، وتونس التي اتخذ فيها اندماج الموريسكيين في المجتمع شكلًا أكثر تطورًا، وسرعة، والأقاليم الشرقية للدولة العثمانية، وغيرها من المناطق التي كان عدد المهاجرين الموريسكيين فيها محدودًا، وأقل توثيقًا.

أولًا: هجرات الموريسكيين إلى المغرب

بعد سقوط دولة الإسلام في الأندلس، بل، وقُبيل السقوط، كانت الهجرة إلى بلد إسلامي تُعدُّ في كثير من الأحوال هي الحل الأنسب؛ فقد رأى نبلاء غرناطة أن الأمور في بلدهم تسير من سيء إلى أسوأ، وأن دولة الإسلام ستنهار لا محالة، ولم يكن من الممكن آنذاك عمل أي شيء يوقف زحف الملك الكاثوليكي، ونتيجة لذلك

بدأ بعض الناس في الهجرة التي كانت لها نتائج ملموسة، سواء على الذين هاجروا أو على البلاد التي هاجروا إليها.

لقد رحل بعض الأندلسيين إلى الأناضول، واسطانبول، ومصر، وشمال أفريقيا، وأوروبا، بل، وإلى العالم الجديد الذي كان قد تم اكتشافه قبل وقت قصير، ففي مصر على سبيل المثال، استقر المهاجرون فيها، واندمجوا مع أهلها، وبعد فترة كان من غير الممكن التمييز بين المصري، والأندلسي؛ ومع ذلك كان الوضع في شمال أفريقيا مختلفًا تمامًا؛ فقد أقام المهاجرون في قرى، ومدن خاصة شيدوها على غرار المدن التي جاءوا منها، وظلوا يتحدثون الإسبانية فيما بينهم، ولم يندمجوا في المجتمعات المغربية التي هاجروا إليها، إلا بعد زمن طويل[431].

ولقد كان لهجرة الأندلسيين نتائج ملموسة على المغرب العربي؛ حيث نقل الأندلسيون إلى شمال أفريقيا ثقافتهم الخاصة بإيجابياتها، وسلبياتها.

أ – الطرق التي نهجها الموريسكيون في هجرتهم: كان الموريسكيون على العموم يستعملون أقرب الطرق للوصول إلى بلاد إسلامية قريبة من إسبانيا؛ فمن كان يذهب إلى المغرب كان غالبًا ما يعبر من الموانئ الجنوبية كميناء الجزيرة الخضراء، حيث كان الموريسكيون ينزلون بسبتة الخاضعة للإسبان، فكان الموريسكيون يتظاهرون بأنهم إسبان حتى لا يُمسوا بأذى، ولتتوفر لهم الفرصة لولوج المغرب.

ومن بين هؤلاء الحجري الذي هاجر في عام 1598م، وهو من الشخصيات البارزة في الأدب الموريسكي، وله دور مهم في المجال السياسي المغربي، أما من كانوا يتوجهون إلى الجزائر؛ فكانوا يعبرون من ميناء بلنسية، وينزلون بميناء المرسي الكبير القريب من مدينة وهران، ومنها إلى فاس بالمغرب، ولقد كانت أغلب الأفواج الموريسكية تنتقل في أغلب الأحيان على متن سفن ذات صبغة تجارية، وهناك أفواج أخرى كانت تهَجر على يد السلطات الإسبانية على متن سفن حربية؛ فكانت تلاقي معاملة سيئة من طرف رُبانيها [432].

كما كان بعض الموريسكيون يضطرون للهجرة إلى بلد نصراني نظرًا للصعوبات التي كانت تُوضع في طريقهم إذا ما حاولوا الهجرة إلى المغرب، كانتزاع أبنائهم منهم؛

فكانوا يتوجهون إلى فرنسا، ومنها إلى المغرب أو أي بلد إسلامي آخر شمال أفريقيا، وكانوا يتنكرون أحيانًا في صفة تجار.

ففي عام 1598م توجه فوج منهم إلى مرسيليا، ومنها إلى المغرب، باتفاق مع بعض البحارة التي كانت موانئ المغرب مفتوحة لهم كتطوان، والحسمية، والعرائش[433].

ومن هنا فإن موريسكيو فالنسيا، أول من طُبق عليهم قرار الطرد، استقلوا السفن التي حملتهم مباشرة إلى شرق الجزائر، حيث ميناء وهران، وميناء المرسي الكبير، الواقعين آنذاك تحت السيطرة الإسبانية، حيث كانت هناك نية لإدخال الموريسكيين أراضي المسلمين المحيطة بوهران حتى يتوجهوا إلى تلمسان (على مسافة 150 كم إلى الجنوب الغربي) أو إلى فاس (على مسافة 500 كم)، كما أن بعض السفن الخاصة أنزلت الموريسكيين مباشرة في مينائي موستا غانم، وأرزيو الجزائريين القريبين من وهران[434].

ب - أحوال المغرب لدى وصول الموريسكيين المطرودين: في بداية القرن السابع عشر، كان المغرب يشغل نفس الأراضي التي تشغلها المملكة المغربية في القرن العشرين، حيث ورث المغرب الأراضي التي حددتها عائلة الإدريسي منذ القرن الثامن الهجري حول مدينة فاس كعاصمة، وإذا كان المرابطون، والموحدون قد شيَّدوا مدينة مراكش في الجنوب، فإن مراكش ستكون مجرد عاصمة ثانية للمغرب، الذي تمتد أراضيه لتشمل كل أراضي المغرب العربي تقريبًا، وتصل إلى الأندلس، أدرك حكام الموحدون أن مدينة مراكش لا تقع وسط دولتهم الواسعة التي تمتد من طرابلس حتى سرقسطة، فشرعوا في بناء عاصمة ثالثة؛ هي الرباط، لكنهم لم يتمكنوا من إتمام بنائها، وخلال فترة حكم الأسر التي أعقبت فترة الموحدين (بنو مرين، والوطاسيون، والأشراف، والسعديون) احتفظت فاس بمكانتها دون أن تتخلى مراكش عن دورها كعاصمة[435].

وعندما وصل الموريسكيون كانت كل من فاس، ومراكش المركزين السياسيين المهمين في البلاد، وفي نهاية القرن ظهرت عاصمة رابعة، هي مكناس، ولقد كانت المدينتان الساحليتان (رباط سلا وتطوان) هما الميناءين اللذين كان للموريسكيين فيها دور بارز، مع أن معظم الموريسكيين أقاموا في المدن أو في المجتمع الحضري في

بلاد المغرب بشكل عام[436].

كان للمغرب خاصية أثرت على استقبال الموريسكيين، وهي أنها ظلت مستقلة عن الدولة العثمانية، التي كان لها نفوذ هائل في الجزء الغربي من البحر المتوسط أوائل القرن السادس عشر، رغم احتلال إسبانيا موانئ مغربية كثيرة واقعة على البحر المتوسط، من باديس حتى طرابلس، ومن هنا وجد المغاربة في الموريسكيين سندًا لهم في حربهم ضد الإسبان؛ مما كان له بعض من رد الفعل الإيجابي في الاستقبال[437].

ومع ذلك لم يُعامل الموريسكيون عند قدومهم للمغرب معاملة واحدة، بل اختلفت المعاملة بحسب الأزمنة، والظروف التي قدِموا فيها، فالأوائل منهم الذين أتوا إبان سقوط غرناطة، كانوا يُعاملون معاملة حسنة؛ لأن المغاربة كانوا يلمسون فيهم صفات البيئة الإسلامية المحضة، لكن بعد مرور السنين، وأثناء عملية الطرد الكبرى على يد فيليب الثالث 1610 – 1614م، تغيرت نظرة المغاربة إلى الموريسكيين؛ حيث بدأوا ينظرون إليهم كشِبه نصارى، لأن أحوال القادمين من أسبانيا كانت قد تبدلت، من حيث اللغة التي أصبحت مزيجًا من العربية، والإسبانية، والزي الذي أصبح يشبه زي النصارى، وكذلك من حيث عاداتهم، كالاختلاط بالنساء أثناء الحفلات مثلًا، ولهذه الأسباب أصبح المغاربة يشكون في إسلام الموريسكيين، يضاف إلى أن المغرب فقد هدوءه، ووحدته عام 1603م؛ حيث تم التنازع على العرش، وتزايد نفوذ القادة الدينيين، الذين حاولوا الوصول للسلطة العليا في البلاد، فعمت الفوضى[438].

ومن هنا قاسى الموريسكيون من الجانبين؛ من الإسبان الذين شكّوا في نصرانيتهم، كما عانوا في منفاهم الإسلامي الذي نظر إليهم نظرة المرتدين عن دينه، وهكذا عانت هذه الفئة في البداية أشد معاناة، وهذه هي المأساة الفعلية، هكذا الوضع العام الذي وجده الموريسكيون الذين وصلوا المغرب للبحث عن الملجأ، والوطن الذي أنكرهم في شبه الجزيرة.

ج – أعداد الموريسكيين المهاجرين إلى المغرب: من الصعب تحديد عدد الموريسكيين الذين هاجروا من إسبانيا إلى المغرب؛ نظرًا لكونهم طُردوا في فترات

متعددة، كما أن اعتبرته السلطات الإسبانية عند الطرد قد هاجر إلى المغرب، مع أنه لم يصل إليها، بل تم تجريده من أمتعته، وإلقاؤه في البحر من قبل أصحاب المراكب، كما أن هجرات الموريسكيين كانت في بعض الأحيان اختيارية، ورغم ما سبق ذكره يمكن القول بأن أهم الهجرات من حيث العدد هي تلك التي وقعت بعد سقوط غرناطة، ثم تلتها الهجرات التي ترتبت على عملية الطرد (1609 – 1614م)، حيث يُقدر عدد من هاجر في هذه الفترة بحوالي أربعين ألف شخص، منهم عشرة آلاف حلوا بتطوان عام 1613م، حسب تقدير (الدوق دي ميدينا سيدونيا) [439].

أما «ميكيل دي إيبالثا» ، فذكر أن العدد الكلي للموريسكيين الذين وصلوا إلى المغرب يتراوح بين سبعين ألف ومائة ألف كحد أقصى، وأنه يمكن افتراض أن الأربعين ألف كانوا الحد الأدنى، وأنه يمكن أن نحسب التوزيع النسبي للثمانين ألف من الموريسكيين المهاجرين إلى المغرب على مناطق تطوان، والشاون، ورباط مثلًا، بالإضافة إلى المهاجرين إلى العرائش، والمعمورة عامي (1610 – 1614م)[440].

نجد أن ما ذكره «دي إيبالثا» لا يوضح نسبة الموريسكيين القادمين حديثًا إلى الأندلسيين الذين كانوا موجودين قبل ذلك، كما أننا لا نستطيع إغفال أولئك الموريسكيين، الذين ذهبوا إلى فاس، ومراكش، ومناطق أخرى، فاندمجوا فيها بصورة سريعة، سواء جاءوا من وهران، ومشرق المغرب، أو من المراكز الساحلية على البحر المتوسط، والمحيط الأطلنطي.

د – استقرار الموريسكيين بالمغرب: ظلت الهجرات الأندلسية، منذ الفتح الإسلامي، محافظة على توازنها بين العدوتين لارتباطها بما يُعرف في الاصطلاح الجغرافي بعملية الجذب، والطرد، ومنذ «هزيمة العقاب»، وما أفرزته من تغير في موازين القوة لصالح النصارى، فُرض على هذه التنقلات أن تأخذ صبغة مدنية، وفي اتجاه معكوس، ومع توالي الضغوط المسيحية، ونجاحها في انتزاع أراض جديدة من يد الأندلسيين، أضحى المغرب ملاذًا مستمرًّا للوافدين بصورة متقطعة ٍحتى بداية أفول الوجود الإسلامي بمملكة غرناطة في القرن الخامس عشر الميلادي؛ حيث ارتفعت أعداد المهاجرين إلى الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، ومن ضمنها المغرب[441].

ولقد كان لصدور «فتوى الونشريسي» أثرها البالغ في ارتفاع وتيرة الهجرة، حيث اعتبر هذا الفقيه أن «الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام فريضة إلى يوم القيامة... ولا يُسقِط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى الطاغية - لعنه الله - على معاقلهم، وبلادهم إلا تصور العجز عنها بكل وجه، وحال، لا الوطن، والمال، فإن ذلك كله مُلغَى في نظر الشرع، لقوله تعالى «إلا المُستضعَفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حِيلَةً ولا يَهتَدون سبيلًا، فأولئك عسى الله أن يَعفُوَ عنهم وكان الله عَفُواً غَفُورًا»(سورة النساء - أية 98 - 99)، وأما المستطيع بأي وجه كان، وبأي حيلة تمكنت، فهو غير معذور، وظالم لنفسه إن أقام»، وقد زاد مؤكدًا على الهجرة «لأن مساكنة الكفار من غير أهل الذمة، والصغار لا تجوز، ولا تباح ساعة من نهار؛ لما تنتجه من الأدناس، والأضرار، والمفاسد الدينية طول الأعمار»[442] .

ولقد تركت هذه الفتوى أثرها في الأندلسيين؛ فتزايدت هجراتهم، لكنها سرعان ما عرفت نوعًا من التراجع؛ وذلك لعاملين أساسيين:

* انتشار الوباء في المغرب، والأندلس، حيث «أنه لما جاز الأمير محمد بن علي، وسار إلى مدينة فاس أصاب الناس شِدة عظيمة، وغلاء مفرط، وجوع، وطاعون، واشتد الأمر بفاس، حتى فرَّ كثير من الناس من شدة الأمر، ورجع بعض الناس من الذين جازوا إلى الأندلس، فأخبروا بتلك الشدة؛ فقصر الناس عن الجواز عند ذلك، وعزموا على الإقامة، والدجن»[443].

* صدور فتوى أحمد بن بوجمعة الوهراني[444] التي وجهها إلى مسلمي غرناطة، الذين أُجبروا على اعتناق المسيحية، لقد أعطت لهم هذه الفتوى آمالًا جديدة، فأزالت عنهم فريضة الهجرة، ودعتهم إلى التقية، كما أعطت لهم حلولًا تسهل عليهم كيفية ممارسة شعائرهم الدينية، وقد مثلت هذه الفتوى المرجع الأساسي للموريسكيين للمحافظة على هويتهم.

أدى هذان العاملان للتخفيف من وتيرة الهجرة، وأخذ الموريسكيون بحديث «لا هجرة بعد الفتح»، فتحملوا بذلك شتى أنواع الاضطهاد، والعنصرية، والتقتيل حتى صدور قرار الطرد النهائي، ولقد تركت المصادر تفصيلًا مفيدًا عن الأماكن

التي سكنها المهاجرون الأندلسيون.

ومن ذلك ما أورده «المؤرخ المجهول» حين ذكر: «خرج من نُفيَ من أهل مالقة إلى باديس، وخرج أهل الجزيرة الخضراء إلى طنجة، وخرج أهل رندة، وبسطة إلى تطوان، وأحوازها، وخرج أهل مسينة إلى بلاد الريف، وخرج أهل لوشة، وقرية الفخار، والبعض من غرناطة، وأهل مرشانة، وأهل البشرة إلى قبيلة غمارة، وخرج أهل البيرة، وبرجة، واندارش إلى ما بين طنجة، وتطوان، ثم انتقل البعض منهم إلى قبيلة بني سعيد من قبائل غمارة، وخرج أهل مرسية إلى مدينة أزيلة، وما قرب منها، ثم خرج أهل مدينة بلش، وبسطة إلى مدينة سلا، وخرج أهل طريفة إلى أسفى»[445].

وفي الواقع نرى أن هذا النص يوضح أن التنقلات الأندلسية تركزت في المنطقة الشمالية، لأنها الأقرب لشبه الجزيرة الإيبرية، فكانت بذلك المحطة الأساسية للعبور منها إلى باقي جهات، ومدن المغرب، رغم تعدد مناطق استقرار الأندلسيين.

والحقيقة أن هناك ثلاث مدن كان لها الحظ الأوفر في استقطاب المهاجرين، هي: تطوان، والرباط، وفاس؛ أما تطوان، فقد ساهم موقعها الاستراتيجي في استقطاب نسبة مهمة من المطرودين؛ لقربها من الضفة الجنوبية للمتوسط، الشيء الذي مكنهم من محاولات الانتقام من خصومهم الإسبان، وتوجيه ضربات ضد سفنهم؛ ومن ثم جاء ظهور التطوانيين كمجاهدين، وكان لهم أثر واضح في العمليات الجهادية التي عرفها الحوض المتوسط[446].

إن استقرار الجالية الأندلسية في تطوان، فيعود للسنوات التي أعقبت سقوط غرناطة بقيادة علي المنظري، حين قاموا بتجديد بناء تطوان بعد أن بقيت خالية حوالي تسعين سنة، بسبب التخريب الذي لحقها من قبل الإسبان، وقبل عملية البناء، قام هؤلاء الأندلسيون بإرسال وفد إلى السلطان محمد الشيخ الوطاسي بفاس، فلقوا منه مقابلة حسنة، وأجابهم، وساعدهم على طلب بناء البلدة، والسكنى بها[447].

وبعد استقرار الأندلسيين الأوائل، تواصلت عمليات الهجرة سرًّا، وعلانية إلى المدينة التي كانت تشبه إلى حد كبير البيئة الأندلسية، وعند إعلان فيليب الثالث

لقراره، رحب بهم آل النقسيس ذوو الأصل الأندلسي[448]، فأسسوا بدورهم حومة خاصة بهم عُرفت بالسانية[449].

كان هدف آل النقسيس، وهؤلاء واحدًا، وهو الانقضاض على سبتة للانتقام من الإسبان، ثم القضاء على محمد الشيخ المتعاون مع إسبانيا، والذي حاول تصفية مجاهدي تطوان، وسلب من المهاجرين الجدد كل ما لديهم، كما فرض عليهم الخدمة العسكرية في محاولته ضد العرائش، والقصر الكبير، بل، ولقد فرض عقوبة على أهل تطوان بعد فرار أحمد النقسيس إلى زاوية أحمد الفيلالي[450].

وعلى كلٍ، فإن فترة أحمد بن عيسى النقسيس كانت فترة جهاد ضد الإسبان، فعرفت المدينةً بذلك توافد أعداد مهمة من الأندلسيين وصلت نسبتهم إلى ربع مجموع المهاجرين إلى المغرب (حوالي 10000 شخص)، فأذاقوا العذاب للسفن الأوروبية، والإسبانية خاصة[451].

ويؤكد «ليون الأفريقي» أن أطلال تطوان، التي دمرها البرتغاليون في عام 1437م، ظلت مهجورة لخمس وتسعين سنة، وأُعيد إنشاؤها، وتعميرها بواسطة القائد الغرناطي المنظري، الذي ذهب إلى سلطان فاس، بعد أن طرده الملك فيرناندو من إسبانيا، أي أنه أنشأها في عام 798هـ/ 1492م بعد احتلال الإسبان لغرناطة، ونجد أن المهاجرين الذين وصلوا إلى تطوان عند انتهاء احتلال غرناطة كانوا كثيرين، ومهمين للغاية، حيث غطوا على عدد الذين سبقوهم[452].

أما الرباط، فتعود الهجرات الأندلسية المباشرة في اتجاهها للفترة الموحدية؛ أي القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، حين سمح الخليفة الرشيد في 637هـ/ 1239م لجالية بلنسية، وجزيرة شقر، وشاطبة، وغيرهم من بلاد شرق الأندلس بالاستقرار بمدينة رباط الفتح «إذ أذن لهم في النقلة إلى رباط الفتح... بقضهم، وقضيضهم، وأن يتخذوا مساكنه أرضه بل مساكنهم، وأن يتوسعوا في الحرث... ويتبسطوا في ماهم منه مكافئ، وبه منتفع، ويغرسوا الكروم، وأنواع» على عادتهم في بلادهم، لقد هيأ لهم الظروف، لذلك فإن «الولاة، والعمال... مأمورون بأن يحفظوهم من كل أذى يلم بجانب من جوانبهم، ويعوق عن مأرب صغير أو كبير

من مآربهم، وأن يكرموا غاية الإكرام نبهائهم، وأعيانهم، ويولهم من أحسن الجوار ما ينسيهم أوطانهم»[453].

وفي العهد المريني، والوطاسي شهدت هذه الهجرات للرباط بعض التراجع لانتهاج حكام الدولتين سياسة تهميش متعمدة تجاه مدينة رباط الفتح الموحدية، وخاصة الضفة اليسرى لمصب نهر أبي رقراق، اتضح ذلك من خلال اهتمام سلاطين بنو مرين بمدينة سلا أي الضفة اليمنى؛ حيث أنشأوا الأسوار، والمدارس، والمساجد، وتم مدها بقناة تجلب لها الماء من عين بركة[454].

وبعد تولي السعديين للسلطة، تغيرت الأوضاع، فعرفت منطقة المصب توافد الهجرات، وشكلت المنطقة ملجأ مهمًّا للمهاجرين الموريسكيين بعد إعلان قرار الطرد 1018هـ/ 1609م، ويورد Terrasse في حديثه عن عدد المطرودين الإسبان أن عدد الذين هاجروا إلى الرباط كان مهمًّا، دون تحديد أرقام[455].

هذا في حين حددت بعض الدراسات الرقم بحوالي 3000 شخص من الهورناتشوس، و5000 شخص من الأندلسيين[456]، أما « كايي» فاعتبر الرقم في حدود 5000 – 6000 أندلسي و2000 – 3000 من الهورناتشوس[457].

وأما فاس فتُشير المصادر إلى إن أول هجرة إليها، كانت هجرة الربضيين من قرطبة إلى هذه المدينة، حيث استقروا بالعدوة التي تحمل اسمهم (عدوة الأندلسيين)، وقد وقعت هذه الهجرة في عهد إدريس الثاني (188هـ – 213هـ/ 803 – 829م) لظروف داخلية تتعلق بالأندلس، وتتمثل في ثورة أهل الربض بقرطبة في عهد الحكم بن هشام (180هـ – 206هـ/ 796م – 821م) حين حاول الحد من سلطة الفقهاء، فأخذ يتولى الأمر بنفسه، ويعهد بالأعمال إلى رجال من ثِقاته، مما سبب نقمتهم عليه، وحين حاول النيل منهم أمام العامة، كان أن أجمعوا على الإطاحة به، لكن المحاولة انكشفت، فتحركت العامة بتحريض من الفقهاء إلى قصر الأمير، وحاصروه، فاستدعى قواته لدفع المهاجمين، وأشعل النار في الربض؛ مما أدى لفشل الثورة، وعندها أمر أهل الربض بالخروج من الأندلس، فسار بعضهم إلى فاس، ونزح البعض الآخر إلى الإسكندرية[458].

ولقد كتب ابن أبي زرع عن المهاجرين إلى فاس «فنزلوا عدوة الأندلس، وشرعوا بها في البناء يمينًا، وشمالًا إلى ناحية الكدان، ومصمودة، وفوارة، وحارة البادية، والكنيف إلى الرملية، فسميت عدوة الأندلس»[459].

تواصلت الهجرات الأندلسية إلى المدينة، سواء في شكل فردي (خاصة هجرات العلماء) أو في شكل عائلي (كهجرة الأمير الغرناطي أبو عبد الله الصغير، وعائلته، ثم هجرة اليهود)[460] حتى ذكر الوزان: «وقد تكاثر السكان اليهود حتى إنه لم يعد بالإمكان معرفة عددهم، لاسيما بعد أن طردهم ملوك إسبانيا»[461].

ولقد استمرت هذه الهجرات؛ حيث دخلت مجموعة من العائلات إلى فاس، كالعمرانيين، والقادريين، وأولاد البلجي، وأولاد البياض، وأولاد بقي، وأولاد البلاج، وأولاد البزار، أولاد البلنسي، وأولاد البرجي[462].

هكذا حظيت المدن الثلاث باحتضان أكبر عدد من المهاجرين الأندلسيين، لكونها استقبلتهم في أكثر من فترة، ووفرت لهم الجو الملائم، حيث احتفظت معظم العائلات بأسمائها.

لقد كان المغرب ضعيفًا من الجانب العسكري إبان سقوط غرناطة، لذا لم يكن بإمكانه مساعدة الأندلسيين، ونجدتهم عسكريًّا، فقد كانت أراضي المغرب مسرحًا للهجمات الإسبانية، والبرتغالية من البحر، وأصبحت للبرتغال قاعدة بالتراب المغربي على مدينة سبتة منذ عام 1415م، فلجأ المغرب إلى التضامن مع بعض الأمم الإسلامية، ليتمكن من صد هجمات الإسبان، والبرتغاليين، فتضامن مع حكومة إسطانبول، وصار يسهل للموريسكيين اللجوء إلى المغرب، ويمدهم بالمساعدة لكي يستقروا بوطنهم الجديد، ولقد دعم من ذلك أن الموريسكيين، إبان استقرارهم بالمغرب، كانت لديهم فكرة أن بلاد الإسلام واحدة، فأصبحوا يعدون أنفسهم أصحاب الأراضي الشرعيين، وصاروا يتدخلون في شئون الزراعة، وغيرها، وأصبحوا يتصرفون في السياسة الداخلية للبلاد، وفي السلطة المركزية على الخصوص، وكذلك في الجو السياسي للمدن، وكوَنوا قوة خاصة في الجيش المغربي، بجانب عناصر أخرى من أصل أجنبي من سود، وغيرهم.

لقد أعطى المغرب التفويض التام للموريسكيين في كل ما يقومون به من أجل الدفاع عن الوطن ضد الاعتداءات النصرانية، وخاصة بسهل تطوان، وسلا، والمعمودة[463].

لقد كان الخطر مُحدقاً بالمغرب من طرف دولتين شابتين في القوة، والتقدم البحري، فعزز المغرب علاقته مع الخلافة العثمانية من أجل الدفاع عن الشواطئ الإسلامية على بلاد المغرب، كما قام أحمد المنصور بتعزيز جيشه بالموريسكيين.

هكذا أسند المغرب مهمة الدفاع عن الشواطئ إلى الموريسكيين، فبدأ تأثيرهم على السياسة الداخلية ينمو، ويكبر، واستحوذوا على مراكز مهمة في الجيش، وكونوا فرقة خاصة بهم إلى جانب خليط من أوروبيين دخلوا الإسلام، وآخرون خرجوا عن طاعة بلدهم، وفروا إلى المغرب[464].

إن ما سبق يؤدي بنا لاستخلاص نقطتين مهمتين.. الأولى أن الموريسكيين أصبحوا درعًا واقيًا ضد هجمات الإسبان، والبرتغاليين، خاصة خلال القرن السادس عشر، حيث كانت أكبر هجرة للموريسكيين بين 1609 – 1614م أيام فيليب الثالث ملك إسبانيا.

أما النقطة الثانية فتتمثل في حقيقة ترحيب المغاربة بالموريسكيين، والسماح لهم بالإقامة، ومزاولة جميع نشاطاتهم الاجتماعية، والعسكرية، على أن المغاربة كان عليهم الحذر تجاه النشاط السياسي، والعسكري للموريسكيين.

صحيح أن وجودهم أعطى للبلاد ازدهارًا، وحركة دائبة في كل مرافق الحياة، لكن كان لابد من اليقظة تجاههم؛ لأن بعضهم كان يمتلك ثروات، وأموال طائلة في إسبانيا، فأخذوا يعملون لاسترداد هذه الأموال، مما أدى بهم في بعض الأحيان للقيام بأنشطة تكاد تكون مناهضة للسلطة المحلية، بل، وأخذوا يقيمون حكماً ذاتيًا لأنفسهم في الأماكن التي استقروا بها في المغرب، كما حاولوا الاستقلال بأنفسهم في الاقتصاد، والسياسة في بعض المدن كتطوان، والرباط، وسلا[465].

بل إن مظهر التنافس بين الموريسكيين أنفسهم بدأ في الظهور، حيث كان المغرب

يضم عددًا كبيرًا ممن هاجروا أثناء سقوط غرناطة عام 1492م، وعددًا آخر ممن حلوا به بعد فترة طويلة من سقوط غرناطة عام 1609م، فكانت هناك فروق في العقلية، والثقافة، والعادات، حيث إن الرعيل الثاني من المهاجرين كانوا متأثرين تأثراً كاملًا بالعادات الإسبانية، فخلقت الفجوة بين هؤلاء، وهؤلاء[466].

لذلك إذا أردنا أن نقوم بعملية تصنيف سياسي، واجتماعي للمغرب لنفهم شكل انخراط المهاجرين الموريسكيين؛ فعلينا أن نضع في الاعتبارعدة عناصر، وهي: -

- السلطة المركزية: التي استقبلت الموريسكيين، ووفرت لهم أماكن الإقامة، بما يتفق مع مصالحها العامة (الدفاع، والجيش، والسياسة، والتجارة الخارجية، والتنمية العمرانية).

كانت السلطة المركزية تريد كذلك مراقبة الموريسكيين تحقيقًا لمصالح المتطلعين للحكم، والمتصارعين عليه، أو عندما يسعى الموريسكيون إلى تحقيق استقلال فعلِي في مدن بعيدة مثل (تطوان، ورباط).

- في المجال العمراني: حيث كان للموريسكيين مصالح تتفق مع مصالح عناصر اجتماعية من البرجوازيين، والمغاربة الذين سيندمج الموريسكيون فيهم بمرور الوقت، وكلما تعمقت في الثقافة العربية هذه الطبقات العمرانية، ستكون في المغرب أوضح فيها من مدن مغاربية أخرى، وستقاوم أحيانًا مبدأ تقاسم السلطات السياسية، والثقافية، والاقتصادية، كما اتضح ذلك في فاس، ومراكش، وتطوان، وسلا.

- المحيط الريفي: الذي وصل حتى أبواب المدن، والذي كاد الموريسكيون لم يندمجوا فيه، لأنه مجتمع محلي، بنيته قوية تأسست على روابط القرابة أو على الجهود الدينية، مع أن هناك حالة فردية لأندلسي تم قبوله كشخصية دينية في الريف، ويمكن أن نفترض أن بعض الأفراد الآخرين، والعائلات قد تم قبولهم استنادًا إلى روابط المصاهرة مع مغاربة محليين، لكن الاندماج هنا إما أن يكون كاملًا بحيث تفقد الهوية الأندلسية، والقدرة على تشكيل جماعة خاصة، وإما أن يكون هناك رفض كامل من قِبل المجتمع الريفي التقليدي في المغرب.

وقد اندمج الأندلسيين في البداية كطبقة اجتماعية من أصل أجنبي (مع اليهود، والمسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام، والأجانب الموجودين بشكل مؤقت)، والواضح أنه من بين كل هؤلاء (الأجانب) سيكون الموريسكيون الأقرب إلى أهل المغرب؛ نظرًا لروابط الدين، والثقافة بين معظم أبناء، وأحفاد المهاجرين؛ فمن وُلدوا في المغرب لن يختلفوا كثيرًا عن بقية سكان المغرب[467].

هكذا استقر الموريسكيون في المجتمع المغربي، وأثروا في سياسته الداخلية.

أما عن دور الموريسكيين في السياسة الخارجية المغربية، فعلينا القول بأن هدف المغرب في «السياسة الخارجية» كان مشابهاً لهدف بقية الدول المغاربية بمواجهة عدوان المسيحيين الإسبان، والبرتغاليين، لهذا تبنى المغرب سياسة تضامن مع بلاد العالم الإسلامي حتى إسطانبول، خاصة عن طريق مساعدة الموريسكيين في إسبانيا، وتسهيل إقامتهم في بلاد المغرب، وتوعيتهم بأن واجبهم الأول في وطنهم الجديد هو حمايته من المسيحيين، ومن هنا نفهم السبب في توطنهم في المناطق الساحلية التي كانت الخط الأول في مواجهة الخطر في الموانئ القليلة التي كانت لا تزال في يد السلطات (سلا والمعمودة وتطوان)، وهو نفس ما حدث في بلاد المغرب الأخرى حيث تم توطين الموريسكيين في الموانئ أيضًا (موستا غانم، وشرحبيل، والجزائر، وبجارية، وعنابة، وبنزرت، وتونس، وطرابلس، ودرنه[468].

ولعل هذا يفسر أيضًا إلحاق الموريسكيين الأندلسيين بالقوات البرية، والبحرية كعنصر ضروري لتدعيم الوضع السياسي للمغرب؛ وهو نفس الشيء الذي اتبعه، ونفذه السلطان أحمد المنصور.

إن هذا هو السبب في أن المغرب عهد إلى الأندلسيين بدور مهم في النشاط البحري الخارجي، لقد فرضت الهجمات المسيحية المتلاحقة وجود سياسة خارجية موحدة في بلاد المغرب العربي، ورغم اختلاف الموقع الجغرافي بينها؛ استمر المغرب في اتخاذ عواصمه في المدن الداخلية، وليس على السواحل؛ وهو نفس ما فعلته الجزائر، وتونس، وطرابلس نظرًا لعلاقتها بإسطانبول؛ لكن المغرب سيواصل محاولته لاسترداد الموانئ، وسيدخل معارك نتائجها متغيرة ضد الإسبان، والبرتغاليين، وقد

أضفى الأشراف السعديون في القرن السادس عشر، والعلويون في القرن السابع، وبمساعدة الجماعات الدينية، على السياسة الخارجية المغربية طابعًا وطنيًّا، ودينيًّا مناهضًا للمسيحية، يتفق مع الشعور السياسي، والديني للموريسكيين[469].

- اندماج الموريسكيين في المجتمع المغربي: يرى البعض أن من العوامل التي كانت تحول دون اندماج الموريسكيين في المجتمع المغربي، ذلك التداخل بين العنصرين البدوي، والمدني، حيث إن المدن كانت تحيط بها أراضي فلاحية يسكنها المزارعون، الذين يعيشون على النمط البدوي، مما أثَّر على سكان المدن، فحال دون اندماج الموريسكيين[470].

على أن ما يناقض ذلك أن جحافل من فلاحي مرسية طُردوا منها بعد ثورة جبال البشرات 1569م، وكانوا كلهم من المزارعين من الناحية الشرقية للأندلس، وعند قدومهم إلى المغرب لم يكونوا يعرفون عن حياة الحضر شيئًا، وخلقوا أزمة للمزارعين المغاربة؛ بسبب مضايقتهم لهم في فلاحتهم.

لقد ذكر بعض المؤرخين الإسبان إن الموريسكيين اندمجوا أولًا كعنصر أجنبي في مجتمع خاص بهم، كاليهود أو النصارى الذين أسلموا أو أجانب غير مستقرين، وكان اندماج الموريسكيين في المجتمع المغربي مختلفًا حسب الفترات التي قدموا فيها إلى المغرب؛ ذلك أن هجرتهم تمت في ظروف مختلفة، ومتباينة في كل شيء، فالأندلسيين الذين هاجروا أثناء قرطبة في القرن التاسع الميلادي!! مختلفون عن الذين هاجروا إبان سقوط غرناطة، وعن الذين هاجروا أيام فيليب الثاني بعد حرب البشرات عام 1569م، وعن الذين هاجروا أثناء فترة الطرد الكبير أيام فيليب الثالث عام 1609م، كما أن فئة أخرى هاجرت أواخر القرن السادس عشر؛ بل هناك من هاجر حتى نهاية القرن السابع عشر، لقد تباين كل هؤلاء لأن كل مجموعة منهم كانت لها خصائصها من حيث التكوين الديني، والاجتماعي؛ فالذين هاجروا أيام ثورة قرطبة كانوا مسلمين، ولم يهاجروا لأنهم ضُويقوا في دينهم؛ بل كان ذلك لأسباب سياسية، واجتماعية، فحلوا بمدينة فاس خاصة، وكوَّنوا بها نواة ثقافية، واجتماعية[471].

أما مهاجرو غرناطة بعد سقوطها، فكانوا أندلسيين بطابعهم الخاص،

وعوائدهم الخاصة، وحياة اجتماعية خاصة سواء من الناحية الدينية أو العلمية أو الثقافية، أما مهاجرو حرب البشرات عام 1569م ؛ فكانت بيئتهم الاجتماعية ممزوجة ببيئة إسبانية نصرانية نظرًا لتقادم العهد على ذهاب دولتهم الإسلامية؛ حيث كان قد مرَّ ثمانون سنة تقريبًا على سقوط غرناطة، أصبحوا خلالها عرضة للمضايقة، والتشرد، مرغمين على التخلق بأخلاق النصارى، ولو ظاهريًّا، أما مهاجرو القرن السابع عشر، فكان لهم وضع خاص، وحالتهم أقرب إلى النصارى، تكاد لا تختلف عنها في شيء[472].

لهذا نرى كان استقبال المغاربة لكل فئة من الموريسكيين يختلف حسب الفترة التي قدموا فيها، وكذلك حسب وضعية المغرب الاجتماعية، والثقافية المرتبطة أساسًا بالوضعية السياسية، ورغم كل الصعوبات التي واجهت الموريسكيين، استطاعوا أن ينصهروا في المجتمع المغربي، وساهموا في شتى الميادين، حيث صارت الأسواق مليئة بمنتجاتهم الصناعية، والفنية، وطبقوا كذلك طرقهم الخاصة في ميدان التجارة؛ وازدهرت الأماكن التي نزلوا بها؛ وانتعشت المبادلات التجارية مع الخارج عن طريق البحر الذي كانوا خبراء بشئونه، وقد ساعدهم في هذا إتقانهم اللغات الأجنبية، خاصة الإسبانية، والبرتغالية، سيما، وأن علاقتهم بالإسبانيين، والبرتغاليين كانت لا تزال حديثة العهد.

الجانب الاقتصادي: يُعد هذا العامل أهم العوامل التي كانت وراء الصراعات التي نشبت بين الأندلسيين المهاجرين، والسكان المحليين؛ فمثلًا عند استقرار «المنظري» بتطوان يعود لأن «سكان القبائل المجاورة لتطوان... قد استاءوا من بناء هذه المدينة بدعوى أن أرضها تقع في بلادهم، وأن مرافقها هي الأخرى مراعٍ لماشيتهم، وأن بنائها، وعمارتها يضيقان عليهم بمصالحهم»[473].

وفي منطقة المصَب كان الصراع بين الأندلسيين والهوناتشوس حول أحقية اقتسام موارد البناء، أما فيما يخص الصراع بين الأندلسيين، والسلاويين، فهو لنفس الأسباب، فقد كانت مدينة سلا مركزًا تجاريًّا هامًّا خاصةً بعد الاهتمام الذي أولته لها السلطة المرينية على حساب رباط الفتح، وقد كان للتجارة أثرها البليغ

على الحياة الاقتصادية في سلا منذ أواسط القرن الثاني عشر على الأقل، وتحديدًا بفضل تجارة الذهب، الذي كانت تجلبه إليها القوافل التجارية من السودان الذي تمت غالبية تجارته مع الجمهوريات الإيطالية، خاصة الجنوبية التي تردد أبنائها على الميناء للحصول على هذه المادة لحاجتهم الملحة لضرب عملة ذهبية على غرار العملة الإسلامية، والبيزنطية، وهناك مواد أخرى صدرها الميناء في اتجاه أوروبا، كالكتان، والنيلة، والقطن، والحبوب، والفواكه الجافة، ومواد أخرى مثل الملف، والقرمز، ومسحوق الدباغة[474].

إلا أن استقرار الأندلسيين في الضفة الجنوبية للمصب نتج عنه تحول في الموازين شمال، وجنوب المصب لصالح الجنوب؛ فقد أصبحت الرباط تستقطب التجار الأوربيين لأن الجهاد البحري في هذه الفترة أصبح المتحكم في ربط العلاقات الدبلوماسية، والتجارية[475] ؛ حيث كانت أوروبا في حاجة لافتكاك أسراها، كما كان المجاهدون في حاجة لشراء الأسلحة، والعِتاد لمواصلة عملياتهم الجهادية.

أضف إلى ذلك أن الأندلسيين كانوا لا يستطيعون بيع جميع بضائعهم المغتنمة بالمغرب، مما حدا بهم للبحث عن أسواق خارجية، فوجدوا ضالتهم في الجمهوريات الإيطالية الصغيرة، كجنوة، وبزة، وليفورن[476].

وهكذا نلاحظ أن أندلسيي الرباط أصبحوا المتحكمين في التجارة لاحتكارهم للجهاد البحري، الذي أرغم الأوروبيين على طلب ود هؤلاء لتفادي شرهم، وتجنب سفنهم ضرباتهم القوية، أما فاس فإن الصراع الذي وقع بين اللمطيين، والأندلسيين فأساسه كان اقتصاديًّا، فانتهب اللمطيون القسارية، وحوانيت العطارين، ووقعت الحرب بين الأندلسيين، واللمطين بسبب ذلك ثمانية أيام[477].

فهل يكمن السبب في احتكار الأندلسيين للتجارة بفاس أيضًا؟!

الجانب السياسي: تميز العنصر الأندلسي برفضه الدائم للخضوع لأية وصاية أو سلطة سياسية، وكان طموحه السياسي واضحًا في كل المناطق التي استقر بها، ففي تطوان استغلوا موت أحمد بن عيسى النقسيس، وقاموا على ورثته.

ويورد هارسون نصًّا عن عدم رغبتهم في الخضوع لأولاد القسيس فذكر: «أن حالة تطوان تزداد تطورًا من حين لآخر، فقد ذبح الأندلسيون في مرة واحدة ثلاثة من المقدمين، ثم إن أحد الأندلسيين يُدعى بوعلي انحاز إليه الباقون قائلين إن أسلافهم كانوا حكام المدينة فيما سبق، وظلوا كذلك إلى أن كان والي هؤلاء المقدمين، وهو النقسيس البربري أو الجلبي، الذي جمع حوله الناس بالقوة، والخداع فاغتصب السلطة منهم»[478].

- محاولات الأندلسيين في المغرب من أجل الاستقلال الذاتي:

– رباط سلا: في منتصف القرن السابع عشر قام موريسكيو مدينة سلا بتأسيس حكومة خاصة بهم مع اعترافهم بالحكم المغربي، وسلطة السلطان المركزية، ونجد في هذه الفترة أن الخريطة السياسية المغربية انقسمت إلى ثلاث أجزاء: الحكومة المركزية التقليدية، وعاصمتها فاس أو مراكش؛ ومدينة تطوان، ومدينة سلا؛ وقد أثار قيام الحكم الذاتي الذي أقامة الموريسكيون بسلا اهتمام الأوربيين؛ حيث كانت سلا بمثابة ملجأ للموريسكيين، وكانت محكومة من طرف عناصر دينية، وكان الحكم فيها يبدو غريبًا، وأحكامه بطيئة التنفيذ، لكنه كان فعالًا، ومُستمدًّا من الإسبان[479].

كان هيكل الحكم في جمهورية سلا الموريسكية مكونًا من ديوان، أو مجمع، يضم اثنا عشر شخصًا؛ ورئيس المجمع أو الديوان كان يُسمى الأميرال الكبير (أمير البحر)، وفي كل سنة يتم اختيار حاكمين اثنين يتقلدان الحكم، كل واحد منهما في ضفة من ضفتي أبي رقراق أي سلا، والرباط؛ وكانت قصبة الرباط هي مركز الحكم، ونجد أنهم اتخذوا نظم حكمهم من الأتراك[480].

لقد تكوَّن المجتمع السلاوي من لاجئين موريسكيين، لكنهم اختلطوا بعائلات مغربية بحكم المصاهرة، والمعاملات، والتساكن، وكذلك من بحارة إسبان، وأوربيين أسلموا، وقد طرأ تغيير على أنظمة العيش بقدوم عدد كبير من المهاجرين من مقاطعة إكستريمادورا الإسبانية، وكان هؤلاء اللاجئين يُسمون هورناتشو، تقلد قوم هونارتشو الحكم، والإدارة؛ خاصة منها ما يتعلق بالمعاملات التجارية

التي تسير بواسطة الشركات، فطبقوا الأنظمة التي كانت سارية المفعول في بلادهم بغرب إسبانيا في التجارة البحرية خاصة؛ فازدهرت سلا، ولعبت دورًا في الدفاع عن المغرب، ومما ساعد على ترسيخ، وتثبيت سلطة السلاويين، نزوح الأندلسيين، ولجوئهم إلى تلك الناحية هاربين من مكان إقامتهم بالعرائش، والمعمورة اللتين احتلتا من طرف الإسبان[481].

ولقد شكل الإعلان عن تأسيس جمهورية أبي رقراق، والاستقلال عن السلطة السعدية حدًّا فاصلًا بين الفئتين، وقد زاد من تعميق الأزمة محاولتهم إقامة علاقات مع دول أوربية، بل، والتفاوض معها من أجل تسليم القصبة، مقابل تحقيق مصالحهم[482].

بعد هذا كله بدأت المشاكل للموريسكيين السلاويين بقيام العياشي ضدهم، وكان مشهورًا بجهاده ضد النصارى، ويقال بأن الغيرة من الموريسكيين السلاويين؛ هي التي دفعته للقيام ضدهم متهمًّا إياهم بالتعاون مع النصارى الإسبان، لكنه اغتيل من طرف عناصر من الطريقة الدلائية[483] عام 1614م، فانتهت سلطة موريسكيي جهة الرباط سلا على يد مولاي رشيد عام 1668م، وأُدمجوا بصفة نهائية في سلطة حكومة المغرب المركزية[484].

فاس: أما في فاس فلم يسجل وجود أي محاولة للاستقلال أو الاستئثار بالسلطة خلال القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، بل تعود محاولتهم الأولى إلى ثورة الربض، واستقرار أهل الأندلس بفاس؛ حيث قام أحدهم، وهو عبد الرازق الفهري الخارجي، علي بن عمر ابن إدريس، يقول ابن أبي زرع: «واستقام له الأمر إلى أن خرج عليه عبد الرازق الفهري الخارجي، وكان من أهل، وشقة من بلاد الأندلس، فقام بجبال بويبلان من أعمال فاس على مسافة يوم، ونصف منها، فاتبعه خلق كثير من البربر من مديونة، وغيرهم، فبنى قلعة منيعة بجبل سهل بجوار مديونة، وأسماها، وشقة باسم بلده»[485] بل إنه تمكن من هزيمته، والدخول إلى فاس.

– تطوان: كانت تطوان ومنطقتها، منذ القرن الخامس عشر، تشكل مركز جذب للأفراد الأندلسيين الذين كانوا يعبرون المضيق باستمرار حتى لحظة الطرد النهائي

1609 – 1614م، لهذا فإن تغيير بنية المدينة كان بطيئًا، وكان اندماج الأندلسيين السياسي مستمرًّا؛ إن نظام استقبال الأندلسيين هو أصل إعادة تأسيس مدينة تطوان، ربما كان الزعيم الغرناطي أبو علي المنداري، هو الذي أعاد تأسيس مدينة تطوان بمساعدة الزعيم المحلي علي بن رشيد، وكان علي بن رشيد قد احتمى في قلعة في حوالي عام 1471م، ومع توافد الأندلسيين عمل مع على المنداري لتوطن مهاجري الحروب الأهلية في غرناطة بمدينة تطوان، والهاربين من الحروب الأهلية في غرناطة، وكان ذلك في حوالي عام 1483م؛ أو بعد سقوط غرناطة نحو عام 1493م، وقد عضد المنداري، وابن رشيد التحالف بين السكان المحليين، والمهاجرين الأندلسيين عندما تزوج علي المنداري من ابنة علي بن رشيد، وقد عاش المنداري حتى عام 1541م واستطاع أن ينجز مهمة بناء المدينة، وقد خضعت للسلطة المركزية للسلاطين السعديين اعتبارًا من عام 1561م[486].

الموريسكيون في جيش المنصور السعدي لفتح السودان[487]: لم يبقَ الموريسكيون بعيدين عن شئون المغرب الداخلية؛ فقد كان همهم الاندماج في المجتمع المغربي، ونسيان المِحن التي مروا بها، الشيء الذي جعلهم يعملون بإخلاص في جل ميادين الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والعسكرية؛ أدى هذا الأمر في بعض الأحيان إلى اعتماد السلطة المركزية عليهم؛ لخبرتهم المتطورة التي أتوا بها من أوروبا التي كانت في أوج نهضتها، لقد تمت تجربتهم في عمل صعب، وضخم، حتى يبقوا تحت سيطرة السلطة الحاكمة، واتقاء لما قد يصدر عنهم من أعمال تخِل بالنظام العام، والانضمام إلى عناصر مناوئة للسلطان، من هنا قام المنصور السعدي بتكوين فرقة من الموريسكيين، وضمها إلى جيشه لفتح السودان، فساهموا في ذلك مساهمة فعالة[488].

ففي عام 1591م أرسل المنصور السعدي حملة عسكرية إلى السودان، تألفت من فرقة أندلسية، وفرقة من الأوربيين الذين اعتنقوا الإسلام تحت قيادة الموريسكي «جواد باشاه» الذي كان نصرانيًّا في صغره؛ ثم أسلم، تم النصر للمنصور، وأصبح نفوذه يصل إلى تخوم الصحراء؛ وتدفقت على المغرب الأموال، والذهب، والعبيد، كما أخذ المغرب يروج منتجاته هناك، بالإضافة إلى أن المنصور ارتاح من منافسيه

الذين كان يخشاهم، وحصل على توازن عسكري مع دول البحر المتوسط، خاصة الإسبان الذين كانوا قد انتصروا على العثمانيين في موقعة (ليبانتو) ، فأصبح الإسبان، والبرتغاليون مقيدين في المناطق التي كانوا يحتلونها في الشواطئ المغربية[489].

- الجانب الاجتماعي: أصبح الموريسكيين المتأخرون يُعامَلون معاملة سيئة حتى من قِبَل المغاربة؛ لأنهم كانوا قد تخلقوا بأخلاق النصارى، وكانوا يتعاطون الخمر، ويأكلون لحم الخنزير، ونسائهم تخرجن سافرات؛ الشيء الذي لم يَرقْ للمغاربة، فعاملوهم بسوء، وفتور، بخلاف المهاجرين الأوليين الذين كانوا على حالتهم الإسلامية الصَرفة، فلم يعانوا ما عانى الأواخر، وخاصة أنه كان من بينهم علماء أجلاء استفاد منهم المغرب[490].

كان الاختلاف في السلوك بين الفئتين هو السبب في نشوء هذا النفور، وكتب محمد الدكالي واصفًا أهل سلا: «كانوا على غاية تامة من المحافظة على مكارم الأخلاق، وحسن الشيم، واتباع السنة، والورع التام في المأكل، والمشرب، والقناعة بالإقلال، وعدم الافتخار بالجاه، والمال»[491]، بعدها حمل الأندلسيون معهم العادات، والتقاليد المكتسبة من إسبانيا، وحملوا معهم سلوكًا دينيًّا معينًا نتج عن ممارسة القمع عليهم لسنوات طويلة من محاكم التفتيش، وهو سلوك يعتمد أساسًا على الجوهر لا المظهر؛ لأن هذا الأخير موضوع أساسًا لإيهام الإسبان بأنهم مسيحيون، وهذا ما جعلهم موضع شك من لدن السكان المحليين حيث أصبحوا ينعتونهم بنصارى قشتالة [492].

لقد كان للوضعية التي عاشها المغرب في بداية القرن السابع عشر الميلادي آثارها البالغة في جعل الاندماج الموريسكي في المجتمع المغربي يتسم بالصعوبة؛ مما أدى لانعزال هذه الأقلية في مناطق معينة، لكن بالرغم من ذلك استمر تأثيرهم بحكم إرثهم الثقافي، والمتحضر، خاصة على المستوى الاجتماعي، فأين تجلى ذلك؟ وماهي مجالات تأثيرهم على المجتمع المغربي؟

تأثير الموريسكيين في الميادين العلمية، والثقافية، والفنية

إذا كانت أوروبا نفسها استفادت من التقدم العلمي، والثقافي، والفني للأندلسيين في القرون الوسطى، فإن المغرب تأثر كثيراً بعد هجرة الموريسكيين إليه بما كانوا يحملونه معهم من معرفة في ميادين شتى يتجلى من هذا أن الإشعاع الحضاري، والإرث الثقافي الأندلسي وصل إلى القرن العشرين، وقد يتواصل على امتداد قرون مُقبلة، وقد احتفظ المغرب بالقسط الوافر من هذا الإرث، فطبع الموريسكيون في المغرب بصمات واضحة في جل ميادين الحياة.

- التراث اللغوي، والأدبي، والعلمي: يُعتبر التأثير اللغوي من أبرز عمليات التواصل بين العنصر المغربي، والأندلسي، واحتفظت المصادر الأندلسية خاصة بإشارات تصف فصاحة الأندلسيين؛ يقول ابن الخطيب: «وألسنتهم فصيحة عربية يتخللها غرب كثير، وتغلب عليه الإمالة»[493]، إن النص على قصره، وضآلة حجمه يُقدم لنا معطيات في غاية الأهمية، تتمثل في سيادة اللغة العربية، وذيوعها دون منازع، وهذا ما يؤكد أنها كانت لغة التواصل الاجتماعي، والمعرفي حتى إن السلطة المرينية نهجت سياسة التعريب خاصة في مجال الدين، حيث كانت الخطب تُلقى بالبربرية في عهد الموحدين، ثم يشير النص إلى تسرب الغرب إلى هذه اللغة، أي الأسماء، والمصطلحات التي تنتمي إلى لغات، ولهجات العناصر البشرية المتنوعة والمتساكنة، مما يدل على التلاحم، والتمازج بين هذه العناصر[494].

لكن الأمر تغير بعد سقوط غرناطة، وأصبحت اللغة العربية في تراجع لتزايد المصطلحات الإسبانية الدخيلة، وتفاقم الأمر بمنع السلطة الإسبانية تداولها، فأصبح لزامًا على المسلمين الأندلسيين الكتابة، والحديث بالقشتالية كما يقر بذلك الفقيه عيسى بن جابر في القرن الخامس عشر الميلادي ذاكرًا الأسباب التي دفعته إلى كتابة مجموعة من الكتب في الفقه، والسنة باللغة الإسبانية، وكتب: «إن مسلمي قشتالة، بسبب خضوعهم الكبير، وبسبب الضرائب العالية، والعناء المفرط.. ضاعت منهم الممتلكات، والمدارس، واللغة العربية، ونظرًا إلى هذا الخصاص طلب مني أصدقائي بكل عطف، وإلحاح كبير منهم، خصوصًا الموزعين الكرماء، والتمسوا

مني باستعطاف بالغ أن أجمع باللغة الرومانسية كتابًا مختصرًا حول فقهنا، والسنة، وكذا كل ما يحتاج المسلم الصالح ويعمل، به؛ وهكذا لم يكن لي بد إلا أن أقبل هذا الطلب"، ولقد عبر الموريسكيون عن أسفهم الصريح لاستعمالهم اللغة الإسبانية لشرح تعاليم الإسلام الذي لا يمكن شرحه إلا باللغة العربية؛ يقول أحدهم: «لا أحد من بني قومنا يعرف اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم، ولا يفهمون حقائق الدين، ولا يدركون سموه الحقيقي دون اللجوء لشرحها بلغة أجنبية، كلغة هؤلاء الكلاب المسيحيين طغاتنا، ومضطهدينا، دمرهم الله؛ لهذا أطلب المعذرة لمن يقرأ ما كُتب بالقلوب، علمًا أن نيتي ما هي إلا فتح طريق النجاة للمؤمنين المسلمين، حتى، ولو كان باستعمال هذه الوسيلة الحقيرة، والدنيئة»، كما أعرب موريسكي آخر عن ذلك بأسف، وكتب: «لكونه مكتوبًا بالحرف المسيحي يطلب، ويلتمس ألا تحط قيمته لاستعماله ذلك الحرف، بل على العكس يجب الرفع من شأنه؛ لأن وجوده مكتوبًا بهذه الطريقة يظهر جليًّا للمسلمين الذين يعرفون قراءة الحرف المسيحي، ولا يعرفون قراءة حرف المسلمين، وقد أكد النبي محمد صلى الله عليه وسلم أن أحسن اللغات تلك التي تفهم»[495].

وقد نتج عن هذا الاضطهاد المستمر للغة العربية ظهور ما أصبح يسمى حاليًا بالأدب الأعجمي، وقد ظل هذا الزخم الهائل من التراث الموريسكي مجهولًا حتى نهاية القرن العشرين، حيث تم اكتشافه من قبل باحثين إسبان[496].

من خلال ما سبق يمكن أن تقسيم التأثير اللغوي الأندلسي إلى مرحلتين: الأولى قبل سقوط غرناطة، وبعدها بقليل، والثانية التي أدت إلى انتشار اللغة الإسبانية، وهي التي توافق الطرد الموريسكي الأخير، بل إن المرحلة الأولى عرفت هي الأخرى دخول مجموعة من الكلمات الإسبانية عن طريق تخريجات بعض الأزجال، والموشحات[497].

وبالنسبة للمرحلة الأولى تميزت بانتشار العامية الأندلسية؛ فقد جاء في ترجمة أحمد المنجور «أنه كان مولعًا بأمثال العامة خصوصًا عامة الأندلس، يستحسن لغتهم، ولكنتهم، ويثني عليهم، وعلى بلادهم الجزيرة، ويستحسن، ويتشوق إليها»،

ولقد قدر البعض أن قسماً كبيرًا من الأمثال الأندلسية الواردة في مجموعة الزجالي ما تزال مستعملة في حواضر المغرب، وبواديه [498]، وقد أقرَّ ابن خلدون هو الآخر بتميز لغة الأندلسيين عن لغة كل المشارقة والمغاربة[499]، أما فيما يخص الإمالة – أي إبدال الألف ياء – فقد جاء في ترجمة فرج الأندلسي عند ابن عسكر أنه: «تغلب عليه الإمالة شأن كلام الأندلس في ألسنتهم»[500].

ومما يدل على انتشار الظاهرة بالمغرب أن الحسن اليوسي عاينها عند قبائل بني زروال شمال مدينة فاس، وعند قبائل أخرى شمال المغرب[501].

وعلى كل فإن العامية الأندلسية تتميز باستعمال النون للمتكلم المفرد بدل همزة المضارعة، كما تُستعمل النون لجماعة المتكلمين مع التفريق بينهما بزيادة الواو في حالة الجمع، وقد ورد هذا الاستعمال كثيرًا عند الحجري (نمشي= أمشي، نخرج= أخرج، نجلس=أجلس)، وما يزال هذا الاستعمال موجودًا بالمغرب[502].

أما المرحلة الثانية؛ فعرفت انتشار اللغة الإسبانية خاصة بعد وصول الوفود الموريسكية إلى المغرب، ولقد سجل الأسير مويط في رحلته انتشار اللغة الإسبانية أثناء حديثه عن سيدته، فكتب: «سيدتي التي كانت شابة جميلة جدًّا تتكلم اللغة الإسبانية بطلاقة»[503]، والشيء نفسه أكدته بعض الدراسات عن وجود معرفة باللغة الإسبانية في بلاط السلطان المغربي تتعدى كبار رجال الدولة إلى عدد لا يُستهان به من العامة[504].

ورغم أن أغلب الموريسكيين كانوا يتقنون الإسبانية، فإن منهم من كان لا يتقنها أو كان يجهلها تمامًا، كما هو الحال بالنسبة لموريسكيي هورناتشوس، فقد احتفظوا بلغتهم الأصلية أي العربية، وكانوا يفضلون الكلام بها [505].

وجد الموريسكيون صعوبة في الاندماج بسبب جهلهم للغة العربية خاصة أولئك الذين توجهوا إلى تونس، وهو ما جعل القائمين على أمورهم الدينية من بني قومهم يلجؤون إلى تعليمهم الدين الإسلامي باللغة، والحروف التي كانوا يعرفونها، وقد استفتى شاعر موريسكي مجهول الاسم في ذلك أحد الفقهاء الذين استقبلوهم،

وسهلوا مقامهم بهذه الأراضي، وهو الصالح سيدي بولكايز، لأنه تخوف من عدم ملاءمة تعاليم الإسلام مع كتابة أموره بالحروف الإسبانية، وقد أجاب الفقيه بالإيجاب، والرضى، واعتبر أنه عمل مقبول[506].

أما عربية الموريسكيين فلا تختلف كثيرًا عن الدارجة المغربية، فخصائصها الصوتية تكون في بعض الأحيان الحد الأوسط في التطور من العربية الفصحى إلى العربية الدارجة المغربية على المستوى الصوتي، وأحيانًا نجد أن بعض الأشكال ما زال الاحتفاظ بها في المغرب كعصر (العربية الفصحى) ، وعصر (الأعجمية) في تطوان، ونواحي أخرى من الشمال المغربي[507].

وعمومًا كان التأثير اللغوي الأندلسي الموريسكي واضحًا، وخاصة تسرب مجموعة من الكلمات الإسبانية إلى العربية المغربية، وقد زاد من هذا الأمر انتشار عمليات الترجمة، خاصة من اللغة الإسبانية إلى العربية، والتي تزعمها الشهاب الحجري بترجمته لمجموعة من المؤلفات من بينها كتاب «العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع»، ومن حسن الحظ أن هذه الترجمة تمت بتعاون بين المؤلف، والمعرب الذي كان كلما أشكل عليه شيء في النص الإسباني، يرجع إلى المؤلف ليستوضحه، ثم يثبت الترجمة طبق تفسيره، ثم الترجمة الثانية تمثلت في الرسالة الزكوطية، وتهتم ببعض الأمور الفلكية، وترجمها هي الأخرى عن الإسبانية[508].

هذا، وقد تضمنت بعض الكتابات المغربية إبان هذه الفترة، وبعدها العديد من المصطلحات، والكلمات الإسبانية، ونخص بالذكر كتب الرحلات؛ التي كانت وجهة أصحابها شبه جزيرة أيبيريا مثل رحلة محمد بن عبد الوهاب الغساني «رحلة الوزير في افتكاك الأسير»، ورحلة ابن عثمان المكناسي «الإكسير في فكاك الأسير»، وتضمنتا مصطلحات، وكلمات إسبانية، ويمكن أن نتحدث عن تأثيرات أدبية أندلسية في الشعر المغربي (في ديوان الحايك) ، وهو أندلسي من تطوان عاش في القرن الثامن عشر، أما ابن عمر الرباطي، فكان من كبار الفقهاء، وشاعرًا مشهورًا من أصل أندلسي مرويسكي، ومات في الجزيرة العربية عام 1827م؛ وقد أوضحت بعض الدراسات الحديثة العلاقة بين الرواية الشفوية التطوانية، ومسرحيات العصر

الذهبي الإسباني[509].

ومن بين الموريسكيين، الذين ساهموا في إثراء الميدان العلمي، والثقافي نذكر الغراف في نهاية القرن السابع عشر، ويوسف الحكيم الذي كان متضلعًا في العلوم الطبية، وعِلم التنجيم، والفلسفة؛ وقام بترجمة مبادئ عِلم الفلك، كما اشتهر أيضًا في مجال الترجمة الخياري بيخرانو (الحجري)؛ واشتهر أيضًا خوان ألفونسو أراغون، وكان في الأصل مسيحيًّا، وكتب قصيدة ضد النصرانية بمدينة تطوان، ونجد كذلك محمد الوزير، وهو موريسكي من باسطران كتب في عهد السلطان مولاي زيدان ضد القانون المسيحي باللغة القشتالية، كما اشتهر كثير من الموريسكيين في عدة ميادين علمية كرئيس الأطباء على إبراهيم الأندلسي، الذي كتب مواضيع شعرية عن عدة فواكه، وطبيعتها، وعلاقتها بطب العيون، وعن نباتات طبية، وفوائدها؛ وكان من أشهر المنجمين الأندلسيين، وتوخ بمراكش عام 1613م، ونال أيضًا أحمد بن سيو الأندلسي الذي أقام بفاس، والذي كتب لصديقه الخياري تكهنات في علم التنجيم، وهناك أيضًا محمد بن على الشاطبى من مدينة شاطبة بالأندلس، وكان أستاذًا، وباحثًا في علم الزراعة، والصيد[510].

ومن بين الميادين التي أبدع فيها الأندلسيون أيام ازدهار الأندلس ميدان الموسيقى؛ وما موسيقى الآلة المتداولة اليوم في المغرب إلا امتداد للإرث الحضاري الرفيع، الذي نقله الأندلسيون الذين هاجروا إلى المغرب، ورغم امتزاج هذا الفن بالفن المغربي إلا أن معالمه واضحة، وما زال يُدرس في المعاهد الموسيقية بالمغرب، وتؤديها كثير من الفرق الموسيقية المختصة؛ حيث إن الموسيقى الأندلسية عاطفية من حيث الإيقاع، والأغنية التي تصاحبها، ونجد أن كثيرًا من نصوصها تشير إلى الأندلس (الفردوس المفقودة) أرض المتعة، والجمال؛ كما أن موسيقى الأندلس العربية موسيقى الخيال، والعرب يحلمون بشكل أندلسي عندما يسمعون هذه الموسيقى الشعبية التراثية التي تختلف عن أنواع أخرى من الموسيقى المغربية[511].

ومن الآثار الواضحة في المغرب؛ العمارة الإسبانية التي أدخلها الموريسكيون في القرن السابع عشر؛ حيث وصلت أخبار من رجل فرنسي؛ يُذكر أن الرباط التي

يسكنها الموريسكيون بها نباتات تشبه النباتات الإسبانية، لكن بدون زجاج، ويشهد على ذلك بنية مدينة الرباط نفسها؛ حيث إنها مكونة من شوارع مستقيمة على شكل شبكة، وهو يختلف عن النظام العمراني بالمغرب، ويتفق مع النُظم العمرانية للمدن التي أقام بها الموريسكيون بالمغرب، وهناك النقوش في البيوت، مثل كتابة شعار ملوك بني نصر الذي نُحت على ضريح الملك محمد الخامس في الرباط، إن بعض هذه النقوش أندلسية من حيث الموضوع، والخط؛ ومع أن الخط المغربي في المخطوطات، والنقوش يختلف عن الخط الأندلسي، فإن هذه الخطوط جميعها تُعد ميراثًا للفن الأندلسي[512].

كما دخلت أزياء من أصل إسباني للمغرب، وإن كانت قد شهدت تطورًا فيما بعد، ومن بينها ملابس العرائس التي يظهر فيها الأثر الإسباني من حيث تطريزها[513].

وهناك بقايا أو آثار أدبية أندلسية في إسبانيا، وفي المغرب؛ تتمثل في المخطوطات العربية ذات الأصل المغربي، والموجودة حاليًا في مكتبة، ويرسان لودينتو بالأسكوريال، وهذه المخطوطات عبارة عن مكتبة سلطان المغرب التي استولى عليها قراصنة فرنسيون[514]؛ ثم استولى عليها قراصنة إسبان في القرن السادس عشر؛ وتتضمن مخطوطات عربية عن الأندلس حملها الأندلسيين إلى المغرب، ولا يبدو أن الذين حملوها إلى المغرب كانوا موريسكيين في القرن السادس عشر، بل أندلسيين ممن هاجروا إلى المغرب خلال القرنين الثالث عشر، والرابع عشر، وهذه المخطوطات دليل على التراث الأندلسي في المغرب[515].

كما اهتم الموريسكيون بتأسيس المكتبات كمكتبة القصبة بالرباط؛ وقد ترك بهذه المكتبة البحري، والعسكري، والتاجر عبد الله الأندلسي، والمعروف بالقصري مصحفًا للقرآن الكريم خطي أتى به من الإسكندرية في طريق عودته من الديار المقدسة بعد أداء فريضة الحج، وقد اشتهر بعض الموريسكيين بفن الخط، وكانوا خطاطين ماهرين كمحمد العدي الأندلسي بفاس[516].

هذه بعض الإشارات لتأثير الموريسكيين بالمغرب في عديد من المجالات، ومن هنا ننهي الحديث عن الوجود الموريسكي بالمغرب.

هجرات الموريسكيين إلى الجزائر، وتأثيرهم

كان وضع الموريسكيين في الجزائر مختلفًا عن وضعهم في المغرب، بسبب اختلاف الأوضاع السياسية في البلدين.

فرغم كون الشعور الأخوي تجاه الموريسكيين كان هو السائد في الدولتين، إلا أن تأثير المناخ السياسي كان أقوى على اعتبار أن المغرب كان بلدًا مستقلًّا، ويتمتع بسيادة كاملة، ويتصرف في شئونه كما تمليه عليه الظروف؛ بينما كانت الجزائر لا تستطيع التصرف بحرية في شئونها؛ ذلك أن السلطة العثمانية باسطانبول كانت تعتبر الجزائر ولاية تابعة للباب العالي؛ إضافة إلى هذا كان قسط وافر بمنطقة شمال الجزائر محتلاً من طرف الإسبان كمدينة وهران، والمرسى الكبيرة[517]؛ ولقد انعكست هذه الوضعية السياسية سلبًا على هجرة الموريسكيين من حيث العدد؛ حيث كان عدد المهاجرين إلى الجزائر أقل بكثير من المغرب، ونجد أن أعداد الهجرة بدأت تتدفق على الجزائر بعد عملية الطرد عام 1609م، رغم أن هناك هجرات سابقة عن هذه العملية، بعد سقوط غرناطة سنة 1492م، وكذلك بعد ثورة البشرات.

المجال الجغرافي: كانت الجزائر في أوائل القرن السابع عشر تشمل مساحة الجمهورية الجزائرية حاليًا؛ وذلك منذ أن أعاد الأخوان عروج، وخير الدين بارباروسا تنظيم البلاد المغاربية بمساعدة العثمانيين في القرن السادس عشر، كانت الأراضي الجزائرية تقع بين المغرب (المملكة الشريفية أو مملكة فاس) ، والولاية العثمانية في تونس، ويحدها البحر المتوسط شمالًا والصحراء جنوبًا، ولقد كان المركز السياسي للجزائر، ولا يزال منذ خمسة قرون تقريبًا، هو مدينة الجزائر أو «جزيرة بني مخزونة «، وكان لمدينة الجزائر موقع متوسط على الساحل المغربي، حيث كان فيه العديد من الموانئ مثل (لونة، وهران، شرجيل، تينيس، بجاية)، وكانت الجزائر تحتل الحد الغربي للدولة العثمانية، ومعها ولايتا تونس، وطرابلس الغرب[518].

ولقد كان الساحل الجزائري الجبلي، وغير الآهل بالسكان، والذي توجد به سهول مصبات الأنهار، هو أوسع البلاد الإسلامية مساحة، والأقرب إلى إسبانيا،

هذا الوضع الجغرافي السياسي المجاور لإسبانيا، والذي يمثل رأس الحربة للدولة العثمانية، ويفسر عداء الإسبان للجزائر، وفي نفس الوقت يفسر أهمية الجزائر كموطِن استقبل الموريسكيين (انظر الخريطة رقم3) [519].

هجرات الموريسكيين إلى الجزائر: عرفت الجزائر هجرة أندلسية واسعة، وهامة خلال مراحل الهجرات الثلاث الكبرى نحو المنطقة، إلا أن الوثائق المتعلقة بها، وبالجالية الأندلسية محدودة، والموجود منها ما يزال معظمه موزعًا عبر مختلف أرشيفات دول البحر الأبيض المتوسط، زيادة على وضعية الجالية الأندلسية بالجزائر، وطبيعة الحكم العثماني[520].

وخلال المرحلة الأولى من الهجرة الأندلسية بين 1212م و1492م عرفت الجزائر وصول موجات هامة من المهاجرين، الذين تضاعف عددهم، بالموازاة مع حركة الاسترداد المسيحي (Reconquista)، وسقوط الحضارات الإسلامية الكبرى بالأندلس كقرطبة 1236م، وبلنسية 1283و، وأشبيلية 1284م ؛ إلا أن حظ مدينة الجزائر من هذه الهجرة، التي شكل معظم صفوفها رجال علم، وثقافة، كان ضعيفًا نسبيًّا مقارنة بالأعداد التي نزلت على بجاية الحفصية، وتلمسان الزيانية، المدينتان اللتان كانتا تُعدان من أهم المراكز الحضارية في المنطقة، وللعلاقات الزيانية – الأندلسية السابقة [521].

وبتأسيس الحكم العثماني بمدينة الجزائر عام 1519م، كأولى قاعدة عثمانية في الصراع الإسباني – العثماني، والنشاط البحري الذي بذله الإخوة بربار وسا في الحوض الغربي من البحر المتوسط من خلال حملات بحرية واسعة على السواحل الإسبانية، واستغاثة الموريسكيين، ونقلهم.. حظِيت مدينة الجزائر بسمعة، وشهرة في المنطقة، واستقطبت أنظار، ليس فقط حكومات شارل الخامس، وفيليب الثاني، لتكثيف حملاتهم للحد من التوسع العثماني في المنطقة، بل؛ وكذلك العديد من مهاجري المرحلة الثانية التي تبدأ بسقوط غرناطة 1492م[522] لاختيار مدينة الجزائر ملجأ، والحكم العثماني نفوذًا مجددًا، ومناسبًا لآمالهم.

لقد ربط هؤلاء مصيرهم بالأتراك العثمانيين، ولا نبالغ إذا قلنا إنه كان لهؤلاء المهاجرين دور فعّال في تثبيت الحكم العثماني بالجزائر، بسبب المساعدات التي

قدموها للأتراك للتصدي للحملات الإسبانية من جهة، وللقضاء على الإمارات المحلية من جهة أخرى[523].

أوْرد بعض المؤرخين أن جل النازحين إلى الجزائر كانوا من نواحي أراغون، وبلنسية، وكاتالونيا، وكانوا يتقنون عدة حِرف، فكان منهم صانع المسدسات، والبارود، والغالب بالحدادة، والنجارة، والبناء، والخياطة، وصناعة الأحذية، وغيرها، ولقد اتجه عدد كبير من الموريسكيين - خاصة الفالنسيين - إلى سواحل الجزائر، وأقاموا في المدن، وفي المناطق الريفية المتاخمة لها، والواقعة تحت سيطرة العثمانيين، ولا توجد دلائل، ووثائق على إقامة الموريسكيين في مناطق ريفية منعزلة، ولا في جبال القبائل التي كانت تتمتع بنوع من الاستقلال تحت حكم ملك، كان حليفًا لملك إسبانيا ضد الجزائر اعتبارًا من أوائل القرن السابع عشر.

وفي طريقهم لقيَ الموريسكيون معاملة سيئة من هؤلاء الريفيين، وهذا ما تؤكده مصادر عربية، وأوروبية، وحتى في الحواضر كانت تحدث مشاغبات، وثورات من طرف الموريسكيين بسبب نزاعاتهم مع الأتراك الذين كانوا يسيطرون على الوضع في الجزائر؛ لاسِيما، وأن بعض الموريسكيين من الأرستقراطية كانوا يرفضون سيطرة الأتراك، ثم هناك عامل اللغة، والعادات، الشيء الذي أدى لحدوث صدامات متكررة، حتى إن بعض الموريسكيين اضطروا للعودة إلى إسبانيا متظاهرين بالولاء، والتمسك بالدين المسيحي[524].

اندماج الموريسكيين في المجتمع الجزائري: يقول السعدوني إن كل الموريسكيين انتهى بهم المطاف إلى الاندماج في السكان الحضريين المغاربيين؛ ولم تكن لهم علاقة بالريفيين إلا في المناطق التي تحميها المدن، لأنهم لم يتمكنوا - رغم جهودهم التي بذلوها - من الانخراط في الطبقة التركية الحاكمة، كما حدث مع الأوروبيين الذين اعتنقوا الإسلام[525].

أما الرحالة الفرنسي «لاغيردي تاسي» فذكر إن أغلب الأندلسيين استقروا بالمدن، واكتسبوا عقارًا، وأملاكًا، وصار المرء لا يرى إلا سحنات أهل الأندلس على الوجوه، وكون هؤلاء الأندلسيون مجتمعًا غنيًّا، وطبقة أرستقراطية إلى جانب

الطبقة التركية الحاكمة، وكان نشاطهم يتجلى أكثر في الجزائر العاصمة، وقد كوّن الأندلسيون مركزًا تجاريًّا مهمًّا بالمغرب العربي في القرن السابع عشر الميلادي، وقد تدفقت الخيرات على الجزائر في هذه الفترة بفضل نشاط أهل الأندلس إضافة إلى درايتهم بالقرصنة في البحر آنذاك[526].

الأندلسيون، وأثرهم في الاقتصاد الجزائري: استطاع أفراد الجالية الأندلسية، بفضل نشاطهم الاقتصادي الواسع، تكوين ثروات ضخمة ساهمت في فعاليات اقتصاد الجزائر، وكانوا يمارسون المِهن المعروفة آنذاك، وتخصصوا في مختلف الحرف السائدة في مجتمع الجزائر، وقد شبَّه أحد المؤرخين نشاط الأندلسيين بالجزائر، مقارنة مع نظام الطوائف الحِرفية، بأنها تمثل النخبة البرجوازية التي تحتكر دواليب الحركة الاقتصادية، وكانت هذه الجالية بمثابة المؤشر المالي للرأسمالية الحديثة في الجزائر العثمانية[527]، ويمكن تقسيم الحِرف المهنية التي اشتغل بها الأندلسيون في الجزائر إِبان العصر العثماني إلى مجموعتين أساسيتين:

❋ الحِرف الصناعية ،التي ارتبطت في بعض جوانبها بالنشاط التجاري.

❋ حِرف خاصة بالأعمال غير الصناعية، كالدلالة، والحياكة.

وقد أوضحت وثائق الوقف الخاصة بسجلات المحاكم الشرعية نشاط الأندلسيين بالجزائر، حيث تعطي فكرة عن المهن، والصنائع التي مارسوها، وبفحص سجلات المحاكم الشرعية، اتضح أن كثيرًا من أصحاب الصناعات الحرفية في الأوساط الأندلسية، تتصل أسماؤهم بالألقاب المهنية، مثل الحوكي بن محمد الأندلسي، والحداد محمد الأندلسي، وصانع الشواشي الحاج علي بن الحسن الأندلسي، والعطار أحمد بن أحمد الأندلسي، وصانع الصابون علي بن عمر الأندلسي، والخياط يحيى[528].

ومن أهم الحرف التي اشتغل بها الأندلسيون في الجزائر في العهد العثماني، صناعة النسيج، والملابس، وحياكتها، حتى قُدر عمال النسيج في مدينة الجزائر في الربع الأول من القرن السادس عشر بما لا يقل عن 3000 صانع، كما اشتهرت

بالجودة مصانع الحرير الأندلسية بمدن (القليعة، وشرشال، وبرشك)، وكان الجزء الأكبر من إنتاجها يصدر خارج الجزائر، كما اشتهرت المناطق الغربية من الجزائر بصناعة الزرابي ذات الطابع الأندلسي، خاصة في مناطق هنين، وتلمسان وقلعة راشد[529]؛ كما اهتم الأندلسيون بدباغة الجلود، وصناعة الشاشية (الطواقي)، والأنسجة الحريرية، واشتهرت عائلة القلانسي، وبوناتير بحي باب الواد بصناعة الشاشية، واختصت عائلات أندلسية بصناعة المحمل(القطيفة)[530].

وسيطر أهل الأندلس على مصانع الأسرجة، والنسيج، والإسكافة، والحدادة بتلمسان، وقسنطينة، وامتازت زرابي تلمسان، وشرشال بأسلوب أندلسي راقٍ[531].

كان الأندلسيون في الجزائر يشكلون عنصرًا اجتماعيًّا ثريًّا؛ إلى جانب طبقة الزعماء الأتراك، كما كانوا مهرة في مجالات الزراعة، والحِرف، والتجارة، وبشكل عام كانوا بمثابة محرك للحياة الاقتصادية في العاصمة الجزائرية، وضواحيها، وشكلوا أهم مركز حضري في بلاد المغرب العربي الإسلامي خلال القرن السابع عشر، ولقد لخص مؤرخ الاقتصاد الجزائري الحديث «العدوني» أهمية الأندلسيين في الجزائر إبان الحكم العثماني بالقول؛ بأن الجماعة الأندلسية كانت عنصرًا إيجابيًا في الحياة الاقتصادية، والاجتماعية، قبل أن يحتكر الأتراك هذه الأنشطة، وبفضل نشاط الأندلسيين، والثروات التي كانت تنتج عن ذلك النشاط أو التي استطاعوا جمعها من مشاركتهم للتجارة، والقراصنة، ازدهرت مدن كثيرة بعد خرابها، مثل شرحبيل، وبليدة، وكوليا، وازدهرت زراعة الحدائق؛ وأدخل الأندلسيون محاصيل زراعية جديدة، مثل القطن في موستا غانم أو الكروم في عنابة، واشتهر إنتاج الحرير في كوليا.

وقد جمع العدوني 55 وثيقة عن أنشطة اقتصادية متنوعة قام بها أندلسيون كوكلاء إدارة، ومحلات تجارية، وأطيان زراعية، ومؤسسات خيرية، وصناعة السجاد، والصابون، وملكية الحمامات؛ كما كان هناك هدفاً واحداً لنشاط الموريسكيين، وهو تكوين ثروات، فكانوا من عوامل تحريك الاقتصاد الجزائري[532].

الموريسكيون، وإسهاماتهم في المجالات المختلفة للمجتمع الجزائري: ساهم الأندلسيون في مجال العمران بالجزائر؛ ففي مجال هندسة المياه عمل الموريسكيون

بإتقان، وجلبوا الماء للجزائر العاصمة بواسطة قنوات خاصة كانت من بقايا عهد الرومان، فسخروها بمعرفتهم، وخبرتهم لجريان الماء من أجل سقاية، وتوفير الماء للعاصمة، وقد نُسب هذا المشروع إلى مهندس كان يُدعى موسى، ولقد خرج مشروع الماء للعاصمة إلى حيز الوجود عام 1610 - 1611م في عهد مصطفى كوسا باشا، وظل هذا المشروع إلى القرن الثامن عشر؛ حيث قام مهندس موريسكي آخر يُدعى (كاستيو) باكتشاف منبع للماء في هضبة قرب حصن الإمبراطور، بضواحي المدينة؛ فقام بعرض مشروع إيصال الماء إلى المدينة بواسطة نحو مائة صنبور داخل المدار الحضري.

ولقد لقيَ مشروعه الاستحسان، والموافقة من طرف حاكم المدينة؛ ثم نُفذ، وتم إيصال ضواحي المدينة التي كان يقطنها الأندلسيون بعدما كانوا يستعملون أواني الفخار (الخوابي) لجلب، وادخار الماء، حيث إنه لم يكن الماء العذب يوجد في المدينة إلا في الآبار التي كانت تبعد عن المدينة مسافة نصف فرسخ، فوفر المشروع الراحة لأهل المدينة[533].

كان البحر الأبيض المتوسط في القرنين الساس عشر، والسابع عشر الميلاديين عبارة عن حد فاصل بين الإسلام، والمسيحية، وكانت حركة القرصنة مزدهرة بين الجانبين، فلعب الموريسكيون دورًا هامًّا في هذه العملية؛ حيث إن خير الدين (بارباروسا) - الحاكم من قبل الخليفة العثماني - استلم في عام 1570م خطابًا من الخليفة العثماني موجه للأندلسين أثناء ثورتهم في غرناطة، يحثهم فيه على الدفاع عن الإسلام، وحث الحاكم على مساعدتهم، وإمداد يد العون إليهم بكل ما يحتاجونه، وإرسال سائر الأسلحة، والمؤن، لِمَا أظهروه من إخلاصهم لدينهم الإسلامي[534].

كما كان الأندلسيون يشكلون العمود الفقري للجيش الجزائري، وقد كانوا فنيين في الشئون الحربية، وخاصة في سلاح البارود، كما كان للأندلسيين خبرة في مجال القرصنة، والملاحة البحرية التجارية، وقد سهل عليهم ذلك لمعرفتهم الجيدة بجغرافية الأندلس، وأحوال البحر، وكانوا خبراء في صناعة السفن، ويستدل على ذلك «مرسى الجزائر» ، وهي منطلق القرصنة، والتجارة البحرية، وكذلك مركز

«شرشيل» للأغراض البحرية، وصناعة السفن، وكان هذا المركز مأهولًا بالأندلسيين أكثر من غيرهم[535].

في المجال الزراعي والطبي: كان للموريسكيين دور كبير في الجزائر؛ حيث أدخلوا إليها أنواعًا كثيرة من الفواكة، والبواكر، وكذلك بعض المنتجات الزراعية الأمريكية الأصل، وأقاموا مزارع عدة بالقرب من المدن بقصد مدها بالمواد الغذائية الضرورية، وعملوا على سقي تلك المزارع بخبرتهم في هندسة توزيع المياه التي أتوا بها من الأندلس[536].

لقد كان الموريسكيون في الجزائر ممسكين بجل قطاعات الاقتصاد، وكانوا يتقنون جيداً عدة صناعات، فاشتهروا على الخصوص في صناعة «النسيج - الحرير - الحلي - السجاد»، وكان لذلك تأثيرًا إيجابيًا على الرواج الاقتصادي بالعاصمة الجزائرية، فقد كان منهم أرباب شركات، ومقاولات، وغيرها، وقد انتقلت صناعة الحرير من غرناطة إلى الجزائر، وكان الموريسكيون هم المختصون بها، ويقال إنها انتقلت من الجزائر إلي إيطاليا، كما امتهنت هذه الصناعة النساء الموريسكيات المهاجرات[537].

كانت الأُسر الموريسكية متحدة فيما بينها مؤازرة لبعضها البعض، تمد يد العون لمن أراد أداء فريضة الحج، فرغم وجود صعوبات في أول الأمر للاندماج مع الأسر الجزائرية، تمكنوا من التأقلم، فقد كانت لديهم في أول الأمر بعض العادات، التي لم تلقَ تفهمًا من طرف الجزائريين الذين كانوا يعتبرونها عادات نصرانية، كمسألة ختان الأطفال التي كان بعض الموريسكيين يخشون القيام منها، رغم كونهم يقومون بشعائرهم الدينية الإسلامية على ما يرام، ويشيدون المساجد، والحمامات، ويؤدون المناسك كلها على أحسن وجه[538].

كما كان الموريسكيون خبراء في الطب، والجراحة، فنقلوا خبرتهم إلى الجزائر، ومنهم «خابيير - جابر»، والجراح «غارسيا دياس» ، كان الطبيب خابيير من بلنسية، وقيل إنه عند مغادرته مدينته بيع؛ لأن تجارة الرقيق كانت رائجة في القرن السادس عشر، وخاصة بين أسري الحرب أو في عمليات القرصنة، أما الجراح «غارسيا دياس»؛ فأصلة من مدينة طليطلة[539].

الأندلسيون، والمجال التجاري: قدر لأبناء الجالية الذين استقروا بالجزائر في العهد العثماني أن يكون لهم دور المشاركة الفعالة، وكان ميدان التجارة أبرز أوجه هذه المشاركة، حيث امتدت المتاجر الأندلسية في مدينة الجزائر، وخاصة في الشارع الممتد ما بين عزون إلى باب أواد، والمتفتح على حومة الأسواق الرئيسية أسفل المدينة، كانت الأسواق في مدينة الجزائر العثمانية، تتمركز في شارعين؛ ففي الشارع الأول نجد كل من سوق الكتان، وسوق الزيت، وسوق الشمع، وسوق الفكاهيين، وسوق الحرارية، وسوق الصباغين، وسوق الحديد، وسوق الشمع، وسوق الضارين.

وفي الشارع الثاني نجد سوق السمن، وسوق القيصارية، وبهذه الأسواق كانت تنتشر المقاهي، والحمامات، والفنادق[540].

وقد اتسع نشاط هؤلاء التجار الأندلسيين، وبخاصة تجارة بيع الأسرى المسيحيين، وتمويل مشاريع الجهاد البحري، الحيوية، والهامة، والتي ظلت لمدة طويلة موردًا هامًّا للرزق، ومصدرًا للثروة، وعاملًا حاسمًا في تنشيط الحركة الاقتصادية بالجزائر، كما كانت حِكرًا على أفراد الإدارة العثمانية[541].

لقد تميز الثغريين العناصر الأكثر تحالفًا، ونشاطًا مع السلطة الحاكمة من بين مختلف الفئات الأخرى التي تكون الجالية الأندلسية، وذلك لنوعية النشاط المُمارس، وتمركزهم بمدينة الجزائر قاعدة الحكم العثماني، فالثغريين استفادوا من مداخيل القرصنة، وبيع الأسرى، وجعلوا من تجارة الرقيق بضاعة، وتجارة مُربحة على حد تعبير أحد الباحثين الغربيين؛ لأنهم عاملوا الأسرى الإسبان بسوء، وقسوة[542].

وتشير الدراسات إلى أن عدد المسيحيين الذين كانوا يباعون في أسواق مدينة الجزائر في أعوام 1520 – 1660م كان يتراوح بين خمسمائة ألف، وستمائة ألف، كما توجد قصص عن سوء معاملة القساوسة من قِبل الموريسكيين، وكان هؤلاء يعملون في تجارة الفداء، والتي كانت مظهرًا هامًّا من مظاهر مجموع اقتصاد الجزائر[543].

والحقيقة أن المتتبع لدور التجار الأندلسيين، وخاصة في مدينة الجزائر، واستثمار أموالهم في عمليات القرصنة (غنائم الجهاد البحري)، يعجب لهذا الدور الذي لعبوه في المجال التجاري، حيث اشتهروا بتحصيلهم للضرائب، ومساعدتهم للأتراك في تنظيم موارد الخزينة العامة[544].

وقد نرى أن الجزائر شجعت القرصنة، خاصة، وقد كانت تدر عليها غنائم ثمينة، بفضل الموريسكيين، الذين أتقن معظمهم اللغة الإسبانية، وكانوا أكثر الفئات علماً بدخائل الصراع السياسي، والعسكري بالبحر الأبيض المتوسط.

هكذا أصبح للأندلسيين فائضاً ماليًا كبيرًا، وكان لابد من البحث عن ميادين أخرى بجانب عملهم التجاري كاستثمار فائض رأسمالهم فيها، وكانوا حريصين كل الحرص على أن هذه المجالات الاستثمارية تعطي لهم ربحًا، ويمكن اعتبار أن هذه الفئة التجارية، طبقًا لاتساع نشاطها المالي، وبفضل خبرتها التجارية، أصبحت تمثل النخبة المدبرة لشئون القرصنة، والنخاسة، ومبادلة الأسرى في الجزائر العثمانية[545].

ومن الأمور المتعلقة بثراء الأندلسيين في مدينة الجزائر، ويجب الإشارة إليها، أن كثيرًا منهم، إلى جانب استثمارهم للعقارات، قاموا بوقف الكثير منها، إما على أنفسهم حيال حياتهم، ثم على ذريتهم من بعدهم، أو على أوجه البر، وطلبة العلم، أو على فقراء الأندلس، وفقراء الحرمين[546]؛ ولقد جاءت هذه الأعمال رغبة في اجتناب مضرات الزمن، ولتخوف الأندلسيين من مصادرة السلطات لتلك الأملاك[547].

الأندلسيون، والحياة الاجتماعية: إن الباحث في تاريخ الجزائر الاجتماعي في العهد العثماني، وفي إطار النظم الاجتماعية السائدة آنذاك، لا يمكنه إغفال الدور الكبير الذي لعبته الجالية الأندلسية في الحياة الاجتماعية بالجزائر، حيث إن اشتغال الأندلسيين بالعمل التجاري، والحِرف المهنية، وطلب العلم، والتدريس، مكنهم من ربط علاقات واسعة، وقوية بمختلف شرائح، وطوائف المجتمع الجزائري في العهد العثماني؛ وهكذا، فقد اشتهرت العائلات الأندلسية باشتغال أفرادها بالتجارة، والصنائع، مثل ابن رامول، وابن هني، وابن زوان، وبرحال، وابن تشيكو، وابن الكبابطي، وابن الشاهد، وابن عمار، وخوجة[548].

ولقد وصف دي تاسي الجالية الأندلسية بطبقة الأغنياء في مجتمع الجزائر، فهم يسكنون المدن، ويقيمون في منازل كبرى، ويملكون الثروة، ويتعاطون التجارة، وخاصة تجارة الفداء[549].

إن حساسية البعد الثقافي، والاجتماعي، والاقتصادي بين أهل الأندلس، والطبقات الاجتماعية المكونة لمجتمع الجزائر، كانت من العوامل التي دفعت بأغنياء الجالية إلى تأسيس جمعية أشرفت على إقامة مسجد، وزاوية، ومدرسة، وذلك في شهر المحرم (1033هـ/ 1624م)، وكانت هذه الجمعية الأندلسية مكونة من: محمد الأبلي، وإبراهيم بن محمد بوساحل، والمعلم موسى، ومحمد شلالة، ومحمد بن العنجدون، ومحمد السميح، وعلي بن عمر، ويحيى الخياط.

وحبس أغنياء الأندلس على ذلك أوقافًا داخل مدينة الجزائر، وخارجها لتنفق على شئون العبادة، وتقديم العون لفقرائهم، وكانت هذه الأوقاف تشمل العديد من الأملاك العقارية، والأراضي الزراعية، حيث جعلوا محمد الأبلي مشرفًا عليها، وقد أصبح وكيل أوقاف الأندلس[550].

ولما كان الأندلسيون يتمتعون بمكانة خاصة في المجتمع الجزائري، وخصوصًا لدى العثمانيين، فإن بعضهم كان يعين على أوقاف حنفية عثمانية مثل حميدة الأندلسي، الذي كان عضوًا في لجنة إدارة سبل الخيرات، وسليمان الكبابطي الذي عينه خضر باشا وكيلًا على أوقاف جامع سوق اللوح[551].

وإذا كانت التركات تعرفنا بالثروة المخلفة عن المتوفى، مما يسمح لنا دون شك بدراسة مستوى الثروات، فهي تعكس لنا شتى مظاهر الحياة المادية التي كانت بحياة الفرد من بساطة، ورفاهية، وتشير تركة عائشة بنت أحمد حويجات، أنها خلفت حانوتين أحدهما بالخضارين، والآخر بالفكاهيين قرب شارع باب عزون، واختص الحانوتين بنشاط التجارة، وبيع الصابون، وبعد تسوية الإرث الحاصل، اشترى الحاج علي بن حبس الأندلسي صانع الشواشي الحانوتين بثمن قدره 2800 دينارًا، وأشهد على نفسه بأنه يحبسهما لفائدة فقراء مكة، والمدينة، وفقراء الأندلس، مناصفة بينهما، وجعل الناظر على فقراء الحرمين الحاج محمد بن سالم، والناظر على فقراء

الأندلس يحيى الخياط، وابن محمد الأندلسي.

ويشير أحد العقود أن جماعة من شرفاء الأندلس، وهم: الحاج ابن الناسك الخير، والحاج ابن محمد بن قاسم، والناسك ابن الحاج يوسف بن سليمان، والناسك ابن الحاج أحمد بن جعفر، والمكرم محمد بن قاسم، تملكوا دارًا بمدينة الجزائر في عام 1073هـ/ 1663م، عن طريق الشراء بثمن قدره 6000 دينارًا ذهبية، وحبسوا المنزل لفائدة فقراء الحرمين، وفقراء الأندلس، مناصفة بينهما، وتكشف الوثائق مدى إسهام الجالية الأندلسية في الحياة الاجتماعية، والثقافية بما حبسوه من ممتلكات، وعقارات على المؤسسات الدينية، والثقافية[552].

على أن أوقاف أهل الأندلس ما لبثت أن اضمحلت، وتلاشت، وتناقص مردودها، ولم يعد يستفيد منها في عام 1837 سوى 71 فردًا ينتسبون إلى أفراد الجالية الأندلسية، كما تعرضت زاوية أهل الأندلس للهدم من طرف الإدارة الفرنسية سنة 1843م، ويرجع السبب في تلاشي العنصر الأندلسي بمدن الجزائر إلى ضعف نشاط أفراده في الميدان المالي في أواخر العهد العثماني؛ نتيجة مضايقة، واستبداد الحكام الأتراك، وقادة الجيش[553].

هذا بالإضافة إلى انغلاق الطائفة التركية على نفسها، ومنافسة جماعة الكراغلة، والأهالي، وضعف القبائل المحلية، والجماعات الريفية على الوسط الحضري للمدن، حيث تمركزت الجالية الأندلسية، وشيوع البداوة، فعملت على طمس المساهمة الأندلسية في مختلف مجالات الأنشطة الاقتصادية، والاجتماعية؛ وعلى الرغم من الاسم الأندلسي الذي حدد أفراد الجالية، فإن اختلاف مصادر الثروة، ونوعية النشاط الممارس، ومراحل، وأماكن الاستقرار، والتوزيع الجغرافي بالجزائر... كانت كلها عوامل جعلت الحديث عن الأندلسيين بالجزائر لا يكتسي نفس البعد من التشابه، والمضمون لدى التحدث عن العناصر الأندلسية بتونس أو المغرب الأقصى[554].

هجرات الموريسكيين إلى تونس، وتأثيرهم:

يتفق غالبية المؤرخين على أن الهجرة الأندلسية لتونس تنقسم إلى ثلاث مراحل كبرى، مع الإشارة إلى أن هذه الهجرة لم تتوقف في الاتجاهين طيلة الفترة الوسيطة، أما المدُ الأول؛ فكان في النصف الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، أي بعد سقوط مدن بلنسية، وشاطبة، وقرطبة، أما المدُ الثاني؛ فكان بعد سقوط غرناطة عام 1492م، ليكون المدُ الثالث، والأكبر، والأهم؛ بعد قرار الطرد سنة 1609م[555].

لم تكن هجرات الموريسكيين إلى تونس بنفس الكثافة التي كانت عليها في اتجاه المغرب، والجزائر، وكان هذا يعود لعدة أسباب أثرت بالسلب على إقامة الموريسكيين في تونس، وهي:

* لم يكن أمر إقامة دولة موريسكية هينًا بتونس؛ بسبب الهجمات المتكررة للبحرية الإسبانية على شواطئها، وعجز الدولة العثمانية عن صدها، بعد الهزيمة التي مُنِيَتْ بها بحريتها من نظيرتها الإسبانية في معركة «ليبانتو» عام 1572م قرب جزر البليار.

* قرب المسافة بين الأندلس، والمغرب، والجزائر جعل الموريسكيون يتقاطرون بكثرة علي هذين القطرين، خاصة بعد حرب «البشرات» 1568م، والتي انهزم فيها الموريسكيون.

* لم يتقبل التونسيون آنذاك الموريسكيين الوافدين على بلادهم بسهولة، فقد كانت عاداتهم، ومظهرهم أقرب إلى النصارى منه إلى المسلمين، كيف لا؛ وقد عايشوهم طوال قرن، وأكثر من الزمن، الشيء الذي جعل التونسيين يرفضونهم بخلاف الموريسكيين الذين دخلوا تونس قادمين إليها من الجزائر، والمغرب، فقد كانت أحوالهم لا تختلف عن أحوال أهالي هذين القطرين، نظرًا للمدة الطويلة التي قضوها بين ظهرانيهم، وكان هؤلاء هم الموريسكيون الأوائل الذين هاجروا من الأندلس بعد سقوط غرناطة، فكَوّنوا جيلًا أو جيلين بالجزائر، والمغرب، فكان

التونسيون ينظرون لهم على أنهم مغاربة أو جزائريون.

* كان للوجود العثماني بتونس نظرة خاصة عن الموريسكيين، ولم تكن تونس تتمتع باستقلالية في التصرف كما كان الشأن في المغرب، بل حتى في الجزائر التي كان للداي نوع من الحرية، وكان يتصرف دون تفويض من اسطانبول في كثير من المجالات[556].

اتجاه المهاجرين الموريسكيين إلى تونس: يجب أن نتذكر في البداية الروابط الجغرافية بين تونس كبلد إسلامي، والأندلس، وسكانها المسلمين؛ فبعد خضوعها للحفصيين، أصبحت تونس، لمدة تزيد عن نصف قرن، تحت الحماية الإسبانية، إلى أن وقعت تحت الحكم العثماني الذي أعاد هيكلة البلاد اعتبارًا من عام 1590م[557].

كانت أراضي ولاية تونس في القرن السابع عشر تشمل أراضي الجمهورية التونسية حاليًا، وتقع بين الولايتين العثمانيتين الجزائر، وطرابلس، كانت عواصم تونس (القيروان في القرنين الثامن، والتاسع، والمهدية في القرنين العاشر، والحادي عشر، وتونس اعتبارًا من القرن الثالث عشر) محطة ضرورية للأندلسيين الراغبين في السفر إلي المشرق، ولكل الاتجاهات الثقافية العربية الإسلامية القادمة من الغرب الإسلامي في الأندلس[558].

ومن موانئ التهجير انطلق الموريسكيون في اتجاه أغلب موانئ بلدان البحر المتوسط الجنوبية، وخاصة منها بلدان المغرب، وتونس، والجزائر، يقول المقري: «خرجت ألوف بفاس، وألوف بتلمسان من وهران، وجمهورهم خرج بتونس»[559]، كما يقول أحمد بن قاسم الحجري: «بلغ نهاية جميع الأندلس بصغارهم لثمان مائة ألف مخلوق، أكثرهم خرج بتونس[560].

أما ميكيل دي إيبالثا، فذكر أن المهاجرين الموريسكيين وصلوا فجأة بكثافة إلى تونس بعد عملية الطرد (1609 – 1614م)، حيث وصل عددهم إلى 80 ألف موريسكي، وهو عدد كبير بالنسبة لبلد صغير المساحة، وقليل في عدد السكان، الذين ربما لم يزيدوا عن 50 ألف[561].

كانت هجرة الموريسكيين إلي تونس تتم غالبًا عبر مدينة مارسيليا بفرنسا، وكان تجار من الموريسكيين أنفسهم يقومون بتنظيم رحلات الموريسكيين من مرسى مرسيليا إلي تونس، وفي بواخر فرنسية غالبًا، لتجنب أعمال القرصنة، ومن بين من اشتهروا في هذه التجارة «خير ونيمو آذيكس» وهو موريسكي من مقاطعة أراغون بإسبانيا، كان يقيم بمارسيليا، ويؤمن رحلات الموريسكيين من إسبانيا إلى فرنسا عبر البر، ومن فرنسا إلى تونس عبر بواخر فرنسية، وكان لهذا الموريسكي علاقات مع العثمانيين، الذين كانوا يتفاوضون مع فرنسا، وفينيسيا قصد السماح للموريسكيين المرور من أراضيهم إلى بعض الدول الإسلامية[562].

كان الحكام الأتراك بتونس «ومنهم الداي عثمان» قساة، لكنهم بالمقابل متساهلين مع الموريسكيين من خلال إعفاء مراكبهم من الإتاوات، ومنحهم تسهيلات في السكن، أما رجال الدين في تونس فكانوا يهيبون بالناس بمعاملة الموريسكيين معاملة الأخوة، يتضح ذلك من دعوة «أبو الغيث القشاش» وهو زعيم ديني من جنوب تونس، وكان رئيسًا للأوقاف؛ حيث أجبر سكان تونس على استقبال القادمين الجُدد في بيوتهم، وفتح لهم المساجد، كان الموريسكيون يصطدمون ببعض العقبات؛ كجهلهم للغة العربية، خاصة عند أدائهم لشعائرهم الدينية كصلاة، على أن الموريسكيين رجالًا، ونساءً لعبوا دورًا مهمًّا في تنظيم أنفسهم كجماعة للدفاع عن مصالحهم[563].

لقد استُقبل الموريسكيون بترحاب من جانب الداي التركي «عثمان»، الذي كان يحلم - بالإضافة إلى مشاعره نحو أبناء دينه - أنهم سيسهمون بطريقة كبيرة في تقديم الدولة، وقد قُسم هؤلاء إلى ثلاث مجموعات؛ أما الصفوة (العلماء - الأغنياء - وغيرهم) فسمح لهم بالإقامة في أحياء معينة في العاصمة، حيث يوجد زقاق الأندلس، أما زارعو البساتين، وأصحاب الصناعات الصغيرة فجُمعوا في مراكز كانت موجودة بالقرب من المدينة، وتم توسيعها (مثل الريحانة، والجديدة) وهناك واصلوا نشاطهم التقليدي، أما الفلاحون: وهم الفريق الأكثر عددًا، فأقام فريق منهم في المناطق الزراعية الخالية، وفريق أقام بمقربة من البدو، حيث أنشأوا مناطق

سُكانية جديدة في مكان مرتفع صالح للدفاع أو في أطلال مدن رومانية قديمة (تستود - حجا الباب - سلوكيين - قلعة الأندلس)، أما في المناطق الهادئة، مثل شبة جزيرة الكابوبون، فامتزج السكان الأصليين، مثلما حدث في سليمان، وبيجي[564].

وبقيادة الولي الشهير، سيدي أبي الغيث القشاش، استقبل الأهالي الأندلسيين بحفاوة؛ وكان يعطيهم «في كل يوم نحو 150 قرصة من الخبز صدقة»[565] وهو ما يؤكده أيضًا المنتصر القفصي بقوله: «ولما جاء الأندلسيين إلى تونس ضاقت بهم المحاجج، والطرقات، والأسواق، والمساجد... وصاروا يأتون إلى الشيخ القشاش، وإلى سماطة، وجرى معهم كالريح المرسلة في إطعام، وكسوة العريان»[566].

ومما سبق يمكننا القول إن الأندلسيين استفادوا خلال السنوات الأولى من قدومهم بدعم سياسي، واجتماعي، لكن تجدُر الإشارة إلى أنه مع تولى يوسف داي الحكم أوائل عامل 1612م، واجه هؤلاء ظروف صعبة؛ فلم يجبرهم فقط على دفع الضرائب التي أعفاهم منها عثمان داي، بل أجبرهم كذلك على دفع ضرائب إضافية، وخيَّرهم بين دفع هذه الضرائب أو ترك الإيالة[567].

ورغم الظروف الصعبة التي واجهها الموريسكيون في بعض الفترات، وخاصة في بداية استقرارهم، فإن توافدهم إلى الإيالة التونسية ضخ دماءًا جديدة في البلاد، وهو ما يؤكده ابن أبي الضياف بقوله: «واستأنفت المملكة عمرانًا بورود هؤلاء الأندلسيين»[568].

وإذا كان الموريسكيون قد اندمجوا في المجتمع التونسي، فإنهم لم يفقدوا عوائدهم التي كانت لا تخلو من بعض الطقوس المسيحية لكونهم كانوا قد تعايشوا مع النصارى لمدة طويلة، تربو على القرن، وزيادة، منذ سقوط غرناطة، وحتى أواخر أيامهم في القرن السابع عشر، ورغم ذلك التضارب في العوائد، والتقاليد استطاعوا أن يتكيفوا مع الوسط الجديد في تونس، والذي كان مزيجًا من العوائد العربية، والتركية، حيث يذكر أنهم كانوا يتكلمون الإسبانية، ويتعاملون بها، ولهم مدارسهم الخاصة، ويُذكر أيضًا أنهم في تونس كانوا يدرسون التاريخ بالإسبانية، حتى أن ألغت السلطات هذه المدارس، وفرضت عليهم اللغة العربية، وجعلتها لغة رسمية لهم[569].

لقد سكن تونس المئات من العائلات الأندلسية، واندمجوا داخل المجتمع، وسكنوا مناطق مختلفة في تونس، وأحدثوا إعماراً في هذه المناطق، وهذا الجدول يوضح بعض هذه العائلات:

أصول العائلات الأندلسية، ومواطنها بالبلاد التونسية

العائلة	الأصل	المدينة	الملاحظة
ابن الإخوة	غرناطة	تونس	
ابن براهم		طبرية	
ابن الحاج		قرنبالية،قلعة الأندلس، سليمان ، طبرية	
ابن الحاج سالم		طبرية	
ابن حسين		العالية،قلعة الأندلس	
ابن حمزة		مجاز الباب، زغوان	
ابن رحومة		مجاز الباب	
ابن رزوقة		قلعة الأندلس	
ابن رمضان		هنشير بياضة، قلعة الأندلس، السلوقية، طبرية	
ابن زكرى		زغوان	ق 19م
ابن زون		طبرية	
ابن سالم		قلعة الأندلس	
ابن سعيد		بنزرت	
اين سنيور	شنيور senor بمعنى السيد في الإسبانية		
الملياني		بنزرت العالية	

مصدر الجدول: (أحمد الحمروني: العائلات الأندلسية في تونس، موقع الموريسكيون في تونس، (الإنترنت)، ص5.)

لقد طال نشاط الموريسكيين في تونس جل ميادين الحياة الاقتصادية، والفنية، والعسكرية، وغيرها؛ ففي الميدان العسكري ساهموا في ازدهار صناعة السفن المستعملة في مجال القرصنة، كما قاموا بتكوين فرق عسكرية (مليشيات)، وكذلك خبراء في المدفعية [570].

المجال الاقتصادي:

أما المجال الاقتصادي (الصناعي، والتجاري) فلم يقل أهمية، وابداعًا عن المجال العسكري، والفلاحي، حيث عرف نقلة جديدة بفضل خبرة المهاجرين بإدخال فنيات صناعية، وتنظيمية، كانت تأثيراتها بالغة على الحياة الاقتصادية، والتجارية، خاصة التجارة الخارجية، بدءًا من تطوير صناعة الشاشية التي احتلت حيزًا كبيرًا من المعاملات التجارية المحلية، والمغاربية، والتي وصلت إلى مصر، وقد تفنن الصُناع الموريسكيون في حسن اختيار ألوانها، وصوفها.

وتذهب بعض الدراسات إلى أن هذه المهنة قد تعممت في البلاد التونسية، ووصل إنتاجها من خمسمائة ألف إلى مليون قطعة سنوية، وقد أثر ذلك القطاع في صناعة النسيج، وخصوصًا منها المعتمدة على الحرير، وهو ما أطلق عليه الببروقار، اتضح ذلك أيضًا في إبداعات قطع السروج الجلدية الثمينة، والصابون ذو الروائح الطيبة، وصناعة/ تقطير العطور التي عكست معرفة دقيقة، وعميقة بمختلف الأزهار، والتي منحتهم أحقية استخراج أنواع مبتكرة من الروائح أُطلق عليها العطور الأندلسية، ناهيكم أن هذا الشعور العالي القيمة بالأزهار دفع إحدى السيدات العثمانيات، وهي عزيزة عثمانة إلى وقف غلة ملك لها، لشراء، وتأمين وضع باقة أزهار يومية على قبرها بعد وفاتها، وهو أمر يدل على الرُقي، كانت هذه العملية تتم في فصل الربيع، في أغلب القرى الأندلسية، خاصة تلك الموجودة بالوطن القبلي، وزغوان، وتتمثل في تقطير الورود كالنسرين، والنارنج، والعطرشاه، وتحويلها من خلال عملية خاصة إلى سائل، يتم استعماله في صناعة العطور، والتداوي، والأكل؛ كما تفنن الموريسكيون في صناعة الزرابي، وتم إدخال أبجديات الطباعة المستجلبة

من الخارج، وهو أمر يدل على قدرات الموريسكيين الفنية، ومعرفتهم الدقيقة للمهن المهمة، ولا يغيب عنا تنوع إبداعات الموريسكيين في صناعة الخزف، والتي عرفت شهرة واسعة جدًّا في تونس حتى يومنا هذا، وتؤكد وثائق أرشيف فلورنسا أن عددًا من الموريسكيين الذين احترفوا صناعة الخزف كانوا على علاقة مع خزفيين أوربيين من مارسيليا، وأن بعضهم أقام مصنعًا بمناطق Jurad de Bayonne وBayonne و Biarritz ، وأن تلك المصانع ظلت قائمة حتى سنة 1806و1809م، أما صناعة مختلف أنواع الأسلحة، وصناعة البارود، وملح البارود، وبناء السفن، وتجهيزاتها، فغدت هي الأخرى وليدة إبداعاتهم الفنية، بل إن يوسف داي، باي تونس، كلَّف أحد المهندسين الموريسكيين بتوسيع ميناءLa Bocco de Quella Fiumara لاستقبال البواخر ذات الحجم الكبير، ولهذا الغرض حفروا أعماق البحر نحو 24 شبرًا، ولا شك أن ذلك كان يتطلب استيعاب أسس، وفنيات هذا العلم بدقة متناهية، ولا يغيب عنا في هذا المجال دورهم الفعال في الحركة البحرية ضد الإسبانيين، وضد الأساطيل الأوربية، ودعمهم للأساطيل العثمانية بالخبرة الفنية البحرية، وتوفير القيادات العسكرية ذات الكفاءة يومئذ، هذا فضلًا عن تقديم شبكة من المعلومات الصحيحة عن السواحل، والموانئ الإسبانية[571].

كما اشتهر الموريسكيون بالصناعات اليدوية التي أتوا بها من الأندلس، سواء من الجلد أو الخشب أو النحاس؛ كما تفننوا في صناعة «الشاشية/ الطواقي» المشهورة في شمال أفريقيا، لقد عُرفت صناعة الشاشية بالأندلسيين، وعُرفوا بها، ورغم اختلاف المؤرخين حول أصولها، وهل هي أندلسية أو كانت موجودة في تونس قبل قدومهم، فمن المؤكد أن حضورهم أعطى دفعًا جديدًا لهذه الصناعة فنهضوا بها، وطوَّروها، وطبعوها بنمطهم الخاص، ولعل من بين أبرز العائلات الأندلسية التي عُرفت بحذقها لهذه الصناعة كانت عائلة «كرباكة» من مدينة كباكة، وعائلة «سيدة» من مالقة، وعائلة «طروال» من مدينة تريل، وعائلة «العروسي» من جبل الأوراس قرب قرطبة، وعائلة «ويشكا» من جهة ويشكا، وعائلة «القسطلي» من قرية كاستيا في غرب البرتغال، ولورقة، والريكاخون، والإيريني، والكاشو، والدرافل، وكذلك

عائلة «بالوخة» ذات الأصول الغرناطية العريقة، وغيرها من العائلات الأخرى[572].

كما ساهم الموريسكيون بحظ وفير في ازدهار الزراعة بتونس، لاتقانهم، ودرايتهم الكبيرة بميدان ري الأراضي، حيث درس «القفصي» أيضًا قنوات الري التي شقها الموريسكيون في منطقة باتان، لتزويد بعض أحياء تونس بالمياة، كما درس علمهم في تلبيد صوف الطواقي، وقاموا بترميم قنوات مائية تنتمي إلي العصر الروماني، والعصر الإسلامي إبان القرون الوسطى؛ ومن بين الأشغال العامة يمكننا أن نذكر التحصينات العسكرية، وتعبيد الطرق للعربات، وإنشاء قناطر على نهر مجيردة، وعلى أنهار أخرى تستخدم كطرق اتصال، وترك الموريسكيون، وأحفادهم آثارًا معمارية تختلف درجات أهميتها [573].

لقد حملت الأقلية الموريسكية معها إلى تونس تجربة، وخبرة نوعية عالية في إحياء الأراضي، تمثلت بادئ الأمر في حسن استغلال المياه عن طريق بناء السدود، وإيجاد، وتعميم الخزانات، والقنوات التي كان يصل طولها إلى 30 كم، وآليات تصريف المياه لسقي الأراضي، التي بلغت يومئذ 2500 هكتاراً وفقًا لبعض الدراسات، حيث أحيوا خط جلب المياه زغوان – قرطاجنة بطول 75 كم، إن هذه التقنيات الفلاحية العصرية أدخلت مشاتل عديدة، وجديدة لزراعة الزيتون، خصوصًا في طبرية، حيث أدى الموريسكيون دورًا مباشرًا في تطويرها، كما قاموا بزراعة قصب السكر، وسجلوا تقدمًا ملحوظًا نتيجة استعمال طواحين الهواء، وتم غراسة الأشجار المثمرة، وتربية الماشية، وتجديد الغابات، وخاصة زراعة الكروم، والرمان، والتوت الأندلسي، والتين الشوكي، وإدخال أنواع جديدة على المشهد الفلاحي المغاربي.

كما ظهرت بزغوان، والفضاءات الفلاحية الأخرى أنواع مستحدثة من الفواكه، والخضروات مثل البطاطا، والطماطم، والباذنجان، والزعفران، والكراث، والقنبيط؛ وغيرها من أسماء الخُضر المستوردة، والتي كان مأتاها الأندلس أو أمريكا اللاتينية، كما قاموا بالإشراف على بساتين الليمون، والأرنج، والحوامض، والبقول، وتؤكد الدراسات أن هؤلاء الموريسكيين لم يتركوا شبرًا من الأرض دون زراعته؛ أما تربية دودة القز، وصناعة الحرير، والسكر، فقد عُرفت على أيدي سكان البشرات

الغرناطيين الماهرين، والمهجرين تطورًا بارزًا في هذا المجال، ولم يغب عن هؤلاء جلب بعض أنواع الطيور تحمل أسماء إسبانية مثل ما يُعرف اليوم بالكناري، وفي هذا الإطار فإن سمة الاخضرار، وروائح الأشجار قد عزز من رونق، وجمال البيت الموريسكي الداخلي، والتي كانت السمة البارزة فيه، بحيث لا يمكن أن نعثر على بيت دون وجود أشجار مثمرة بدواخل صحنه، وكذا غراسة الأزهار ذات الروائح الطيبة[574].

ولا شك أن مثل هذه الإحداثات الزراعية أنتجت أنواعًا جديدة من الخضر، والفواكه أثرت مباشرة على نوعية المأكولات المحلية بإحداثها أنواعًا جديدة منها «المرمز»و«العجة» التي جلبها الموريسكيون من كاتالانيا و«الشكشوكة النابلية» وغيرها من المأكولات الموريسكية الأندلسية، والحلويات التي اشتهرت بها بعض المدن الموريسكية حتى اليوم مثل: السنيورة، والملبس، والصمصا، وغيرها من الحلويات الموريسكية الأصلية، والتي ترجمت عمق التأثيرات المختلفة التي أحدثها الموريسكيون في المجتمع التونسي.

كما ترك الموريسكيون بتونس أشياء مهمة في البناء، والزخرفة في الفسيفساء، وأتقنوا صناعة النسيج وخاصة الحرير على يد النساء الموريسكيات، كانت صناعة الحرير من الصناعات التي يُرجح أن الأندلسيين جلبوها معهم، فكانوا يربون دودة الحرير في أشجار التوت بكل من «الحرائرية»، والتي أُطلق عليها هذا الاسم نسبة لاختصاصها في هذا المجال، كذلك مدن زغوان، ومنوبة، وقرمبالية، وتستور، كما أدخلوا استعمال الخيوط الذهبية، والفضية في هذه العملية، وبذلك تطورت صناعة «السفساري» و«الفوطة» و«التقريطة»[575]، ومن أبرز العائلات التي اشتهرت في هذا المجال عائلة «شكلابو» كما برعت عائلة «كاترال» في حرفة التسفير الفني للكتب[576].

لقد ساهم الموريسكيون في ازدهار الميدان الاقتصادي بفضل اتصالهم بإسبانيا، وكان للصناعيين منهم فضلاً كبيراً، خاصة مع الموجة الكبرى للمهاجرين في القرن السابع عشر، وقد كان من بينهم تجارًا حملوا معهم موظفوهم إلى تونس، ومنهم

«مصطفي دي كارديناس» الذي ترأس مجموعة من المهاجرين، وأحد وجهائها، ومن الموريسكيين من تولى وزارة الاقتصاد، كما كان من بين الموريسكيين في تونس شعراء، وكتاب، نذكر منهم «عبد الرازق كاراباكا» [577].

المجال المعماري، والثقافي: عرف هذا المجال في تونس في أيام الموريسكيين ازدهارًا كبيرًا؛ لكونهم أتوا بثقافة أيبيرية ساهمت في النهضة الثقافية آنذاك في عصر العثمانيين، لقد كان مجال العمارة مميزًا؛ حيث كانت عمارة مستقيمة، وتنتهي دومًا إلى ساحة مع تقاطع الأزقة على زوايا، كما أنهم قاموا بتمهيد، وتبليط الشوارع، واستعمال نوع جديد من العربات، أطلق عليه «الكراريط»، وكذا استعملوا بشكل مكثف «القرمود»، وهي مادة بناء مميزة للتقاليد المعمارية الأندلسية، واستعملت في عدة مناطق بإيالة تونس كتستور السلوقية، وهو نظام تسقيف ذو انحدار خفيف لا يتجاوز الثلاثين درجة، ويجعل السقف محميًّا من الرياح، وحتى الانزلاقات، وقد بُنيت عدة أشكال كنصف أسطوانة بطول ذراع، توضع في واجهة البيوت لتجميل المنظر الخارجي، مما ترجم حرصهم على شخصيتهم الفنية، والثقافية المتميزة، والتي مارسوها سابقاً في بيئتهم بالأندلس، وسعوا بكل تفانٍ إلى استمرارها في بيتهم الجديد بإيالة تونس أو بالفضاءات المغاربية الأخرى[578].

وقد عُرف كذلك عن الأندلسيين مهارتهم في البناء، هذه المهارة وظفوها في إنشاء العديد من المعالم، ومن بين أبرز العائلات التي اشتهرت في هذا المجال يمكن أن نذكر عائلة النيقر (الأسود): التي عُرفت بتقاليدها العريقة في هذا المجال، فضمت العديد من المهندسين كسليمان النيقرو، الذي قام بترميم صومعة جامع القصبة في القرن السابع عشر[579]، وترك مخطوطًا بعنوان «بلوغ المُنى في قواعد الردم والبنا»، كذلك برز من بين أفراد هذه العائلة علي النيقرو ، الذي كان أمينًا على حضيرة قصر المحمدية، وبقيَ بمنصبه حتى عام 1852م، أيضًا الأسطى حميدة النيقرو، الذي كان ناظرًا على بناء «سبالة» باب سعدون بالحاضرة سنة 1803م[580].

وهناك «عائلة البلانكو» التي عُرفت بمسُاهماتها المعمارية الهامة؛ فقد كان الحاج محمد البلانكو أمين البنائين على ما يُرَجَّح في النصف الأول من القرن الثامن عشر،

كما كان أيضًا علي البلانكو أمين حضيرة قصر المحمدية في سنة 1848م، بالإضافة إلى أن محمد بن حميدة البلانكو المتوفي سنة 1931م كان أمين البنائين بقرية رأس الجبل[581].

وقد قام العديد من المؤرخين (مثل القفصي - زبيس) بدراسة هذه الآثار؛ حيث شيد الموريسكيون المساجد، ومن بينها المسجد الشهير بمدينة توستور، وكذلك مسجد سليمان الذي يحتوي على كتابات موريسكية فوق جدرانه، وقد بُنِيَ في عصر وصول الموريسكيين إلى تونس[582].

أما تأثيرهم في الطرب؛ فكان مباشرًا، حيث أدخلوا أنماطًا موسيقية تعتمد على «الأداء الآلي القائم على الوتريات، والصدميات، وبصفة خاصة على الرباب، والعود، والطار، ومنحوا للموشحات الأندلسية نفسًا جميلًا، وهادئًا، وعميقًا في تونس، وغيرها من المجتمعات العربية، وكذا إسبانيا، ومنذ عدة سنوات فقط، تم الانتباه إلى تقويم الموسيقى العربية الأندلسية، وكذا السفرادية، وإحلالها موقعًا جديدًا في هذه الجدلية الحضارية[583].

وفي التصوف، نجد «عائلة ابن عاشور» التي انتقلت من الأندلس إلى سلا بالمغرب، ومنها إلى تونس، وبرزت في مجال التصوف، ومن بين رجال هذه العائلة يمكن أن نذكر محمد بن عاشور (وُلِدَ 1602م) مؤسس الزاوية العاشورية، وابنه عبد القادر بن عاشور المتوفي سنة 1737م[584].

ولعلنا في دعوتنا للمحافظة على التراث العائلي الموريسكي، لا نتحدث فقط عن التراث المادي، بل، وعن العادات والتقاليد، التي لحسن الحظ بقي بعضها إلى اليوم، ومن هذه العادات يمكن أن نذكر الاحتفال بالعرس، وفي هذا الإطار كانت الطعمة مأدبة غذاء يقيمها أهل العريس «يوم البناء/ الدخلة»، ويُقدم فيها ما لذ وطاب من الحلويات الأندلسية ككعك الورقة، وحلويات الشبابك، وبعد أن يتم الضيوف الأكل يقرأون الفاتحة، وعند خروجهم يجدون والد العريس بباب المنزل فيهنئونه قائلين: «ربى يتمم بخير»، فيقوم برشهم بماء الزهر الذي وُضِعَ في مرش صُنِعَ من الفضة، وإلى جانب العادات، والتقاليد، نجد كذلك التراث الغذائي، فرغم أنه

تواصل إلى اليوم، فإن العديدين لا يعلمون أن أصول العديد من المأكولات أندلسية، ولعل من بين هذه المأكولات التي لازالت إلى اليوم تُطبخ في تونس يمكن أن نذكر: القرص، حلويات الشبابك، كعك الورقة، المحلبية، المرقة الزعراء، الطاجين، الصمصا، الحلالم[585].

ومن كل ما سبق يمكن القول إن الأندلسيين الموريسكيين ساهموا بصفة فاعلة في إعادة التوازن للبلاد التونسية مطلع القرن السابع عشر، خاصة على الصعيد الاقتصادي، كما أنهم أثروا الجانب الحضاري للبلاد؛ إن هذا الجانب في تونس، وكافة بلدان الاستقبال في حاجة للمزيد من الوعي به، وتنميته، باعتبار أن ثراء الأمم لا يُقاس فقط بما تملكه من أموال في البنوك، أو ثروات في باطن الأرض، بل كذلك بما تحويه مجتمعاتها من تنوع، واختلاف ثقافي.

هجرات الموريسكيون إلى الدولة العثمانية، ودول أخرى

لم تقتصر هجرة الموريسكيين على بلدان شمال أفريقيا، بل شملت كذلك أقطارًا أخرى إسلامية، وغير إسلامية، وخاصة أثناء الطرد الكبير للموريسكيين (1609م – 1614م)، حيث كانت جحافل الموريسكيين تغادر إسبانيا بكل الطرق، والوسائل، وبما أن عددًا كبيرًا منهم كان قد استقر بالمغرب، فكان على المتأخرين منهم أن يبحثوا عن ملجأ آخر غير شمال أفريقيا؛ لذلك توجهوا إلي البلاد التي كانت تحت نفوذ العثمانيين ليكونوا في مأمن من كل سوء، نظرًا لعظمة الدولة العثمانية آنذاك، لقد شد الموريسكيون الرِحال إلى أراضي الدولة العثمانية، ومنها البلقان، حيث كانت تُوجد مدن، وقرى زاهرة، ومأهولة بالمسلمين، فوجد الموريسكيون بها أمنًا، وطمأنينة، بينما كان من هاجر منهم إلى الشمال الأفريقي كانوا معرضين لبعض المتاعب، خاصة من أقام بالقرب من الشواطئ التي كانت بعضها في يد أعدائهم من الإسبان، والبرتغاليين.

كان المسلمون في الأندلس أيام حربهم ضد النصارى يعلقون آمالًا على العثمانيين في مساعدتهم في كفاحهم بالأندلس، خاصة مملكة غرناطة، بعد انتصار

العثمانيين على البيزنطنيين، وفتحهم القسطنطينية عام 1453م على يد محمد الفاتح، كما كان العثمانيون يعتمدون على الموريسكيين في ميدان التجسس على الإسبان، سيما، وأن الدولة العثمانية، وإسبانيا كانتا قوتين في ذلك العصر؛ الأولي في الشرق، والثانية في الغرب، وكان الصراع بينهما على أشده، ووقعت معارك كثيرة بينهما، خاصة في البحر، ومنها معركة حدثت في أيام كارلوس الخامس قرب الجزائر عام 1541م، كما قامت الدولة العثمانية بمساعدة مجاهدي الأندلس سنة 1568م أثناء اندلاع ثورة البشرات، لكن مساعدة الدولة العثمانية للموريسكيين لم تكن بالشكل الذي يمكن أن يقلب الموازين لصالح الثوار، وبالتالي لم تحقق النتائج التي كانت متوقعة من مساندة العثمانيين[586].

ساعد العثمانيون الموريسكيين على الإقامة بدولتهم ماديًّا، ومعنويًّا، حيث منحوهم حرية العمل، والتنقل، وقد جعل الموريسكيون إسطانبول طريقًا للهجرة إلى داخل أوروبا كفرنسا، وإيطاليا، وقاموا بإيفاد بعثة منهم إلى بعض ملوك أوروبا يستعطفوهم للسماح لهم بالمرور بأراضيهم، ومن هؤلاء (جاكوب الأول ملك إنجلترا وأورلاندا وأسكتلندا، والوصية علي عرش فرنسا ماري دي دي ميدتشي)، وقد قام الأميرال جليل باشا بزيارة للمغرب للتفاوض مع المسئولين حول موضوع الموريسكيين، كما قامت بعثة برئاسة علي سليمان بزيارة بلجراد، فاستقبلها الوزير مراد باشا، وبحثا موضوع هجرة الموريسكيين في اتجاه بلاد البقان التي كانت تحت النفوذ العثماني[587].

هجرة الموريسكيين إلى الدولة العثمانية:

كان هناك موريسكيون في اسطانبول قبل عملية الطرد، حيث استطاع الموريسكيون الأثرياء أن يصلوا عاصمة الدولة العثمانية عبر ميناء «سان خوان دي لوث» أو عبر «مارسيليا»، وهكذا نزح كثير من الموريسكيين الدولة العثمانية، حيث ذكر دبلوماسيون فرنسيون، وهولنديون، وبنادقة تقارير منفصلة عن الموريسكيين في اسطانبول، وذكروا أن الأندلسيين كانوا يشكلون جالية كبيرة، ومؤثرة في المدينة، وعند نزوح الموريسكيين إلى أراضي الدولة العثمانية منحتهم أراضي للإقامة،

والفلاحة، فأسسوا قرى ازدهرت فيها الحركة التجارية، والاقتصادية، والفلاحية، إلا أن دور الموريسكيين لم يكن أساسيًّا في أراضي البلقان، والدولة العثمانية كما كان في شمال أفريقيا؛ حيث لعبوا دورًا طلائعيًّا في شتى الميادين[588].

الموريسكيون في سوريا:

تحتل الشام (سوريا الكبرى) مساحة واسعة من الوطن العربي، تشمل سوريا، والأردن، ولبنان، وفلسطين، ويشير المقري إلى كل هذه المنطقة كأماكن استوطنت فيها مجموعات موريسكية[589]؛ إن ذكر كل أدنة (Adana) ، وطرابلس في وثيقة عثمانية يؤكد ما يذكره مؤرخ معاصر لعملية الطرد، وهناك حديث عن توطين الموريسكيين في الشام لنشر نظامهم في ري الأراضي الزراعية، ومن المعلوم أيضًا حديث عن مرور الأندلسيين، واستيطانهم في مدن كانت تُعتبر مراكز للمعرفة، وذات أهمية دينية مثل القدس[590].

الموريسكيون في ليبيا:

تشغل أراضي ليبيا الحالية ما كان يعرف باسم ولاية طرابلس الغرب، وقد استقبلت طرابلس، وضواحيها عددًا من الموريسكيين، لقد تحدث البعض عن عائلات فرنسية، وصلت إلى طرابلس في منتصف القرن السابع عشر لكي تعتنق الإسلام، ويظن «توربيت ديلوف» أن تلك العائلات كانت موريسكية، وأقامت في فرنسا بعد طردها من إسبانيا، ثم قررت الرحيل، والعيش في بلد إسلامي، كذا كان بعض الوجود الأندلسي في ليبيا، وهناك نص لقسيس فرنسي كان عبدًا لموريسكي من ضواحي طرابلس، وكان الموريسكي يعامل العبد معاملة طيبة، وعرض عليه أن يزوجه ابنته إذا أسلم، وحكى له عن أصله الإسباني، ويبدو أن موريسكيي ليبيا كانوا تابعين لشيخ الأندلسيين في تونس، وهذا ما فهمه البعض من نص مصطفى كارديناس الذي دافع عن مصالح أندلسي من طرابلس في تونس، وينسب إلى الموريسكيين المهاجرين إدخال الموسيقى الأندلسية إلى جبال جنوب العاصمة،

وهو مكان آهل بالسكان، ويحمي العاصمة من رياح الصحراء، وتنسب الحكايات الشعبية أيضًا إلى بعض العائلات الأندلسية - التي استوطنت درنة على الحدود مع مصر - تشييد مسجد رائع له 24 قبة[591].

الموريسكيون في العراق، والجزيرة العربية:

لا توجد حتى الآن وثائق عن موريسكيين استوطنوا في العراق، وهي منطقة كانت خاضعة للسيطرة العثمانية، وكانت تشمل مدنًا مهمة مثل بغداد، والبصرة، وكان كثير من الأندلسيين قد سافروا إلى هناك خلال القرون التي سبقت طرد الموريسكيين، لكن من المؤكد - وإن كان بصورة غير مباشرة - أن كثيرًا من الموريسكيين قد ذهبوا إلى المدينة، ومكة لأداء فريضة الحج، وبالفعل فإن موريسكيين كثيرين مقيمين في بلاد إسلامية - خاصة تونس - كانوا يحملون لقب «حاج» وهو ما يدل على أنهم أدوا فريضة الحج، والموريسكيون الذين تذكرهم الوثائق هم تجار بصفة عامة، وعندهم ما يمكنهم من تحمل تكاليف الرحلة، وهناك وثائق أيضًا تتحدث عن بحارة موريسكيين في عُمان، والمحيط الهندي، وجنوب شرق شبه الجزيرة العربية، كان هؤلاء البحارة الموريسكيون على صلة بالبحارة البرتغاليين في سواحل شبه الجزيرة العربية، والهند، وليس من الصعب أن نتخيل أن الموريسكيين كانوا يواصلون في بحار أخرى نشاطهم التجاري، والنهب الذي مارسه المسلمون، والمسيحيون على السواء في البحر المتوسط[592].

الموريسكيون في فرنسا:

قضية الموريسكيين في فرنسا لها جانبان:

* عبور جموع غفيرة من الموريسكيين إلى فرنسا في لحظة طردهم من إسبانيا.

* استقرار بعض العائلات الموريسكية بشكل نهائي في فرنسا بعد رحيل غالبية المنفيين إلى بلاد إسلامية خاصة (تونس، والجزائر، وإسطانبول)[593].

إن استمرار هجرة أفراد موريسكيين من إسبانيا إلى الدول الإسلامية عبر

مرسيليا، هو أمر تدعمه الكثير من الوثائق على مدى القرنين السادس عشر، والسابع عشر، وعلى ضوء التهديد بطرد الموريسكيين بشكل جماعي، سبقت بعض العائلات الموريسكية الأحداث، ونظمت هجرة إلى فرنسا. كانت تلك العائلات من الأثرياء مثل عائلة «كومبانييرو الأراغونية»، وأيضًا في مرسيليا كان الموريسكي «خيرونيمو إيزيكيت» مدعيًا عامًا للموريسكيين الذين قدموا إلى مملكة فرنسا، وكان يتفاوض بالتأكيد لصالح مواطنية من التجار الأثرياء الذين تعرضوا لمشاكل في فرنسا، ولكي يقوم الموريسكيون بالهجرة كان أمامهم طريقان:

* الطريق البري: ويمر من جنوب فرنسا، وشمال إيطاليا، ثم الإبحار من فينيسيا إلى اسطانبول، والجزء الشرقي من الدولة العثمانية.

* الطريق البحري: وكان يبدأ من مارسيليا، أو من موانئ أخرى جنوب فرنسا، ليصل إلى الجزائر، وتونس، وموانئ مغاربية أخرى.

كان الطريقان معروفان جيدًا، وهذا ما يفسر أن جموع الموريسكيين المطرودين استخدمتها على نطاق واسع، وعلى أثر المشاكل التي سببها الموريسكيون المطرودين بجنوب فرنسا، تم ترحيل الموريسكيين من فرنسا، ويمكن تلخيص هذه المشاكل في النقاط التالية:

* سوابق سياسية لتحالف الموريسكيين «خاصة أهل أراغون»، والسلطات الفرنسية (خاصة البروتستانت في نافارا» ضد السلطات الإسبانية.

* تأييد ملك نافارا إنريكي الرابع (الذي تحول إلى ملك فرنسا) لهجرة الموريسكيين، واستقرارهم في فرنسا.

* الطريق الذي سلكه الموريسكيون التابعون لمملكة قشتالة انطلاقًا من إقليم الباسك، وحتى إبحارهم من موانئ المحيط الأطلنطي أو ساحل البحر المتوسط بعد عبورهم أراضي جنوب فرنسا

* قضايا، ونزاعات تورط فيها رجال سلطة، وبحارة فرنسيون من جراء سلب، ونهب ممتلكات الموريسكيين.

* مشاكل صحية عامة، ورفض شعبي فرنسي للموريسكيين، ونفقات عامة

ترتبت عليها عبور الموريسكيين.

وفي النهاية أبحرت الغالبية العظمى من الموريسكيين؛ إما عن طريق موانئ إقليم الباسك على المحيط الأطلنطي (سان خوان دي لوث)، أو عبر موانئ البحر المتوسط (أغدي Agde ومرسيليا)؛ حيث كان هناك حرص على ألا تبقى أي عائلة موريسكية في فرنسا، واعتبارًا من عام 1611م لم يسمع برسو أي سفينة تحمل موريسكيين مطرودين من إسبانيا، وكذلك تم ترحيل الموريسكيين الذين وُجدوا في فرنسا، مثل الموريسكيين السبعين الذين كانوا في آويور Uiower ؛ لكن بعض المؤرخين أشاروا إلى موريسكيين استقروا بشكل نهائي في عدة مدن بإقليم بروفانس، حيث عملوا في مهن، مثل تربية دود القز، والنسيج، وغيرها من المِهن التي مارسوها في إسبانيا، وفي عام 1630، أي بعد عشرين عامًا على قرار الطرد، رحل عدد من الموريسكيين من فرنسا إلى تونس، منهم: أرناود (من بوفورن)، وصانع الخزف ألفونسو دي لونا (من طولون)، وبيير كوسكويا (من لاغيرد)، وغيرهم، حيث استقلوا سفينة فرنسية هاجمها بحارة موريسكيون في سلا، وهناك بعض الدراسات الجديدة حول الموريسكيين الذين استقروا في الأراضي الفرنسية، في منطقة بروفنسا (مرسيليا) ومنطقة أكيتانيا (بورديوس). وهناك وثيقة مهمة تعود لعام 1668م درسها تتحدث عن عائلات موريسكية استقرت في فرنسا (في غويينا ونورمانديا) ، واندمجت وسط السكان، ثم رحلت إلى بلاد المغرب (الجزائر، وتونس، وطرابلس) مع نسائها، وأطفالها ذوي الأصل الفرنسي لا الإسباني، ولا بد أنهم كانوا أحفادًا لموريسكيين استطاعوا التهرب من عملية طردهم من فرنسا، ربما لأنهم انعزلوا عن جموع المهاجرين[594].

الموريسكيون في إيطاليا:

لم تكن إيطاليا في القرن السادس عشر تتمتع بالوحدة السياسية التي عرفتها في القرنين التاسع عشر، ولقد تعددت أشكال مرور الموريسكيين بأراضيها، واستقرارهم المؤقت فيها، كان لعلاقة الموريسكيين بإيطاليا وجهين مختلفين: فمن

ناحية كانت إيطاليا ممرًّا لبعض الموريسكيين في طريقهم إلى بلاد المنفى، ومن ناحية أخرى كانت مركزًا لعلاقات متوسطية متعددة لعقود تلت قرار الطرد، بل كان الموريسكيون يفِدون إليها قادمين أحياناً من دول إسلامية استقروا فيها، ولقد أشار الباحثون إلى الطريق البري الذي سلكه الموريسكيون من إسبانيا إلى اسطانبول بعد إبحارهم من فينيسيا، حتى قبل عملية الطرد1609 – 1614م.

كان الموريسكيون يعبرون فرنسا، وشمال إيطاليا على أنهم حجاج مسيحيون «قولوا إنكم ذاهبون إلى لوريتو» حيث كنيسة مريم العذراء قرب ساحل الأدرياتيكي، وكانوا يستقلون السفن من فينيسيا، وفي عام 1608م أبحرت أربع عائلات موريسكية خلسة من أليكانتي، ووصلت إلى فينيسيا، ومنها إلى اسطانبول، كان الكثيرون يفضلون الطريق البري نظرًا لخطورة الطريق البحري أو لعدم استطاعتهم دفع تكاليف السفر بحرًا، وذلك كما ورد في رسالة بعث بها السلطان العثماني أحمد الأول إلى دوق فينيسيا عام 1614[595].

كانت فينيسيا «على البحر الأدرياتيكي» وجينوفا وليورنا «ليفورنا» وسيفيتا فيتشي الواقعة في نطاق ليغوريا هي الموانئ الأولى التي قصدها الموريسكيون الراغبون في السفر إلى الأراضي المسيحية التي سيتوجهون منها إلى اسطانبول، وفي أواخر عام 1610م كان نائب الملك في فالنسيا يفخر بأنه رحل 388 موريسكيًّا إلى جينوفا، وكان 134 موريسكيًّا من أشبيلية قد سبقوهم إلى هناك في فبراير من نفس العام، لكن في نهاية عام 1610م بدأت الموانئ المسيحية على البحر المتوسط في وضع العراقيل أمام استقبال الموريسكيين؛ فقد أبحرت سفينة فرنسية من قادش، وعلى متنها 113 موريسكيًّا متجهين إلى ليورنا، لكن السفينة رست في سالوبرينيا بحجة أنه لا أحد في فرنسا، ولا في جينوفا، ولا ليورنا يريد استقبالهم، وعندما كانوا يقتربون من الميناء كانوا يبعدونهم بطلقات المدافع، وفي منتصف عام 1611م كان من المعلوم أن الموريسكيين – وإن قالوا إنهم ذاهبون إلى إيطاليا – كانوا يتوجهون مباشرة إلى شمال أفريقيا حيث دول المغرب الإسلامي، وهذا ما حدث مع موريسكيين من قطالونيا أُرسلوا في سفينة فرنسية أبحرت من برشلونة متجهة إلى ليورنا عام 1611م، ومع

موريسكيين من مرسية مقيمين في مايوركا كانوا متوجهين إلى إيطاليا في أبريل، وأغسطس 1614م، وقد توجه 480 موريسكيًّا إلى إيطاليا في يونية 1611م بعد أن كانوا قد وصلوا إلى المغرب، لكنهم غادروها إلى طنجة، وكانت تحت السيادة البرتغالية، إزاء الاستقبال السيئ الذي وجدوه في المغرب[596].

وفي توسكانيا أحسن الدوق كوسيمو دي ميديثيس استقبال الموريسكيين في البداية بهدف تشغيلهم في تحسين زراعة أراضيه، خاصة المناطق الساحلية، كان ميناؤه في ليورنا على البحر المتوسط تجاريًّا، وقد شهد الميناء وصول ثلاثة آلاف عائلة موريسكية، لكن الموريسكيين لم يرغبوا في العمل في الزراعة في هذه الظروف، متعللين بأنهم ليسوا فلاحين، وإنما يعملون بالتجارة، فأبحروا من جديدة، وتوجهوا إلى الجزائر، ولقد عادت فكرة تكوين مجمعات زراعية من الموريسكيين المطرودين إلى الظهور في إيطاليا بعد ذلك بعدة سنوات، في عام 1619م، عندما قدم قس كان يرغب في تنصير موريسكيي الجزائر مشروعًا يقضي بتوطين الموريسكيين في أبوليا Apulia، في ضواحي ميناء باري Bari على البحر الأدرياتيكي، ربما كانت هناك مستنقعات في تلك المنطقة، وهي مشكلة زراعية موجودة عادة في السواحل الإيطالية، ولم تكن هناك أيدي عاملة كافية لإنجاز العمل نظرًا - كذلك - لخطورة تلك المستنقعات على الصحة[597]، وكان هناك بعض الموريسكيين في أبيلا في دوقية مانتوا Mantua في وادي بو po بإيطاليا، وأيضًا كان هناك بعض الموريسكيين قد عرفوا إيطاليا كجنود في الجيش الإسباني، وهناك حالة موريسكي يجيد الإيطالية، وسافر بعد ذلك إلى المغرب ثم عمل هناك كمترجم في العلاقات الدولية مع إنجلترا، وهناك وثائق عن موريسكيين عبيد أو حاكمتهم محكمة التفتيش في الأراضي الإيطالية التابعة لإسبانيا، وذكر الحاجري بيخارانوا أن الطبيب الأندلسي الحاج يوسف، قد قال له إن هناك 5500 مسلم في مالطة منهم خمسون أندلسيًّا، وهناك وثائق أيضًا عن موريسكيين عبيد في سردينيا، وصقلية، وليورنا [598].

وفي مدينة ليورنا كانت هناك تجارة مع الموانئ المغربية، وفي عمليات التبادل التجاري كان هناك أندلسيون، وكانت للموريسكي التونسي على السوردو علاقات تجارية مع إيطاليا، خاصة مع أهل جينوفا المقيمين في طبرق التي أجرتها جينوفا

للسلطات التونسية لممارسة صيد المرجان، كان الموريسكي مُمثلًا لأهل جينوفا في تونس، وفي الوثائق الخاصة بالتجارة يظهر موريسكيون أو أندلسيون مقيمون في باليرمو، وفي مالطة، وفي ليورنا، ولايبدو أنهم كانوا عبيدًا أو أسرى[599].

وفي وثائق محكمة التفتيش التي ذكرها لوي كارديااك، يظهر موريسكيون نحو 1639م؛ لأنهم اندمجوا وسط السكان المسيحيين، وظلوا في الأراضي الإيطالية، أو لأنهم لم يُعرفوا كإسبان، بل كمسيحيين ينتمون إلى البلاد التي هاجروا إليها.

وقد تصرف الموريسكيون على هذا النحو حتى لا يُحاكموا كمرتدين عن المسيحية بعد أن تم تعميدهم، مع أنهم تم طردهم من إسبانيا باعتبارهم مسلمين، ويجب أن نضع في الاعتبار كذلك أن كلمة «موريسكي» في إيطاليا لم تكن تُطلق فقط على المسلمين الإسبان، بل على كل مسلمي شمال أفريقيا[600].

ونتحدث في النهاية عن حالتين لتواجد الموريسكيين في عاصمة المسيحية الكاثوليكية أي في روما مقر البابوات.

الحالة الأولى.. خاصة بقساوسة من أصل موريسكي مثل الأب اليسوعي كاساس الذي كان مدرسًا، ومترجمًا للعربية لسنوات، وتولى بعض المهام الخاصة في لبنان، ومصر، كان ذلك الراهب الموريسكي غرناطيًّا وكان له نفوذ فيما يتعلق بسياسة البابا تجاه العالم الإسلامي، ومات في بايادوليد، أما الحالة الثانية.. فهي تخص بعض الكتب التي حررها بالإسبانية موريسكيون بعد طردهم، وهذه الكتب موجودة في المكتبات الإيطالية في الفاتيكان، وروما أو في المكتبة الجامعية في فينيسيا، وليس من السهل تحديد التاريخ، ولا الطريقة التي دخلت بها هذه الكتب الموريسكية إلى المكتبات الإيطالية[601].

الموريسكيون في أمريكا:

لقد قصد الموريسكيون العالم الجديد، وخاصة مناطقه الوسطى، والجنوبية، التي كان الإسبان، والبرتغاليون مسيطرين عليها مباشرة؛ ففي سنة 1492م (سنة سقوط غرناطة)، واكتشاف العالم الجيد، اضطر المكتشفون إلى تعمير الأرض الجديدة؛ لكن

السكان الأصليين لم يتأقلموا مع المكتشفين، ولم يقبلوهم؛ لأنهم كانوا بعيدين عنهم في كل شيء، وكانوا يرونهم أعداء لهم، فاضطر المعمرون لجلب اليد العاملة من خارج أمريكا، فاستغل الموريسكيون هذه الفرصة، وصاروا يغادرون وطنهم تحت ستار المسيحية مع المسيحيين ظاهريًّا، أما غرضهم الأساسي، فكان هو الهروب من رقابة محاكم التفتيش[602].

استقر الموريسكيون بالعالم الجديد، وساهموا في تعميره، وازدهاره بخبرتهم في إصلاح الأراضي، وزراعتها؛ ففي القرنين السادس، والسابع عشر ذهب العديد من المهاجرين إلى المستعمرات الإسبانية بالمكسيك، وبوليفيا، وكولومبيا، وجواتمالا ، وكان هؤلاء المهاجرين متعددي المِهن، والحِرف، من مزارعين، وبنائين، ونجارين، فحملوا معهم فنِّهم، وعملهم، وتركوا في تلك الديار بصمات في البناء، والزخرفة، والنقش على الخشب، والحديد، لا زالت إلى يومنا هذا بنايات في عدة أماكن من دول أمريكا تشهد على تأثير فن الموريسكيين، وقد ذكر الباحث الأمريكي «بيرفنك*[603]» في دورية يصدرها عن آثار الموريسكيين أو المدجنين بأمريكا، أن الفن المدجن بأمريكا هو ثمرة المِهن الإسلامية المتبقية في قرى الوسط، والشمال الشرقي لإسبانيا، وعلى الخصوص المهن التقليدية بعد المد المسيحي على هذه المناطق، حيث اضطر العديد من المهنيين في القرنين السادس، والسابع عشر إلى الهجرة للمستعمرات الإسبانية (مثل المكسيك، وبيرو، وغرناطة الجديدة، وجواتمالا، وكولومبيا، وكوبا)؛ ففي هذه المناطق كانت الحركة الاستعمارية قد حملت معها مكونات الفن المدجن سواء في الحديد أو الخشب، وغير ذلك، وقد تطرق إلى ذلك أيضاً المؤرخ المكسيكي «مانوال توسات» في كتابه «الفن المدجن بأمريكا»، والذي صدر في عام 1946[604].

وفي الأرجنتين، اكتشفت «ماريا إلفيرا ساغار ثاتو» أن قرية كاملة لا تستهلك لحم الخنزير، وتدفن موتاها على الطريقة الإسلامية، ولا تسمي أبنائها بأسماء تتعارض مع العقيدة الإسلامية، وتشير الباحثة لوصول مهاجرين أندلسيين، حيث الذي ساعد على ذلك استخدام تصاريح مزورة، ووصول سفن مسجلة كانت تحمل على متنها من يستطيع دفع ثمن الرحلة، دون اعتبار لديانته أو أصلة، فنقاء الدم أمريكا لمجرد وهم.

أما الباحثة «ثيشيليا أيالا» ، فأشارت إلى وجود كلمات عربية تُستخدم في أمريكا الجنوبية، ولم تدخل مع المحتل الإسباني، حيث كان هناك اعتقاد بأن هذه الكلمات تنتمي إلى لغة أهل البلاد الأصليين، إلا أن الباحثة خلصت إلى أن أصلها عربي[605].

وتذكر مصادر كثيرة إن سلطات محاكم التفتيش في العالم الجديد ببورتوريكو على سبيل المثال لم تكن تهتم كثيرًا بتنفيذ التعليمات الخاصة بحظر دخول المسلمين أو تلك التعليمات الخاصة بالتفتيش عن كتب محظورة، بل إن العمدة «أغلايد» نفسه قد اتُّهم عام 1550م بعدم تنفيذ الأوامر الملكية الصادرة ضد موريسكي بويرتوريكو[606].

ويذكر الباحث الفرنسي «لوي كاردياك» أنه في عام 1560م تمت محاكمة ثلاثة موريسكيين في كوزكو ببيرو بتهمة ممارسة شعائر الإسلام، هذا بالإضافة إلي عدة محاكمات تمت في المكسيك[607].

بل إن رئيس أساقفة جواتيمالا «فرانثيسكو ماروكين» كان من أصل موريسكي، وقد اتُّهم بعدم صحة عقيدته المسيحية.

كان هذا الوضع في الأقاليم الخاضعة للسيطرة الإسبانية، أما المستعمرات البرتغالية، فكانت أحسن حالًا، ونجد أنه يوجد كثير من الوثائق، والأحداث تثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن الوجود الإسلامي الموريسكي في الأمريكيتين بدأ مبكراً[608].

الموريسكيون في أفريقيا الجنوبية، والهند:

على مدى العصور الوسطى سافر العديد من الأندلسيين عبر أفريقيا بغرض التجارة، بعضهم كتب عن رحلاته، وعن أهم خصائص البلاد التي زارها، وهذه الكتابات شاهد على فترة مسلمي البحر المتوسط على التجول عبر هذه البلاد، ومن ثم ليس من الغريب أن يقوم بعض الموريسكيين أيضًا برحلات إلى هذه البلاد، ففي القرن الرابع عشر كان الأندلسي إسحاق بن إبراهيم الساحلي – وهو شاعر، ومعماري – قد استدعاه الإمبراطور الزنجي بعد أن تعرف عليه أثناء الحج، وسيكون ذلك الأندلسي منشئًا لطراز معماري خاص اسمه الطراز «السوداني»، ويعد ابن إسحاق

الساحلي نموذجًا على القدرة على التجول، لأسباب مهنية اقتصادية، في بلاد العالم الإسلامي، لكن الوجود الموريسكي/ الأندلسي الأكثر أهمية في أفريقيا الجنوبية كان نتيجة للحملة العسكرية المغربية في نهاية القرن السادس عشر إلى الأراضي الواقعة حول نهر النيجر، في جمهورية مالي، وخاصة في مدينتي جاو وتمبكتو، حيث يعتز المنحدرون من أولئك المسلمين بأصولهم الأندلسية، ويحافظون على تراثهم[609].

وهناك اثنان من الموريسكيين في المحيط الهندي كانا يعملان كمترجمين، ومفاوضين بين البرتغاليين، والإسبان من ناحية، والسلطات الإسلامية الهندية من ناحية أخرى، كان ذلك في أوائل القرن السادس عشر، أما الموريسكي الأول، فهو الغرناطي سيدي علي التويرتو، والموريسكي الثاني، هو علي آخر كان يعرف الإسبانية جيدًا[610]، وهذان الموريسكيان يمثلان أكثر الموريسكيين بعدًا، سواء قبل أو بعد عملية الطرد عام 1609 – 1614م.

الوجود الأندلسي الموريسكي في مصر:

توجد العديد من الوثائق التي تشير إلى الوجود الأندلسي/ الموريسكيين في مصر، لقد كانت الإسكندرية، والقاهرة مراكز تجارية، وحضارية مهمة، وكانت مصر أيضًا ممرًّا ضروريًّا للمسلمين القادمين من المغرب، والأندلس لأداء فريضة الحج، ويشير المقري، الذي وضع كتابه في مصر، إلى استيطان مجموعات من الموريسكيين المطرودين في مصر، ويذكر البعض بشكل غير مباشر الأثر الذي أحدثه وصول «مدجني» الأندلس إلى مصر، وهناك مؤرخ أندلسي من تونس ذكر القاهرة، والإسكندرية كمدينتين استوطن فيها الأشراف؛ أي أهل البيت النبوي بعد قدومهم من الأندلس، وهناك حديث عن وجود موريسكي في واحة سيوة في الصحراء، وهي واحات مصرية[611].

كان المهجرون من أبناء الأندلسيين المضطهدين يأتون إلى سواحل بلاد المغرب العربي، كما نصَّ قرار الطرد، ومنها إلى سواحل بلاد الشام، والثغور المصرية، خاصة الإسكندرية، ورشيد، ودمياط، بالإضافة إلى المدن الكبرى، مثل القاهرة، والمنصورة،

والسويس، حيث اندمجوا وتعايشوا مع أبناء المجتمع المصري، والواقع أن صلة أهل الأندلس بمصر تعود إلى فترة طويلة سابقة على انهيار الدولة الإسلامية 1492م وعمليات الاضطهاد التي تلتها، ولذا فإن أبناء الأندلس أمُّوها حينما حلت بهم محنة الاضطهاد، وفضلوا الإقامة بصفة خاصة بثغر الإسكندرية، على زعم أنها ثغر رباط، أي جبهة قتال، مدفوعين في ذلك برغبة صادقة في مواجهة أخطار العدو البحري وحث الناس على الجهاد، من أجل استرجاع فردوسهم المفقود[612].

كانت الإسكندرية، والقاهرة من المراكز التجارية، والحضارية المهمة، وكانت مصر ممرًّا ضروريًّا للمسلمين القادمين من المغرب، والأندلس لأداء فريضة الحج، وهكذا فإن الموريسكي الحاجري بيخارانو مرَّ بمصر في رحلة الحج إلى مكة من المغرب، وفي عودته التقى بعلماء مصريين، وكتب بعضًا من مؤلفاته في مصر قبل أن يعود إلى تونس، وقد أرسل نصوصًا جديدة إلى أصدقائه[613].

ولا تحدِد المصادر أعداد الموريسكيين المهاجرين إلى مصر. ومع أن المقري كان موريسكياً هاجر إلى مصر، إلا أنه اكتفى بالقول: «ووصل جماعة إلى القسطنطينية العظمى، وإلى مصر، والشام، وغيرها من بلاد الإسلام»[614].

وعلى كلٍ فإن الوثائق تشير إلى أن مصر كانت واحدة من أهم الأقاليم التي استقبلت الهجرة الموريسكية.

وتوضح الوثائق أن لقب الأندلسي، ولقب القطوري كانا اللقبان اللذان لُقب بهما الموريسكيون في الوثائق[615].

وكلمة القطوري من «يقطر»، أي يتتبع، ويلحق، ولقد ارتبط لقب القطوري بعائلات موريسكية؛ منها أن لقب عائلة المقريف، الشيخ الشهير أحمد بن محمد المقري مؤلف كتاب «نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب» حيث تلقب الوثائق عائلته بالقطوري، ولقد استقرت العائلة في الإسكندرية فترة طويلة إلى أن انتقل عدد من أفرادها إلى القاهرة، والغريب أنه عند تسجيل تركة الشيخ أحمد أنه لقبته الوثائق بالتلمساني، مما قد يعكس محاولات الموريسكيين للتخلص من الماضي الذي

كان يعتبره العامة نوعًا من الكفر أو التنصر[616] وهي أمور نعثر عليها في كثير من البلدان التي هاجروا إليها.

عرفت مصر وجود بعض القرى، والدروب التي أنشأها موريسكيون، وحملت اسمهم، ففي القاهرة هناك درب القطري بطولون، وحوش القطرية ببولاق، وفي القاهرة تركز الموريسكيون في منطقة بين القصرين، ومنطقة باب الشعرية[617] وهو ما سوف يُعزز هذا الحي سكانيًا، فتتسع مساحته، ولا يزال هذا الحي يحتفظ بحارة مهمة تسمى حارة المغاربة، كما كان الوجود القطوري مهمًّا للغاية في رشيد، وشهدت مدينة طنطا هجرة واسعة من جانب الموريسكيين بوصفها معقلًا لأحد أهم المشايخ المغاربة، وهو السيد البدوي، أما شمال الدلتا (محافظة الغربية، ومحافظة كفر الشيخ حالياً) فكانت أكثر المناطق التي تركز فيها الموريسكيون؛ لانخفاض كثافتها السكانية، حيث أنشأوا فيها عددًا كبيرًا من القرى، وأطلقوا عليها أسماء أقرب إلى أسماء مدنهم في الأندلس، ويمكن ذكر أسماء بعض القرى التي أسسها موريسكيون على الأرجح [618]:

اسم القرية	الموقع الحديث
الحمراء	تقع كل هذه القرى فى مركز كفر الشيخ
سد خميس	مركز سيدى سالم
الحمراوى	كفر الشيخ
أبو غنيمة	مركز سيدى سالم
إسحاقة	كفر الشيخ
الحدادي	مركز سيدى سالم
أريمونة	محافظة كفر الشيخ
الناصرية	مركز بيلا
محلة موسى	كفر الشيخ

قطور	مركز بالغربية
سيدى غازى	كفر الشيخ
المنيل – محلة دياى	مركز دسوق
كفر الشيخ	كفر الشيخ
كفر مجر	مركز دسوق

وفي الإسكندرية استقر الموريسكيون في شمال المدينة القديمة، وعمروا جزءًا رئيسيًّا من المنطقة التي تطلق عليها الوثائق «الجزيرة الخضراء»[619]، هذا، وإن تسبب ذلك في بعض المشكلات أحياناً؛ ففي سنة 1033هـ/ 1623م اشتكى أهالي الثغر السكندري إلى الديوان في القاهرة بأن المغاربة القادمين من المغرب بنوا بيوتهم بجزيرة الثغر حتى تعدوا على مقابرهم، ورغم ذلك، فقد جاءت أوامر الباشا بعدم التعرض للمغاربة، وعدم منعهم البناء، وكانت حارة البلقطرية واحدة من تسع حارات تتكون منها الإسكندرية[620].

وبعد أن استقر هؤلاء المهجرون في مصر، بدأوا يمارسون مختلف الأنشطة الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية التي كانوا يمارسونها في مواطنهم الأصلية بإسبانيا، وخلال القرنين السادس عشر، والسابع عشر اندمج الموريسكيون في المجتمع، وبدأ تأثيرهم يظهر في الاقتصاد، والمجتمع، والثقافة، ومن هنا تحتوي وثائق المحاكم الشرعية المصرية على كم ضخم من المواد المتعلقة بالمُهجرين الأندلسيين، مصورة أوضاعهم، ونشاطاتهم المختلفة التي كانوا يمارسونها[621].

وبسبب ضخامة أرشيف المحاكم الشرعية المصرية، أخذت الدراسة وثائق محكمة الإسكندرية كدراسة حالة للمهجرين الأندلسيين/ الموريسكيين، وتحتوي الوثائق المتعلقة بالمهجرين الأندلسيين على عقود زواج، وطلاق خاصة بأندلسيين، وأندلسيات، كما تتضمن مواد خاصة بالأعمال التجارية، والمهنية، ومختلف المعاملات

التي كان يمارسها الأندلسيون، سواء فيما بينهم أو بينهم، وبين غيرهم بالإسكندرية، بالإضافة إلى ذلك هناك وثائق خاصة بشراء، وبيع، وامتلاك العقارات، وتأجيرها، ووثائق خاصة بإنهاء بعض النزاعات بين الأندلسيين فيما بينهم، أو بينهم وبين أبناء الجاليات الأخرى، ووثائق خاصة بالتركات، ومخلفات بعض المهجرين الذين استقروا بالإسكندرية، وجميع هذه الأنواع المختلفة من الوثائق هي عبارة عن مواد شرعية، كانت تتم على يد قضاة الشرع.

ونلاحظ في هذه الوثائق أن هؤلاء المهجرين لم ينسوا أبدًا نسبتهم إلى الأندلس؛ فكانوا حريصين دائمًا على ذكر هذه النسبة مقترنة بأسمائهم وجعلها صفة من صفاتهم (فلان ابن فلان الأندلسي)، فإذا كان أحدهم قد استقر به المقام قبل وصوله إلى مصر، في إحدى البلدان المغربية فإنه يحرص دائمًا على أن يقرن اسمه بنسبه «المغربي الأندلسي»[622]، وعلى كل، فهذه الوثائق توضح زيادة أعداد هؤلاء المهجرين منذ بدايات عمليات الاضطهاد الإسباني للمسلمين في إسبانيا، كما توضح أن كثيرًا من هؤلاء المهجرين وقع في الأسر قبل وصوله إلى السواحل المغربية، وعملوا على افتداء أنفسهم، في جزيرة جِربة بالذات، نظير مبلغ من المال (10 سندانوه) من بعض المغاربة على أساس تسديده لهم في مدينة الإسكندرية التي كانوا يتجهون إليها، وهذا ما حدث بالفعل[623]، أما البعض الآخر فاستقر بهم المقام أولًا في المدن المغربية، ومنها انتقلوا إلى الإسكندرية والمدن المصرية الأخرى، لممارسة نشاطاتهم المختلفة فيها، حيث وجدوا فيها المجال الرحب لممارسة نشاطاتهم، وأعمالهم، التي كانوا يمارسونها في بلدانهم قبل وصولهم إلى مصر.

وعن طريق وثائق الزواج، والطلاق ندرك أن هؤلاء المهجرين لم يكونوا يعيشون في عزلة عن أهل الإسكندرية، وخاصة الجالية المغربية، بل تزوجوا منهم وزوجوهم، من ذلك زواج «عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن المغربي الطرابلسي المعروف بالديلاوي» من «فاطمة المرأة ابنة محمد عمر المغربي الأندلسي»، وقد كان لهذه الزوجة الأندلسية الأصل اشتراطات قاسية على زوجها، وربما كان لوضعية هؤلاء المهجرين أثر في تشددهم بالزواج من أبناء أو بنات الجاليات الأخرى ضمانًا

لمستقبلهم، بعد طردهم من بلادهم، والشروط التي اشترطتها هذه الزوجة خير دليل على ذلك[624].

ومن ذلك زواج أندلسي بمصرية كانت تعمل في أحد الحمامات، حيث «تزوج محمد بن علي بن محمد المغربي الأندلسي، بمخطوبته عائشة المرأة بنت عبد الله المدولبة» وواضح أن هذا الأندلسي أتى عن طريق بلاد المغرب، فهو يذكر في نسبته «المغربي الأندلسي»[625].

وبمثل ما كانت هناك حالات زواج، كانت هناك حالات طلاق، ومن ذلك حالة «فاطمة بنت حمزة بن عبد الله المتونية» التي ادعت أن زوجها «الحاج علي دقناش المغربي المناوي» وكل «الحاج أحمد بن محمد بن سعيد المغربي الأندلسي في التصرف في شئونه بالثغر»، وأن زوجها المتغيب بجزيرة جرية، قد أوقع عليها الطلاق، وأن رسالة وصلتها منه تفيد ذلك، وأنها تطالب الوكيل الأندلسي بمؤخر صداقها، ومقداره خمسة دنانير ذهبًا أكرونيا[626]؛ وهذا دليل على أن بعض المهجرين الأندلسيين قد حازوا ثقة أبناء الجاليات الأخرى، وبخاصة الجالية المغربية، فأوكلوا إليهم أمر التصرف في شئونهم أثناء تغيبهم عن مصر.

وترصد لنا وثائق محكمة الاسكندرية الكثير من عقود الزواج، والطلاق المتعلقة بالأندلسيين، والأندلسيات حتى نهاية القرن الثامن عشر، ففي 5 ذي الحجة 1184هـ/ 10مارس 1772م نجد أن «سألت «مبننة المرأة بنت إبراهيم الجربوعي، الحاضرة بمجلس الإشهاد» طلبت من «زوجها الحاج محمد بن المرحوم أحمد الأندلسي السوسي، الحاضر معها بالمجلس المرقوم، أن يطلقها من عصمته طلقة واحدة أولى على البراءة الشرعية، من ساير حقوقها الشرعية». ومن خلال كثرة ورود مثل هذا النوع من الوثائق، يستطيع الباحث أن يقف على كثير من التفاصيل التي تتعلق بمقدم الصداق، ومؤخره، وحقوق الزوجة قِبَل زوجها في حالتي الطلاق، والوفاة، وكذلك الكثير من العادات، والتقاليد الاجتماعية التي تمسك بها أبناء الجالية الأندلسية[627]، والتي توضح إلى حد كبير أوضاع هؤلاء المهجرين من أبناء الأندلس داخل المجتمع المصري، ومدى تكيفهم مع هذا المجتمع، وجالياته

التي كانت تعيش، وتتعامل فيه، سواء الجاليات العربية أو الأوربية.

كما تعكس لنا الوثائق الكثير من الحقائق التي تلقي الضوء على المهن عمل فيها المهجرين الأندلسيين في المجتمع السكندري، سواء كانت أعمالًا تجارية أو مهنية، والتي توضح الوضع الاقتصادي الذي أصبح عليه هؤلاء المهاجرون، فقد عمِل «الرايس علي بن الحاج أبو النصر بن محمد المغربي الأندلسي» في النقل البحري بين ثغر الإسكندرية، وأفريكة (تونس) ذهابًا، وإيابًا[628]، وهنا نجد أن الأندلسيين كانوا يملكون المراكب الخاصة بهذا النقل البحري، كما اشتغل بعض الأندلسيين بتجارة الأحرمة الصوفية، وغيرها من المصنوعات المغربية، ومنها حالة «حموه بن جعفر المغربي الأندلسي»[629]، كما حاز بعضهم حوانيت تجارية بالثغر السكندري، وعلى سبيل المثال فإن «يوسف بن يوسف بن عبد الله المغربي الأندلسي» استأجر حانوتًا بسوق باب البحر للانتفاع به في العمل التجاري لمدة عامين، كما عمل بعضهم بتجارة الطيب، والزنجبيل وغيرها من مواد «العطارة» و»الخردة»، وغيرها[630]؛ وتشير الوثائق إلى أن الأندلسيين حملوا ألقاب تعكس عملهم في حِرف عديدة، وكان منهم المعلم، والأسطى، والصبي، حيث عملوا في التجارة، والدولبة في الحمامات، والنقل، والخبز»الخبازة“، والحياكة، والحلاقة، وصناعة الملابس، وغيرها، وهكذا فإن الأسطى «إبراهيم الأندلسي» كان يمتهن حرفة التجارة، مع «الحاج عبد القادر النجار»[631].

والواقع أن ما سبق، بالإضافة إلى أنه يساهم في فهم الأوضاع الاقتصادية للمهجرين الأندلسيين، فإنه يعكس أيضاً أن أبناء الطوائف المهنية من المصريين أتاحوا لهم فرصة الاشتغال بهذه المهن في ظل النظام الصارم، الذي كانت تفرضه الطوائف على أبنائها، والراغبين في الالتحاق بإحداها، وبخاصة إذا كان الراغب في الانضمام إلى طائفة من غير أبنائه[632].

والواضح أن المهجرين الأندلسيين، بعد أن استقر بهم المقام في المدن المصرية، عملوا على أن تكون لهم ملكيتهم الخاصة، سواء في ملكية العقارات أو وسائل النقل، وغيرها.

وعلى سبيل المثال فإن «علي بن محمد علي الأندلسي» كان يمتلك مركبًا من نوع

«الغليون»، وقد قام بتجديد هذا المركب، وطلائه (جلفطته)، عند «المعلم علي بن محمد الفقيه الجلفاط» الرشيدي[633] وهو ما يدل على ملكية الأندلسيين لوسائل النقل البحري، التي كانوا يشتغلون بها ما بين ثغر الإسكندرية، والثغور المغربية بالدرجة الأولى.

كما اهتم الأندلسيون بالزراعة، ولدينا حالة «الحاج سعيد بن محمد بن علي المغربي الأندلسي» الذي كان يمتلك الدور، والغيطان المنسوبة إليه بالثغر السكندري، وكان يقوم بتأجيرها، والانتفاع بها، كما كان يقوم بتأجير الغيطان عن طريق نظام المشاركة، فبالإضافة إلى قيامه بتأجير الدار المنسوبة إليه، والكائنة داخل الثغر من غريبة، بالقرب من زاوية المحرس التي كانت تنسب لهذا الأندلسي، كان يقوم بمشاركة الحاج منصور بن علي بن أحمد المغربي التونسي على زراعة الغيط التابع للدار، على أساس تقسيم ما يتحصل من الغيط أثلاثًا؛ الثلث للحاج منصور بن علي بن أحمد بالحقل لريه، والثلث للحاج سعد بن محمد بن علي الأندلسي، نظير ملكيته للغيط[634].

ومن خلال هذه الوثائق نقف على كثير من الحقائق المتعلقة بالأندلسيين، وكيفية معاملتهم مع أبناء المجتمع السكندري من المصريين، وغيرهم، وعمليات بيعهم، وشرائهم للعقارات، وغيرها، وتأجيرهم للعقارات التي كانوا يمتلكونها، وأن ملكية بعضهم كانت كبيرة إلى حد ما، حتى إن بعض الزوايا، والحارات داخل الثغر السكندري، أصبحت تُنسب إلى أشخاص من الأندلسيين مثل «زاوية المحرس» التي كانت تُنسب للحاج «سعد بن محمد بن علي الأندلسي»[635]، وأن امتلاكهم لهذا العقارات أصبح يدر عليهم دخلًا اقتصاديًّا كبيرًا، سواء عن طريق الاتجار في العقارات بيعًا، وشراءً، أو عن طريق تأجيرها للآخرين مع الاحتفاظ بملكيتها، وهكذا كان للمهجرين الأندلسيين وضعهم الاقتصادي داخل المجتمع المصري، حتى أن بعضهم عمل وكيلاً لآخرين، خاصة من المغاربة؛ مما يدل على أنهم كانوا يحوزون ثقة أبناء الجالية المغربية المقيمة بالإسكندرية.

على أن الوثائق تعكس لنا أيضاً علاقات الأندلسيين ببعضهم، وبغيرهم

في مجتمع الاسكندرية؛ إنها توضح مدى ارتباط الأندلسيين بغيرهم عن طريق المعاملات التجارية أو المهنية التي أدت في بعض الأحيان لإثارة النزاعات حول الديون، والأجور، وأسعار بعض السلع، والودائع؛ وفي أثناء الاحتكام إلى قاضي الشرع، كانت تُذكر التفاصيل الكثيرة التي توضح أوضاع المهجرين الاقتصادية، والمهنية، والفئات التي كانوا يتعاملون معها من أبناء الجاليات العربية، والأوروبية التي كانت توجد بالمجتمع السكندري، وتوضح أسلوب تعامل الأندلسيين مع هذه الفئات.

كما يمكن من خلال هذا النوع من الوثائق تحديد أماكن وجود الأندلسيين بالإسكندرية، من خلال تحديد موقع بعض الزوايا، والحارات الواقعة داخل الثغر السكندري، والتي كانت تُنسب إلى أندلسيين، كما تحدد هذه الوثائق موقع هذه الزوايا، والحارات وإن كانوا وجدت في غالبها في الجانب الغربي من الثغر[636].

أما عن توضيحها لعلاقات الأندلسيين الاجتماعية بالفئات الأخرى، فعمليات النزاع بين الأزواج حول الصداق ومؤخره، وما تراكَم على الأزواج للزوجات من نفقة؛ فمنها يمكن أن يقف الباحث على كيفية ارتباط الأندلسيات بأزواج من الفئات الأخرى، وبخاصة من أبناء الجالية المغربية، وكيف أن الأندلسيات كثيرًا ما كن يضعن شروطًا قاسية على أزواجهن، خوفًا على مستقبلهن، كما أننا نجد أن الأندلسيين كثيرًا ما كانوا يتزوجون من بنات الجاليات الأخرى، مغربيات، ومصريات، إلى جانب زواج بعضهم بالطبع من الأندلسيات، وهذا يتضح من النزاعات المتعلقة بمثل هذه الزيجات[637].

وتحتوي وثائق التركات الخاصة بالمهجرين الأندلسيين الكثير من التفصيلات ذات الدلالات الاقتصادية، والاجتماعية، فمن الناحية الاقتصادية تحوي تفاصيل كاملة عن تركة المتوفي، وحجمها، وأماكنها، وأنواعها (من عقارات، وأموال نقدية، وأثاث المنزل، والملابس التي كان يمتلكها المتوفي سواء أكان رجلًا أم امرأة، إلى جانب الحلي والأحجار الكريمة التي تركها المتوفي)، وأصحاب الحق الشرعي في إرث التركة، ونصيب كل منهم فيها، هذا بالإضافة إلى الأنشطة الاقتصادية التي كان

هؤلاء يستثمرون فيها ثرواتهم، والفئات التي كانوا يتعاملون معها، ونوعية التعامل سواء كان تجاريًّا أو مهنيًّا[638].

ومن الوثائق جد نافع نستطيع الوقوف على العادات، والتقاليد التي اتبعها هؤلاء المهجرون في حياتهم الخاصة، وفي تعاملهم مع أبناء المجتمع المصري، وأبناء الجاليات الأخرى في المجتمع المصري، ومجتمع الإسكندرية، كما أن بعضها يشير إلى كيفية وصول أبناء الجالية الأندلسية إلى الإسكندرية، وكيف أن بعضهم وقع في الأسر «على يد نصارى»، وكيف أنهم عملوا على افتداء أنفسهم باقتراض بعض النقود من أبناء «جزيرة جربة» التي كانت دائماً تتم فيها عملية الافتداء، فلما توفي هؤلاء طالب الدائنون الورثة بمالهم في ذمة المتوفين، وكذلك عن طريق هذه الوثائق يظهر مدى اندماج هؤلاء الأندلسيين اجتماعيًّا مع أبناء المجتمع عن طريق التزواج مع الجاليات الأخرى(1) وبخاصة الجالية المغربية، وواضح تمامًا أنهم كانوا منفتحين على بقية طوائف المجتمع، ولم يحاولوا أن يفرضوا على أنفسهم عزلة اجتماعية[639].

كما كان لهؤلاء المهجرين تأثيرهم في المجتمع السكندري/ المصري من الناحية الثقافية، وهو أمر نلمسه حتى يومنا، ومما يدل على التأثير الثقافي لهؤلاء المهجرين الأندلسيين أن اللهجة الأندلسية المغربية لا تزال غالبة على أبناء المجتمع السكندرى، من ناحية أخرى، فإن الثقافة الصوفية التي انتشرت في الإسكندرية كانت على يد متصوفة أندلسيين، خاصة، وأن معظم مقامات الأولياء الصالحين القائمة في الإسكندرية هي لأولياء من أقطاب المتصوفة الأندلسيين[640]، بالإضافة إلى ذلك فإن عدداً كبيراً من أولياء المغرب، والأندلس انثالوا على صعيد مصر، حتى إن حوالي 80٪ من أولياء مدن الصعيد المختلفة ممن ورد ذكرهم في كتاب «الطالع السعيد» للإدفوي كانوا من المهاجرين من الأندلس أو المغرب ، أما أهم الطرق الصوفية الوافدة فهي طريقة الإمام أبي الحسن الشاذلي الذي وُلد في إحدى قرى «الريف» في شمال المغرب، ووفد إلى مصر، ومعه جملة من مريدية، فاستوطنوا الإسكندرية في نحو سنة 642هـ، وإذا كان الشيخ قد توفي بعيدًا، وهو في طريقه للحج في سنة 656هـ، فإن أبرز تلاميذه، أبا العباس المرسي، اتخذ من الإسكندرية مقرًّا له، وبها

توفي سنة 686م، وغني عن القول أن المرسي أبا العباس أصبح يُعد حتى اليوم راعي الثغر الشمالي، ووليها الأكبر، وسرعان ما أصبحت الطريقة الشاذلية أوسع الطرق الصوفية انتشارًا في مصر، وفي بلاد المغرب، وتفرعت منها فروع كثيرة ترجع كلها إلى ابن عطاء الله أو إلى ياقوت العرشى تلميذ أبي العباس المرسي أيضًا، ومنها في مصر الوفائية، والإدريسية، والحامدية، والمرغنية، وغيرها، وفي المغرب الزروقية، والجزولية، وغيرها[641].

هكذا نرى أنه كان لأبناء الأندلس الذين أتوا مصر منذ مطلع القرن السادس عشر، على إثر انهيار الدولة الإسلامية فيها عام 1492م، تأثيرهم على مختلف نواحي الحياة في المجتمع المصري بعامة، ومجتمع الإسكندرية بصفة خاصة.

وفي ختام هذا الفصل يمكننا أن نستنتج ما يلي:

– خلال عملية النفي، وما رافقها من قساوة شعر الأندلسيون بالمرارة؛ لأنهم تركوا أراضيهم، وأراضي أجدادهم التي عاشوا فيها ما يزيد على تسعة قرون من الزمن وارتبطت بها ذكرياتهم، وبنوا فيها حضارتهم، ومجدهم الغابر.

– رافق الشعور بالمرارة الشعور بالخلاص، لأن الأندلسيين أصبحوا أحرارًا في المغرب العربي، وعادوا إلى الإسلام، وأخذوا يمارسون عباداتهم، وعاداتهم دونما رقيب أو عقوبات.

– تمت عملية النفي بقساوة، ووحشية، وتعرض الأندلسيون المنفيون إلى مهاجمة العصابات الإسبانية التي نهبتهم مرة، وقتلتهم مرات أخرى، في حين مات الكثير من المنفيين، بسبب المرض أو الجوع أو البرد، كما قام الجنود الإسبان أيضًا بسبي النساء، والأطفال، وباعوهم رقيقًا[642]، وقد وُصفت عملية النفي عامة بأنها من أكثر القصص المؤلمة في التاريخ، بل من العسير العثور على نظيرها في أحداث العصور الوسطى أو الحديثة، وأنها من أشنع الأفعال، وأكثرها بربرية في التاريخ البشري[643].

– أن الغالبية الساحقة من الأندلسيين المنفيين أُبعدوا إلى المغرب العربي، وفي هذا

يقول المقري: «فخرجت ألوف بفاس، وألوف أخر بتلمسان من وهران، وجمهورهم خرج بتونس»، هذا فضلًا عن أن قسمًا غير قليل ممن هُجروا إلى أماكن أخرى التمسوا شتى السُبل للالتحاق بالأخوة في المغرب العربي، في حين وجد قسم من المنفيين ضالتهم في أماكن أخرى من دار الإسلام مثل، مصر، والشام، والقسطنطينية.

- إن تنفيذ قرار التهجير لم يَجْرِ دائمًا في يسر، وسهولة، حيث رفض بعض الأندلسيين من سكان المناطق الجبليةِ الانصياع لأوامر الحكومة لانعدام الثقة بها، وفضلوا المقاومة، فتصدت لهم قوات الحكومة، وقتلت منهم بضعة آلاف، واستسلم الباقون، وحُملوا قسرًا إلى ميناء السفر، ورحلوا إلى شواطئ المغرب[644].

- استغرقت عمليات التهجير حوالي سبع سنوات،فهي لم تنتهِ حتى سنة 1615م؛ مما يؤكد شمولية القرار لعموم الأراضي الإسبانية من جهة، وجسامة عدد الأندلسيين المهجرين من جهة أخرى.

- لم يمضِ وقت طويل على تهجير الأندلسيين حتى أحس الإسبان بالخسارة بسبب الفراغ، الذي تركوه في الميدان الاقتصادي عمومًا، والزراعي منه على وجه الخصوص، حيث انخفض الإنتاج الزراعي، وخربت الأراضي، كما أدى تهجير الأندلسيين إلى انخفاض عدد السكان، وتضاءلت موارد الخزينة؛ لأنها خسرت الضرائب الباهظة المفروضة على الأندلسيين، وفي العموم؛ فإن تهجيرهم حرم إسبانيا ثروات عقلية، وفنية في مختلف ميادين الحياة.

- وجد الأندلسيون المهجرون في المغرب العربي العطف، والترحاب، ومد إليهم يد العون، والمساعدة لاسِيما في تونس، حيث استقر جمهورهم، وقد «أوسع لهم عثمان داي» حاكم تونس في البلاد، وفرق ضعفائهم على الناس، وأذن لهم أن يعمروا حيث شاؤوا، فاشتروا الهناشير(نوع من الأراضي الزراعية)، وبنوا فيها، واتسعوا في البلاد، فعمرت بهم، واستوطنوا عدة أماكن، ومن بلدانهم المشهورة سليمان وبلي ونيانو وقرنبالية، وتركي، والجديدة، وزغوان، وطبرية، وقريش، ومجاز الباب، والسلوقية، وتستور؛ وهي من أعظم بلدانهم، وأحضرها، وتطوان، وسلا، والقلعة… وغير ذلك، بحيث تكون عددها أزيد من عشرين بلدًا، فصارت لهم مدن عظيمة،

وغرسوا الكروم، والزيتون، والبساتين، ومهدوا الطرقات بالكراريط للمسافرين، وصاروا يعدون من أهل البلاد[645]، وعن الترحيب يقول ابن أبي الضياف: «وفي سنة ستة عشر وألف، قدمت وفود من الأندلس فارين بدينهم، لما أُخذت بلادم، فأحسن عثمان داي قِرَاهم، وأكرم مثواهم، وآنس غربتهم، وعظم مقدمهم، وحثّ أهل الحاضرة على إكرامهم، وآخى بينهم، وبين أهل مملكته، وأقطعهم ما اختاروا من الأرض، وكان ذلك إثر الطاعون، فبنوا بالحاضرة حومة الأندلس، وجامعها، وأوقفوا عليه أوقافًا نافعة، وبنوا المدرسة الأندلسية قرب سيدى يونس شيخ سيدي محرز، وتمت أربعًا وثلاثين وألف، وأول مدرس بها الشيخ شعبان الأندلسي من أعيان علمائهم، وأوقفوا عليها الأوقاف»[646]، وبعد أن يذكر مدنهم، وما غرسوا من الغروس، وما مهدوا من الطرق يقول ابن أبي الضياف: «وأعانهم عثمان داي على صناعة الشاشية التي كان لها سوق نافع في كثير من البلدان، وقد كانت ضعيفة زمن الحفصيين، وحصل للحاضرة من هذه الصناعة ثروة واسعة؛ لأن صناعتها تدير صناعات كثيرة، ونظم شيخ الأندلس في سلك أعيان المملكة»[647]، وقد أكدت الوثائق، والدراسات الحديثة صحة هذه المعلومات، وبيَّنت المكانة الاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية للأندلسيين في تونس.

– لم يقتصر الترحيب بالأندلسيين في تونس فقط، بل نجده في كل أرجاء المغرب العربي، ولاسِيما المناطق الساحلية؛ حيث استقروا، ومارسوا حياتهم الاعتيادية، وأغنوا الحياة المغربية بروافد، وخبرات جديدة، وتركوا بصماتهم في الميادين العسكرية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية، والعمرانية، وغيرها.

– لا يوجد اتفاق بين المؤرخين حول عدد الأندلسيين المهجرين أو الذين هاجروا من إسبانيا منذ سقوط غرناطة سنة 1492م وحتى 1615م، وقد تراوحت التقديرات التي أوردها المؤرخون الإسبان، والرحالة الأجانب الذين زاروا إسبانيا بعد استكمال عمليات النفي والتهجير بين مئات الآلاف وبضعة ملايين[648]، إن هذا الاختلاف الكبير في التقديرات دليل على عدم دقة الأرقام، وعدم توفر الإحصاءات الأكيدة، والصحيحة للمهاجرين أو المهجرين؛ أما الرواية العربية الإسلامية، وإن

كانت مُقلة، إلا أنها ذكرت بعض الأرقام عن عدد المُهجرين الأندلسيين؛ فقد ذكر المقري الذي عاصر الأحداث «أن ألوفًا منهم خرجت بفاس، وألوفًا أخرى بتلمسان، وجمهورهم خرج بتونس»، في حين قدر محمد بن عبدالرفيع مؤلف كتاب «الأنوار النبوية في آباء خير البرية»، وهو من الأندلسيين الذين هاجروا إلى تونس قبل عملية التهجير القسري بقليل، عدد الأندلسيين المهجرين بما ينيف على ستمائة ألف نسمة كبيرًا وصغيرًا[649].

وعلى هذا فإن الرواية العربية الإسلامية تقدر الأندلسيين المهجرين بالآلاف، وليس بالملايين، كما تقدرهم بعض الروايات الأجنبية، وأن أرقام الرواية العربية الإسلامية هي الأقرب إلى الصحة؛ بسبب معايشتها للأحداث، وقياسًا بالأماكن التي استوطنها الأندلسيون في المغرب العربي، والمدن، والقرى التي بنوها هناك، وإذا ما أضفنا إلى هذه الأرقام التي ذكرتها الرواية العربية عن أعداد المهجرين، الأرقام التي ذكرتها نفس الرواية عن الذين هاجروا طوعًا منذ سقوط غرناطة، وحتى انتهاء عمليات النفي أيام الملك فيليب الثالث فإنها، ولا شك سوف تتضاعف، مما يؤكد ضخامة الأعداد التي هاجرت إلى المغرب العربي، وحجم المأساة التي تعرض لها الأندلسيون.

- أن هجرة الأندلسيين، وتهجيرهم إلى المغرب العربي أدى إلى حدوث ظاهرتين أساسيتين، الأولى: مساهمة الأندلسيين الجادة في النهوض الحضاري الذي أصاب بلدان المغرب العربي في مختلف ميادين الحياة؛ لأن الأندلسيين نقلوا معهم خبراتهم، وثقافتهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، وقاموا بتوظيفها في موطنهم الجديد، الثانية: هي تنشيطهم لحركة الجهاد البحري ضد الإسبان، والبرتغاليين الذين كانوا يغيرون على السواحل المغربية، ويلحقون بأهلها الأذى، وقد كان لجهاد الأندلسيين، وحماسهم في هذا المجال دوره الفاعل في الحد من هذه الهجمات، وفي إحباط الكثير منها، فضلًا عن مساهمتهم في الهجوم على السواحل الإسبانية كما بيَّنا.

- يمكن أن نلمس من المقاومة الموريسكية الأندلسية (السياسية، الدينية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية) محاولة هؤلاء محافظتهم على جنسهم وفق دراسة،

وفن، وعلم لحالهم.

- كما أن فتح الجزائر لأراضيها في وجه الهجرات الموريسكية الأندلسية قد خلق تأزمًا، ووفر أسبابًا للتدخل الإسباني، فكان بهذا إشعال جذوة الصراع، والعداء طيلة العهد العثماني، فولَّد أثرًا سياسيًّا في وقوف دولة في الضفة الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط لإيوائها هؤلاء اعتبر في نظر الإسبان تدخلًا في الشئون الداخلية الإسبانية، وهناك أثر عسكري تجلى في ردود فعل الإسبان تجاه سياسة الجزائر المتعاطفة مع الموريسكيين الأندلسيين تمثَّل في الحملات العسكرية الإسبانية على الجزائر ابتداء باحتلال المرسى الكبير 911هـ/ 1505م، وانتهاء بإجلائهم من مدينة وهران 1206هـ/ 1792م.

- لعل مشروع عثمنة المغرب الإسلامي خلال النصف الأول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي جاء كأثر من آثار القضية الموريسكية الأندلسية، حاولت إسبانيا من خلاله ضرب المغرب الإسلامي، ثم إن بروز البحارة الموريسكيين الأندلسيين الذين اعتبروا قوى بحرية جديدة في بداية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي.

- أن المساعدات العسكرية التي قدمها الموريسكيون الأندلسيون في صراع الجزائر مع إسبانيا سواء داخليًّا أو خارجيًّا، مكَّن الجزائر من أن تلعب دورها الريادي، والحاسم في نفس الوقت مغربيًّا آنذاك، في الاختيارات الاستراتجية، والسياسية، والفكرية لكل الفضاء المغربي خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر ميلادي.

- أن المشكلة الموريسكية؛ لم تلقِ بظلالها على بلاد المغرب سياسيًّا فحسب، بل كان لها آثار سياسية دولية؛ فمختلف الثورات الموريسكية الأندلسية أعطت بُعدًا جديدًا لحركة الإسبانيين، وحتم عليهم خلق أرضية جديدة في النشاط الذي تزعمته إسبانيا، والبابا؛ الذي كان وراء الحلف المقدس، ومعركة «ليبانتو» 979هـ/ 1571م، أدت بدورها إلى احتلال تونس بصورة فعلية، وطرد العثمانيين منها سنة 981هـ/ 1573م، وهذا ما يؤكد أحداث البحر الأبيض المتوسط، وتأثيرها المباشر

على مصيرية الدول جميعها[650].

- أن خروج الموريسكيين الأندلسيين من إسبانيا جعل إسبانيا تحت الفقر، والتدهور المالي، والاقتصادي، الأمر الذي جعلها تقبض بيد من حديد على مستعمراتها الجزائرية، كوهران، والمرسى الكبير؛ مما كان له آثار؛ منها: تضرر اقتصاديات دولة بني زان، وتراجع الموانئ التجارية الجزائرية اقتصاديًّا كهنين، ومستغانم، وتنس، وبجاية، ومدينة الجزائر[651].

الخاتمة

عسير التفكير في الأندلسيين، ومصيرهم دون الإحساس بنوع من الرهبة لسببين رئيسيين: أولهما أن ضياع الأندلس كان شاملاً، وكأنهم لم يعمروا شبه الجزيرة الأيبرية، ولا فتحوا أجزاء شاسعة من فرنسا، ولا كانوا أعظم شعوب الأرض ذات يوم، وثانيهما ما حدث للأندلسيين يمكن أن يتكرر ثانية ليس في مكان ما من أطراف الوطن العربى، وإنما في وسطه، ومركزه.

وكما بدأت الأندلس ثغرا من ثغور الجهاد، فإنها انتهت ثغرا قصيا، وبعد تسعة قرون من الانجازات الهائلة، والهزائم الهائلة انضم الأندلسيون إلى شعوب بائدة أخرى مثل الفراعنة قبلهم، والأزتك، والانكا من بعدهم، وخذلهم العرب، والعثمانيون لم يقدموا كل ما في وسعهم لإنقاذ الأندلس.

وعند الحديث عن الأندلسيين يتناول شعبًا كاملًا كان أرفع شعوب الأرض حضارة، وأقدرها على الاستمرار وسط كل الظروف السلبية التي فرضوا بعضها على أنفسهم أو قدمها احتلال الأخوة في الإسلام، أو جاءت نتيجة تدفق أمم أوروبية من الورعين المجاهدين أو المرتزقة الذين أعمت ثروة الأندلس أبصارهم، وحوّل الجشع خوفهم إلى قوة.

وربَّ قائل أن تناحر الأندلسيين، ونزعة حكامهم للاحتفاظ بملكهم، بغض النظر عن السبل، هو السبب في سقوط الأندلس، وتبدد شعبها؛ وقائل أن الأندلس قامت كيانًا غريبًا عن محيطه، فكانت جزيرة وسط بحر لم يكن يحتمل دينًا غير النصرانية أو شعبًا غير الأوربيين؛ وقائل أن انفصال الأندلس عن بقية الوطن العربى حمل إليها بذور الفناء، أو أن تلك الدولة ما كانت لتستمر قوية بعد أن ضعف الوطن العربى، وتناهشته الشعوبية، والمؤامرة، وتكالب أعدائها عليه من كل جانب، وربما

زعم آخرون أن الأندلسيين أخفقوا لأنهم كانوا مستعمرين، وكان عليهم الجلاء عندما توفر لشمال النصرانى العزم على طردهم، أو أن الوجود الإسلامي في شبه جزيرة أيبريه كان تجربة نمت، وتقوت، واستمرت، وأنجزت، ثم هبطت، وخارت قواها عندما تخلت عن الأسس التى قامت عليها.

ولكن لماذا استمرت السيطرة الإسلامية على الدولة العثمانية، والقسطنطينية، وزالت عن الأندلس، لماذا يكون الجرمان أهل البلاد الأصليين، وهم لم يمكثوا في الأندلس ثلث عمر سيرة الأندلسيين في شبه الجزيرة؟ ولماذا يكون لسكان قمم فنترية مالم يسمح به لأهل وديان الجنوب؟ وهى مجرد أسئلة لن تعيد الأندلس، ولن تلم شمل أهلها، ولكنها تساهم في رسم صورة المأساة التي لم يعرف الوطن العربي مأساة بحجمها من قبل، وقد لا يعرف مأساة مشابهة لو تنبه المخلصون اليوم، واختلاف الأسئلة، والإجابات لا ينفي حقيقة واضحة، وهى أن الأندلس العربية الإسلامية تقوضت، كما سبق، وتقوضت كل الممالك، والامبراطوريات التي عرفها العالم منذ أقدم العصور، فلم يكن هناك مخطط للفتح العربي، ولم يكن هناك مخطط مسبق لانحساره عن الأندلس أو بلاد فارس، وغيرها من المناطق، والأمم التى خضعت في فترة من تاريخها للسلطة العربية الإسلامية، وإذا كانت الإجابة عن سبب صعود دون غيره صعبة، فإن العثور على إجابة عن سبب هبوطه أكثر صعوبة، غير أن بعض الشعوب تضع السيف جانبًا في مرحلة من مراحل تطورها لتبني الحضارة، وحين يتوقف زخم الاندفاعة الأولى يحدث التوقف، ثم الانحسار فيكثر الفساد، وتسترخي الأجسام، والهمم، ويستشري الضعف، وتزداد بساتين النارنج، وهي عند ابن خلدون إحدى سمات الهبوط، وحين تفتقد الحضارة إلى الوقود الذي تحتاج إليه لمتابعة نموها فإنها تنقلب على ذاتها، وتلتهم نفسها قطعة قطعة، وتعطى أعدائها فرصة النمو، وابتلاع ما تبقى منها، ويتعجل هذه النهاية انفراد الحكام بالسلطة، واضطهادهم لشعوبهم؛ فيفقدوا مقومات الاستمرار، وينغمسوا في الرذيلة، والتفسخ.

هذه قصة الأندلس مليئة بأخبار الانتصارات، والهزائم، سوداء، وبيضاء، أما سيرة الأندلسيين الموريسكيين؛ فهي سوداء قاتمة منذ استسلام غرناطة، وحتى

القرن الثامن عشر، ولكنها ليست قصة استكانة، وضعف بل قصة مقاومة استمرت عشرات السنين، وتصدت لأغنى قوى الأرض في القرن السادس عشر، وبطش بهم أهل قشتالة شَر بطشة فاستبعدوهم، وأذلوهم، وأحرقوهم، ولكنهم لم يتمكنوا من إذابة الجميع، وحمل الموريسكيين السلاح مرتين ليدافعوا عن وجودهم، ومواطنيتهم، ودينهم، وعروبتهم، وحين أخفق القشتاليون في قهرهم تمامًا لجأوا إلى نفيهم؛ فكان في ذلك سقوط الامبراطورية الإسبانية.

وفي مدينة قلعة أيوب اليوم حي يقال له حي المواركة (Moriria) لا يشعر بعض أهل المدينة برغبة في إرشادك إليه، وحين تصل إلى الحي فإنك ستجد مجموعة كبيرة من المساكن المبنية في الكهوف كانت بعض المناطق التى عاش فيها الأندلسيون الموريسكيين، وهذا الحي إضافة لأحياء مشابهة كثيرة، يقدم فكرة صغيرة عن نوع الحياة التى عاشها الموريسكيين في أرضهم ، ولكن صورة الاضطهاد الحقيقية غامضة شوهتها السنين، وأقلام المؤرخين، وبقيت تفاصيل قليلة تشهد بقسوتها، ولكن العنف لا يولد إلا العنف، وإذا قَل عدد النصارى في المغرب العربي، أو انعدم وجودهم فيه، فإن الإجابة على هذه الظاهرة موجودة في إسبانيا، حيث لم تبق السلطات القشتالية المتعاقبة على مسلم.

وأيًا كانت النظرة إلى التاريخ الأندلسي الموريسكي، فإن الخسارة ماثلة فيها، فهناك فقد الوطن العربي دولة تكاد تكون، لاتساعها، وأنارها، وخيراتها، معادلة لنصف أراضي الفتح العربي، وفقد أرضًا ربما تحتم فقدانها لكي يحفظ المشرق وحدته، أما أوقع الخسائر، فكان تضييع شعب بكامله : « ليس هناك فناء أكمل من فناء الإسبان (الأندلسيين الموريسكيين)، أين هم الآن؟ أسالوا سواحل المغرب، وصحاريها، اختفت البقية المتبقية من تلك الامبراطورية العظيمة يومًا بين سكان أفريقيا، وتوقفت عن كونها أمة، ولم تترك مجرد اسم واضح خلفها، رغم أنها كانت أمة واضحة المقومات طوال ثمانية قرون، الوطن الذي تبناهم، واحتلوه فترة طويلة من الزمن يرفض أن يعترف بهم إلا غزاة مغتصبين، وبضعة آثار باقية اليوم هي كل ما خلفوه ليشهد على قوتهم، وسلطانهم، تمامًا كما الصخرة العاتية في الداخل البعيد

تشهد بحجم الطوفان الضخم المحيط بها، وهذه هى الحمراء! نصب إسلامي وسط أرض مسيحية، قصر شرقي بي واجهة قوطية من الغرب، لحظة رشيقة لشعب شجاع ذكي، غزا، وحكم، وتطور، ومضى.

ولم يكن حظ الأندلسيين الموريسكيين في بلاد المنفى أفضل في بعض الحالات من حظهم في وطنهم المطرودين منه، ونترك وصف ذلك للمقري: « فتسلط عليهم الأعراب، ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات، ونهبوا أموالهم، وهذا ببلاد تلمسان، وفاس، ونجا القليل من هذه المعرة، وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم، وهم لهذا العهد عمروا قُراها الخالية، وبلادها، وكذلك بتطاوين وسلا، ومتيجة (وقيجة) الجزائر، ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكرًا جرارًا وسكنوا سلا، وبنوا بها القصور، والدور، والحمامات، وهم الآن بهذا الحال، ووصل جماعة إلى القسطنطينية العظمى، وإلى مصر، والشام، وغيرها من بلاد الإسلام، وهم لهذا العهد على ما وصف، والله وارث الأرض، ومَن عليها، وهو خير الوارثين[652]».

الملاحق

ملحق رقم(1): رسالة توضح الوضع السياسي في الأندلس[653]:

شكر هذه النعمة التي إن سلطت عليها قوى البشر فضحتها، ورجحتها، ورأينا سر اللطائف الخفية كيف سريانه في الوجود، وشاهدنا بالعيان أنوار اللطائف الإلهية، والجود، وقلنا: إنما هو الفتح الأول شفع بثانٍ، وقواعد الدين الحنيف أيدت من صنع الله تعالى ببنيان، اللهم لك الحمد على نِعمك الباطنة، والظاهرة، ومِننَك الوافرة، إنك ولينا في الدنيا، والآخرة، انتهى.

❋ رسالة توضح ضيق حال الأندلس:

ومن إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى من أخرى مما يتعلق بضيق حال المسلمين بالأندلس ما صورته:

وإن تشوفتم إلى أحوال هذا القطر، ومَن به من المسلمين، بمقتضى الدين المتين، والفضل المبين، فاعلموا أننا في هذه الأيام ندافع من العدو تيارًا، ونكابر بحرًا زخارًا، ونتوقع - إلا إن وقى الله تعالى - خطوبًا كبارًا، ونمد اليد إلى الله تعالى انتصارًا، ونلجأ إليه اضطرارًا، ونستمد دعاء المسلمين بكل قطر استعدادًا به واستظهارًا، ونستشير من خواطر الفضلاء ما يحفظ أخطارًا، وينشئ ريح روح الله طيبة معطارًا، فإن القوم الأعظم قيوم دين النصرانية الذي يأمرها فتطيع، ومخالفته لا تستطيع، رمى هذه الأمة الغريبة المنقطعة منهم بجراد لا يسد طريقها، ولا يحصى فريقها، التفت على

أخي صاحب قشتالة وعزمها أن تملكه بدله، وتبلغه أمله، ويكون الكل يدًا واحدة على المسلمين، ومناصبة هذا الدين، واستئصال شأفة المؤمنين، وهي شِدة ليس لأهل هذا الوطن بها عهد، ولا عرفها نجد، ولا وهد، وقد اقتحموا الحدود القريبة، والله تعالى ولي هذه الأمة الغريبة، وقد جعلنا مقاليد أمورنا بيد من يقوي الضعيف، ويدرأ الخطب المخيف، ورجونا أن نكون ممن قال الله تعالى فيهم (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) (آل عمران: 173).

ملحق 2:
إتفاقية تسليم غرناطة (*)

- إن أول وثيقة ضمن وثائق القضية الموريسكية - سواء من حيث الترتيب الزمني، أو من حيث كونها الأساس الذي بنيت عليه المشكلة برمتها - هى العهد الذي أعطاه الملكان الكاثوليكيان لمسلمي غرناطة بعد استسلامهم في نهاية عام 1491م ، وبعد أن انتهت عشر سنوات من الحروب خاضتها آخر معاقل السلطة الإسلامية في إسبانيا .

- هذه الاتفاقية التى كانت سخية بالنسبة للخاضعين تؤكد على منح المسلمين حرية ممارسة شعائرهم، وشريعتهم، ولغتهم، وعاداتهم .

- لم تُحترم هذه الاتفاقية إلا لمدة وجيزة، كانت نصوص الاتفاقية على النحو التالي [654] :

- يتعهد ملك غرناطة، والقادة، والفقهاء، والوزراء، والعلماء، وكافة الناس، سواء فى غرناطة في البيازين، وأرباضهما بأن يسلموا طواعية، واختيارًا - وذلك فى ظرف ستين يومًا تبدأ من تاريخ هذه المعاهدة - قلاع الحمراء، والحِصن، وأبوابها، أبراجها، وأبواب غرناطة، والبيازين إلى الملكين الكاثوليكيين، أو إلى من ينيبه من رجالهما، على ألا يُسمح لنصراني أن يصعد إلى الأسوار القائمة بين القصبة، والبيازين بحيث يكشف أحوال المسلمين، وأن يعاقب من يفعل ذلك .

- وبعد مضي أربعين يومًا يخضع كل المسلمين طواعية لجلالة الملك الكاثوليكي، ويؤدون ما يجب عليهم تأديته كرعايا مخلصين لملكهم الطبيعي.

- وضمانًا لسلامة هذا التسليم يقدم الملك مولاي أبو عبد الله، والقادة المذكورون إلى الوزير يوسف بن كماشة قبل تسليم الحمراء بيوم واحد خمسمائة شخص من أبناء،

وأخوة زعماء غرناطة، والبيازين، ليكونوا رهائن في يدي صاحب الجلالة لمدة عشرة أيام ريثما تسلم الحصون، ويتم توزيع الرجال، والمؤن عليها، وفى أثناء تلك الفترة يقدم لهم ما يحتاجونه من أطعمة، ثم يطلق سراحهم .

- بعد أن يتم تسليم قصر الحمراء، والحصن يتعهد الملكان الكاثوليكيان، وابنهما الأمير خوان بالأصالة عن أنفسهم ، وبالنيابة عن خلفائهم إلى الأبد، بقبول الملك أبي عبد الله، والقادة، والبيازين، وأرباضهما، وقراهما، والبشرات، وجميع الأراضي التي تتضمنها هذه المعاهدة كرعايا طبيعيين، وأن يؤمنوا على بيوتهم، وأموالهم، وثرواتهم الكائنة الآن والتي قد تؤول إليهم مستقبلاً، وألا يحدث بهذه الممتلكات أي ضرر، إلا بسبب، وإلا طبقًا للقانون، وألا تصادر أموالهم أو جزء منها بل ستحترم ممتلكاتهم، وسيكونون موضع احترام رعايا جلالة الملك مثل سائر المواطنين الذين يعيشون تحت حكم جلالته.

- حينما يرسل صاحبَا الجلالة رجالهما لتسلُم قصر الحمراء، فسيأمرون من يرسلونه بالدخول من باب العشار، أو من باب نجدة، أو عن طريق الحقول الخارجية، وذلك حتى لا يؤدي سيرهم فى شوارع المدينة إلى إثارة المشاعر.

- يوم أن يقوم الملك أبو عبد الله بتسليم الحصون، والأبراج، يرد إليه ابنه، ومعه سائر الرهائن، والنساء، والخدم عدا أولئك الذين اعتنقوا المسيحية.

- يتعهد الملكان، وخلفائهما إلى الأبد بأن يُترك الملك أبو عبد الله، والقادة، والقضاة، والعلماء، وعامة الشعب كبارًا وصغارًا على دينهم، وألا يؤخذ شيء من مساجدهم، ومآذنهم، وألا تمس أوقافهم المخصصة للمساجد، وألا يجبروا على ترك عاداتهم، وتقاليدهم.

- أن تتم محاكمة المسلمين وفق شريعتهم الخاصة بهم، وأن يحكم بينهم قضاتهم.

- ألا تُصادر منهم - الآن، ومستقبلاً - أسلحة أو خيول، أما المدافع الصغيرة، والكبيرة فعليهم تسليمها إلى الأشخاص الذين يحددهم صاحب الجلالة.

- جميع المسلمين كبيرًا وصغيرًا، رجالاً ونساءً من غرناطة أو من البشرات، أو

من أي مكان آخر، إذا أرادوا الرحيل إلى بلاد البربر، أو إلى أي مكان آخر يريدونه، يستطيعون بيع ممتلكاتهم، وأثاثهم بالشكل الذي يريحهم، وإلى الشخص الذي يرغبون في التعامل معه، ولن يسلب الملك أو خلفاؤه - ولن يدعون أحداً يسلب منهم شيئًا من الذين اشتروا ممتلكات المسلمين، وإذا أراد صاحبَا الجلالة شراء شيء، فيمكنهما ذلك مع دفع ثمنه المقدر، وفى حالة عدم تواجدهما، فيمكنهما تفويض أشخاص فى ذلك.

- يقدم صاحب الجلالة إلى المسلمين الذين يريدون الرحيل إلى بلاد البربر ، أو إلى أي مكان آخر وسيلة سفر آمنة لهم، ولأسرهم، ولمتاعهم، وحُليهم، وأسلحتهم عدا الأسلحة النارية، ومن يريدون السفر بعد ذلك سيجهز لهم صاحبا الجلالة عشر سفن كبيرة ترسو في الموانئ التي يحددونها في غضون ستين يومًا، وتحملهم آمنين إلى موانئ بلاد البربر التي كانت تذهب إليها سفن التجار المسيحيين، وبالإضافة إلى ذلك، فإن كل من يريد الرحيل إلى بلاد البربر بعد مضي ثلاث سنوات يمكنه ذلك، وسيقوم صاحبي الجلالة بإرسال السفن إلى حيث يطلبون، وسيرحلون آمنين، على أن يطلبوا ذلك قبلها بخمسين يومًا، ولن تُحصل منهم رسوم مقابل الرحيل.

- بعد بعد مضي الأعوام الثلاثة المذكورة يستطيع المسلمون العبور إلى بلاد البربر كلما أرادوا ذلك، وسيصدر لهم تصاريح مقابل دفع دوكية واحدة للشخص الواحد بالإضافة إلى نفقات السفر .

- إذا لم يتمكن المسلمون الراغبون في الرحيل من بيع أملاكهم الواقعة في غرناطة، و البيازين، وأرباضهما، والبشرات، وأماكن أخرى، فيمكنهم أن يعهدوا إلى أشخاص آخرين بإرادتها، وأن يتمكن الوكلاء من إرسال ريع الممتلكات إلى أصحابها في بلاد البربر، أو حيثما كانوا دون أن يُمنعوا من ذلك.

- الخلافات التي تنشأ بين المسلمين يُفصل فيها حسب قوانينهم، وشريعتهم التي يتبعونها، ويفصل فيها قضاتهم كما جرت العادة، وإذا كان النزاع بين مسيحي، ومسلم يفصل فيه قاضيان أحدهما مسيحي، وآخر مسلم حتى لا يعترض أحد على الحكم.

– لا يعاقب القاضي مسلمًا على فعل ارتكبه شخص آخر، ولا يسجن الأب بذنب الابن، ولا الأخ بذنب ارتكبه أخوه، ولا يسجن شخص بسبب فعل ارتكبه قريب الشخص الذي ارتكب الجُرم

– يصدر صاحبا الجلالة عفوًا عامًا عن كل المسلمين الموجودين في سجن حامد من رعاياهما – وكذلك عن مسلمي كبديل عن جرائم القتل التي ارتكبت ضد المسيحيين، أو عن عصيان أوامر صاحبي الجلالة، فلن يلحق بهم أذى مما سلبوه أو سرقوه .

– إذا كان هناك أسير مسلم في حوزة مسيحي، وهرب إلى مدينة غرناطة أو إلى مدينة تشملها هذه الاتفاقية يصير حُرًا، ولا يُطالب به من كان يملكه، ولا يطلب القبض عليه؛ إلا إذا كان هذا المسلم من جزر الكنارى أو من زنوج الجزر الأخرى.

– يدفع المسلمون إلى صاحبي الجلالة ضرائب تزيد عما كانوا يدفعونه إلى الأمير.

– على كل سكان غرناطة، وما يتبعها، والبيازين، ممن عبروا إلى بلاد البربر العودة خلال الأعوام الثلاثة التالية، والتمتع بمضمون هذه الاتفاقية، وإذا كان هؤلاء الذين اصطحبوا معهم مسيحيين أسرى، وباعوهم هناك فلا يطالبوا بإحضارهم إلى الذين باعوهم به.

– ألا يأمر صاحبا الجلالة أو ابنهما الأمير خوان، ولا خلفائهما إلى الأبد رعاياهم المسلمين على ملابسهم شارات تميزهم كما يفعل اليهود.

– ألا يدفع الملك أبو عبد الله، ولا مسلمو غرناطة، والبيازين، وأرباضهما التي كانوا يدفعونها عن دورهم، وممتلكاتهم لمدة ثلاث سنوات، ولا يدفعوا سوى عشار الأرض عن شهر أغسطس، والخريف ، وعشار المائة لديهم وقت استحقاق العشار فى شهري أبريل، ومايو كما يدفع المسيحيون.

– عند تسليم المدينة، وتوابعها يقوم المسلمون بتسليم الأسرى النصارى بحوزتهم رجالاً كانوا أم نساء إلى صاحب الجلالة لكي يطلق سراحهم، وأسرى المسلمون على أي مقابل مادي لذلك، وإذا كان أحد المسلمين قد باع أسيرًا فى بلاد

البربر، فعليه أن يقسم على ذلك وفق شريعته، وأن يقسم على أنه باعه قبل توقيع المعاهدة، وبناء عليه لا يُطالب برد الأسير.

- يأمر صاحبا الجلالة، بألا يُسلب من الملك أبى عبد الله أو من القادة، والفرسان المسلمين دوابهم أو خدمهم لاستعمالها، إلا إذا كان ذلك عن رضا، ومقابل دفع أجر عادل.

لا يسمح للمسيحيين بدخول مساجد المسلمين التي يصلي فيها الفقهاء، ويعاقب من يفعل ذلك

- لا يسمح أصحاب الجلالة أن تكون لليهود سلطة على المسلمين يحصلوا منهم الضرائب.

- أن يُعامل الملك أبو عبد الله، والقادة، والقضاة، والفقهاء، والعلماء، والفرسان المسلمين من أبناء غرناطة، و البيازين، وأرباضهما، والبشرات، وقراها باحترام صاحبي الجلالة، ووزرائهما، وأن يُستمع إليهم باهتمام، وأن يحتفظوا بأداء صلواتهم، وشعائرهم، وأن يُسمح للفقهاء، والقادة بتحصيل حقوقهم، والتمتع بامتيازاتهم كما جرت عليه العادة؛ فمن العدل أن تحفظ حقوقهم.

- أن يأمر صاحب الجلالة بألا يُطرد ضيوف المسلمين، وألا تؤخذ منهم مؤن أو طيور أو ماشية أو متاع دون إرادتهم.

- إذا أراد المسلمون الذين دخلوا فى هذه الاتفاقية السفر إلى بلاد البربر بغرض التجارة، فستصدر لصالحهم التصاريح الخاصة، ينطبق ذلك على سكان قشتالة، وأندلوثيا دون أن يطالبوا بدفع مبالغ أو ضرائب أخرى كان المسيحيون يدفعونها.

- لا يسمح لأى شخص بإيذاء المسيحيين أو المسيحيات ممن أعلنوا إسلامهم فى توقيع الاتفاقية؛ سواء كان الإيذاء باللفظ أو بالفعل، وإذا كان مسلم قد تزوج بنصرانية أسلمت، فلا تجبر على العودة للمسيحية بدون رغبتها؛ بل تُستجوب فى حضور مسلمين، ومسيحيين، وتنفذ رغبتها، وسيفعل ذلك أيضًا مع الأطفال الذين ولدوا لأب مسلم وأم مسيحية.

– لا يُرغم مسلم، ولا مسلمة على إعتناق المسيحية، وإذا أرادت آنسة أو زوجة أو أرملة – لأسباب عاطفية – اعتناق المسيحية فلا يقبل منها ذلك إلا بعد استجوابها، وإلا كانت قد حملت معها ملابس أو مجوهرات من منزل والديها تُعاد الأشياء إلى أصحابها، وتُعاقب المذنبة .

– لن يطلب صاحبا الجلالة، ولا خلفائهما قط من الملك أبي عبد الله، ولا من أهل غرناطة، والأراضى التابعة لها ممن دخلوا فى هذه المعاهدة أن يردوا ما استولوا عليه أثناء الحرب من أجياد أو ماشية أو أمتعة أو ذهب أو فضة، سواء استولوا عليها من المسيحيين أو من مسلمي الممالك المسيحية، وإذا تعرف شخص ما على شيء كان قد أخذ منه، فليس له حق المطالبة به، بل يعاقب إذا طالب به.

– إذا كان أحد المسلمين قد قتل أو جرح مسيحيًا أو مسيحية من أسْراه، فلن يطالب بدمه أبدًا.

– بعد انقضاء فترة السماح، ومدتها ثلاث سنوات لن يدفع المسلمون عن أملاكها إلا ما يجب أن يدفعوه بالعدل طبقًا لقيمة وصفة هذه الأراضى.

– القضاة، والقادة، والحكام الذين سيُعينهم صاحبا الجلالة في غرناطة، وأراضيهما سيكونون من الشخصيات التي تحترم المسلمين، وتعاملهم بلطف، وتراعى بنود هذه المعاهدة، وإذا ارتكب واحد منهم فعلاً غير مناسب، فسيقوم صاحب الجلالة بتغييره، ومعاقبته .

– لن يسأل صاحبا الجلالة، ولا خلفائهما الملك أبي عبد الله أو أى شخص يدخل فى هذه المعاهدة، عن أى شيئ يكونوا قد فعلوه حتى يوم تسليم المدينة، والحصون.

– لن يولي على أهل غرناطة أحد فرسان أو أتباع الملك الزغل .

– صاحبا الجلالة – تفضلاً منهما على الملك أبي عبد الله، وأهل غرناطة، والبيازين، وأرباضهما – سيأمران بالإفراج عن كل الأسرى المسلمين – رجالاً، ونساءً – دون دفع أية فدية ممن هم في حوزة النصارى، ويكون الإفراج عمن يتواجدون فى أندلوثيا فى ظرف خمسة أشهر، ويكون الإفراج عن الأسرى الموجودين فى قشتالة في ظرف

ثمانية أشهر، وبعد يومين من إفراج المسلمين عن الأسرى النصارى الموجودين فى غرناطة سيأمر صاحبا الجلالة بتسليم مائتي أسير، وأسيرة من المسلمين، بالإضافة إلى ذلك، فإن صاحبا الجلالة سيفرجان عن ابن الدرعمي الموجود في حوزة غونثالو ايرنانديث دي كوردوبا، وعن هثمين الموجود في حوزة كونت تنديا، وعن رضوان الموجود في حوزة كونت كابرا ، وعن ابن المؤذن ، وعن نجل الفقيه خادمي، وكلهم من أعيان قرطبة ، كما سيفرجان عن الجنود الخمسة الذين أسروا في طريق إبراهيم بن سراج إذا عُلم مكانهم.

- يقوم جميع مسلمي البشرات الذين يدخلون في خدمة صاحبي الجلالة بتسليم الأسرى المسيحيين الموجودين في حوزتهم دون مقابل، وذلك خلال خمسة عشر يومًا، وإذا كان أحد الأسرى قد اتفق على مقايضته بأسير مسلم فسيأمر صاحبا الجلالة برد الأسير المسلم.

- يأمر صاحبا الجلالة باحترام عادات المسلمين الخاصة بالميراث، ويتولى قضاتهم الفصل فى مسائل الميراث.

- كل المسلمين الآخرين الذين يرغبون في خدمة صاحب، الجلالة يستطيعون الدخول فى خدمتهما، والتمتع بمزايا هذه المعاهدة - عدا فترة السماح، والتي مدتها ثلاث سنوات - وذلك خلال ثلاثين يومًا.

- أوقاف المساجد، والصدقات، والنفقات الأخرى التي تؤدَى إلى الكتاتيب، ومدارس تعليم الأطفال تُسلم إلى الفقهاء لكي يتولوا توزيعها كما يروْن، ولن يتدخل صاحبا الجلالة، ولا وزرائهما في ذلك أو في جزئية من ذلك، ولن يأمرا بالاستيلاء عليها فى أي وقت، وإلى الأبد.

- يؤمن صاحبا الجلالة سفن بلاد البربر التي ربما توجد في موانئ مملكة غرناطة بحيث تبحر بحرية، بشرط ألا تحمل معها مسيحيًا أسيرًا ، ويضمن صاحبا الجلالة ألا يتعرض أحد للسفن بأذى، ولا أن يسلب منها شيء، أما إذا كانت السفن مُبحرة أو تحمل معها أسرى مسيحيين فلا يسري هذا الضمان، ولذلك يجب تفتيش السفن عند رحيلها.

– لا يُجبر المسلمون على القيام بأعمال حربية ضد رغبتهم، وإذا أراد صاحبا الجلالة استخدام بعض الفرسان في نواحي أندلوثيا، فسيدفعان لهم أجرهم، منذ يوم الاستدعاء، وحتى عودتهم إلى منازلهم.

– يأمر صاحبا الجلالة باحترام قوانين مصادر المياه، والسواقي المعمول بها فى غرناطة، ولا يغيران هذه القوانين، ولا يأخذان شيئًا من هذه المصادر، وإذا فعل أحد ذلك أو ألقى شيئًا بداخلها يُعاقب على فعله.

– إذا هرب أسير مسلم إلى مدينة غرناطة، وتوابعها بعد أن ترك مسلمًا آخر مكانه كفدية يصبح حرًا، ولا يُلزم الأول أو الثانى بدفع فدية، ولا يتعرضان للمحاكمة.

– الديون، والإلتزامات المحررة بين المسلمين تدفع نقدًا، ولا تتأثر هذه الديون، والالتزامات بتغير صاحب السلطة، بل يدفع كل شخص ما عليه.

– تكون محال جزارة المسيحيين بعيدة عن محال جزارة المسلمين، ولا تختلط مراعي المسلمين بمراعي النصارى، وإذا فعل ذلك يعاقب على فعله.

– يتمتع يهود غرناطة، والبيازين، وأرباضهما، والبشرات بمزايا بنود هذه المعاهدة بحيث أن من لم يتحول منهم إلى المسيحية يمكنهم الرحيل إلى بلاد البربر فى ظرف ثلاث سنوات اعتبارًا من 8 ديسمبر الحالي.

– يلتزم صاحبا الجلالة بتنفيذ كل بنود هذه المعاهدة اعتبارًا من يوم تسليم حصون غرناطة، وقد أمرا بكتابة المراسيم الملكية الخاصة بذلك، والموقعة باسميهما، والمختومة بخاتميهما، وقد حررها سكرتيرهما الخاص إيرناندو دى ثافرا فى غويطة غرناطة بتاريخ 28 نوفمبرعام 1491م.

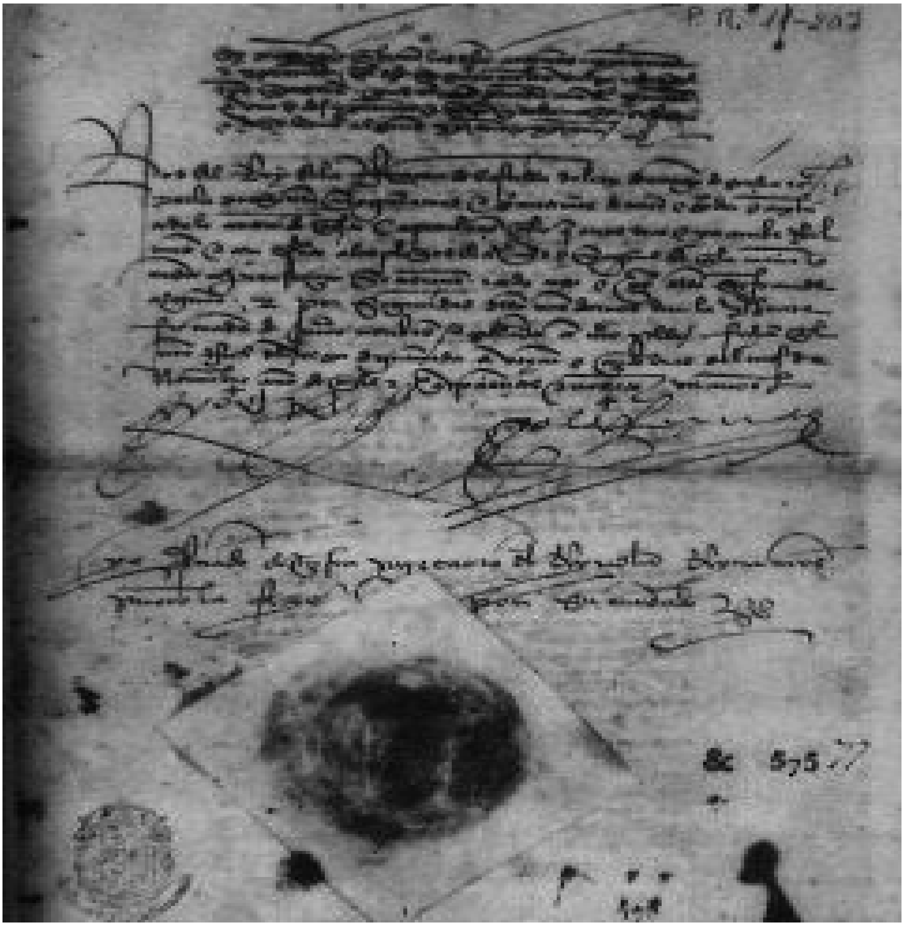

وثيقة المعاهدة بين أبي عبدالله الصغير - وفرناندوا وأيزابيلا

ملحق رقم3
رسالة من مسلمي غرناطة
إلى السلطان سليمان القانوني
سنة 1541م[655]:

الشكل رقم 1 . رسالة من مسلمي غرناطة الى السلطان سليمان القانوني سنة 1541 .
ارشيف متحف طوبي كابي رقم 3154 T. K. A.

السلطان سليمان القانوني، واستنجادهم به، وتذكيره ما قام به خير الدين الذي نجدهم عندما كان باي الجزائر.

إن هزيمة شارل الخامس أمام الجزائريين قد أضفت على هذه المدينة مغْزًا كبيرًا، ورمزًا للجهاد، والدفاع عن المسلمين باعتبارها: «سياج لأهل الإسلام، وعذاب لأهل الكفر، والطغيان.... وأصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة، والرعية المؤتلفة بها مؤتلفة أليفة»

اعتبر محرروا هذه الرسالة إن المدد المُرسل إلى الجزائر هو تعزيز لشوكة المسلمين، ولذا طالبوا السلطان باعادة تعيين خير الدين باشا على الجزائر، ليعمل من جديد على صد العدوان الإسباني، وإنقاذ مسلمي الأندلس، وهذا ما يؤكد مدى السمعة، والشعبية التي كان يتمتع بها خير الدين في الربع الثاني من القرن السادس عشر، تساهم هذه الوثيقة بما وفرته من معلومات ذات أهمية تاريخية على إلقاء أضواء جديدة على قضية الموريسكيين، هذه القضية التي لا نعلم عنها إلا ما نقلته الينا الوثائق الإسبانية المشبعة بروح التحزب الديني، والكره، والحقد على المسلمين أما الوثائق العربية أو التركية، فهي ضنينة جدًا، ولا تستجيب حقًا لتساؤلات المؤرخ العديدة.

نص الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم وعلى آله وصحبه يقبل مواطئ الأقدام الشريفة التي تراها، إذا مر بالعيون الرمدة أبراها، ورحاب الأكف الكريمة التي (كذا) عطاها، اذا مر بالأرض المملحة أثرها، أقدام شأنها السعي فى الخيرات، والقربات، وأكف شأنها فعل الخيرات، والمكرمات، أدام الله أيامها، ونصر أعلامها، وأوطاء(كذا) ركابها أعناق الملحدين، والمتمردين، وأنعشه فى كل وقت بنصر، وفتح مبين، نسأل (كذا) الله تعالى أن يجعله أركابًا لم يزل ممتطيًا مطايا السعد محفوفًا بالسعود، قطبًا للسيادة السلطانية عليه تدور، وبه تسودن، وأن يجعله دايما باقيًا راقيًا في درجات العز، والملك إلى آخر الدهر، مصونًا في حرز كنف الله الحريز، وأن يخرق له العادة بطول بقائه، وما ذلك على الله بعزيز، وركاب حضرة الجود، ورواق العز الممدود، ومعدن الرأفة، والحنان، وما من الخايف اللهفان، ومضمون إن الله يأمر بالعدل، والإحسان، حضرة فخر ملوك البسيطة، ودرة تلك السلوك الوسيطة، كبير سلاطين الزمان، منيل أفانين الأماني، والأمان، الملاذ الأعظم، والثمال الأعصم، ذي العروة التي (كذا) لا تفصم، والحجة التي (كذا) لا يخصم، الذي يعترف له القاصي والداني بالفضل على الأطلاق، يبوءه رتبة الأصالة، والجلالة بالاستحقاق، ولم لا، وهو نسيم الخلافة العلية في منصب الوراثة، وحايز الفضلية السنية من خدمة المساجد الثلاثة، وله ملك مصر، وأنهارها، والشام، وديارها، والحجاز وشرف مقدارها، وإلى حضرته مجتمع الرفاق من الآفاق، وإليها تحج الأجسام بالرحلة، والأفئدة بالأشواق، وعلى جمع تلك الحضرة العليا لمحاسن الدين، والدنيا، انعقد الأجماع، والأصفاق (كذا)، مولانا السلطان الملك الأشرف الأضخم الأرفع الأعرف الأعلم الأحلم الأرحم (كذا)، الأجود الأكرم الأسمح الأعطف، قامع الملحدين، وقاطع دابرة الطغات (كذا) والبغات (كذا) والمردة، والمفسدين، ممهد طريق الحج، والعمرة، والزيارة، الفايز بشرف الدين، والدنيا من الجهاد في سبيل الله، والسقاية في المسجد الحرام، والعمارة، مطهر البسيطة من درن فسادها، ومظهر آيات الرأفة، والرحمة في بلادها، سلطان الإسلام والمسلمين، عز الدنيا، والدين، وظل الله على الخليفة أجمعين

السلطان بن السلطان بن السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد بن محمد خان، مد الله ظلال النعمة بامتداد ظلاله، وضاعف لديه مواهب إكرامه وأفضاله، وأدام نجم سعده المنير باهر الإشراق، وجعل سهم ضده الحقير لازم الإخفاق، وحفظ بشهب أولياء مجده من مردة النفاق، جميع الأقطار، والآفاق، فهو الإمام الهمام، والأسد الباسل الضرغام، الذي مَهد الله تعالى بدولته البلاد، وآمن ببركة آياته في مسالكها، وممالكها العباد، ومزق به ثوب الفساد، وقطع بسيفه، وسنانه، وبادرت قلمه الأعلى، ولسانه دابر أهل العناد، فسعد الإسلام بدولته، واعتز دين الله العزيز في مدته، وخمدت نيران البغي بسعادته، وامتدت الأماني وشمل الأمان بحسن سياسته، نسأل (كذا) الله تعالى أن يصل لسيدنا ومولانا عادت (كذا) نصره، وتمكينه، ويريه قرة العين في دنياه، ودينه؛ وبعد: فإن عبيدك الفقرا (كذا) المساكين المنقطعين بجزيرة الأندلس، وجملة عدتهم ثلثمائة ألف وأربعة وستون ألف منهم من رسائلهم بغرناطة، وغيرها خمسون، والباقي من عامة المسلمين، رافعين شكواهم، وما يلاقون من بلواهم باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان دام عزه، ونصره لما أصابهم من أعداء الدين، وطغاة المشركين، وما هم فيه من مكابدة الكفار، ومقاسات (كذا) التضييق، والأضرار، وجور أهل الشرك آناء الليل، وأطراف النهار، وتحريقهم إيانا بالنار، قد تكالب العدو علينا ومدد السوء، والضرر إلينا، وأحاطت بنا الأعداء من كل جانب، ورمونا عن قوس واحد بسهم صايب، وطالت بنا الأيام، وعاشت فينا يد النكاية، والإيلام، وخذلنا جيراننا وإخواننا ببلاد المغرب من أهل الايمان، وقد كان بجوارنا الوزير المكرم، المجاهد في سبيل الله خير الدين وناصر الدين وسيف الله على الكافرين، علم بأحوالنا، وما نجده من عظيم أهوالنا لما كان بالجزائر، واجتمعت أهل الإسلام على إطاعة مولانا، ومحبته بالخواطر، والظماير (كذا) وانتظم العدل، والشرع، والأمان في البلدي، والحاضر، فاستغثنا به فأغاثنا، وكان سببًا في خلاص كثير المسلمين، من أيدي الكفرة المتمردين، ونقلهم إلى أرض الإسلام، وتحت ايالة طاعة مولانا السلطان، ولعمارة مدينة برشك، وشرشال، ونواحى تلمسان، فلما سمع الكافر اللعين بذلك، ولم يقدر على منعنا بالسياسة، والإهانة، والحرق بالنيران، علم

أنا اخترنا المصيبة فى الأموال، والأبدان، وآثرنا ديننا على ساير الأديان، فلما صدقت الضماير، وبلغت القلوب الحناجر، خاف من عصبتنا واجتماع كلمتنا، وتركنا أموالنا، وأوطاننا، وهجرتنا، وفرارنا إلى بلاد الإسلام لسلامة ديننا، تحاير في أمره، وجمع إليه أهل تدبيره، وحزبه، فدبروا ومكروا وهل يحيق المكر السيء إلا بأهله؟ واتفق رأيهم المعكوس، وتدبير المنكوس، على قتال الجزائر، ليلا يبقى ببلاد المغرب لأهل الإسلام ناصر، فعاقبهم الله بعقاب أصحاب الفيل، وجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم ريح عاصف، وموج قاصف(كذا)، فجعلهم بسواحل البحر ما بين أسير، وقتيل، ولا نجا منهم من الغرق قليل، والآن اشتد غضبهم على أهل الإسلام، وهم يتوسلون بالرهبان، والأصنام، ونحن نتوسل بسيد الآنام إلى موجب الوجود ذو (كذا) الجلال والإكرام، وهم عازمين (كذا) على الجزائر، والله تعالى هلكهم وينصر دينه وهو نعم الناصر، يا مولانا سلطان البرين، والبحرين نصركم الله، المدد المدد لنصرة الجزائر، لأنها سياج لأهل الإسلام، وعذاب، وشغل لأهل الكفر، والطغيان، وهى موسومة باسمكم الشريف، وتحت ايالة مقامكم المنيف، وقد أصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة، والرعية المختلفة بها مؤتلفة أليفة، وطراز رونقها المجاهد في سبيل الله عبدكم الوزير الأجل خير الدين، الممتثل لأوامر مولانا، ونتاج عز الدنيا، والدين، فإنه أحيا هذا الوطن، وجميع النواحي، والسكن، وأرعب قلوب الكفار، وخرب ديار المردة، والفجار، وأظهر نظام السلطنة العثمانية وأحكام مولانا نصره الله حتى تزينت بها الديار والأمصار، فنرغب، ونطلب من مولانا نصره الله فيما يراه من إرساله لهذا الوطن أن رأى (كذا) مولانا صلاح (كذا) في ذلك فيكون ذلك غاية الإحسان لجميع أهل الإسلام، وقهر، ونكاية لحزب الشيطان، وقد اتفق جمعنا من المسلمين المذكورين على رفع الشكوا (كذا) إلى مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام لا زال بالعز موصوف (كذا) وبالهباء، والنصر محفوف (كذا) بأن يغيثنا بإرسال المجاهد خير الدين باشه (كذا) إلى الجزائر، فإنه لهذا الوطن نِعم ناصر، وجميع أهل الشر منه خايف، وحاير (كذا)، والسلام التام على المقام الشريف العالي، ورحمة الله بتاري أوايل شهر شعبان أحد شهور سنة ثمانية وأربعين وتسعمائة.

ملحق رقم (4)

القصيدة التي أرسلها مسلمي الأندلس إلى السلطان العثماني طلبا لنجدته[656]:

يقول المؤرخ العربي المقري، إن هذه القصيدة لموريسكي مجهول، وإنها أرسلت إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني (1481 – 1512) طلبا لنجدته.

سلام كريم دايم متجدد ... سلام على مولاي ذي المجد والعلا
سلام على من وسع الله ملكه ... سلام على مولاي دار ملكه
سلام على من زين الله ملكه ... سلام عليكم شرف الله قدركم
سلام على القاضي ومن كان مثله ... سلام على أهل الديانة والتقى
سلام عليكم من عبيد تخلفوا ... أحاط بهم بحر من الروم زاخر
سلام عليكم من عبيد أصابهم ... سلام عليكم من شيوخ تمزقت
سلام عليكم من وجوه تكشفت ... سلام عليكم من بنات عواتق
سلام عليكم من عجائز أكرهت ... نقبل نحن الكل أرض بساطكم
أدام الإله ملككم وحياتكم ... وأيدكم بالنصر والظفر بالعدا
شكونا لكم مولاي ما قد أصابنا ... غدرنا ونصرنا وبدل ديننا
وكنا على دين النبي محمد ... ونلقى أموراً في الجهاد عظيمة
فجاءت علينا الروم من كل جانب ... ومالوا علينا كالجراد بجمعهم
فكنا بطول الدهر نلقى جموعهم ... وفرسانهم تزداد في كل ساعة
فلما ضعفنا خيموا في بلادنا ... وجاءوا بانفاط عظام كثيرة

وشدوا عليها في الحصار بقوة ... فلما تفانت خيلنا ورجالنا

وقلت لنا الأقوات واشتد حالنا ... وخوفاً على أبنائنا وبناتنا

على أن نكون مثل من كان قبلنا ... ونبقى على أذاننا وصلاتنا

ومن شاء منا البحر جاز مؤمنا ... إلى غير ذلك من شروط كثيرة

فقال لنا سلطانهم وكبيرهم ... وأبدى لنا كتبا بعهد وموثق

فكونوا على أموالكم ودياركم ... فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم

وخان عهوداً كان قد غرنا بها ... وأحق ما كانت لنا من مصاحف

وكل كتاب كان فى أمر ديننا ... ولم يتركوا فيها كتابا لمسلم

ومن صام أو صلى ويعلم حاله ... ومن لم يجئ منا لموضع كفرهم

ويلطم خديه ويأخذ ماله ... وفى رمضان يفسدون صيامنا

وقد أمرونا أن نسب نبينا ... وقد سمعوا قوما يغنون باسمه

وعاقبهم حكامهم وولاتهم ... ومن جاءه الموت ولم يحضر الذي

ويترك في زبل طريحا مجدلاً ... إلى غير هذا من أمور كثيرة

وقد بدلت أسماؤنا وتحولت ... فأهاً على تبديل دين محمد

وأها على أبنائنا وبناتنا ... يعلمهم كفرًا وزورًا وفرية

وأها على تلك الصوامع علقت ... وأها على تلك البلاد وحسنها

وصارت لعباد الصليب معاقلا ... وصرنا عبيداً لا أسارى فنفتدى

فلو أبصرت عيناك ما صار حالنا ... فيا ويلنا يا بؤس ما قد أصابنا

سألناك يا مولاي بالله ربنا ... وبالسادة الأخيار آل محمد

وبالسيد العباس عم نبينا ... وبالصالحين العارفين بربهم

عسى تنظروا فينا وفيما أصابنا فقولك مسموع وأمـرك نافذ
ودين النصارى أصله تحت حكمكم فبالله يا مولاى منوا بفضلكم
فأنتم أولو الإفضال والمجد والعلا فسل بابهم أعنى المقيم برومة
ومالهم مالوا علينا بغدرهم وجنسهم المغلوب في حفظ ديننا
ولم يخرجوا من دينهم وديارهم ومن يعط عهداً ثم يغدر بعهده
ولاسـيما عـنـد المـلـوك فإنه وقد بلغ المكتوب منكم إليهم
وما زادهـم إلا اعتداء وجرأة وقد بلغت أرسال مصر إليهم
وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا وساقوا عقود الزور ممن أطاعهم
لقد كذبوا في قولهم وكلامهم ولكن خوف القتل والحرق ردنا
ودين رسول الله ما زال عندنا ووالله ما نـرضى بتبديل ديننا
وإن زعموا أنا رضنا بدينهم فسل وحرا عن أهلها كيف أصبحوا
وسل بلفيقا عن قضية أمرها ومنيافة بالسيف مـزق أهلها
وأنـدرش بالنار أحـرق أهلها فها نحن يا مولاي نشكو إليكم
عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا وإلا فيجلونا جميعاً من أرضهم
فإجلاؤنا خير لنا من مقامنا فهذا الذي نرجوه من عز جاهكم
ومن عندكم نرجو زوال كروبنا فأنتم بحمد الله خير ملوكنا
فنسأل مولانا دوام حياتكم وتهدين أوطان ونصر على العدا
وثـم سـلام الله تتلوه رحمة أخـص به مـولاي خير خليفة
ومن ألبس الكفار ثوب المذلة وأيـده بالنصر في كـل وجهة
قسنطينة أكـرم بها من مدينة بجند وأتـراك من أهل الرعاية

وزادكم ملكاً على كل ملة ... من العلماء الأكرمين الأجلة
ومن كان ذا رأى من أهل المشورة ... بأندلس بالغرب في أرض غربة
وبحر عميق ذو ظلام ولجة ... مصاب عظيم يالها من مصيبة
شيوبهم بالنتف من بعد عزة ... على جملة الأعلاج من بعد سترة
يسوقهم اللباط قهراً لخلوة ... على أكل خنزير ولحم لجيفة
وندعو لكم بالخير في كل ساعة ... وعافاكم من كل سوء ومحنة
وأسكنكم دار الرضا والكرامة ... من الضر والبلوى وعظم الرزية
ظلمنا وعوملنا بكل قبيحة ... نقاتل عمال الصليب بنية
بقتل وأسر ثم جوع وقلة ... بسيل عظيم جملة بعد جملة
بجد وعزم من خيول وعدة ... فنقتل فيها فرقة بعد فرقة
وفرساننا في حال نقص وقلة ... ومالوا علينا بلدة بعد بلدة
تهدم أسوار البلاد المنيعة ... شهورًا وأيامًا بجد وعزمة
ولم نر من إخواننا من إغاثة ... أطعناهم بالكره خوف الفضيحة
من أن يؤسروا أو يقتلوا شر قتلة ... من الدجن من أهل البلاد القديمة
ولا نتركن شيئا من أمر الشريعة ... بما شاء من مال إلى أرض عدوة
تزيد على الخمسين شرطا ... لكم ما شرطتم كاملاً بالزيادة
وقال لنا هذا أماني وذمتي ... كما كنتم من قبل دون أذية
بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة ... ونصرنا كرها بعنف وسطوة
وخلطها بالزبل أو بالنجاسة ... ففي النار ألقوه بهزء وحقرة
ولا مصحفا يخلى به للقراءة ... ففي النار يلقوه على كل حالة

يعاقبه اللباط شر العقوبة	ويجعله فى السجن في سوء حالة
بأكل وشرب مـرة بعد مرة	ولا نذكرنه في رخـاء وشـدة
فأدركهم منهم أليم المضرة	بضرب وتغريم وسجن وذلة
يـذكـرهـم لم يـدفـنـوه بحيلة	كمثل حمـار ميت أو بهيمة
فـبـاح وأفـعـال غـزار رديـة	بغير رضـا مـنّـا وغـير إرادة
بدين كلاب الـروم شر البرية	يروحون للباط في كل غدوة
ولا يقدروا أن يمنعوهم بحيلة	نواقيسهم فيها نظير الشهادة
لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة	وقد أمنوا فيها وقوع الإغارة
ولا مسلمين نطقهم بالشهادة	إليه لجـادت بالدموع الغزيرة
من الضر والبلوى وثوب المذلة	وبالمصطفى المختار خير البرية
وأصحابه أكرم بهم من صحابة	وشيبته البيضاء أفضل شيبة
وكـل ولى فاضل ذي كرامة	لعل إلـه الـعـرش يـأتي برحمة
وما قلت من شيء يكون بسرعة	ومن ثم يأتيهم إلى كل كورة
علينا بـرأي أو كـلام بحجة	وغـوث عباد الله في كـل آفة
بماذا أجازوا الغدر بعد الأمانة؟	بغير أذى منا وغـير جريمة
وأمـن ملوك ذي وفـاء أجله	ولا نالهم غدر ولا هتك حرمة
فـذاك حـرام الفعل في كل ملة	قبيح شنيع لا يجـوز بوجهة
فلم يعملوا منه جميعاً بكلمة	علينا وإقـدامًـا بكل مساءة
وما نالهم غدر ولا هتك حرمة	رضينا بدين الكفر من غير قهرة
ووالله ما نرضى بتلك الشهادة	علينا بهـذا الـقـول أكـر فرية

نقول كما قالوه من غير نية ... وتوحيدنا لله في كل لحظة
ولا بالذي قالوا من أمر الثلاثة ... بغير أذى منهم لنا ومساءة
أسارى وقتلى تحت ذل ومهانة ... لقد مزقوا بالسيف من بعد حسرة
كذا فعلوا أيضا بأهل البشرة ... بجامعهم صاروا جميعا مفحمة
فهذا الذي نلناه من شر فرقة ... كما عاهدونا قبل نقص العزيمة
بأموالنا للغرب دار الأحبة ... على الكفر فى عز على غير ملة
ومن عندكم تقضى لنا كل حاجة ... وما نالنا من سوء حال وذلة
وعزتكم تعلو على كل عزة ... بملك وعز في سرور ونعمة
وكثرة أجناد ومال وثروة ... عليكم مدى الأيام فى كل ساعة

ملحق رقم 5

رسالة موجهة إلى الموريسكيين من أحمد بوجمعة المغراوي (مفتي وهران) يحضهم فيها على التمسك بالدين الإسلامي[657]:

نتقل هنا هذا المخطوط الموجود في الفاتيكان منقول من كتاب يتضمن رسالة موجهة من أحمد بوجمعة المغراوي إلى الموريسكيين يحضُهم فيها على التمسك بالدين، وهذا نصها:

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

إخواننا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر من أجزل الله ثوابه فيما لقوا في ذاته، وصبروا النفوس، والأولاد في مرضاته الرغباء إن شاء الله من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته وارثوا سبيل السلف الصالح في تحمل المشاق، وإن بلغت النفوس على التراق، نسأل الله أن يلطف بنا، وأن يعيننا، وإياكم على مراعاة حقه بحسن إيمان، وصدق، وأن يجعل لنا، ولكم من الأمور خرجًا، ومن كل ضيق مخرجا وبعد السلام، السلام عليكم من كاتبه إليكم من عبيد الله أصغر عبيدة، وأحوجهم إلى عفوه، ومن يده عبيد الله تعالى أحمد بن جمعة المغراوي، ثم الوهراني، كان الله للجميع بلطفه، وستره سائلا من إخلاصكم، وغربتكم حسن الدعاء بحسن الخاتمة، والنجاة من أهوال هذه الدار، والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار، ومؤكدًا عليكم في ملازمة دين الإسلام، أمرين به من بلغ من أولادكم إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطوبتكم، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإن ذكر الله بين الغافلين كالحي بين الموتى، فاعلموا أن الأصنام خشب منحور، وحجر جامد لا يضر، ولا ينفع وإن الملك ملك الله، ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله، فاعبدوه، واصطبر لعبادته، فالصلاة، ولو بالإيماء، والزكاة، ولو كأنها

هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن إلى قلوبكم، الغسل من الجنابة، ولو عوما في البحور، وإن منعتم، فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار، وتسقط في الحكم طهارة الماء، وعليكم بالتيمم، ولو مسحا بالأيدى للحيطان، فإن لم يمكن، فالمشهور سقوط الصلاة، وقضاؤها لعدم الماء، والصعيد، إلا أنه يمكنكم الإشارة إليه بالأيدى، والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتيمم به، فاقصدوه بالإيمان نقله ابن ناجي في شرح الرسالة لقوله عليه السلام فاتوا منه ما استطعتم، وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية، وآتوا صلاتكم المشروعة، وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم، ومقصودكم الله، وإن كان لغير القبلة فتسقط في حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام، وإن أجبروكم على شرب خمر فاشربوه لا بنية استعماله، وإن كلفوا عليكم خنزيرًا فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم، ومعتقدين تحريمه، وكذا إن أكرهوكم على محرم، وإن زوجوكم بناتهم، فجائز لكونهم أهل كتاب، وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وإنكم ناكرون لذلك بقلوبكم، ولو وجدتم قوة لغيرتموه، وكذا، وإن أكرهوكم على ربا أو حرام، فافعلوه منكرين بقلوبكم، ثم ليس لكم إلا رؤوس أموالكم، وتصدقوا بالباقي إن تبتم لله تعالى، وإن أكرهوكم على كلمة الكفر، فإن أمكنكم التورية، والألغاز فافعلوا وإلا فكونوا مطمئني القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك، وإن قالوا اشتموا محمدًا فإنهم يقولون له ممد فاشتموا ممد ناوين أنه الشيطان أو ممد اليهود فكثير منهم اسمه، وإن قالوا قولوا عيسى ابن الله فقولها إن أكرهوكم وانووا إسقاط مضاف أى عبد إله، وإن قالوا المسيح ابن الله فقولها إكراهًا، وانووا بالإضافة للملك لبيت الله لا يلزم أنه يسكنه أو يحل به، وإن قالوا قولوا مريم زوجة له، فانووا بالضمير ابن عمها الذي تزوجها في بني إسرائيل، ثم فارقها قبل البناء، قاله السهيلي في تفسيره المبهم من الرجال في القرآن أو زوجها الله منه بقضائه، وقدره، وإن قالوا عيسى توفى بالصليب فانووا من التوفية، والكمال، والتشريف من هذه، وأمانته، وصلبه، وإنشاد ذكره، وإظهار الثناء عليه بين الناس، وإنه استوفاه الله

برفعه إلى العلو، وما يعسر عليكم، فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ما تكتبون به، وأنا أسأل الله أن يدير الكَرَّة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهرًا بحول الله من غير محنة، ولا وحلة، بل بصدمة الترك الكرام، ونحن نشهد لكم بين يدي الله إنكم صدقتم الله، ورضيتم به، ولابد من جوابكم، والسلام على جميعكم بتاريخ غُرة رجب عام عشرة وتسع مائة عرف الله خيره.

يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى.

ملحق رقم 6

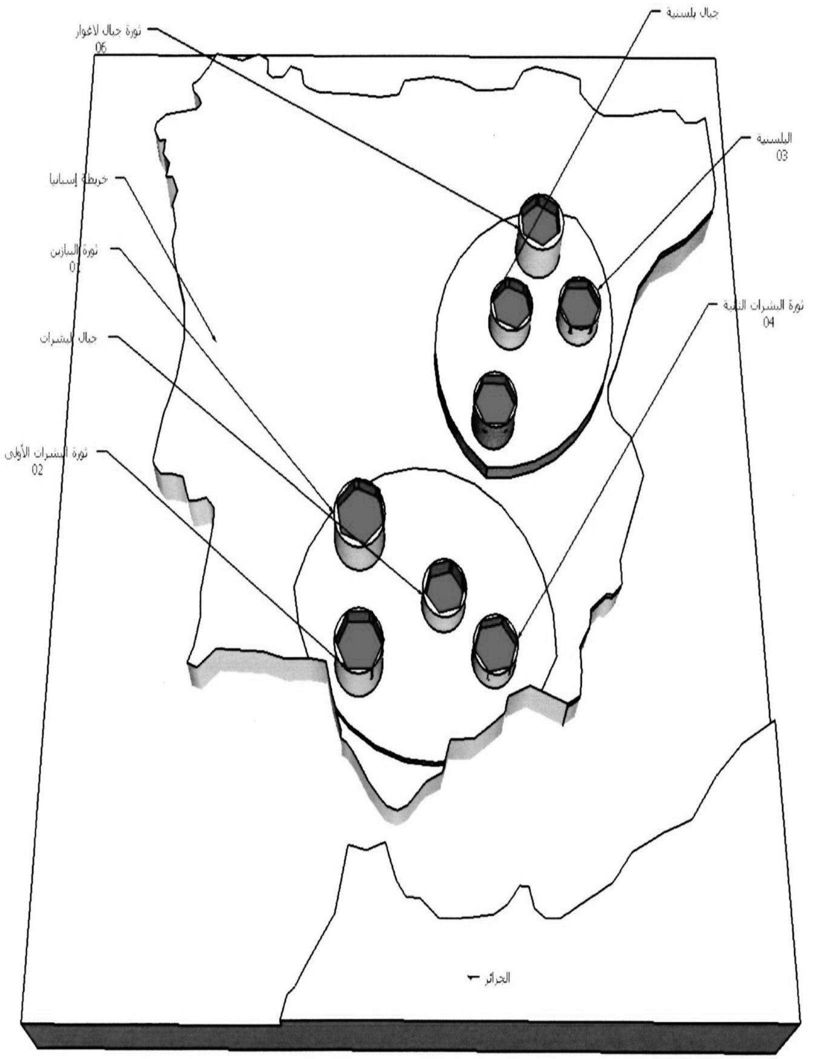

خريطة تمثل الثورات الموريسكية الأندلسية مصمم بواسطة برنامج (سكاتش أب)[658] Sketch up.

ملحق رقم 7

رسالة ابن عبو إلى مفتي القسطنطينية طالبا المساعدة من كبير الأتراك (السلطان التركى[659]:

حمد لله ولخادمه الذي وضع ثقته فيه، والذي يستند إلى قدرته، وجهده – الذي حارب فى سبيل الله، حاكم المؤمنين مطبق القانون، والهازم للكفار (يقصد بهم هنا المسيحيين الكاثوليك) الغير مؤمنين، والمبيد لكل من يتجرأ على القدرة الإلهية، فمولاي عبدالله ابن عبو يحمد الله حمد كثيرًا، لأنه أصبح سيدًا ذا شأن، ويحمده لأنه هناك من كان سندًا لتمرد الأندلس، والذي كان الله في عونه، ومُطيلًا فى عمره بفضل جبروته، والذي له القدرة، والفطنة على هذا الأمر الجلل إلى صديقنا، ومن له مكانة خاصة عندنا، والسيد العظيم الشريف، والسخي، والعادل، المحسن، الخاشع لله، وبعد هذا – أما بعد نرجو من الله الصحة، والعافية لمولانا، والحمد والشكر الجزيل لله – أخونا، وصديقنا العزيز لقد علمنا بمقامكم العالي، وبكرمكم، وبرأفتكم نحو هذه الفئة غير المحمية، والمهزومة، وكنتم تسألون عنا لكي نؤكد لكم كل أخبارنا، وأنتم تحسون كذلك بكل الأعمال، والتجهيزات التي وضعها المسيحيون، زيادة على هذا، فقد بعثت لنا رسالة يا سمو الملك – السلطان، مختومة بختم حضرتك، واعد ومتعهدًا فيها لنا بمساعدات تتمثل في جيش كبير، وكل ما شغلنا هو المحافظة على هذه الأرض، وبما أننا لازلنا مع هؤلاء في ضيق (كرب)، نتجه من جديد إلى سمو، وجلالة أبويكم، طالبين النِجدة (المساعدة) من طرفكم، هاتفين، بحياتكم.

ولهذا ساعدونا، وساعدوا أنفسكم بجاه قدرة الله على كل الناس، فقد علمتم سيادتكم بأعمالنا (تجارتنا – أشغالنا) إلى الملك (السلطان) العظيم، وأخبروه أيضا عنا، وعن أحوالنا، وعن الحرب الكبيرة التي نحن بصدى خوضها بالإمكان أن يعيننا (أو يعطف علينا)، وهذا بمساعدتنا (نجدتنا) على عجل، وبكل سرعة قبل

أن نهلك (نموت – نفى)، لأنه قد تم المجيء بجيشين عظيمين ضدنا لكي يقاتلونا من ناحيتين (أو جهتين)، وإذا خسرنا (هلكنا) نطلب من الله بأن يمدنا برحمته، وسنتحاسب يوم البعث (الحساب)، وحسب هذا يمكن أن نطوف في هذه المرحلة، ولأن الإنسان ليس له القدرة، ولا الجهد، لكى يتكلم، يتوقف، ويقول رافقتكم الصحة، والمغفرة، والبركة الإلهية.

كتبت هذه الرسالة يوم الثلاثاء الحادي عشر من شعبان لسنة 977هـ وما يوافقه بحسابنا الميلادي هو 11 يوم من شهر فيفر لسنة 1570، وقال ضمنيا): « يجب أن تُعطى (تسلم) إلى النائب الأعلى، والمستشار الأكبر للقسنطينية، والذي تحت حماية الله» مكان كتابة (تحرير) هذه الرسالة كان في كهف « كاستاراس من بين أوراق « ابن عبو»، والذي طلب ترجمة هذه الوثيقة إلى الإسبانية (الرومانية) فيما بعد في غرناطة، لكي يسلمها القائد الأعلى ل» كستيا « إلى الدون خوان دي استورايا الذي بدوره بعثها للرئيس (القائد) « دون بيدرو ذي ايبالثا» لكي يعرف بهذا الحدث.

ملحق 8

رسالة كاتب الملك (حاكم) الجزائر إلى ابن عبو[660]:

بسم الله الرحمن الرحيم حفظ الله سمو السلطان الكريم، والمحفوظ، الملك محمد عبدالله بن عبو، رعاية الله معكم، وشكره وحمده، لقد علمنا بما أرسلتموه لنا تخبرونا عن أعمال مملكتكم، وبأخبار أعدائنا، وفهمنا من قولكم أن (سيد) ملك إسبانيا يريد أن ينهي وجودكم، ولكن نحن بعون الله سننهيه، ولهذا فقد أرسلنا إليكم الأسلحة، وكذا البنادق (بنادق صيد) البارود، الرصاص، والذي سترونه في أقرب فرصة ممكنة، وهذا ما سنسخر له كل إمكانياتنا، وفيما يخص قولكم بأننا لم ننجدكم (نساعدكم)، فهذا راجع للمدن التي لدينا، والتي بها أناس ضعفاء، وأقسم بالله بأنني لا أعرف بما قلته هناك، أنني قبل هذا كنت أريد أن أساعدكم ،وهذا للحب (الود) الذي نكنه لكم (نضمره لكم)، وللود الكبير الذي نكنه للسلطان حفظه الله لكم، زيادة على هذا لا تخافوا من أن السلطان في أمس الحاجة للذهاب إلى المدن الإفريقية، والتي هى مدينة تونس، ولن يذهب حتى أبعث له سفينة غليوطة إلى سواحل الدولة العثمانية، وإلى الباب العالي للسلطان حفظه الله وهذا لكي يعرف بالحال التي أنا عليها، وسلطاننا (ملكنا - قائدنا) حفظ الله دولته عندما ينتهي من هذه المهمة سيذهب فيما بعد إلى هذه البلاد بإذن الله، وعلمنا أنه التقى مع ملك تونس (سلطان تونس) قد جرت في مدينة تسمى بكسا مناوشات بينهما، وقد تمكن من التعلب عليه بفضل الله، وقد هزم جيشه، وتمكن من قتل حوالى ألفي جندي، وقد هرب ملك تونس مع مائتي جندي على الأحصنة، ودخل ملكنا إلى تونس، على عجلة منه ذهب لكي ينجدكم، وسيبعث جيشًا، والذي سيكون تحت إمرتكم لينجدكم بإذن الله، ولقد سمعنا أيضًا من أنكم تمكنتم من القبض على أخ الماركيز،

وإذا كان هذا صحيحًا، وكان بين أيديكم، فابعثوه للملك (السلطان) ، وابعثوا، معه شيئًا قبل أن يأتي، وهذا عندما يصل للملك سنقدمه للملك قائلين له أنظر إلى ما بعثه سلطان (ملك) قائد الأندلس، وبهذا نزيد من رغبته في مساعدتكم،لأنه زمن اليوم، فقد صرتم جزء مِنا، وبالله عليكم فأنا أوصيكم (أمركم) لأن تفعلوا هكذا، وهذه هى الحقيقة التي أَؤكدها لكم، أما فيما يخص الأمور الأخرى، فسيخبركم بها صديقنا «قاسم»، وخادمنا، ولا تتبعوا ما يقوله لكم الناس، وافعلوا ما يقوله لكم « قاسم» هذا ما عرفناه منكم: والله عليم بكل شيء نسأل الله العافية لسموكم، والحمد، والشكر لله، الذي له القدرة على نجدتكم (نصركم) كاتب سيدنا الملك السلطان رعاه الله « لقد وضع ختم» «العلج على» في الرسالة، والذي نعرفه، وقال في الرسالة ضمنيا:» حفظ الله حاكمنا الكبير، المحترم «محمد ابن عبو» وأيضا جاءت هذه الرسالة أصلية من طرف» الدون خوان دى أستوريا» وقد ترجم هذه الرسالة في غرناطة تحت إمرته.

ملحق رقم 9
وسائل تعذيب محاكم التفتيش[661]

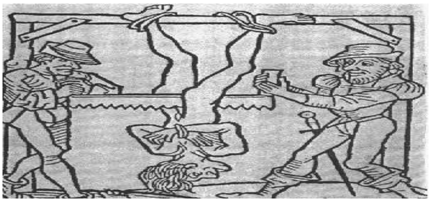
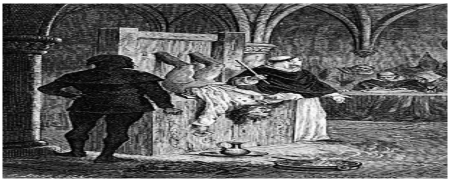

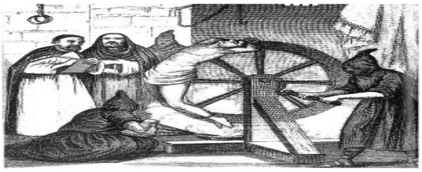

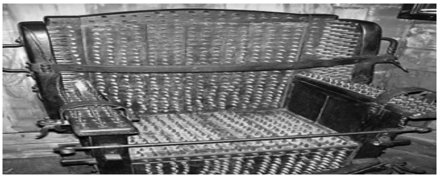

"A true description of the racking and cruell handeling of Cutbert Simson in the Tower."

ملحق رقم: 10

مذكرة حول طرد الموريسكيين، والوسائل اللازمة معالجة الوضع فى المملكة أرسلها إلى البلاط الملكي الأب سوبرينو فى سبتمبر 1906م[662].

باسم الرب

سيدي: أمس أطلعني السيد كونت كاستيار على مذكرة يرسلها إلى جلالتكم، وفحواها أن طرد الموريسكيين سيكون سببًا فى خراب المملكة ، وقد أسس رأيه على أن الحياة في الممالك تقوم على الخدمات التي يؤديها الموريسكيين، فإذا طردوا؛ فستتوقف إيرادات السادة، والقساوسة، والتجار، ولن تكون هناك تبرعات للفقراء، والمستشفيات، والكنائس، وستتوقف الحِرف الميكانيكية، وبناءً على هذا فإن الحياة في جميع أنحاء المملكة ستتوقف، تفترض المذكرة أن جلالتكم لم تكونوا على علم بكل ذلك حين اتخذتم قراركم، وتخلص المذكرة إلى القول بأنه ليس من المناسب تنفيذ قرار طرد الموريسكيين تجنبًا لكل هذه الأضرار.

– وعلى العكس فإنه يقول إن القرار الذي اتخذه صاحب الجلالة قرار حتمي، ورغم أن القرار يستند إلى مصلحة الدولة العليا ، فإنني أرى (كما كتبت بالأمس إلى سيادتكم) أنه قرار السماء التي يرتفع إليها دعاء من المملكة يطلب الانتقام، والعناية الإلهية بدلاً من أن تمطر غضبًا تمطر رحمة، وتكتفي بأن نتوب عن ذنوبنا، ونتخلص من أذى قبيح سمح به صبرها، الذي تسامح إزاء شرور الموريسكيين، الذين كانوا يتمتعون بحماية سادتهم، والذين يبدو لهم أن السادة لن يستطيعوا العيش بدونهم، وأن الملك، والبابا لن يستطيعوا المساس بهم، ويبدو أنهم يستندون إلى شيئ ما، فإذا تحدثنا عن إخلاص النبلاء المحمود للملك فسنرى ما يرون، و(ستتفهم) محاولتهم الاحتفاظ برعاياهم.

من المؤكد أنه لو تحول الموريسكيون حقيقة إلى المسيحية في ظروف صعبة كهذه، فإن ذلك سيكون غاية ما نتمناه – لكنهم حتى لو تحولوا إلى المسيحية حقيقة، فإننا لن نكون متأكدين من أنهم لن يتراجعوا إذا ما طلب الأعداء الخارجيون مساعدتهم – بل سيتمردون إشباعًا لرغبتهم فى السيطرة على أسبانيا، ونظرًا لحبهم المتأصل فى العيش كمسلمين فهم مغرمون بشريعتهم، ولهذا، فأنا أعتقد أنهم لا يريدون أن يكونوا مسيحيين، ولا جلالة الملك سيقبل عرضهم إذا تقدموا به، ولذلك فإن قرار الطرد حتمي لا رجعة فيه، ولكي تهدأ النفوس الحزينة في هذه المملكة، فقد أمرتم يا جلالة الملك بمنحهم الأمن، والفرح، والسلوى، وأنا على يقين من أنكم ستستخرجون من صفاء ذهنكم، ومن حكمتكم المنطق الذي تطمئنون به قلوب أبنائهم، بل وتملأونها بالسلوى.

إذن أرى أن الحديث عن خراب المملكة بعد طرد الموريسكيين حديث منطقي لو أنهم سيحملون معهم أشجار الزيتون، والكروم، والأراضي، والمزارع، أما وإن أراضي المملكة التى وهبتنا السماء إياها ستبقى فلن نموت، يقولون إنه حتى لو أقام فى المملكة أناس آخرون، فسيحل الخراب أيضًا.

ولملئ الفراغ فمن المناسب جلب مواطنين من قشتالة، وأراغون، ونابار، وإغرائهم بالحديث عن خصوبة الأراضي، واعتدال المناخ، وجمال الحياة، وإنني أرى أنه لن يأتي الفقراء المحتاجون فقط، بل سيأتي أيضًا أولئك الذين يرغبون في تحسين جودة أراضيهم، أو التخلص من أعباء الضرائب، والله سيجلب الناس إلينا، وسيملأ هؤلاء المسيحيين القدامى جزءًا كبيرًا من الفراغ، وسيرى السادة أن قُراهم قد امتلأت بالرعايا المخلصين، وهكذا سيجعلهم الله أكثر سعادة، وثراءً، وسنسير فى المملكة دون أن نخشى هجوم المسلمين برًا، وبحرًا (فعندما لا يكون للأعداء أعوان هنا فلن يأتوا) وسنعبد الله، وسيرى أعداء إسبانيا الذين يأملون فى وضع أقدامهم هنا بمعاونة هؤلاء اللصوص أن الأمر ليس له علاج ، هذا بالإضافة إلى خيرات كثيرة، رغم أننا قد نخسر شيئًا، ألا تزال مملكة غرناطة قائمة، وقد حدث فيها نفس الشيئ بالأمس ؟ لم يمت السادة، ولا الرعايا، ولا القساوسة، ولا رجال الدين، ولا

التجار، ولم تهلك المزارع.

– يقولون إن من أنفقوا أموالهم على الجماعات، ويعيشون على إيرادها سيخسرون برحيل الموريسكيين، أقول إن كل من يطلبون تعويضًا مقابل هذا الضرر، سيعوضهم مندوب الملك عن خسارتهم من نقود، وأثاث الموريسكيين بحيث يشترون الدواب ريثما يصل السكان الجدد، ويشتغلون في الأراضي، ويحفظونها، والأهم من ذلك كله – كما أقر المجلس الملكي – أن تظل هيبة السادة، وشرفهم محفوظين، ولكي يحدث ذلك، فهناك أمران:

* أولهما : ألا يغضب الله كما كان يحدث مع هؤلاء الرعاع.
* ثانيهما : أن يُطاع الله، وتُحترم قوانينه فى كل هذه الممالك.

– هكذا نفوز بشيء آخر هو العناية الإلهية لمن يحبون الله، ويطيعونه، أما من يعصونه، فسيرسل عليهم النكبات، والعقاب... إن كل الكتاب المقدس يحفل بالإشارة إلى أن الذنوب، والمعاصى تجلب الخراب، والضياع، وأن السعادة الحقيقية إنما هى مع حب الله، وطاعته، إن من يقولون إنهم يخشون أن ينتقم الله من عملية الطرد يجب أن يخشوا شيئًا أكبر لو بقى الموريسكيين – عسى الرب أن تمضي العملية كما نتمنى، وأن يحفظكم لنا خادمكم الراهب أنطونيو سوبرينو 21 سبتمبر 1609م.

ملحق رقم 11

طرد موريسكيى فالنسيا أعلن في فالنسيا في 22 سبتمبر 1609 من صاحب الجلالة الملك[663]:

– وباسمه السيد لويس كاريو دي توليدو ماركيز كاراثينا، وسيد مدن بنتو، وأنيس..... والقائد العام لهذه المدينة، ومملكة فالنسيا، والنائب عن جلالة الملك .

– إلى السادة، والأساقفة، والقضاة، وممثلى المدن، والقرى، والحكام، ومندوبى جلالة الملك، والمواطنين، خاصة مواطني هذه المملكة .

– جاء فى رسالة ملكية من صاحب الجلالة مؤرخة فى 4 أغسطس الماضي من هذا العام، وموقعة من سكرتيره أندريس دى برادا :

– إلى ابن عمي : ماركيز كاراثينا، والقائد العام لمملكة فالنسيا.

– قد علمت أنني على مدى سنوات طويلة حاولت تنصير موريسكي هذه المملكة، ومملكة قشتالة، كما علمت بقرارات العفو التي صدرت لصالحهم، والإجراءات التي اتخذت لتعليمهم ديننا المقدس، وقلة الفائدة الناتجة من كل هذا، فقد لاحظنا أنه لم يتنصر أحد، بل زاد عنادهم، ورغم الخطر، والأضرار التي تترتب على استعمال السياسة معهم إلا أنه منذ أيام التقيت بكثير من العلماء، والمتدينين، وقد رجوني أن أعالج موضوع الموريسكيين بما يرضي ربنا – الذي اشتد غضبه على الموريسكيين – وأكدوا لي أنه يمكن معاقبة الموريسكيين فى أموالهم، وأشخاصهم، لأن الاستمرار في ارتكاب الجرائم يؤكد أنهم ملحدون، لا يحترمون الله، ولا الإنسان ، ورغم أنه كان بالإمكان معاقبتهم كما تستحق جرائمهم إلا أنني إزاء الرغبة في اتباع اللين معهم، أمرت بعقد اجتماع اللجنة فى هذه المدينة، والتي حضرتموها أنتم، والبطريرك، وقساوسة آخرون، وأشخاص مثقفون؛ للنظر فيما إذا كان من الممكن

تجنب طرد الموريسكيين من هذه الممالك، لكنني علمت أن أهل قشتالة مستمرون فى محاولتهم الضارة، فهمت من مصادر مؤكدة أنهم حاولوا - ويحاولون - من خلال سفرائهم، ومن خلال طرق أخرى الإضرار ببلادنا، ورغبة من فى القيام بواجبي نحو الحفاظ على أمن البلاد - خاصة مملكة فالنسيا، ونحو رعاياها المخلصين لأن الخطر أقرب إليهم... فقد قررت طرد كل موريسكي من هذه المملكة، ونفيهم إلى بلاد البربر.

- ولكي يتم تنفيذ هذا القرار ، وأوامر صاحب الجلالة فقد أمرنا بنشر القرار التالي :

1 - يخرج كل موريسكي هذه المملكة - رجالاً، ونساءً - وأبناؤهم كذلك، ومن فالنسيا فى خلال ثلاثة أيام اعتبارًا من نشر هذا القرار في الأماكن التي يعيشون فيها، ويذهب الجميع إلى حيث يستقلون السفينة في الميناء الذي يحدده المفوض، ويحمل كل موريسكي كل ما يستطيع من أمتعة شخصية، ويستقل المركب أو السفينة التي تحمله إلى بلاد البربر، فينزل منها دون أن يتعرض لسوء المعاملة أو المضايقات، وننبه إلى أننا سنوفر لكل منهم ما يحتاجه من ملابس خلال الرحلة، وبإمكان كل واحد منهم أن يحمل ما يستطيع، ومن لا ينفذ هذا البند، ويخالف هذا القرار يتعرض لعقوبة الإعدام التي ستنفذ لا محالة.

2 - أى موريسكي - بعد نشر القرار، ومرور ثلاثة أيام على نشره - يتواجد خارج محل إقامته أو فى الطرقات قبل إبحار السفينة، يستطيع أي شخص إلقاء القبض عليه، وتجريده من متاعه، وتسليمه إلى العدالة في أقرب مكان، وإذا دافع الموريسكي عن نفسه فبإمكان المواطن أن يقتله دون أن يتعرض لعقوبة.

3 - بعد نشر القرار يُحظر على الموريسكي مغادرة محل إقامته إلى مكان آخر، بل يظل في مكانه حتى يصل إلى القرية المفوض الذي يقتادهم إلى السفينة.

4 - أى موريسكي يدفن متاعًا له، أو يخفيه - لأنه لا يستطيع أن يحملة معه، أو يضرم فيه النار أو يتلف الزرع أو الأشجار أو البيوت توقع عليه عقوبة الإعدام،

ويقوم بتنفيذها المواطنون المقيمون في موقع ارتكاب الجريمه، نأمر بذلك لأن صاحب الجلالة قد تفضل بمنح سادة الموريسكيين الأمتعة التي لا يستطيع حملها معهم.

5 - من أجل الحفاظ على البيوت، وعلى محصول الأرز، وإبلاغ ذلك إلى السكان الجدد، استجاب صاحب الجلالة لطلبنا، وقرر بقاء ستة أفراد بعائلاتهم في كل قرية بها مائة بيت، على أن يقوم سادة الرعايا باختيار الأفراد الذين سيبقون في القرى التابعة لصاحب الجلالة، فسنقوم نحن باختيارهم، وننبه إلى أنه يفضل أن يكون الأشخاص الذين سيبقون من كبار السن، وأن تكون حِرفتهم الوحيدة هى الزراعة، وأن يكونوا قد أبدوا ميلاً إلى إتباع المسيحية .

6 - لا يقوم أحد المسيحيين القدامى أو الجنود بإساءة معاملة الموريسكيين أو إيذائهم باللفظ، أو الإضرار بممتلكاتهم أو بزوجاتهم، وأبنائهم .

7 - يجب ألا يُخفي أحد فى بيته موريسكيًا، ولا يساعده على الاختفاء، وإلا عُوقب من يفعل ذلك بالسجن لمدة ست سنوات، وبعقوبات أخرى نراها.

8 - لكي يفهم الموريسكيين أن رغبة جلالة الملك هي طردهم من البلاد، وأنه لن يقع عليهم إيذاء أثناء السفر، وأنهم سينقلون إلى بلاد البربر - فإننا نسمح بعودة عشرة أشخاص من الذين سافروا مع الفوج الأول لكيدي يخبروا الآخرين بذلك، ونسمح بأن يتم ذلك مع كل فوج، ونأمر بأن يبلغ ذلك إلى قباطنة السفن لكي يأمروا به، ولكي يحُولوا دون أن يقوم الجنود، والبحارة بإيذاء الموريسكيين باللفظ أو بالفعل.

9 - الصبية دون الرابعة عشرة الذين يفضلون البقاء، ويوافق أولياء أمورهم على ذلك لا يُطردون.

10 - الأطفال دون السادسة من أبناء المسيحيين القدامى يبقون في إسبانيا، وتبقى أمهاتهم معهم حتى لو كُن موريسكيات، أما إذا كان الأب موريسكي، والأم مسيحية قديمة، فسيُطرد الأب، ويبقى الأطفال دون السادسة مع أمهم.

11 - يبقى أيضًا الأشخاص الذين عاشوا مدة عامين بين مسيحيين قدامى، ولم يحضروا اجتماعات موريسكية .

ملحق رقم 12:

أوضاع، ومعاملات، وأزياء، ومأكولات الموريسكيين، ووظائفهم، وأمراضهم المعدية[664]

طبقاً لما يرويه مؤلف أراغوني في القرن السابع عشر

– وضع الأب أثنار كاردونا كتابًا بعنوان «الطرد العادل لموريسكيي إسبانيا، وجملة الفضائل المسيحية لمليكنا فيليب الثالث بهذا الاسم» ونشره فى أواسط عام 1612 م – بهدف إقناع معارضي طرد الموريسكيين بصواب، وحكمة هذا الإجراء، ويتضمن الكتاب أكثر الفقرات وحشية مما كُتب ضد الموريسكيين؛ إن ملاحظات المؤلف – وهي صبيانية غالبًا – ذات مغزى، إذ ترسم لنا عقلية «مسيحي قديم»، والحجج التي يسوقها بالغة الأهمية من وجهة النظر الاجتماعية، إنه يعيب على الموريسكيين تقشفهم في المأكل، والمشرب، ويأخذ عليهم نوع المأكولات، والوظائف التي يمارسونها، ويبدي احتقاره لآلاتهم، ولطريقتهم في ري المحاصيل، كما يبدي احتقاره لأعيادهم،واحتفالاتهم، ولأمور أخرى تافهة مثل : السير جماعة في الطرقات.

– الكتاب يستند إلى أسباب دينية، وبالإضافة إلى ذلك يبدي كراهية لنمط من أنماط الحياة [عادات خاصة بالأطعمة، والملابس، وشكل من أشكال العمل، والتسلي وشُغل وقت الفراغ] يختلف عن نمط الحياة الذي يسير عليه مجتمع المسيحيين القُدامى.

والمؤلف لا يكتفي برفض الخط الموريسكي بل يعتبره خطرًا.

(هناك مؤلفون كثيرون درسوا كتاب أثنار، ونقلوا عنه. انظر على سبيل المثال خوليو كارو باروخا) «Los moriscos aragoneses segun un autor del siglo xvll en Razas. Pueblos v linaies.

ملحق رقم 13:

أوضاع، ومعاملات، وأزياء ومأكولات الموريسكيين، ووظائفهم، وأمراضهم المعدية[665]. (الصفحات 23 - 63)

كنا قد تحدثنا عن طبيعتهم، ويبقى أن نتحدث الآن عن أوضاعهم، ومعاملاتهم . كان الموريسكيين من أحط الناس وضعًا، كانوا مهملين، وأعداء للآداب، والعلوم الراقية التي تصاحب الفضيلة، ومن ثم بعيدين عن أشكال التعامل المدني، واللياقة، والذوق؛ كانوا يربون أولادهم كالحيوانات دون تعليم عقلاني، ودون توعية صحية - إلا تلك التي تحتمها الضرورة القصوى التي كان رؤسائهم يشترطونها عليهم بعد أن تم تعميدهم.

كانوا حمقى عند عرض حججهم، وكانوا كالحيوانات، وكانوا همجيين في لغتهم، وكانت أزيائهم مزرية، فكانوا فى معظم الوقت يرتدون سراويل من نسيج خفيف، أو يرتدون لباسًا آخر شبيهًا بزي من يعملون فى البحر، وكانت ملابسهم رخيصة، وكانوا يتعمدون أن تكون غير متناسقة، وكانت أزياء نسائهم على نفس الوضع - فكُنّ على نفس الوضع.

كانوا همجيين في مأكلهم، فكانوا يأكلون دائمًا على الأرض دون استعمال موائد، ولا شيء يسمونه «المضربة» في أركان مطابخهم أو في أماكن قريبة منها لكي يكونوا مستعدين لحماقاتهم، والقيام للسحور.

كانوا يأكلون أصنافًا دنيئة (لقد حقت عليهم العقوبة في الحياة الدنيا بحُكم من السماء)، مثل عجائن من دقيق أنواع البقول، والعدس، والفول، والجرس، وخبز من نفس الدقيق - كانوا إذا استطاعوا - يأكلون مع هذا الخبز زبيبًا، وعسلاً، ومربى، ولبنًا، وفاكهة كالشمام - حتى لو كان لم ينضج بعد، ولا يزيد حجمه عن قبضة اليد، وفلفلاً وثمارًا أخرى حتى لو كانت لم تنضج بعد، وبعد الأكل كانوا يتشوقون إلى

الطعام، وكانوا لا يتركون نبتًا على قيد الحياة، ولما كانوا على مدار العام يحفظون أصنافًا شتى بين خضراء، وجافة (يحتفظون بها حتى تفسد)، ويأكلون خبزًا ويشربون ماء قراحًا (لأنهم لا يشربون الخمر)، ولا يشترون لحم الفريسة التي اصطادها كلب أو قتلت برمح أو بندقية، ولا يأكلونه، بل يأكلون ذبائحهم هم التي ذبحوها طبقًا لشريعة محمد - فكانوا لا ينفقون إلا القليل - سواء فى المأكل أو في الملبس، رغم أنهم كان يتعين عليهم دفع الكثير من الضرائب إلى سادتهم.

كانت لحوم الحيوانات المذبوحة على طريقة تخالف شريعتهم تسمى «محرّمة»، وإذا سألتهم لماذا لا يشربون الخمر، ولا يأكلون لحم الخنزير ؟ كانوا يجيبون «ليس لكل الأكلات مذاق واحد، وليست كل البطون تتحمل نفس الأكلات»، وهكذا كانوا يخفون تطبيقهم لشريعتهم، وهذا هو سبب امتناعهم عن الأكلات، والمشروبات المذكورة، وهذا ما ذكرته لموريسكي فقيه من إبيلا يُدعى خوان دى خوانا، كان يعترض على طرده من إسبانيا دون سبب، وطلب مني ألا يطردوهم من إسبانيا لأنهم سيأكلون لحم الخنزير، وسيشربون الخمر، وقد أجبته قائلاً : «إن عدم شرب الخمر، وعدم أكل لحم الخنزير ليسا هما سبب الطرد من إسبانيا، بل إن سبب الطرد هو الامتناع عنهما امتثالاً لتعاليم شريعتكم الضالة، إن هذا إلحاد يعرضكم للعقوبة، وأنت كلب حقير، فلو أنك امتنعت عنهما لمجرد التقشف لكان ذلك أمرًا محمودًا - كما هو الحال عند بعض القديسين - لكنك تمتنع تنفيذًا لأوامر محمد كما نعلم، بل إننا نراكم تعاقبون أولادكم الصغار إذا علمتم أنهم أكلوا لحم الخنزير فى بيت مسيحي قديم؛ إننى أتساءل: هل عندما يأكل ابنكم الصغير لحم الخنزير يؤدى ذلك إلى مغص في معداتكم؟ لا، لكنكم تُبدون امتعاضكم علانية إذا أكل طفل من أطفالكم عمره بين الرابعة، والخامسة لحم الخنزير، صدقني إنكم لا تستطيعون إخفاء ذلك «.

كان الموريسكيون يحبون السخرية، والحكايات، والرقص، والغناء، والتجول فى الحدائق، وكل أنواع التسلية الهمجية حيث الصخب، والضجيج، وكان الشباب منهم يسيرون عبر الشوارع، كانوا يتفاخرون بإجادتهم للرقص، ولعب الكرة،

وقذف الكرة، والغناء، والجري خلف الثيران، وأشياء أخرى مشابهة، كانوا مُولعين بالمهن التي لا تتطلب جهدًا، فكان منهم النسيج، والخياط، والإسكافي، والبيطري، والبستاني، والدباغ، وتاجر الزيوت، وبائع السمك، والعسل، والزبيب، والسكر، والقماش، والبيض، ومن يبيع ملابس من الصوف للأطفال، وكانوا يحبون تلك المهن التي تستدعي تواجدهم في المنازل ، وكانوا يفتعلون الأسباب لكي يتجولوا بين القرى، وهكذا يتسمعون أخبار السلم، والحرب، ولهذا فقد كانوا بصفة عامة كسالى، ومتسكعين، يحبون الجلوس في الشمس شتاءً، والجلوس فى الظل صيفًا، إذا استثنينا الساعات القليلة التي كانوا ينفقونها في القيام بأعمالهم أو فى رعاية بساتينهم طمعًا في جني الثمار – لكن القليلين – بل القليلين جدًا منهم كانوا يحبون الصناعات المعدنية، وصناعة الحديد، والأثاث، والحجر – لكنهم فيما بينهم كان منهم بعض الحدادين، وكان ذلك من أجل تجنب الاضطرار إلى التعامل مع المسيحيين – فقد كانوا يكرهونهم.

أما عن صناعة السلاح فلم يكونوا مهرة، لأن الأسلحة كانت محرمة عليهم، وقلة الاستعمال تفقد المهارة كما يقول أوفيد، ولأنهم كانوا جُبناء، ومخنثين من حيث النشأة، ولهذا كان هؤلاء الجبناء يتجنبون السير فرادى في الطرقات وفي أطراف القرى التي كانوا يعيشون فيها، فكانوا يسيرون جماعات.

كانوا يزيدون مشاجراتهم اشتعالاً بالصراخ، حتى لو كانت تلك المشاجرات وقتية، وذلك امتثالاً لأوامر محمد، وكانوا يُحبون النساء لدرجة أن كل أحاديثهم، ومؤامراتهم، ومشاكلهم تدور حولهن، وكانوا فى هذا الشأن غير أوفياء فيما بينهم.

ولا يحترمون أقاربهم، وكانوا يخالفون القوانين الطبيعية، والإلهية في هذا الأمر، ولم تكن تفيد معهم الوسائل، كما أوضحنا ذلك في الفصل الخاص بتعدد الزوجات، من كل ذلك نشأت المساوئ، ونشأ الإصرار على ارتكاب المعاصي بين المسيحيين القدامى، ومن هنا نشأت المشاكل بالنسبة للنساء المسيحيات، فقد رأين أزواجهن، وأخواتهن على صلة بالموريسكيات المنحرفات اللاتي يرين أن علاقتهن بالرجال مباحة

« فى كتاب أثنار ترد بعض الحُجج الأكثر شيوعًا حول خطورة الموريسكيين، والسبب الأول هو ارتفاع نسبة الخصوبة عندهم، وهو سلاح يهدد مجتمع المسيحيين القُدامى الذي يحد من تزايده رهبانية الرجال، وذهاب الرجال الآخرين للقيام بحملات عسكرية".

كانوا يزوجون أبنائهم، وهم صغار السن، فكانوا يعتقدون أن السن المناسبة للزواج هى عشرة أعوام للبنت، واثنا عشر للولد، وكانوا لا يرهقون أنفسهم فى مسألة المهر (إلا الأغنياء منهم)، وإذا كان يكفيهم سرير، وعشرة جنيهات، كان غرضهم التكاثر، وزيادة العدد كالحشائش الضارة، وكانت قُراهم، وأحيائهم لا تتسع لهم، كانوا قبل ذلك يقطنون في البيوت التي تزيد عن حاجة أصحابها، ثم كانوا ينتشرون، ويريدون تنفيذ ما جاء فى أغنية لهم يطلبون فيها من محمد أن يزيد من نسلهم.

ملحق رقم 14:

يزداد المسلمون، والمسلمات كنبات الأسل، وشجر الصفصاف[666]:

كانوا يتكاثرون بشكل يزيد عن الحد المعقول ، فلم يكن أحد منهم يعزف عن الزواج، ولم يكن أحد من رجالهم أو نسائهم يجنح إلى الرهبانية، ولكن هناك ما يحول بينهم، وبين التناسل، وهذا دليل على رفضهم لحياة العفاف، والشرف. كانوا جميعًا يتزوجون الفقراء منهم، والأغنياء، الأصحاء، والمرضى، وكانوا لا يتعلمون من المسيحيين القدامى الذين كان الرجل منهم ينجب خمسة أو ستة أبناء، فإذا زوج الابن الأكبر أو البنت الكبرى كان يحاول أن يتجه بقية الأبناء إلى التفرغ للكنيسة، والرهبانية أو للجندية، والأسوأ من كل ذلك هو أن بعض المسيحيين القدامى – ممن يتباهون بأنهم من طبقة النبلاء – كانوا يتزوجون من موريسكيات، ويدنسون شرف عائلاتهم، وكان الواحد منهم يدعوا الله ألا يصل الدنس إلى روحه.

هناك أيضًا شكوك في استعداد الموريسكيين للثورة المسلحة، وهو شيء نجده في هذه الصفحات التي تروَى فيها حكايات كثيرة مثل هذه.

لقد تعرفت في إبيلا على موريسكية عجوز أرملة اسمها العمة بلانكا أو كاستيانا – ذات يوم ذهب إلى بيتها واحد ممن يجمعون المال للجيش، ولما كانت عجوزًا فلم تعد تتذكر سبب جمع المال، لكن الرجل قال لها إن هذا المال من أجل القيام بعمل ضد المسيحيين (وكان هذا ادعاء من جانبه) فأجابت «لهذا أدفع رغم أنني لا أملك إلا ريالين أحتفظ بهما لشراء زوج من الأحذية ينقصني ، لكنني أتحمل حاجتى من أجل عمل طيب كهذا" سمع الحوار مسيحيون قدامى – لم يفطن الموريسكيين إلى وجودهم – وأذاعوا ما حدث في القرية كلها، ولم تجرؤ المرأة العجوز على النفي، ولا على الاعتراف ، بل كانت تختبئ من الناس، وهى مترددة حتى لا يواجهها الناس بما قالت (الصفحات (42 – 43)

ننقل هنا بعض من الفقرات التي يصف أثنار فيها خروج موريسكيي أراغون إلى منفاهم».

الملحق رقم 15

تقرير بلا تاريخ – تقريبًا عام 1571م حول طرد الموريسكيين الغرناطيين [667]

« معهد دون خوان في فالنسيا ، رسالة رقم 1 ورقة رقم 86 »

السيد غابريل موسكوسو دى فيغيروا، المقيم في مدينة غرناطة : أخبر صاحب الجلالة أنه في هذه المدينة كان يوجد الكثير من الموريسكيين، والمدجنين، وقد تمت مصادرة أموالهم لصالح الأملاك الأميرية، وذلك لأنهم لم ينفذوا قرار صاحب الجلالة مثل الآخرين الذين خرجوا، وقد قام هؤلاء بإعداد شهادات تؤكد أنهم من المسيحيين القدامى، واستخدموا في ذلك شهودًا من الطبقة الفقيرة، والمحتاجين أمام رجال القضاء العادي، ومن المعروف أن هذه الشهادات كانت مزورة، كذلك يوجد آخرون قد بقوا فى هذه المدينة من خلال معارفهم، ومحاسيبهم – مما تسبب فى ضرر واضح للأميرية لأنهم كانوا من أغنيائها، وقد أمر صاحب الجلالة بتكوين لجنة للتحقق من ذلك، وفى حالة صعوبة التحقق من ذلك بصورة كاملة يجب تشكيل لجان أخرى، وقد كلف بذلك العمدة كريستوبال (غير مقروء) ، حيث قام بإجراء تحقيقات – فحبس البعض، وأفرج عن الآخرين بكفالة، وقد قام الكثيرون منهم بتقديم التماسات لصاحب الجلالة يتوسلون إليه أنه بإمكانهم خدمته، وجمع المبلغ المطلوب من أموالهم، وذلك لتغطية نفقات الظروف الحاضرة، وقد أرسل العمدة ذلك إلى مجلس ماليتكم، وذلك ليتم التشاور فيه مع جلالتكم، وقد ردوا عليه بأن من المتعذر الآن أن يتم ذلك، ولقد توقف عمل تلك اللجنة أكثر من ثلاثة أشهر بسبب وصول بعض الموريسكيين إلى هذه المدينة الذين تعاملوا (اتصلوا) مع بعض الأشخاص حول ذلك الأمر، وقدموا بعض التبريرات، ومنها الخاص بمجلس المالية، كذلك فقد تشاور آخرون حول الأمر المطروح، واتفقوا على أن (يقترحوا) أن يطلب صاحب الجلالة رؤية الطلب الأصلى، الموجود لدى السيد خوان لوبيث دي

بيلاسكو عضو مجلس البلدية، وأن تُطبق هذه المذكرة على الأشخاص الذين يعرفون أن أولئك الموريسكيين، والمدجنين قد قدموا تلك الشهادات المزورة، وأنه من العدل أن يتقدموا لجلالتكم ببعض أموالهم، وهذا واضح بالنسبة لهم حيث إنهم أبناء لهذه المدينة، أما الآخرون الذين ليسوا منها، فقد عاشوا بها فترة طويلة، وهم : رئيس المالية الذي عمل قاضيًا لفترة طويلة في محكمة تلك المدينة، والسيد غوارديولا، وهو من مجلس مالية جلالتكم، وعاش فترة في تلك المدينة، والسيد روى بيريث من مجلس المالية ومن أبناء تلك المدينة، ونرجو من جلالتكم أن تأمر ذلك العمدة أن يضمهم إلى لجنته.

الملحق رقم 16 :

قيمة الأضرار التي لحقت بكنائس غرناطة نتيجة تمرد الموريسكيين[668].

« أرشيف كاتدرائية غرناطة، لفة رقم 36 قطعة رقم 3 »

أسماء الأماكن	قيمة الأضرار بالدوقية
غرناطة باستثناء كنيسة سان سلفادور	21
في أماكن الغوطة والجبال	43
في مدن لوخا والحامة والقرى السبع	30
سالوبرينا والمونيكار وموتريل والأماكن الملحقة بها	17
بال دى ليكرين	20
دائرة أورخيبـــــا	7
البشرات : مناطق دى فيريرا بوكير	87
مناطق خوبيليس وأوخيخار وأندراكس ولوتشار	
بولو دى وسهل وبيرخا وداليـاس	10
الإجمـــــالى	234

إن الأضرار التي يبدو أنها قد حدثت لتلك الكنائس، والتي تعرف أخبارها حتى الآن سواء بحرق الأماكن أو هدمها تساوي 400.000 مرابطي الأضرار التي حدثت لقضبان النوافذ الحديدية، والأخشاب.

- الأبواب والمقاعد والأدراج المحطمة تساوى	30.000 مرابطى

- إطار من الحديد ، وزينة من الحرير ومشغولات من الذهب والديباج ، وكئوس الخل ، والأيقونات الكنسية ، وأحواض للتعميد وللمياه المباركة .	50.000 مرابطى
- الأشياء الخاصة بالورش ، وأصحاب معاشات (والمستفيدون) من كنائس البشرات وأرخيبا وبال دى ليكرين	15.700 مرابطى
- هذه الكنائس كان لديها إيجار الأشياء التابع لها مدفوعاً حتى عام 1573 وقيمته .	5625000 8300 311750
البشرات وماتشينا وأورخيبا	284615
بال دى ليكرين	108000

- وقد فقدت تلك الكنائس مبلغ 22.000 المستحقة لها على الدخول الخاصة بضريبة العشور، والأوقاف، والملكيات الثابتة حتى نهاية عام 1567م والتي تنتهي مدتها في نهاية العام التالي 1568م ومقدارها 7.390.342 .

الملحق رقم 17

استشارة مجلس برلمان قشتالة المقدمة إلى فيليب الثاني في 22 يوليو 1584م حول الأضرار التي حدثت لكنيسة ألمرية بسبب طرد الموريسكيين[669]

« صاحب الجلالة – نظرًا للضرر، والنقص الذي حدث في أموال رئاسة الكنيسة الكاتدرائية لمدينة ألمرية بسبب ثورة الموريسكيين، فإن نائب المطران، وأصحاب الرتب العليا بها، وكثير من الأشخاص كانوا يعانون حاجة شديدة، فتمت مساعدتهم لعام 70 ، والأعوام التالية حتى عام 75 بمقدار ألفي دوكية – أما فى أعوام 76 ، 77 ، 78 فقد خُصّص لهم مبلغ 800 دوكية ، وبعد ذلك توسلت الكنيسة بأن حاجتها تزايدت بسبب قلة المحصول، والغلاء، وطلبت مساعدة لعام 79 ، فأمر صاحب الجلالة بتقديم مبلغ 400 دوكية، وقد تبين من خلال تقرير لجنة السكان أن قيمة الأملاك الثابتة في تلك الرئاسة هي 525 ألف مرابطي كل عام ، كذلك فإن دخلها قد زاد خلال السنوات الخمس السابقة على التمرد هو 5.277.593 مرابطيًا، وبهذا تكون قيمة الأملاك في العام 2.078.113 مرابطيًا، حيث تكون قيمة الدخل في كل سنة من السنوات المذكورة هى 415.626 مرابطيًا، ويعيش في تلك الكنيسة ستة من الرؤساء، وستة من الكهنة القانونيين، وستة من موزعي الجرايات، وستة من القساوسة الخاصين، وخادم للكنيسة، وحاملي الصولجان، وغيرهم، ومع أنه بعد ذلك دخلت بعض المراتب مثل ثلاثة من مراتب القضاة القانونيين، وتحسنت الأمور، ولكن نظرًا للنقص السابق، فقد استمرت حاجة الرئاسة للمساعدة، وقد رأى مجلس السكان أنه يمكن أن يقدم لهم ألف دوكية مرة واحدة، بالإضافة إلى الدوكيات الأربعمائة المقررة، وسوف يتم لفت نظرهم إلى أنه لن يتم إعطائهم أى شيء آخر فيما بعد، وقد وافق صاحب الجلالة على ذلك، فيما بعد عام 82 كتب كل من الأسقف، ونائبه، وأصحاب الرتب العليا أنه نظرًا لأن الأسعار كانت قد ارتفعت فى

عام 81م إرتفاعًا فاحشًا، ولهذا فهم يحتاجون لزيادة دخولهم من جديد، وذلك لكي يستطيعوا الإنفاق على شئون حياتهم، وكانت الحاجة هذه المرة نظرًا لقلة المحصول أكثر مما سبق، وتوسلوا بأن يقدم لهم ألف دوكية – (فقدم لهم 400 دوكية).

«بعد ذلك تقدموا مرة أخرى وطلبوا الشيء نفسه، وقد تمت مراجعة ما كتبه كل من لجنة السكان، ولجنة إريغالو دي سوازو فى يونية عام 83 ، والذي فيه أن في تلك الأسقفية حدث نقص شديد في المحاصيل، وأنه لم يتم جمعها أو تربية أغنام، وأنه قد عانى أصحاب القداسة من الفقر الشديد، وأنه بمراجعة تقرير تقدمت به الكنيسة بأنه في عام 83 لم تكن هناك أي قيمة للضريبة على الماشية التي جاءت للرعي خلال شهور الشتاء في تلك المدينة لأن الشتاء كان قاسيًا جدًا.

« وقد كانت قيمة دخل ذلك عام 82 م (580.000) مرابطياً، وإذا أخذنا في اعتبارنا أن عام 84 كان أكثر فقرًا من الأعوام السابقة»

ولم تجد كل هذه المبررات مع الملك الحصيف، والذي كان دقيقًا، وإداريًا، واقتصاديًا في إدارته – إلا لأن يمنحهم 400 دوكية.

ملحق رقم 18

استشارة مجلس المالية في 15 فبراير عام 1611 حول ثروات الموريسكيين[670]:

كتب الدوق دي ليرما لي أنا الرئيس إن صاحب الجلالة قد أمر بأنه من الءن يجب الأخذ في الاعتبار ألا يصرف أي شيء من أموال الموريسكيين التي أمر بتسليمها لكي توزع على إدارة الأموال الأميرية، وأن يعلم ما تم صرفه وما بقى.

وتنقسم أموال الموريسكيين إلى نوعين، النوع الأول: الأصول التي تركوها، والنوع الثاني عبارة عن النقود، والحُلي التي سلموها ليسمح لهم بإخراج نصفها الآخر، وسوف يحسب فقط في هذا النصف الجزء الخاص بالأصول لأن النصف الخاص بالنقود، والحُلي يحسب بشكل منفصل.

وتنفيذًا لما أمر به صاحب الجلالة لهذا المجلس، فقد تم تعيين 13 قاضيًا، وأمر بأن يتم توزيعهم، وأن يحملوا السجلات التي ربما كتبوها عن الموريسكيين الذين خرجوا من تلك الأقاليم، والسجلات التي ربما كتبها مكاتب قضاة أموال الأصول التي كانت لديها، وتم جردها، وتقييمها، وتم عرضها في مزاد، واستلموا عروض الشراء.

في 7/ 4/ 1610م أمر صاحب الجلالة بأن ترسل له قائمة بالأموال التي تركها الموريسكيون في أماكن اقطاعياته، وألا يتم التصرف فيها بأي صورة حتى يصدر إشعار آخر، ثم بعد ذلك أمر القضاة بألا يبيعوا تلك الأماكن الخاصة، وأن يبعثوا قائمة بها، وتفصيلاً لما كانوا يقومون به، والأصول الموجودة في كل الأماكن، ولما كانت تلك الأماكن كثيرة، ولم تنته بعد عملية الطرد فقد حدث تراخ، وصعوبة في إرسالها، وبالنسبة لما تم إرساله فقد تم فيها ما سيتم تفصيله، حيث بين فيها الأصول التي وجدوها في كل حين، لأنه في بعض الحالات مازال يوجد الكثير من الأماكن

التي لم يتم البحث فيها بعد، وما قامت به الإدارة، وعملية بيه الأصول في أماكن الإقطاعية سواء نقدًا أو بالأجل، مع التنبيه على أن بعض الأصول ستباع أكثر من قيمتها، وأصول أخرى، وتمثل الجزء الأكبر، ستباع أقل من قيمتها، ولم يتم الانتهاء من التحقق من عملية الإحصاء، والديون التي على تلك الأصول، حيث يظهر كل يوم الجديد من المقرضين، ولا يمكن تقديم تلك القائمة الآن بشكل دقيق.

ومن خلال تلك القائمة يبدو أن الأصول الثابتة، والأراضي، والأشياء الأخرى في مناطق الأملاك الأميرية تساوي 171444558 مرابطيًا، باستثناء الأماكن التي تم تحديدها حتى الآن، ولم يتم التحقق منها (بصدد ديونها، وخلافه) بعد، كذلك كان حاصل بيع الفواكه هو : 53209997 ، وذلك بعد طرح حاصل المصاريف الإدارية، وهذا المبلغ ينقسم إلى 10500567 حصيلة البيع نقدًا، ومبلغ 41809430 يحتسب في صورة أقساط إجبارية الدفع، آخرها يجب أن يدفع في عيد القديس خوان عام 1613م، ويجب أن يكون واضحًا أنه بالنسبة للأصول الباقية التي لم يتم بيعها، لن يتم الحصول على المبلغ الذي كانت قد قُيمت به.

ويحتسب أيضًا ما قد يوجد في أماكن لم يتم التحقق منها، بالإضافة إلى المبلغ الذي أخذ من قيمة تلك الأصول، وهو 9033317 مرابطيًا، حيث سلم في أشبيلية إلى ماركيز سان غيرمان، وفيسكو، وخوستينتيانو في مدريد، وبعض القضاة مصاريف لعمولاتهم.

إن الأصول الثابتة التي وُجدت حتى الآن في الأقاليم الخاصة بجلالتكم تصل قيمتها إلى 113350452، في هذا المبلغ لا تدخل القيمة الخاصة بأصول هورناتشوس، حيث كلف صاحب الجلالة السيد خوان توماس فابادو بإدراتها، ولا تدخل في عمل المجلس، ومنا 30390461 مرابطيًا تم صرفها لفوكاريس.

وتبعا لقرار التحفظ على أموال مدريد، وأوكانيا، وأماكنها، تم التحقق أن الموجود في مدريد، وأراضيها يساوي 2617890، أما أوكانيا، والأماكن الاثنين والعشرين التابعة لها، وبعد خصم الديون فإنه يساوي 20855121، وقيمتها الإيجارية في العام 748730 (هذه الأرقام تكون ضمن المبلغ الإجمالي 171444558.

في الرد على هذه الاستشارة، اتخذ الملك قرارًا بالإبقاء على أراضي أندلوثيا، ومدريد، وأوكانيا، وأن يتم إحاطته بما فيها من بيوت النبلاء في الإقطاعيات، لأن هذه الأماكن تخضع لاعتبار آخر.

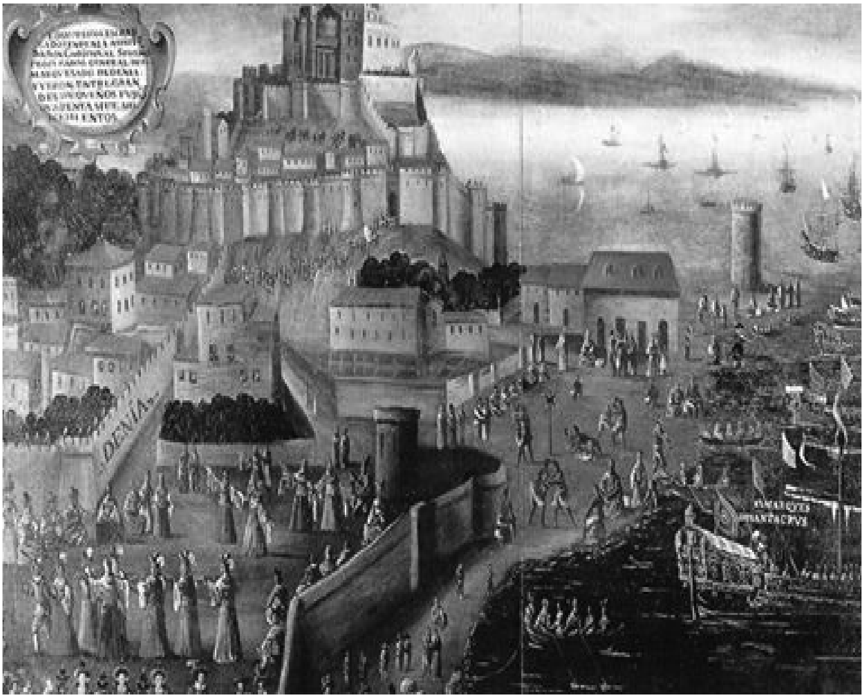

صورة لطرد المسلمين، وأماكن تجمعهم استعدادًا للرحيل (الإنترنت) موقع المسلمون فى الاندلس.

صورة تمثل خروج الموريسكيين من مدنهم لترحيلهم

(الإنترنت) موقع المسلمون في الأندلس

قائمة الخرائط، واللوحات

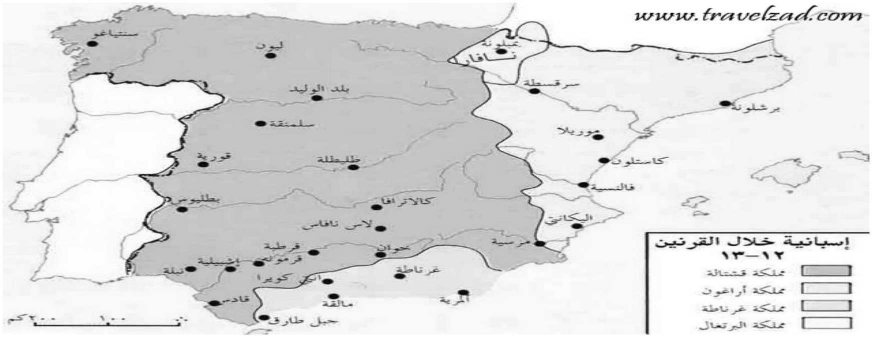

الخريطة رقم (1) وتوضح الممالك الإسلامية

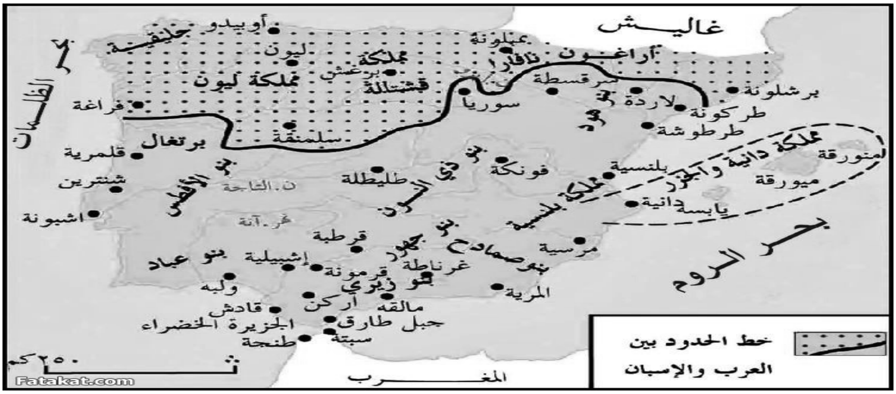

الخريطة رقم (2) توضح الحدود بين العرب والإسبان

(المصدر: موقع ويكيبيديا - شبكة الإنترنت)

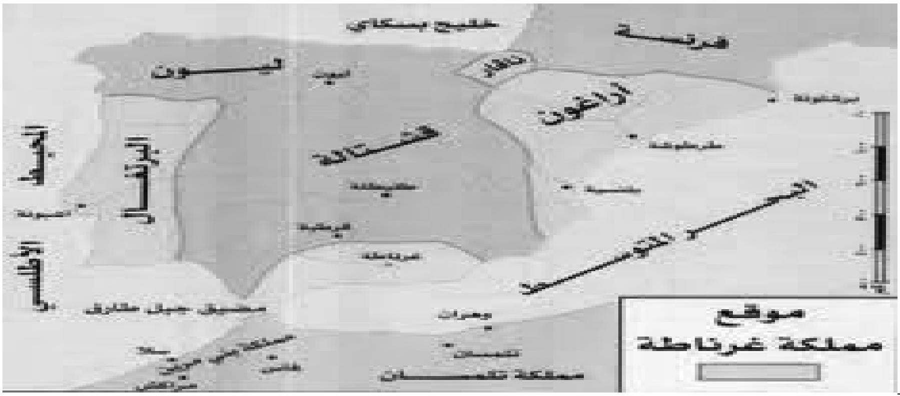

الخريطة رقم (3) توضح موقع مملكة غرناطة

المصدر: موقع ويكيبيديا - الأنترنت

الخريطة رقم 4

وتوضح المناطق التي اندلعت فيها حرب البشرات

المصدر: موقع عالم المعرفة (الإنترنت)

الثورة الأندلسية الأولى

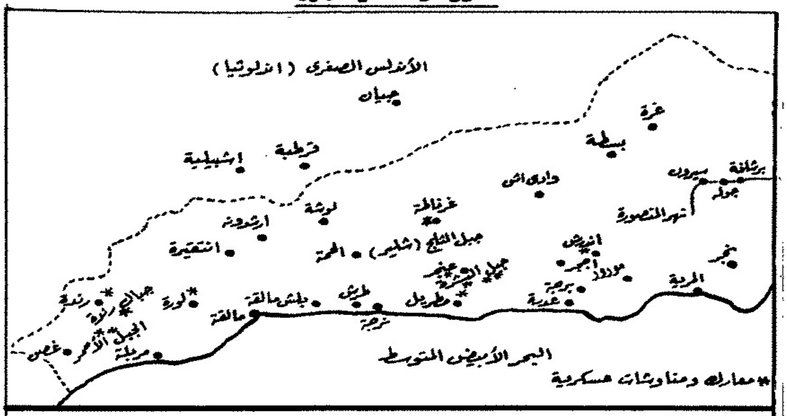

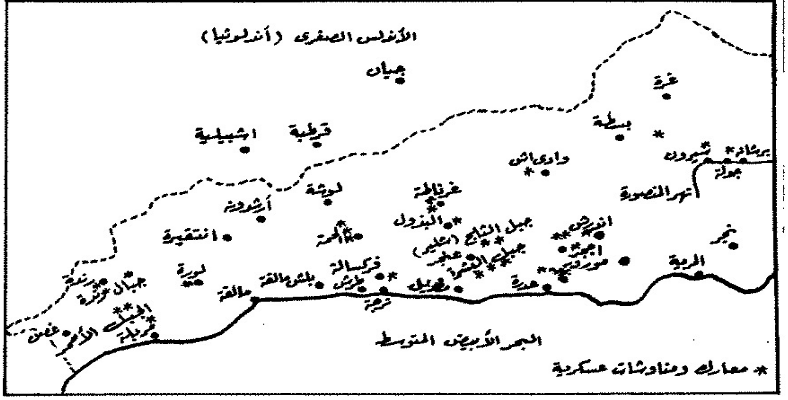

الثورة الأندلسية الكبرى

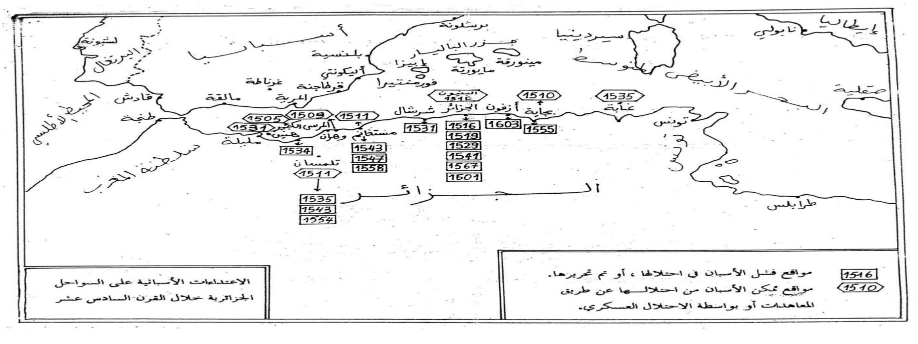

خريطة توضح الاعتداءات الإسبانية على السواحل الجزائرية خلال القرن 16 - الأنترنت موقع ويكيبديا

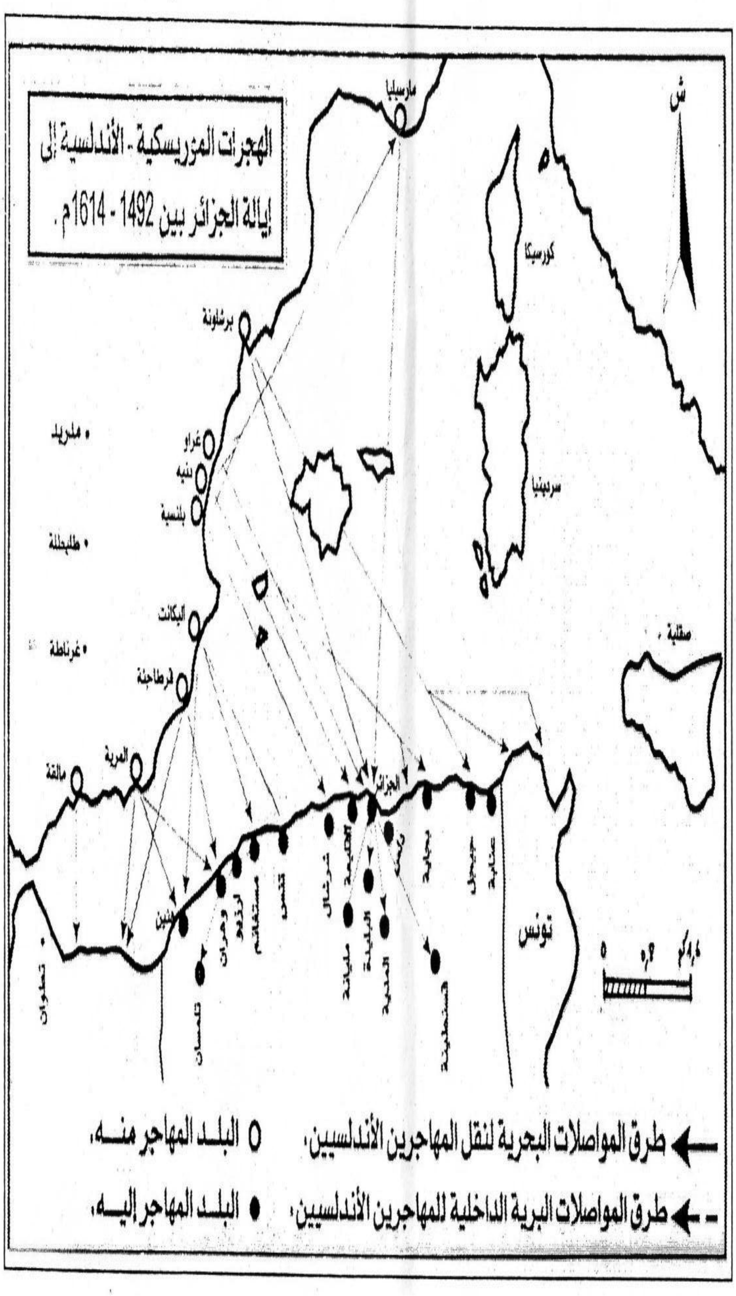

خريطة توضح هجرات الموريسكيين إلى الجزائر[671]

قائمة الأشكال، واللوحات

الشكل رقم (1) ويوضح طرق التعذيب من قبل محاكم التفتيش

رسم توضيحي رقم 2 يوضح ابن أمية

المصدر: موقع ويكيبيديا (الإنترنت)

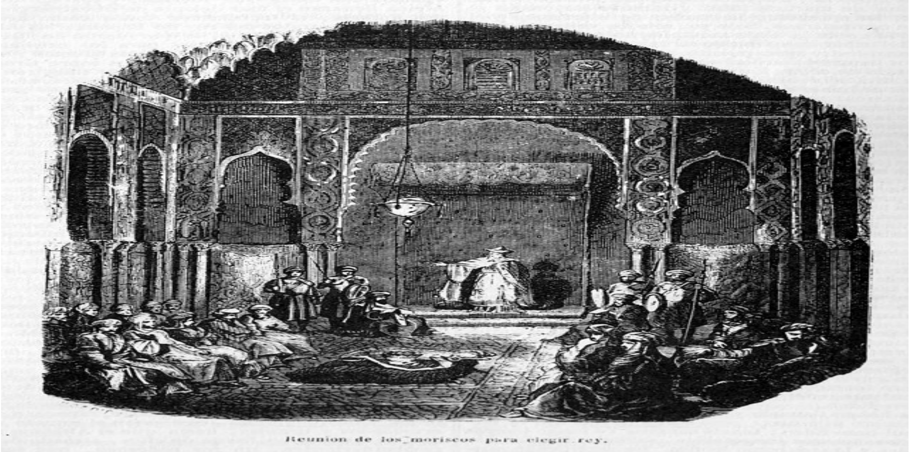

رسم توضيحي رقم 3 يوضح مبايعة ابن أمية ملكًا للمسلمين

المصدر: ويكيبديا (الإنترنت)

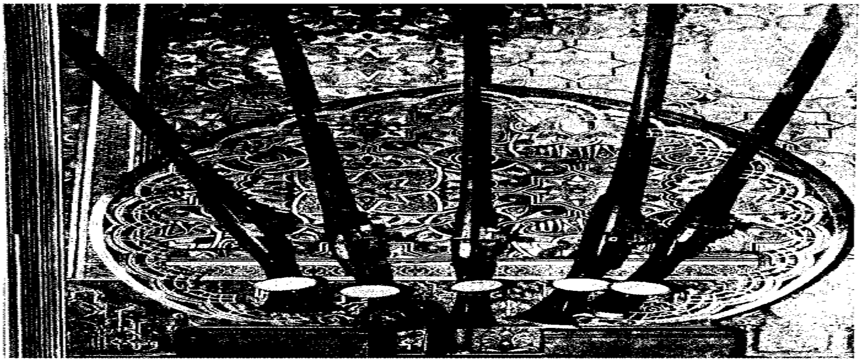

شكل رقم 4

يوضح بعض صور البنادق التي استخدمها أهالي غرناطة في القتال

عادل سعيد بشتاوي: المواركة، المرجع السابق، 260.

هوامش الكتاب

[1] – ستيفن كاستلز، مارك ميللر: عصر الهجرة، ترجمة: منى الدروبي، المجلس القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2013، ص75.
[2] – محمد صبري محسوب: مدخل لدراسة الجغرافية العامة،دار الإسراء للنشر والطباعة، القاهرة، 2007، ص174.
[3] – محمد صبري محسوب: مدخل الدراسة الجغرافية العامة، مرجع سابق، ص173.
[4] – ستيفن كاستلز – مارك ميللر: عصر الهجرة، مرجع سابق، ص75.
[5] – المرجع السابق: ص 76.
[6] – سليمان السيد سليمان: الجغرافية السياسية من الجيولولتيكا إلى العولمة، دار الكتاب الجامعي، القاهرة 2009، ص86.
[7] – سليمان السيد سليمان: المرجع السابق، ص88.
[8] – محمد صبري محسوب: المرجع السابق، ص174.
[9] – المرجع السابق، ص174.
[10] – سليمان السيد سليمان: المرجع السابق، 88.
[11] – ستيفن كاستلز – مارك ميللر: عصر الهجرة، المرجع السابق، ص233.
[12] – عبد الواحد طه دنون: أهمية الكتب الفقهية في دراسة تاريخ الأندلس نموذج تطبيقي عن كتاب المعيار، ضمن أعمال الندوة الدولية حول حضارة الأندلس في الزمن والمكان، الرباط 1992، ص138.
[13] – مولاي أحمد الكامون – هاشم السقلي: التأثير الموريسكي في المغرب، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، وجدة، المغرب 2010، ص32.
[14] – عبدالواحد دنون: المرجع السابق، ص251.
[15] – محمد قشتيلو: الفن المعماري الإسلامي في المعابد المسيحية بإسبانيا، مجلة دعوة الحق، عدد1، ص243.
[16] – المرجع السابق، ص69.
[17] – الحسن السائح: الحضارة المغربية: البداية والاستمرار، منشورات عكاظ، الرباط 2000، ص69.

[18] – ميكيل دي ايبالثا: الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى، ترجمة: جمال عبد الرحمن، الطبعة الأولى، حقوق الطبع والنشر المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2005 ص24.
[19] – مولاي أحمد الكامون – هاشم السقلي: التأثير الموريسكي في المغرب، المرجع السابق، ص34.
[20] – حسن اميلي: الجهاد البحري بمصب أبو رقراق – رد فعل أندلسي، ضمن أعمال ندوة المغرب وإسبانيا، خلال القرن السابع عشر، كلية الآداب – الرباط 1997، ص10.
[21] – لوي كاردياك: الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون – لمجابهة الجدلية، ترجمة: عبدالجليل التميمي، ط2، منشورات المجلة المغربية التاريخية، زغوان 1989، ص145.
[22] – مولاي أحمد الكامون – هاشم السقلي: التأثير الموريسكي في المغرب، المرجع السابق، ص36.
[23] – ميكيل دي ايبالثا: الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى، ترجمة: جمال عبد الرحمن، الطبعة الأولى، حقوق الطبع والنشر المركز القومي للترجمة، القاهرة 2005 ص24.
[24] – ميكيل دي ايبالثا: المرجع السابق، ص24.
[25] – ليفي بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس، ترجمة: ذوقان قرقوط، مكتبة دار الحياة، بيروت لبنان، 85.
[26] – ليونارد باتريك هارفي:الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، الجزء الأول، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعةالثانية: بيروت 1999، ص45.
[27] – ليونارد باتريك هارفي: المرجع السابق، 46.
[28] – محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس – العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ص17، الطبعة الرابعة، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة 1997.
[29] – أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ص850، القسم الثالث – المجلد الأول، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت – لبنان1997.
[30] – أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني: المصدر السابق، ص865.
[31] – المصدر السابق: ص 865.
[32]محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، المرجع السابق، ص 18. –
[33] – محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، المرجع السابق، ص20.
[34] – المرجع السابق: ص21.
[35] – إلبيرة وبالإسبانية Elvira مدينة رومانية قديمة كانت تُسمى أيام الرومان lliboris وكانت عاصمة للولاية التي تُسمى بهذا الاسم ، وكانت أيام الفتح الإسلامي مدينة كبيرة عامرة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تعليق وتصحيح: ليفي بروفنسال، ص29 – 30، الطبعة الثانية، دار الجبل بيروت، لبنان1988.

[36] – لسان الدين الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تقديم وتحقيق: محمد عبد الله عنان، الجزء الأول الطبعة الثانية، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة 1973، ص100 – 104.

[37] – المصدر السابق: ص 103.

[38] – محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس – المرجع السابق، ص28.

[39] – المرجع السابق، ص28.

[40] – لمتونة: اسم القبيلة التي ينتمي إليها المرابطون، ولذا يسمون أحياناً باللمتونيين. (المرجع السابق: ص21).

[41] – عبد الرحمن ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضعه: خليل شحاتة، مراجعة: سهيل زكار، ج4، دار الفكر للنشر، لبنان2000، ص169.

[42] – المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، ج2، ط2، دار صادر للنشر، لبنان 1988، ص581 – 583.

[43]2 – المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض، ضبط وتحقيق وتعليق: مصطفى السقا، إبراهيم الإبيارى، عبد الحفيظ عبد الباري، ج3، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1940، ص 207.

[44] – ابن الخطيب: الإحاطة، المرجع السابق، ج1، ص158 . ج2، ص59.

[45] – ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: إحسان عباس، ط2، دار الثقافة بيروت 1980، ج2.ص279.

[46] – ابن عذارى: البيان المغرب، المصدر السابق، ص279.

[47] – المصدر السابق: ص280.

[48] – ابن الخطيب: اللمحة البدرية لدولة النصرية، صححه ووضع هوامشه: محب الدين الخطيب، ص35، ط1، المطبعة السلفية، القاهرة 1347هـ.

[49] – محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، المرجع السابق، ص40

[50] - Rieto y vives: De como debionacer el Reino De Granada، Madriad 1987، p - 14

[51] – محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، المرجع السابق، ص43.

[52] – ابن عذاري: البيان المغرب، المصدر السابق، القسم الثالث، ص367.

[53] – ابن خلدون: ديوان العبر، مصدر سابق، ج7، ص190.

[54] – ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج2، ص65.

[55] - scott: the Moorish empirein Europe.v.ll ، 433 - 434

[56] – ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، مصدر سابق، ج2، ص66. والسبيكة: يُطلق على

البسيط (الطريق) الذى يقع جنوب شرق الحمراء.

[57] – محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، المرجع السابق، ص54

[58] – محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ص65.

[59] – حسن مراد: تاريخ العرب في الأندلس، دار الفرجاني، القاهرة 1984، ص133. ولقد كانت تخترق مملكة غرناطة من الوسط جبال سيرًا نفادا (جبل شلير) الشاهقة، وهضاب البشرات الوعرة وبسائطها الخضراء، كما تخترقها عدة أنهار منها شنيل فرع الوادي الكبير، ونهر أندرش الصغير، وفي الشرق نهر المنصورة، وكانت خواصها الطبيعية التي تجمع بين مزيج مدهش من المروج، والوديان الخصبة، والجبال، والهضاب الوعرة، تمدها بثروات زراعية، ومعدنية حسنة، ينميها، ويضاعفها الشعب الأندلسي الموهوب؛ بذكائه، ونشاطه، وبراعته المأثورة، وهكذا كانت مملكة غرناطة الصغيرة تستمد من مواردها الطبيعية أسباب القوة، والمنعة، والرخاء. محمد عبد الله عنان: العرب في الأندلس، ج4، المرجع السابق، ص55.

[60] – حسن مراد: تاريخ العرب، المرجع السابق، 144.

[61] – حسن مراد: تاريخ العرب، المرجع السابق، 145.

[62] – دون باسكوال بورونات إي براتشينا: الموريسكيون الإسبان ووقائع طردهم، ترجمة: كنزة الغالي، مركز العمودي للترجمة، ج1، المغرب 2012، ص110

[63] – مارمول كارباخال: وقائع ثورة الموريسكيين، ترجمة: وسام محمد جزر، مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة، القاهرة2012، ج1، ص٥٤.

[64] – دون باسكوال بورنات: المورسكيون الإسبان، المرجع السابق، ص111.

[65] – واشنطن إيرفنغ: سقوط غرناطة، ترجمة: هلاني يحيى نصري، ط1، مؤسسة الانتشار العربي – لندن 2000م، ص206.

[66] – مارمال كارباخال: المصدر السابق، ص80.

[67] – دون باسكول بورنات: المرجع السابق، ص113.

[68] – عُبادة كحُيلة: القطوف الدواني في التاريخ الإسباني، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2011، ص125.

[69] – عُبادة كحُيلة :المرجع السابق، ص125، 126.

[70] – واشنطن ايرفنغ: سقوط غرناطة، المرجع السابق، ص291.

[71] – عبادة كحيلة: المرجع السابق، ص126.

[72] – واشنطن إيرفنغ: المرجع السابق، ص377.

[73] – سيتم ذكر بنود معاهدة تسليم غرناطة في الملاحق، وهي مكونة من 52 بندًا. وقد وردت

بنودها في: محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، مرجع سابق، 245 – 250. محمد عبد الله جمال الدين: المسلمون المنصرون، دار الصحوة، القاهرة، 1991، ص22 – 32. مرثيدس غارثيا: الموريسكيون الأندلسيون، ترجمة: جمال عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2003، ص31 – 35.

[74] – عبادة كحيلة: مرجع سابق، ص126.

[75] – ماريا دل كارمن : كيف كانت حقيقة سقوط غرناطة – فصول من تاريخ الأندلس، ترجمة: عبدالفتاح عوض، ط1، عين للدراسات والبحوث، القاهرة 2009، ص131.

[76] – واشنطن إيرفنغ: المرجع السابق، ص407.

[77] – المقري: نفح الطيب، مصدر سابق، ج3، ص635.

[78] – محمد جمال الدين عبد الله: المسلمون المنصرون – الموريسكيون الأندلسيون، دار الصحوة، القاهرة، ط1، 1991، ص43 – 44.

[79] – عبدالقادر الميلق: تأثير ثورات الموريسكيين الأندلسيين على العلاقات الجزائرية الإسبانية، رسالة ماجستير، جامعة غرداية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر 2013، ص28.

[80] – دومنيغيث – فينست: الموريسكيين مأساة أقلية، المرجع السابق، ص18.

[81] – أحمد الطوخى: المماليك والأندلس،دار الثقافة الجديدة، القاهرة1996، ص33.

[82] – ليونارد باتريك هارفى: تاريخ الموريسكيين السياسي والاجتماعي والثقافي، ضمن أعمال الحضارة العربية والإسلامية في الأندلس، ترجمة عبدالواحد لؤلؤة، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1998، ج1، ص114.

[83] – عبد العزيز سالم: علاقة مصر المملوكية بغرناطة قبيل وعقب سقوطها، م. ع. 5.د.م. منشورات زغوان 1993، ج2، ص114.

[84] – ليونارد باتريك، المرجع السابق، 324.

[85] – محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرن 16 – 17، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1991، ص85، 86.

[86] – أبو العباس المقري: أزهار الرياض، ج1، المصدر السابق، ص109 – 115.

[87] – دومنيغيث أورتيث – برنارد فينسينت: تاريخ الموريسكيين مأساة أقلية، ترجمة: عبد العال صالح، مراجعة: جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2007، ص60.

[88] - F. Braudel‹ La Mediterranee et le monde mediterraneen a l‹époque de philippe ll: ‹ 4Ed Armand. Colin paris 1979‹ T.ll‹p 394 - 395.

[89] – أحمد توفيق المدني: انهيار بلاد الأندلس وموقف دول الإسلام وإسطنبول من ذلك، مجلة الأصالة، الجزائر 1975، عدد 27، ص179 – 183.

[90] – فريدريش إيدلماير: مصير مسلمي إسبانيا في العصر الوسيط، ترجمة: مؤنس مفتاح، مجلة

الثقافة العربية، عدد 460، الرياض، مارس 2015، ص83.

[91] – فريدريش إيدلماير: المرجع السابق، ص83.

[92] – فريدريش إيدلماير : المرجع السابق، ص83.

[93] – فريدريش إيدلماير: المرجع السابق، ص83.

[94] – المرجع السابق: ص83.

[95] – المرجع نفسه: ص84.

[96] – فريدريش إيدلماير: مرجع سابق، ص84.

[97] – المقري: أزهار الرياض، ج1، المصدر السابق، ص78.

[98] – مجهول: أخبار العصر، مصدر سابق، ص118.

[99] – ميكيل دي ايبالثا: المرجع السابق، ص 69.

[100] – أحمد الكاموني – هاشم السقلي: المرجع السابق، ص79.

[101] – لوي كاردياك: الموسكيون والمسيحيون، المرجع السابق، ص112.

[102] – المرجع السابق: ص26.

[103] – المرجع نفسه، ص147.

[104] - F. Braudel: La Mediterranee،op.cit، p.120.

[105] – محمد عبد الله جمال الدين: المسلمون المنصرون، المرجع السابق، ص50.

[106] – ميكيل دي أيبالثا: الموريسكيون في المنفى، المرجع السابق، ص69.

[107] - Bermudez de Be drac: Historia eclesiostica، principios y progresos de la ciudad y religion catolica ، p 236 ، de Granada 1638.

[108] – وفقاً لمبدأ التقية في الإسلام، يجوز للمسلم أن يخفي دينه عند تعرضه لخطر كبير في حياته، ومعيشته بسبب ممارسة دينه، فحرصًا عليه يجيز الإسلام أن يمارس الشعائر، والعبادات الدينية سرًّا، ويعلن ما يريده منه الأعداء، وذلك حفاظًا على حياة المسلم، وتيسيرًا عليه لتجنب مخاطر الحياة، والمعيشة، ونجد أن مفتي وهران أفتى بذلك للأندلسين المنصرين عندما تعرضوا للأذى من قبل محاكم التفتيش الإسبانية، وذلك عام 1504م. جمال عبد الرحمن: مقدمة كتاب ميكيل دي أيبالثا: الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى، مرجع سابق، هامش ص69 – 70.

[109] – ميكيل دي أيبالثا: الموريسكيون في المنفى، المرجع السابق، ص72.

[110] – مرثيديس غارثيا أرنيال: الموريسكيون الأندلسيون، ترجمة: جمال عبد الرحمن، ط 1، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، 2003، ص39، 40.

[111] – ميكيل دي أيبالثا: الموريسكيون في المنفى، مرجع سابق، ص70.

[112] – مرثيديس غارثيا أرنيال: الموريسكيون الأندلسيون، المرجع السابق، ص40.

[113] – ميكيل دي أيبالثا: ، المرجع السابق، ص71.

[114]. – كانت فتوى الونشريسي بمثابة خيبة أمل للمسلمين الأندلسيين بدليل أنها توجب الهجرة على المسلم من بلد غلب عليه الكفر في حين أن فتوى أحمد الوهرانى أعادت لهم الأمل وجعلتهم يتراجعون عن الهجرة. انظر: مولاي أحمد الكامون – هاشم السقلي: التأثير الموريسكي في المغرب، المرجع السابق، ص76.

[115] – المرجع السابق،: ص72.

[116] – فريدريش إيدلماير: مرجع سابق، ص84.

[117] – فريدريش إيدلماير: مصير مسلمي إسبانيا، المرجع السابق، ص84.

[118] – فريدريش إيدلماير: المرجع السابق، ص84، 85.

[119] – ميكيل دي ايبالثا: المرجع السابق، ص72 – 73.

[120] - Louis Viardot‹ Histoire des Arabes et des mores d‹Espagnem etition paris pagnerre 1851 - T1‹ p37

[121] - Anne Marie Joseph Albert ‹ circout; Histoire des mores Mudejares et des morisques ou des Arabes d‹Espagne sous la domination des chretines‹ paris 1846‹ T3 note2‹ p25

[122] – أحمد الكاموني – هاشم السقلي: التأثير الموريسكي، المرجع السابق، ص8، 83.

[123] – ليونارد باتريك هارفى: تاريخ المورسكوس، المرجع السابق، ص344.

[124] – أحمد الكاموني – هاشم السقلي: المرجع السابق، ص84.

[125] – شاكر مصطفى: موسوعة دول العالم الإسلامي، ط1، دار العلم للملايين، بيروت 1993، ج2، ص132.

[126] – مولاي أحمد الكاموني – هاشم السقلي: التأثير الموريسكي في المغرب، المرجع السابق، ص70.

[127] – المقري التلمسانى: أزهار الرياض في أخبار عياض، ضبطه وحققه: مصطفى اسقا – إبراهيم الإبياري – عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التألف والترجمة، القاهرة 1940، ج1، ص69 – 71.

[128] – محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، المرجع السابق، ج4، ص315.

[129] – المرجع السابق:.ص 319 – 320.

[130] – المقري: نفح الطيب، المصدر السابق، ج2، ص616 – 617.

[131] – مرثيدس غارثيا ارينال: محاكم التفتيش والموريسكيون، ترجمة: خالد عباس، مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن، ط1، المشروع القومي للترجمة، القاهرة2004، ص7.

[132] – عبد الرحمن على الحجى: محاكم التفتيش الغاشمة، وأساليبها، ط1، مكتبة المنار الإسلامية،

الكويت 1987، ص44.
[133] – مرثيدس غارثيا ارينال: المرجع السابق، ص7
[134] – المرجع السابق: ص8
[135] – عبد الرحمن علي الحجي: محاكم التفتيش الغاشمة،المرجع السابق، ص45.
[136] – مرثيدس غارثيا ارينال: محاكم التفتيش، المرجع السابق، ص9
[137] – عبد الرحمن علي الحجي: المرجع السابق، ص46.
[138] – مرثيدس غارثيا ارينال: محاكم التفتيش – المرجع السابق، ص9، 10.
[139] – مولاي أحمد الكامون – هاشم السقلي: التأثير المورسكي في المغرب، المرجع السابق، ص73.
[140] – لوي كاردياك: المورسكيون الأندلسيون، المرجع السابق، ص24.
[141] – لى هنري تشارلس: العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة، ترجمة حسن سعيد الكرمي، ط1، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، 1988، ص132.
[142] – المقري: أزهار الرياض، المصدر السابق، ج1، ص109 – 115 حيث القصيدة كاملة.
[143] – مولاي أحمد الكاموني – هاشم السقلي: التأثير المورسكي في المغرب، المرجع السابق، ص74.
[144] – المرجع السابق: ص75.
[145] – محمد قشتيلو: محنة المورسكوس بإسبانيا، مطبعة الشويخ، تطوان 1980، ص115 – 117 وقد ذكر الفتوى كاملة.
[146] – كانت فتوى الونشريسى بمثابة خيبة أمل للمسلمين الأندلسين بدليل أنها توجب الهجرة على المسلم من بلد غلب عليه الكفر في حين أن فتوى أحمد الوهرانى أعادت لهم الأمل وجعلتهم يتراجعون عن الهجرة. انظر: مولاي أحمد الكامون – هاشم السقلي: التأثير الموريسكي في المغرب، المرجع السابق، ص76.
[147] – وتعنى عملية حرق التى كانت تقوم بها محاكم التفتيش أى الإعدام بالحرق (مولاي أحمد الكامون – هاشم السقلي: التأثير المورسكي في المغرب، المرجع السابق، ص74).
[148] – محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، المرجع السابق، ص337.
[149] – على مظهر: محاكم التفتيش بإسبانيا والبرتغال وفرنسا، مطبعة أنصار السنة المحمدية، القاهرة 1947، ص95 – 96.
[150] – مرثيدس غارثيا ارينال: المرجع السابق، ص10، 11.
[151] – المرجع السابق: ص11.

[152] – مرثيدس غارثيا ارينال: محاكم التفتيش، المرجع السابق، ص12.

[153] – حنيفي هلايلي: أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي، دار الهدى، الجزائر 2010، ص94.

[154] – ليلى الصباغ: ثورة مسلمي غرناطة عام 976هـ أواخر عام 1568م والدولة العثمانية، مجلة الأصالة، عدد27، الجزائر، 1975م، ص117. ولقد ذكرت ما أورده المقري: أزهار الرياض، المصدر السابق، ص109

سلام كريم دائم متجدد خص به مولانا خير خليفة

سلام عليكم من عبيد تخلفوا بأندلس بالغرب من أرض غربة

وقد بدلت أسمائنا وتحولت بغير رضا وغير إرادة

[155] – جوزيف بيريز: التاريخ الموجز لمحاكم التفتيش بإسبانيا، ترجمة: مصطفى أمادي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبى، ط1، 2012، ص61.

[156] – مارمول كاراخال: وقائع ثورة الموريسكيين، المصدرالسابق، ص147.

[157] – بدرو لونغاس: حياة الموريسكيين الدينية، ترجمة وتحقيق: جمال عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2010، ص34 – 35.

[158] – محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم، مرجع سابق، ص89.

[159] – حنيفي هلايلي: أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي، مرجع سابق، ص95.

[160] - Braudel(F): Laméditeranée…، Op،Cit،T p118،2.

[161] – جوزيف بيريز: التاريخ الموجز لمحاكم التفتيش بإسبانيا، مرجع سابق، ص61.

[162] – جوزيف بيريز: المرجع نفسه: ص61، 62.

[163] – المرجع السابق: ص62.

[164] – المرجع السابق، ص63.

[165] – مرثيدس غارثيا ارينال: محاكم التفتيش، المرجع السابق، ص56.

[166] – جوزيف بيريز: المرجع السابق، ص64.

[167] – المرجع السابق: ص 65.

[168] – جوزيف بيريز: التاريخ الموجز لمحاكم التفتيش بإسبانيا، المرجع السابق، ص64.

[169] – المرجع نفسه: ص64.

[170] – مرثيدس غارثيا ارينال: محاكم التفتيش، المرجع السابق، ص 57.

[171] – لوي كارادياك: الموريسكيون، المرجع السابق، ص72.

[172] – لوي كارادياك: حياة الموريسكيين الدينية، عامل تماسك لطائفة كانت تشكل أقلية في إسبانيا

في القرن 16م، في: محاضرات ومناقشات الملتقى العاشر للفكر الإسلامي، وزارة التعليم والشئون الدينية، عنابة – الجزائر، 1976، مج 3، ص882.

[173] – محمد علي قطب: مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، الناشر دار الكتب المصرية، القاهرة1985، ص116.

[174] – المرجع السابق : ص117.

[175] – المرجع السابق : ص117

[176] – محمد علي قطب: مذابح وجرائم محاكم التفتيش ، المرجع السابق، ص118.

[177] – دومنيغيث أورتيث – برنارد فينسينت: تاريخ الموريسكيين مأساة أقلية، ترجمة: عبد العال صالح، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2007، ص42، 52.

[178] M.A.Ladero Quesada: los Mudejares de castilla en tiempo de Isabel، Valladolid، 1969، pp 21 - 29.

[179] – دومينغيث أورتيث – برنارد فينسينت: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، ص52.

[180] – هذه أول مرة يتحدث فيها أحد عن «مدجني غرناطة». فالمدجن هو المسلم المقيم في بلد يحكمه المسيحيون قبل عام 1492م، أما بعد هذا التاريخ فقد تحول كل مسلمي الأندلس إلى موريسكيين، أي مسيحيين في الظاهر ومسلمين في الخفاء. جمال عبد الرحمن: مراجع ومقدم كتاب تاريخ الموريسكيين مأساة أقلية – دومينغيث – فينسينت، هامش ص622

[181] - M. ladeero: losmudejares، op. cit ، pp 57 1

لقد حاول المؤرخ إيجاد مبرر لأفعال الكاردينال العنفية ضد المسلمين، وطرح تساؤلًا بأنه لا يدري إن كانت الأفعال موجهة للمسيحيين الذين أسلموا أو المسلمين كافة، ولعله لا يدري أن من اتبع الدين الإسلامي، ونطق الشهادتين مُحيت ديانته السابقة، وأصبح من المسلمين قلبًا وقالبًا، فهنا لانفرق بينهم، ومن ثم، فالأمر واضح... انتقام من الدين الإسلامي، والمسلمين.

[182] – دومينغيث أورتيث – برنارد فينسينت: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، ص62.

[183] - M. ladeero: losmudejares، op. cit ، pp 57

[184] – دومينغيث – برنارد: مرجع سابق، ص72.

[185] - M.A. Ladero، op. cit. p 318

[186] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينست: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، ص91.

[187] - Garred: the original memorial of don Francisco Nunez Muley. (atlnte. ll،A. 1954) PP.

[188] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينست: المرجع السابق، ص92.

[189] – جمال عبد الرحمن: هامش ص92 – ترجمة كتاب تاريخ الموريسكيين – دومنغيث اورتيث – برنارد فينست. ولا ندرى هل يشير المؤلف إلى نص القرارات أو إلى نص مذكرة نونيث مولاي،

فالتعبير الإسباني يحتمل الأمرين، ونلاحظ أن مذكرة نونيث مولاي قد حُذفت منها الكثير كما يؤكد خوليو كاروباخا.

[190] كان العمل في دار سك العملة يجلب الكثير من المنافع والإعفاءات، ولا يُسمح به إلا للأشخاص الذين لم تثبت عليهم أدنى شبهة، وسنرى فيما بعد كيف أن الموريسكيين، خاصة البلنسيين، تم اتهامهم بتداول وتصنيع عملة مزيفة في الوقت السابق مباشرة على الطرد، وتوجد أربعة نصوص صدرت في يونيو 1513م 182 - 176 Gallego - Gamir، op. cit، pp.

[191] - دومنغيث أورتيث - برنارد فينست: المرجع السابق، ص30.

[192] - دومنغيث أورتيث - برنارد فينست: المرجع نفسه:ص30.(الملحفة - كانت عبارة عن ثوب يغطى الجسم كله).

[193] - ليونارد باتريك هارفي: تاريخ المورسكوس، المرجع السابق، ص344.

[194] - A. Gamir: Las fardes para la costa granadina، en el volume en homenaje a carlos v publicado por la unviersidad de Granada (1958).2 E. - Ciscar y R. Garcia Carcel: Morisscos I Agermanats، Valencia 1974، pp.31 - 32

[195] - Louis Viardot; Histoire des Arabes، op،cit، p 371.

[196]دومنغيث أورتيث - برنارد فينسينت: تاريخ الموريسكيين - المرجع السابق، ص32. -

[197] - المرجع السابق، ص32.

[198] - حدث التعميد بشكل إجباري، وجماعي، وكان زعماء الجماعات يهدفون من وراء تعميد المسلمين إلى إلحاق أضرار بالنبلاء، فعندما يتحول المسلم إلى مسيحي فلن يدفع ضرائب باهظة للنبلاء، لهذا كانت شرعية التعميد محل شك. جمال عبد الرحمن: مراجع كتاب تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، لدومنغيث أورتيث - برنارد فينست، ص32.

[199] - Redondo: Fray Antonio de Guevara، et laespagne de son temps، paris، segunda seccion، capitulo 5. "las actividades inquisitoriales"

[200] - دومنغيث أورتيث - برنارد فينسينت: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، ص33.

[201] - E. Ciscar y R. Garcia Carcel، op. cit.، capitulo lll، Lagermanament morisc de 156، pp 12.

[202] - دومنغيث أورتيث - برنارد فينسينت: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، ص34.

[203] تم التأكيد للنبلاء أن تحول الموريسكيين للمسيحية لن يغير علاقة التبعية الموجودة بينهم وبين تابعيهم من الموريسكيين.

[204] - A 237، fol. 177 - H.N. Inquisicion، libro

[205] دومنغيث أورتيث - برنارد فينسينت: المرجع السابق، ص35. -

[206] - المرجع السابق، ص35.

[207] – المرجع السابق: ص35.
[208] - "Cortes de leon y Castilla"، tom IV (1476 - 1537)، pp.526 y 660
[209] - A.Garrido Aranda: papel de la lelesia de Granada en la asimilacion de la socieded morisca، en" anuario de Historia moderna y contemporanea"، no 2y 3 (1975 - 1976)، p.95
[210] - A. Redondo، op.cit.pp 30.
[211] - Gallego - Gamir، op.cit. pp 27 - 28. -
[212] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسينت: المرجع السابق، ص37.
[213] – المرجع السابق: ص 37.
[214] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسينت: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، ص38.
[215] – المرجع السابق، ص39. وهنا تبني للقول بالتهديد التركي لسواحل إسبانيا، لكن ماركيث بيانوبيا أكد أن الهجوم التركي على سواحل إسبانيا لم يكن عمليًا، وأن القادة الإسبان علموا ذلك، لكنهم أشاعوا الأسطورة لتحقيق مصالح سياسية. جمال عبد الرحمن (مراجع): الموريسكيين مأساة أقلية، ص39.
[216] - J.T. Montroe: A curious appeal on the ottpman Empire، Al andalus 1966، pp. 280 - 283.
وهنا نود توضيح حقيقة وجود مراسلات بين الموريسكيين، والدولة العثمانية، نشر بعضها عبد الجليل التميمي، لكن هذا التعاون لم يكن ممكنًا من الناحية العملية نظرًا لاعتبارات منها أن الدولة العثمانية كانت تخوض حروبًا على جبهات أخرى.
[217]دومنغيث أورتيث – برنارد فينسينت: المرجع السابق، ص.39 –
[218] S.Garcia Martinez: Bandolerismo، Pirateria ycontrol de moriscos en Valencia durante el reinado de Felipe II، Estudis، 1974، pp. 85.
[219] - J. Tapia Garrido: la costa de los piratas، Rivista de Historia militar 197، pp. 97 .
[220]دومنغيث أورتيث – برنارد فينسينت: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، ص41. –
[221] المرجع نفسه: ص41. –
[222]1 - M. S.Carrasco Urgoiti: El problema Morisco en Aragon al comienzo Del reinado de FeliPE II، Valencia 1969، pp 142.
[223] - S. Garcia Martinez ، op. cit، pp 108.
[224] - M. Danvill: Desarme de los Moriscos en 1563، "Boletin de la Real Academia de la Hitoria" 1887، pp275 - 280.
[225] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسينت: المرجع السابق، ص42.
[226] – مرثيديس غارثيا أرنيال: الموريسكيون الأندلسيون، ترجمة وتقديم: جمال عبد الرحمن، ط 1،

المشروع القومي للترجمة، القاهرة 2003،ص 56.
[227]دومنغيث أورتيث – برنارد فينسينت : المرجع نفسه: ص43. –
[228]1 - K.Garrad: La industria sedera granadina en el siglo xvI y su conexion con el levantamiento de las Al pujarras ‹(Miscelanea de Estudios Arabes‹ 1956) ‹pp. 75.
[229] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسينت: المرجع السابق، ص44.
[230] – مارمول كارباخال: وقائع ثورة الموريسكيين، ترجمة: وسام محمد جزر، مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن، ج1، المركز القومي للترجمة، القاهرة2012، ط1، ص187 – 213.
[231] – مارمول كارباخال: المصدر السابق، ص2 20.
[232] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسينت: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، ص45.
[233] – فريدريش إيدلماير: مصير مسلمي إسبانيا، المرجع السابق، ص86.
[234] – المرجع نفسه: ص86.
[235] – مرثيديس غارثيا أرينال: شتات أهل الأندلس (المهاجرون الأندلسيون)، ترجمة: محمد فكري عبد السميع، ط1، المجلس القومي للترجمة، القاهرة 2600، ص132.
[236] – انظر مذكرة السيد فرانثيسكو نونييث مولاي في: مرثيدس غارثيا: الموريسكيون الأندلسيون، ترجمة: جمال عبد الرحمن، ط1، المجلس القومي للترجمة، القاهرة2003، ص53 – 61.
[237] – مرثيدس غارثيا: المرجع السابق، ص133.
[238] – عادل سعيد بشتاوي: الأندلسيون المواركة، دار أسامة للنشر، ط1، القاهرة 1983، ص126.
[239] – عادل سعيد بشتاوي: المرجع السابق، ص126، 127.
[240] – حنيفي هلايلي: أبحاث ودراسات، المرجع السابق، ص154.
[241] – لوي كاردياك: الموريسكيون الأندلسيون، المرجع السابق، ص69.
[242] – الأدب الألخميادي نوع من أنواع المقاومة السرية، وهو لغة مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة. وكلمة Aljamia أعجمية تعني كل ما هو غير مشتق من العربية، وهي نعت بُني على كلمة Aljamiado . فالأدب الألخميادو هو أدب آخر مسلمي الأندلس. جمال يحياوي: سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين 1492 – 1610م، دار هومة، الجزائر2900، ص219.
[243] – عبد الله حمادي: الموريسكيون الأندلسيون ومحاكم التفتيش في الأندلس (1492 – 1616م)، الجزائر، 1989، ص107.
[244] – لوي كاردياك: حياة الموريسكيين الدينية، مقال سابق، ص932.
[245] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسنت: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، ص51.

[246] – أسعد حَومَد: محنة العرب في الأندلس، ط2، بيروت 1988، المؤسسة العربية للدراسات، ص902.

[247] – علي بن محمد المنتصر بالله الكتاني: انبعاث الإسلام في الأندلس، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005، ط1، ص102.

[248] – أسعد حَومَد: محنة العرب في الأندلس، المرجع السابق، ص912.

[249] – أسعد حَومَد: المرجع نفسه: ص291.

[250] – علي بن محمد المنتصر بالله الكتاني: المرجع السابق، ص103.

[251] – أسعد حَومَد: المرجع السابق، ص92.

[252] – عادل سعيد بشتاوي: الموارکة، المرجع السابق، ص130.

[253] – أسعد حَومَد: محنة العرب، المرجع السابق، ص 92، 392.

[254] – عبد الجليل التميمي: الدولة العثمانية وقضية المورسكيين، المجلة التاريخية المغربية، تونس، عدد23 – 24، 1981، ص63.

[255] – علي بن محمد المنتصر بالله الكتاني: انبعاث الإسلام، المرجع السابق، ص103.

[256] – أسعد حَومَد: محنة العرب، المرجع السابق، ص932 .

[257]1 - Diego Hurtado de Mendoza" Guerra de Granada " ed.، Madrid، 1970.
B. Blanco Gonzalez - p2 8.

[258] – أسعد حَومَد: محنة العرب، المرجع السابق، ص933.

[259] – المرجع السابق، ص942.

[260] – المرجع نفسه : ص294.

[261] – أورتادوا دي مندوثا: حرب غرناطة، ترجمة: إيمان عبدالحليم – سلوى محمود، مراجعة وتقديم، جمال عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة2008، ص46.

[262] – أسعد حَومَد: المرجع السابق،296.

[263] – أورتادوا دي مندوثا: حرب غرناطة، المرجع السابق، ص53.

[264] – أسعد حَومَد: محنة العرب في الأندلس، المرجع السابق، ص972.

[265] – علي بن محمد المنتصر بالله الكتاني: انبعاث الإسلام، المرجع السابق، ص103.

[266] – أورتادوا دي مندوثا: حرب غرناطة، مصدر سابق، ص65. أسعد حَومَد: مرجع سابق، ص982.

[267] – بيريث دي إيتا: الحروب الأهلية في غرناطة، ترجمة: مروة محمد إبراهيم، مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن، ط1، ج1، المركز القومي للترجمة، القاهرة2009، ص185.

[268] – عادل بشتاوي: الموارکة، المرجع السابق، ص134.

[269] – علي منتصر الكتاني: انبعاث الإسلام، المرجع السابق، ص105.
[270] – أسعد حَومَد: المرجع السابق، ص992.
[271] – بيريث دي إيتا: الحروب الأهلية، ج1، المصدر السابق، ص147.
[272] – أورتادوا دي مندوثا: حرب غرناطة، المصدر السابق، ص68.
[273] – خوليو كاروباروخا: مسلم مملكة غرناطة بعد عام 1492، ترجمة وتقديم: جمال عبد الرحمن، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة2003، ص162، 215.
[274] – بيريث دي إيتا: الحروب الأهلية، ج1، المصدر السابق، ص148.
[275] – مارمول كارباخال: وقائع ثورة الموريسكيين، ترجمة: وسام محمد جزر، مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن، ط1، ج1، المركز القومي للترجمة، القاهرة 1012، ص462.
[276] – أورتادوا دي مندوثا: حرب غرناطة، المصدر السابق، ص85.
[277] – أسعد حَومَد: محنة العرب في الأندلس، المرجع السابق، ص302.
[278] – أورتادوا دي مندوثا: المصدرالسابق، ص86.
[279] – أسعد حَومَد: المرجع السابق، ص303.
[280] – علي منتصر الكتاني: انبعاث الإسلام، المرجع السابق، ص106.
[281] – خوليو كاروباروخا: مسلم مملكة غرناطة، المرجع السابق، ص172.
[282] – أورتادوا دي مندوثا: حرب غرناطة، المصدر السابق، ص105.
[283] – أسعد حَومَد: محنة العرب في الأندلس، المرجع السابق، ص304.
[284] – علي منتصر الكتاني: انبعاث الإسلام، المرجع السابق، ص109.
[285] – أورتادوا دي مندوثا: حرب غرناطة، المصدر السابق، ص106. أسعد حَومَد: محنة العرب، المرجع السابق، ص305.
[286] – مارمول كارباخال: وقائع ثورة الموريسكيين، المرجع السابق، ص872.
[287] – أسعد حَومَد: محنة العرب في الأندلس، المرجع السابق، ص305.
[288] – علي منتصر الكتاني: انبعاث الإسلام، المرجع السابق، ص109.
[289] أسعد حَومَد: مرجع سابق، ص306، 308. بيريث دي إيتا: الحروب الأهلية، مصدر سابق، ص149.
[290] – المرجع السابق، ص308.
[291] – علي منتصر الكتاني: انبعاث الإسلام، المرجع السابق، ص109.
[292] – أورتادوا دي مندوثا : حرب غرناطة، المصدر السابق، ص12.
[293] – بيريث دي إيتا: الحروب الأهلية، المصدر السابق، ص152.
[294] – علي منتصر الكتاني : انبعاث الإسلام، المرجع السابق، ص110.

[295] – أسعد حَومَد: محنة العرب في الأندلس، المرجع السابق، ص310.

[296] – خوليو كاروباروخا: مسلم مملكة غرناطة، المرجع السابق، ص182.

[297] – مارمو كارباخال : وقائع ثورة الموريسكيين، المصدر السابق، ص882.

[298] – نبيل عبد الحي رضوان: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1987م، ص165.

[299] – أسعد حَومَد: محنة العرب في الأندلس، المرجع السابق، ص312.

[300] – محمد عبده حتاملة: التهجير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملك الثاني (1527 – 1598م)، الطبعة الأولى – عمان – الأردن 1982م، نشر الجامعة الأردنية، ص53.

[301] – المرجع نفسه: ص53.

[302] - - Francisco Oriol Cataen: Larepoblacion del reino de Granada des Puesdela Expulsion de losMoriscos، Boletin de la Universidad de Granada، Ano VII(Febrero 1935). No 32 page251.

[303] – أورتادوا دي مندوثا: حرب غرناطة، المصدر السابق، 178.

[304] – نبيل عبد الحي رضوان: «جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، المرجع السابق، 187.

[305] – محمد عبده حتاملة: التهجير القسري، المرجع السابق، ص54.

[306] – علي منتصر الكتاني: انبعاث الإسلام، المرجع السابق، ص112.

[307]3 - Francisco de Paula Villa، Valdivia: Obra . Citade.Lecciones ، 62y63، pags. 411 - 429.

[308] – عادل بشتاوي: الموراكة، مرجع سابق، ص134.

[309] – أورتادوا دي مندوثا: حرب غرناطة، المصدر السابق، ص179.

[310] – محمد عبده حتاملة: التهجير القسري لمسلمي الأندلس، المرجع السابق، ص62.

[311] – علي منتصر الكتاني: انبعاث الإسلام، المرجع السابق، ص113.

[312] – محمد عبده حتاملة: المرجع السابق، ص62.

[313] – أسعد حَومَد: محنة العرب في الأندلس، المرجع السابق، ص313.

[314] – محمد عبده حتاملة: التهجير القسري لمسلمي الأندلس، المرجع السابق، ص63.

[315] – أورتادوا دي مندوثا: حرب غرناطة، المصدر السابق، ص182.

[316] – نبيل عبد الحي رضوان: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، المرجع السابق، ص188.

[317] – محمد عبده حتاملة: التهجير القسري لمسلمي الأندلس، المرجع السابق، ص68.

[318] – علي منتصر الكتاني: انبعاث الإسلام، المرجع السابق، ص115.

[319] – محمد عبده حتاملة: المرجع السابق، ص70.

[320] – امريكو كاسترو: تاريخ إسبانيا، ترجمة: جمال عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة2003، ص143.
[321] – أسعد حَومَد: محنة العرب في الأندلس، المرجع السابق، ص315.
[322] – – بيريث دي إيتا: الحروب الأهلية، المصدر السابق، ص155.
[323] – : المرجع نفسه: ص155.
[324] – محمد عبده حتاملة: التهجير القسري لمسلمي الأندلس، المرجع السابق، ص73.
[325] – علي منتصر الكتاني: انبعاث الإسلام، المرجع السابق، ص116. محمد عبده حتاملة: المرجع السابق، ص73.
[326] – محمد عبده حتاملة: التهجير القسري لمسلمي الأندلس، المرجع السابق، ص76.
[327] – أورتادوا دي مندوثا: حرب غرناطة، المصدر السابق، ص178.
[328] – أسعد حَومَد: محنة العرب في الأندلس، المرجع السابق، ص318.
[329] – محمد عبده حتاملة: التهجير القسري لمسلمي الأندلس، المرجع السابق، ص76.
[330] – المرجع نفسه: ص77.
[331] – أورتادوا دي مندوثا: حرب غرناطة، المصدر السابق، ص179.
[332] – محمد عبده حتاملة: التهجير القسري ، المرجع السابق، ص78.
[333] – محمد عبده حتاملة: التهجير القسري، المرجع نفسه: ص78.
[334] – لوي كاردياك: الموريسكيون الأندلسيون: المرجع السابق، ص131.
[335] – محمد عبده حتاملة: المرجع السابق، ص80.
[336] – المرجع السابق، ص80.
[337] - Juan Regla: La expulsion de los Moriscos Y Sus. Contribucion a su studio. Hispania، Revista Espanola de Historia. Tomo XIII Madrid 1953. No. l. pags239.
[338] – فريدريش إيدلماير: مصير مسلمي إسبانيا، المرجع السابق، ص88.
[339] – خوليو كاروباروخا، موريسكي غرناطة، ترجمة :جمال عبد الرحمن، ط1، المركز القومى للترجمة، القاهرة 2003، ص 224، 225.
[340] - Felipe Martin Ruiz: Movimientos de Mogaficos y econmicosen el Reino de Granada du rantela Segun da Mitad del siglo XVI. Anuario de Historia Economica y Social I، 1968، p.142.
[341] – – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسنت: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، ص72.
[342] – محمد عبده حتاملة: التهجير القسري ، المرجع السابق، ص89.
[343] - Francisco Oriol Catena: Obra. Citada. No 32. Capt .II، Pags 312

[344] – مارمول كارباخا: ثورة الموريسكيين، المرجع السابق، ص437 – 444.

[345] – محمد عبده حتاملة: التهجير القسري لمسلمي الأندلس، المرجع السابق، ص90.

[346] – المرجع السابق: ص92.

[347] – محمد عبده حتاملة: التهجير القسري لمسلمي الأندلس، المرجع السابق، ص92.

[348] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسنت: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، ص66 – 68

[349] – المرجع نفسه: ص72.

[350] المرجع نفسه: ص66 – 68. –

[351] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسنت: المرجع السابق، ص72، 73.

[352] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسنت: المرجع السابق: ص73، 74.

[353] – عادل بشتاوي: الموراكة، المرجع السابق، ص155.

[354] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسنت: المرجع السابق، ص74.

[355] – المرجع السابق: ص74 – 75.

[356] – يبدو أن عدد الموريسكيين الذين بقوا في غرناطة كان كبيرًا، كما أن عدد كبيرًا من المطرودين عادوا سرًا أو علانية، وهذا ما يفسر بقاء التراث الإسلامي في غرناطة حتى وقت متأخر:جمال عبدالرحمن: مقدم ومترجم كتاب مأساة الموريسكيين، هامش ص76.

[357] – مارمول كاربخال: ثورة الموريسكيين، المرجع السابق، ص20.

[358] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسنت: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، ص77.

[359] – علي منتصر الكتاني: انبعاث الإسلام، المرجع السابق، ص125.

[360] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسنت:: المرجع السابق، ص78.

[361] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسنت: المرجع السابق:، ص79.

[362] – المرجع السابق: ص79.

[363] – لوي كاردياك: الموريسكيون الأندلسيون ،المرجع السابق، ص65.

[364] – ميكيل دي إيبالثا: الموريسكيون في إسبانيا، المرجع السابق، ص150.

[365] – ميكيل دي إيبالثا: الموريسكيون في إسبانيا، المرجع السابق، ص150، 151.

[366] – يرى بيانوبيا أن ريبرا كان مترددًا في اللحظة الأخيرة، وأنه ندم على تأييد قرار الطرد، القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى، ترجمة: عائشة سويلم، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، 2005، ص152.

[367] – ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق، ص151.

[368] – المرجع السابق: ص153.

[369] – ميغيل أنخيل بونيس إيبارا: الموريسكيون في الفكر التاريخي، ترجمة: وسام محمد جزر، مراجعة: جمال عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2005، ص56.

[370] – ميكيل دي إيبالثا: الموريسكيون في إسبانيا، المرجع السابق، ص153.

[371] – عادل بشتاوي: الموراكة، المرجع السابق، ص168.

[372] – ميكيل دي إيبالثا: الموريسكيين في إسبانيا، المرجع السابق، ص154.

[373] – خوليو كارو باروخا: مسلم مملكة غرناطة، المرجع السابق، ص52.

[374] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسنت: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، ص87.

[375] – خوليو كارو باروخا: مسلم مملكة غرناطة، المرجع السابق، ص82.

[376] – ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق، ص155.

[377] – ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق: ص156.

[378] – ليونارد هارفي: تاريخ المورسكيين، المرجع السابق، ص342.

[379] – أحمد الكامونى – هاشم السقلي: التأثير المورسكي، المرجع السابق، 65.

[380] – لي هنري تشارلس: العرب والمسلون في الأندلس بعد سقوط غرناطة، ترجمة: حسن الكرمي، ط1، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت 1988، ص131.

[381] – لي هنري تشارلس: العرب والمسلون في الأندلس، المرجع السابق،ص112.

[382] – محمد عبد الله جمال الدين: الأندلسيين المنصرين، المرجع السابق، ص301.

[383] – دومينغيث آورتيث برنارد فينسينت: تاريخ المورسكيين، المرجع السابق، ص6.

[384] – أحمد الكامونى – هاشم السقلي: التأثير المورسكي، المرجع السابق، ص68.

[385] – حنيفي هلايلي: أبحاث ودراسات، المرجع السابق، ص102103، مرثيدس غارثا: المرجع السابق ص115، عبد الله محمد جمال الدين: المرجع السابق، ص152.

[386] – دومينغيث آورتيث برنارد فينسينت: تاريخ الموريسكيين (مأساة أقلية)، المرجع السابق، ص7.

[387] – لقد ورد فيها: «فرقة من المسلمين، والمسلمات – تسير، وهي تسمع من كل ناحية شتائم – الرجال يحملون الثروات، والأموال – النساء يحملن أدوات الزينة، والملابس – العجائز يمشين بحزن، ويبكين – يجهزن الطعام، وهن يتميزون غيظًا – كلهن يحملن الجواهر، والأواني، والقناديل – عجوز يأخذ طفلا من يده – طفل آخر على صدر أمه – شاب ثالث قوي مثل الطروادبين – لا يتأخر عن حمل أبيه – كم من الموريسكيات الضعيفات التعيسات – عندما رأين أن أهلهن لا يجدون من يحميهم – عانقن أطفالهن الصغار – وصعدت إلى قمم الجبال – كما باعوا من أبنائهم المحببين لهم إلينا – مقابل لقمة من الخبز». ميكيل دي إيبالثا: الموريسكيون في المنفى، المرجع السابق ص157.

[388] – خوليو كارو باروخا: مسلم مملكة غرناطة، المرجع السابق، ص62.

[389] – دومينغيث أورتيث برنارد فينسينت: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، ص762، 159، 300.

[390] – ميغيل نخيل يونيس إيبارا: الموريسكيون في الفكر التاريخي، المرجع السابق، 165.
[391]1 - Henri Lapeyre: Georaphie de I Espagne Morisque، p.p 115

[392] – عبد الجليل التميمي: تأثيرات الموريسكيين الأندلسيين في المجتمع المغاربي… إيالة تونس نموذجًا، كتاب العربي الكويتي – حوار المشارقة والمغاربة، ج1، الطبعة الأولى – مجلة العربي الكويتي، 2006، ص55.

[393] – المرجع السابق، ص55.
[394] - Bennassar.Bartolome، Histoire des Espagnoles(v1 - xv11 Siecle)،Editeur Armand Colin، parism1985،T،i،p. 501.

[395] – محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، مرجع سابق، ص126 – 127.
[396] - Circourt. Marie Joseph Albert، Histoire des mores Mudjares et des morisquesou des Arabes d، ESPAGNE Sous la domination des chretiens، paris 1846، T.3، P.219.

[397] – ابن عبدالرفيع محمد الأندلسي: الأنوار في أنباء خير البرية، مخطوطة، الرباط، رقم المخطوطة 51238، ص335.

[398] – الحجري أحمد بن قاسم: ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق محمد رزوق، الدار البيضاء 1987، ص41.

[399] – محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم، المرجع السابق، ص126 – 127.

[400] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسنت: تاريخ الموريسكيين، مرجع سابق، ص310، 338. أما الأنواع المليون من الضرائب فتم فرضها في السنوات الأخيرة لحكم الملك فيليب الثاني، وكانت مفروضة على الأشياء الأساسية، مثل اللحوم، والزيت، والخمور، والخل، أما الكابالا فكانت ضريبة تُفرض على المبيعات، ونظريًّا تمثل 10 في المائة من قيمة المنتجات، لكن في العادة كانت أقل من ذلك بكثيرن، وقد كانت الخمر أحد المنتجات التي عليها ضرائب كثيرة.

[401] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسنت: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، ص310، 311.

[402] – المرجع السابق: ص311.

[403] – عادل بشتاوي: المواركة، المرجع السابق، ص159.

[404] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسنت: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، ص312.

[405] – المرجع السابق: ص313.

[406] – عادل بشتاوي: المواركة، المرجع السابق، ص162.

[407] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسنت: المرجع السابق، ص314.

[408] – المرجع السابق: ص314

[409] – – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسنت: المرجع نفسه: ص314 – 316.

[410] - B. Vincent; Un modele de decadence ; le royaume de Grenade dans le dernier tiers du xv1 siecle.(Actas de las jornadas de Metodologia aplicada a las ciencias historcas ‹ tomo‹ lll‹ Santiago de Compostela‹ (1976).pp.24.

[411] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسنت: المرجع السابق، ص317.

[412] - Zarco Cuevas: El licenciado Caja de Leruela y las Cuasas de la decadencia de Espana. (Estudios sobre la ciencia Espanola de sigolo xvll‹ Madridm 1935.

[413] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسنت: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، ص32 .

[414] - Juan B. Leban: ltinerario de reyno de Aragao. Adonde andou os Ultimos meses do anno de 1610 e os primeiros de 1611. P.68 (Zaragoza‹ 1895).

[415] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسنت: المرجع السابق، ص323.

[416] - A. M elon; La expulsion de los moriscos y el duque de Villahermosa‹(Revista Historical de Valladolid"‹ abril - junio 1925).

[417] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسنت: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، ص326.

[418] - Jose maria Lacarra: Aragon en el pasado‹ p 193 - 194(Madridm 1972).

[419] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسنت: المرجع السابق، ص327.

[420] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسنت: مرجع سابق، ص328، 329. وكان المارك يساوى نصف رطل، أو 230 جرامًا.

[421] – عادل بشتاوي: المواركة، المرجع السابق، ص169.

[422] – خوليو كارو باروخا: مسلم مملكة غرناطة، المرجع السابق، ص2 9.

[423] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسنت: المرجع السابق، ص336.

[424] – – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسنت: المرجع السابق، ص330.

[425] – ميكيل دي ايبالثا: الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى، المرجع السابق، ص161.

[426] – ماريا ثيرنيا نرفيات: طرد الموريسكيين وفقًا لشهادة الأب أثنار كردونا، بحث مقدم للمؤتمر الدولي 14 للدراسات الموريسكية الأندلسية، مؤسسة التميمي للبحث العلمي، شهر مايو،2009، ص58.

[427] – ماريا ثيرنيا نرفيات: المرجع السابق، ص 58.

[428] – عبد الجليل التميمي: تأثيرات الموريسكيين، مرجع سابق، ص56.

[429] – المرجع السابق: ص 57.

[430] – عبد الجليل التميمي: تأثيرات الموريسكيين، المرجع السابق، ص56، 57.

[431] – ميكيل دي ايبالثا: الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى، المرجع السابق، ص161.
[432] – ميكيل دي ايبالثا: المرجع السابق، ص162.
[433] – غيير موغوثالبيس بوستو: الموريسكيون في المغرب، ترجمة: مروة محمد إبراهيم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، ص178 – الطبعة الأولى،2005، المشروع القومي للترجمة.
[434] – محمد قشتيليو: حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا ودورهم خارجها، مطابع الشويج، تطوان، ط1، 2001، ص29.
[435] – محمد قشتيليو: حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا، المرجع السابق، ص62.
[436] – ميكيل دي إيبالثا: الموريسكيون في المنفى، المرجع السابق، ص166.
[437] – محمد قشتيلوا: المرجع السابق، ص 42.
[438] – محمد قشتيليو: المرجع السابق، ص42، 82.
[439] – المرجع السابق: ص82.
[440] – ميكيل دي إيبالثا: الموريسكيون في المنفى، المرجع السابق، ص176.
[441] – مولاي أحمد الكامون – هاشم السقلي: التأثير المورسكي في المغرب، المرجع السابق، ص91.
[442] – أحمد الونشريسى: المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981، ج2، ص121 – 138 .
[443] – المؤرخ المجهول: أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر، تحقيق: حسين مؤنس، ط1، مطابع الزهراء للإعلام العربي، القاهرة 1991، ص117.
[444] – عن الفتوى انظر: محمد قشتيلو: محنة الموريسكوس في إسبانيا، مطابع الشويخ، تطوان 1999، ص115 – 117.
[445] – النص أورده محمد بنشريفة ضمن مقال «المغرب مهاجر الأندلسيين»، مجلة الأكاديمية، عدد 15 (عدد خاص عن الموريسكيين في المغرب)، ص32.
[446] – مولاي أحمد – هاشم السقلي:، المرجع السابق، ص94، 96.
[447] – أحمد الرهوني: عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، تحقيق: جعفر بن الحاج السلمي، ط1، منشورات جمعية تطوان اسمير تطوان 1998، ج1، ص74.
[448] – محمد بن عزوز حكيم: مقاله «أولاد النقسيس الأسرة الأندلسية التى حكمت تطوان حوالي قرن»، ضمن أعمال ندوة الموريسكيون في المغرب، مطبوعات الأكاديمية المغربية، ص98.
[449] – أحمد الوهراني: المصدر السابق، ص33.

[450] – حسن الفكيكي: الموريسكيون بمنطقة جبل طارق، مجلة الأكاديمية، عدد 15 (عدد خاص)، ص129.

[451] – محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم، المرجع السابق، ص130.

[452] – غيرمو غوتاليس بوستو: المنظري الغرناطي مؤسس تطوان، ترجمة: ممدوح البسناوى، مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة2007، ص62.

[453] – مولاي أحمد – هاشم السقلي: الثأثير المورسكي، المرجع السابق، ص96.

[454] – ولقد أسس قناة عين بركة السلطان أبو الحسن المريني. الناصري أبو العباس أحمد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، البيضاء 1954، ج3، ص175، 176. محمد السمار: الرباط منذ التأسيس إلى نهاية القرن السابع عشر، أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية الآداب الرباط، ص76.

[455] - Terrasse Henri، Histoire du Marco des Origines a L،Etablissement du Protectorat Francis، atantides 1949ß 1950، p ;219.

[456] – مولاي أحمد – هاشم السقلي: الثأثير المورسكي، المرجع السابق، ص98.

[457] - 5Caille. J، La ville de Rabat Jusqu، au protectorat francaais، editions d،art et d.histoire، paris، p;249.

[458] – أحمد أبو العباس ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: إحسان عباس، ط2، دار الثقافة بيروت 1980، ج2، ص108.

[459] – ابن أبي زرع علي الفاسي: «الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس»، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط 1972، ص47.

[460] – مولاي أحمد – هاشم السقلي: الثأثير المورسكي، المرجع السابق، ص100.

[461] – الوزان الحسن بن محمد: وصف إفريقيا، تحقيق: محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج1، ص219.

[462] – مولاي أحمد – هاشم السقلي: المرجع السابق، ص100. ولقد اعتمد في ذلك على بعض المصادر الخاصة بالعائلات كالحولات الحبسية بفاس.

[463] – محمد قشتيليو: حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا، المرجع السابق، ص92.

[464] – ميكيل دي إيبالثا: الموريسكيون في المنفى، المرجع السابق، ص170.

[465] – محمد قشتيليو: المرجع السابق، ص32.

[466] – ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق، ص171.

[467] – ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق، ص171.

[468] – المرجع السابق: ص169.

[469] – ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق، ص171.

[470] – المرجع نفسه: ص171.

[471] – محمد قشتيليو: الموريسكوس في إسبانيا، المرجع السابق، ص32 – 34.

[472] – المرجع السابق: ص 34.

[473] – مولاي أحمد – هاشم السقلي: الثأثير المورسكي، المرجع السابق، ص107.

[474] – براون كينث: موجز تاريخ سلا، ترجمة: محمد حبيدة – أناس لعلو، منشورات أمل، الدار البيضاء،2001، ص41.

[475] – أحصت دراسة مغربية السفراء الأندلسيين فكانوا حوالي ٪20 من السفراء المغاربة إلى أوربا. نزهة إخوان: العلاقات المغربية الخارجية خلال القرن 17م/ 11هـ، رسالة دكتوراه في التاريخ، كلية الأداب، الرباط، 1989، ص220.

[476] – مولاي أحمد – هاشم السقلي: الثأثير المورسكي، المرجع السابق، ص109.

[477] – محمد بن الطيب القادرى: نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي – أحمد توفيق، دار المغرب للترجمة والنشر، الرباط 1977، ج1، ص336.

[478] – مولاي أحمد – هاشم السقلي: الثأثير المورسكي، المرجع السابق، ص110.

[479] – محمد قشتيليوا:الموريسكوس في إسبانيا، المرجع السابق، ص39 – 40.

[480] – ميكيل دي إيبالثا: الموريسكيون في المنفى، المرجع السابق، ص 220.

[481] – محمد قشتيليوا: المرجع السابق، ص42.

[482] – مولاي أحمد – هاشم السقلي: الثأثير المورسكي، المرجع السابق، ص110.

[483] – الزاوية الدلائية أنشأها الشيخ أبو بكر محمد الدلائي أواخر القرن العاشر الهجري، وبلغت غاية التقدم في العلوم، وكان الهدف منها الدفاع عن تغور الإسلام ؛ ثم امتد نشاطها ليشمل نشر الإسلام وقضى عليهم مولاي رشيد عام 1706م. جمال عبد الرحمن: مترجم، الموريسكيون في المنفى – ميكيل دى ايبالثا – المجلس القومى للترجمة، ص216.

[484] – ميكيل دي إيبالثا: الموريسكيون في المنفى، المرجع السابق، ص216.

[485] – ابن أبي زرع: روض القرطاس، المصدر السابق، ص78 – 79.

[486] – ميكيل دي إيبالثا: ، المرجع السابق، ص205 – 206.

[487] – اسم السودان: كان يطلق على الجزء الجنوبى من القارة الأفريقية. جمال عبدالرحمن: مترجم كتاب الموريسكيون في المنفى، المرجع السابق، ص 206

[488] – محمد قشتيليوا: الموريسكوس في إسبانيا، المرجع السابق، ص43 – 44.

[489] – ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق، ص2 5.

[490] – محمد قشتيلو: محنة المورسكوس، المرجع السابق، ص6.
[491] – محمد بن علي الدكالي: الإتحاف الوجيز في تاريخ العدوتين، تحقيق: مصطفى بو شعرة، منشورات الخزانة الصبيحية، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط 1986، ص43.
[492] – مولاي أحمد – هاشم السقلي: الثأثير المورسكي، المرجع السابق، ص112.
[493] – لسان الدين ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج1، ص134.
[494] – مولاي أحمد – هاشم السقلي: الثأثير المورسكي، المرجع السابق، ص113.
[495] – الحسين بوزينب: أين نحن وأين الآخر مع الموريسكي، مقال بمجلة المناهل، عدد 66 – 67، 2006، ص281 – 282، نقلًا عن مصادر إسبانية.
[496] – الحسين بوزينب: اللغة الموريسكية المسماة بالعجمية، ضمن ندوة أعمال البحث اللساني والسميائي، الرباط 1981، موقع موريسكي تونس (الإنترنت)، ص109 – 110.
[497] – مولاي أحمد – هاشم السقلي: الثأثير المورسكي، المرجع السابق، ص116.
[498] – أبى يحي الزجالي: أمثال العوام في الأندلس، دراسة محمد بن شريفة، مطبعة محمد الخامس، فاس 1975، ج1، ص189.
[499] – عبد الرحمن ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: درويش الجويدي، ط2، المكتبة العصرية، بيروت2000، ص558.
[500] – محمد بن عسكر: دوحة الناشر لمحاسن من كان بالغرب من مشاييخ القرن العاشر، تحقيق: محمد حجي، ط2، مطبوعات دارالغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977، ص79.
[501] – الحسن اليوسي: المحاضرات في اللغة والأدب، تحقيق محمد حجي – محمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1982، ج 1، ص166.
[502] – – مولاي أحمد – هاشم السقلي: الثأثير المورسكي، المرجع السابق، ص117.
[503] – مويط جرمان: رحلة الأسير مويط، ترجمة: محمد حجي – محمد الأخضر، دار المناهل للطباعة، الرباط 1990، ص23.
[504] – دومينغيث أورتيث – برنارد فينسينت: المرجع السابق، ص356.
[505] – روجي كواندرو: قراصنة سلا، ترجمة: محمد محمود، مطبعة أمنية، الرباط 1991، ص32.
[506] – الحسين بوزينب: أين نحن وأين الآخر، المرجع السابق، ص282 – 283.
[507] – الحسن بوزينب: اللغة الموريسكية، المرجع السابق، ص111.
[508] – محمد المنوني: ظاهرة تعريبية في المغرب السعدي، مجلة دعوة الحق، عدد 3، يناير 1967، ص85 – 86.
[509] – ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق، ص236.

[510] – محمد قشتيليوا: الموريسكوس في إسبانيا، المرجع السابق، ص45، 46.
[511] – ميكيل دي إيبالثا: الموريسكيون في المنفى، المرجع السابق، ص241.
[512] – المرجع نفسه: ص241.
[513] – محمد قشتيليوا: الموريسكوس في إسبانيا، المرجع السابق، ص48.
[514] – القراصنة الفرنسيون لم يستولوا على كتب مولاي زيدان، بل كانت وديعة لديهم، أما الذين استولوا عليها فهم قراصنة إسبان واقتادوها إلى سواحل إسبانيا، وقد بذل ملوك المغرب كل ما في وسعهم لاستعادة الكتب، لكن جهودهم لم تكل بالنجاح، ومازالت موجودة في مكتبة الأسكوربال إلى اليوم. جمال عبد الرحمن: مترجم – الموريسكيون في المنفى، ميكيل دي إيبالثا، المرجع السابق، ص236.
[515] – ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق، ص236.
[516] – محمد قشتيليوا: المرجع السابق، ص47.
[517] – دومينغيث أورتيث – برنارد فينسينت: المرجع السابق، ص365.
[518] – ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق، ص246.
[519] – فكاير عبد القادر: الصراع الجزائري الإسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن 16، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر، 2001، ص312.
[520] – ناصر الدين السعيدوني:)الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعةالجزائر (دارالسلطان) أثناء القرنين السادس عشروالسابع عشر)، حوليات جامعة الجزائر، العدد 7، الجزائر1993، ص29.
[521] – عبد الجليل التميمي: الخلفية الدينية للصراع الإسباني – العثماني على الأيالات المغربية في القرن السادس عشر، المجلة التاريخية المغربية، العدد 10، تونس 1978، ص44.
[522] – محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، المرجع السابق، ص240 – 245.
[523] – عبدالجليل التميمي: رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانون سنة 1514م، المجلة التاريخية المغربية، عدد 3، تونس، 1975، ص45.
[524] – محمد قشتيليوا: الموريسكوس في إسبانيا، المرجع السابق، ص49 – 50.
[525] – السعديوني: الجالية الأندلسية بالجزائر:مساهمتها العمرانية ونشاطها الاقتصادي ووضعها الاجتماعي، مجلة لورقا، مدريد، 1981، ج4، ص111 – 124.
[526] – ميكيل دي إيبالثا: ، المرجع السابق، ص278.
[527] – حنيفي هلايلي: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الهدى، الجزائر، 2008، ص5.
[528] – عائشة غطاس: سجلات المحاكم الشرعية وأهميتها في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي بمجتمع مدينة الجزائر في العهد العثمانى، مجلة إنسانيات، وهران: مركز البحث الأنثرولوجية الاجتماعية والثقافية، عدد3، 1997، ص69.

[529] – محمد الطمار: تلمسان عبر العصور، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984م، ط1، ص237.

[530] – ناصر الدين السعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص141.

[531] - Martine (N) Ravillard، bibliographie commentée des Morisques، doucement imprimés de leur origine a 1982، thèse inédite، paris 1980 ، p146.

[532] – السعديوني: النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية (1500 – 1830)، الجزائر 1979، ص142، 152.

[533] – محمد قشتيليوا: الموريسكوس في إسبانيا، المرجع السابق، ص52.

[534] – ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق، ص287.

[535] – عبد الجليل التميمي: الدولة العثمانية وقضية الموريسكين الأندلسين، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكين، زغوان ، تونس 1989م، ص24.

[536] – ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق، ص296.

[537] – محمد قشتيليوا: الموريسكوس في إسبانيا، المرجع السابق، ص52.

[538] – محمد قشتيليوا: المرجع السابق، ص52.

[539] – ميكيل دي إيبالثا: الموريسكيون في المنفى، المرجع السابق، ص304.

[540] – حنيفي هلايلي: أوراق في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص3.

[541] – المرجع نفسه: ص4.

[542] - Haedo (F. Diego de)، "Topographie et histoire general d'Alger"، trad.، (Mannereau et A. Berbrugger)، in R. A(N°14)، 1871، P 68.

[543] – وولف جون ب: الجزائر وأوربا: ترجمة: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص207 – 214.

[544] – حنيفي هلايلي أوراق في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص4.

[545] - Laugier، de Tassy، histoire du Royaume d'Alger، paris، ed loysel، 1992، p69.

[546] – حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص5.

[547] – ففي عقد نشره ابن شنب ورد شراء جنة بفحص طريلية من طرف الولية عائشة بنت سعيد الأندلسي بثمن قدره 1550 دينارًا. وهذا أواسط شوال 1058هـ/ 1648م . وتشير وثيقة أخرى إلى أن الحاج أحمد بن سعيد الأندلسي اشترى بفحص السد خارج باب الواد بثمن قدره 3000 دينار، وذلك في أوائل رمضان 1502هـ/ 1643م، ومما جاء في هذه الوثيقة: «المكرم الأفضل الحاج أحمد

بن سعيد الأندلسي الجنة المذكورة، وحقوقها، وحرمها، ومنابعها، ومرافقها داخلًا، وخارجًا فيها صحت...والخيار بثمن قدره الجنة المذكورة وكافة حقوقها ثلاثة آلاف دينار كلها خمسينية العدد . حنيفي هلايلي: أوراق في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص6. Bencheneb، « un acte de vente adressé à Alger en 1648 »، in، R، A (N°89)، 1945، pp.287 – 290.

[548] – ناصر الدين السعيدوني: صور من الهجرة الأندلسية إلى الجزائر، المجلة العربية، العدد27، المنطقة العربية للتربية والثقافة والعلوم، سبتمبر 1994، ص238.

[549] - Laugier، de Tassy، histoire du Royaume d'Alger، paris، ed loysel، 1992، p69 - ديبلوماسي فرنسي، كان مسؤولًا عن القنصلية الفرنسية بالجزائر، بالإضافة إلى أنه كان مندوبًا للبحرية من طرف ملك إسبانيا في هولندا، زار الجزائر 1685.

[550] – ناصر الدين السعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (الفترة الحديثة والمعاصرة)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1988، ج2، ص40.

[551] – أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1981، ج1، ص237 – 238.

[552] – حنيفي هلايلي: أوراق في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص6.

[553] – السعيدونى ناصر الدين: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ج2، ص58.

[554] – شكيب بن جفري: موقف الدولة العثمانية من الجالية الأندلسية بالجزائر ما بين سنتي 1571و1573م، في: أعمال المؤتمر العالمي الخامس للدراسات الموريسكية الأندلسية، الذكرى الخمسمائة لسقوط غرناطة (1492 – 1992)، زغوان، ديسمبر 1991، سيرمدي 993، ج2، ط1، ص47.

[555] – حسام الدين شاشية: العائلات التونسية بين الماضي والحاضر، مقال على موقع (الموريسكيون في تونس)، ص2.

[556] – محمد قشتيليوا: المرجع السابق، ص54.

[557] – المرجع السابق: ص55.

[558] – ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق، ص312.

[559] – المقري: نفح الطيب، المصدر السابق، ج4، ص528.

[560] – أحمد بن قاسم الحجري: ناصر الدين، المصدر السابق، ص41.

[561] – ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق، ص314.

[562] – المرجع السابق: ص317.

[563] – محمد قشتيليوا: الموريسكوس في إسبانيا، المرجع السابق، ص55.

[564] – محمد قشتيليوا: المرجع السابق، ص58.

[565] – الحجري: العز والمنافع، مصدر سابق، ص41.
[566] – المنتصر القفصي: نور الأرماش في مناقب القشاش، تحقيق: لطفي عيسى – حسين بوجرة، المكتبة العتيقة، تونس 1998، ص70.
[567] – عبد الجليل التميمي: تطور موقف سلطات إيالة تونس تجاه الموريسكيين على ضوء فرمان جديد للسلطان العثماني، ورد في دراسات في التاريخ الموريسكي الأندلسي، زغوان، مركز الدراسات والبحوث العثمانية الموريسكية والتوثيق والمعلومات، تونس، 1993، ص30.
[568] – أحمد ابن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق: محمد شمام، تونس، الدار التونسية للنشر، 1990، ج2، ص35.
[569] – ميكيل دي إيبالثا: الموريسكيون في المنفى، المرجع السابق، ص323 – 324.
[570] – محمد قشتيليوا: المرجع السابق، ص58
[571] – عبد الجليل التميمي: تأثيرات الموريسكيين، مرجع سابق، ص61، 62. حسام الدين شاشية: مرجع سابق، ص7.
[572] - Muhamad Al - Annabi، « la chéchia tunisienne »، In Etudes sur les moriscos andalous en Tunisie »، préparé par M De Epalza et R Petit، Grafica international، Madrid، Direction général de relaciones culturales، 1973، p306 219 عبد الحكيم القفصي: المرجع السابق، ص. .
[573] – ميكيل دي إيبالثا: الموريسكيون في المنفى، المرجع السابق، ص327.
[574] – عبد الجليل التميمي: تأثيرات الموريسكيين، المرجع السابق، ص59 – 61.
[575] - J.Revault، «Aspects de l'élément andalous sur les palais et demeures de Tunis »، In Etudes sur les moriscos andalous en Tunisie »، préparé par M De Epalza et R Petit، Grafica international، Madrid Direction general de relaciones culturales، 1972، p92،
[576] – عبدالحكيم القفصي سلامة، نظرة حول بعض الحرفيين، والمهنيين الأندلسيين، والأتراك بالإيالة التونسية أثناء القرن التاسع عشر من خلال خزينة الوثائق التونسية، في: الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، تقديم عبد الجليل التميمي، تونس، منشورات مركز البحوث في علوم المكتبات، ج2، ص606.
[577] – محمد قشتيليوا: الموريسكوس في إسبانيا، المرجع السابق، ص58.
[578] – عبد الجليل التميمي: تأثيرات الموريسكيين، المرجع السابق، ص64.
[579] - Abdel - Hakim Gafsi Slema، Aperçus sur les architectes morisco - andalous en Tunisie
. رد ضمن: مهن الموريسكيين الأندلسيين وحياتهم الدينية، جمع: عبد الجليل التميمي، تونس، مركز الدراسات والبحوث والتوثيق، 1990م، ص137.

[580] – عبدالحكيم القفصي سلامة، نظرة حول بعض الحرفيين والمهنيين الأندلسيين، المصدر السابق، ج2، ص605 – 606.

[581]1 - Abdel - Hakim Gafsi Slema، « Aperçus sur les architectes morisco andalous en Tunisie، p 136.

[582] – ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق، ص328.

[583] – عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص64.

[584] - Fathia Skhiri، « deux couverture de Testour، In Etudes sur les moriscos andalous en Tunisie préparé par M De Epalza et R Petit، Grafica international، Madrid، Direction general de relaciones، culturales، 1972، p317 - 334

[585] – – حسام الدين شاشية: العائلات التونسية بين الماضي والحاضر، المرجع السابق، ص6، 7.

[586] – ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق، ص335 – 336.

[587] – عبد الجليل التميمي: الدولة العثمانية وقضية الموريسكين الأندلس، المرجع السابق، ص25.

[588] – ميكيل دي إيبالثا: الموريسكيون في المنفى، المرجع السابق، ص338.

[589] – المقري: نفح الطيب، المرجع السابق، ص205.

[590] – ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق، ص340.

[591] – ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق، ص342.

[592] – المرجع السابق، ص342، 343.

[593] – المرجع نفسه: ص344

[594] – ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق، ص345 – 347. وربما لم يتعرف موريسكيو سلا على إخوانهم القادمين من فرنسا فهاجموهم بطريق الخطأ.

[595] – المرجع نفسه: ص347، 348.

[596] – ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق، ص348.

[597] – المرجع نفسه: ص348، 349.

[598]الحجري أحمد بن قاسم: ناصر الدين على القوم الكافرين، المصدر السابق، ص52.

[599] – ميكيل دي إيبالثا: ، المرجع السابق، ص349.

[600] – لوي كاردياك: الموريسكيون الأندلسيون، المرجع السابق، 136.

[601] – ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق، ص350.

[602] – محمد قشتيليوا: الموريسكوس في إسبانيا، المرجع السابق، ص63.

[603] – * برفنيك : هو من أصل كندي وجنسية أمريكية ، أستاذ في عدة جامعات أمريكية، أسلم هو وزوجته، ونشر دوريات يعرف فيها آثار الموريسكيون بأمريكا.

[604] – محمد قشتيليوا: ، المرجع السابق، ص63.
[605] – ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق، ص15.
[606] – المرجع السابق: ص14.
[607] – لوي كاردياك: الموريسكيون الأندلسيون – المجابهة الجدلية، المرجع السابق، ص45.
[608] – ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق، ص16.
[609] – ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق، ص352.
[610] – : المرجع السابق: ص352
[611] – المرجع السابق، ص345.
[612] – عبدالحميد سعد زغلول: الأثر المغربي والأندلسي في المجتمع السكندري في العصور الإسلامية الوسطى، ضمن مجموعة ندوات ومحاضرات في جامعة الإسكندرية 1973، والجمعية التاريخية، مطبعة الإسكندرية 1975م، ص245.
[613]2 – ميكيل دي إيبالثا: الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى، ترجمة: جمال عبد الرحمن، المشروع القومي للترجمة، القاهرة 2005، ص341.
[614]3 – المقري: نفح الطيب، المصدر السابق، ج2، ص617.
[615] – محكمة الصالحية النجمية الشرعية: س508، ص303، م 921 بتاريخ 1107/ 16م. محكمة الباب العالي الشرعية: س9، ص373، 1437 بتاريخ 951هـ/ 1544م.
[616] – حسام محمد عبد المعطي: العائلة والثروة – البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2008، ص18، 19.
[617]3 – باب الشعرية: س608، ص2، م 105 بتاريخ 1027هـ/ 1617م.
[618] – حسام محمد عبد المعطي: المرجع السابق، ص19
[619] – محكمة الإسكندرية الشرعية: س40، ص405، م 1055 سنة 1033هـ/ 1623م.
[620] – محكمة الإسكندرية، إشهادات: س18، ص29، م30 بدون 12 2ه/ 1807م.
[621] – عبد الرحيم عبد الرحمن: وثائق محكمة الإسكندرية الشرعية عن المغاربة في مصر، السجل التاسع، المجلة التاريخية المغربية، العدد(27، 28)، ص323.
[622] – عبد الرحيم عبد الرحمن: وثائق محكمة الإسكندرية – السجل التاسع، المرجع السابق، ص324.
[623] – عبدالرحيم عبد الرحمن: محكمة الإسكندرية والجزيرة الخضراء الشرعية، السجل الأول 957هـ – 958هـ/ 1550 – 1551م، المجلة التاريخية المغربية، عدد25، 26، ص165 – 184.
[624] – دار الوثائق المصرية: سجلات محكمة الإسكندرية الشرعية، س1، بتاريخ 957هـ /

1550م، ص162.

[625] – دار الوثائق المصرية : سجلات محكمة الإسكندرية الشرعية، س2، بتاريخ 962هـ / 1555م، ص256.

[626] – دار الوثائق المصرية: سجلات محكمة الإسكندرية الشرعية، س1، بتاريخ 958هـ / 1551م، ص239

[627] – عبدالرحيم عبد الرحمن: محكمة الإسكندرية الشرعية والجزيرة الخضراء – السجل الأول، المرجع السابق، ص174.

[628] – المرجع السابق: ص174.

[629] – دار الوثائق القومية المصرية: محكمة الإسكندرية الشرعية، س2، بتاريخ 962هـ / 1555م، ص536.

[630] – عبدالرحيم عبد الرحمن: المرجع السابق، ص175.

[631] – دار الوثائق القومية المصرية: سجلات محكمة الإسكندرية الشرعية، س5، ص157.

[632] – عبدالرحيم عبد الرحمن: محكمة الإسكندرية والجزيرة الخضراء،المرجع السابق، 176.

[633] – المرجع السابق: ص176.

[634] – المرجع نفسه: ص177.

[635] – عبد الرحيم عبد الرحمن :المرجع السابق، ص177.

[636] – دار الوثائق القومية المصرية: سجلات محكمة الإسكندرية الشرعية، س8، ص317، بتاريخ 973هـ/ 7فبراير1565م.

[637] – دار الوثائق: سجلات محكمة الإسكندرية الشرعية، س2، ص456، 962هـ/ 3يوليه 1555م.

[638] – دار الوثائق القومية: محكمة الإسكندرية الشرعية، س4، ص253، بتاريخ973هـ / 1564م.

[639] – دار الوثائق القومية: محكمة الإسكندرية الشرعية، س8، ص317، 973هـ/ أكتوبر 1564.

[640]عبدالرحيم عبد الرحمن: المجلة التاريخية، المرجع السابق، ص64 – 67. –

[641] – محمود علي مكي: التراث المشترك الأندلسي المغربي في ميدان التصوف، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، العدد 9، ط1، الرباط 1992م، ص160، 161.

[642] – محمد عبد الله عثمان: تستور بلد الموريسكيين، مجلة العربي، العدد 156، ص139.

[643] – عبدالواحد ذنون طه: حركة المقاومة العربية الإسلامية بالأندلس بعد سقوط غرناطة،

بغداد 1988، ص75.
[644] – خليل إبراهيم الكبيسي: هجرة الأندلسيين وتهجيرهم إلى المغرب العربي، مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد 44، بغداد 1998، ص170.
[645] – ابن أبي دينار أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني: المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس، تحقيق: محمد شمام، ج1، تونس 1967، ص204.
[646] – أحمد بن أبي الضياف: إتحاف الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق: لجنة من كتاب الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، ج2، تونس، 1963م، ص30، 31.
[647] – أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ص31.
[648] – محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، المرجع السابق، ص402.
[649] – خليل إبراهيم الكبيسي: هجرة الأندلسيين، المرجع السابق، ص173.
[650] – عبدالقادر الميلق: تأثير ثورات الموريسكيين الأندلسيين على العلاقات الجزائرية الإسبانية، رسالة ماجستير، جامعة غرداية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر 2013، ص164.
[651] – عبدالقار المليق:تأثير الموريسكيون، المرجع السابق، ص165.
[652] – المقري: نفح الطيب، المصدر السابق، ج 4، ص 528.
[653] – المقري : نفح الطيب، المصدر السابق، ج4، ص444.
[654]
(*) لا شك فى أن هذه الإتفاقية تُعد أفضل معاهدة وقعها طرف مهزوم ، وهي – إذا وضعنا فى الاعتبار هذه الظروف – تدل على صلابة، وكفاءة أبي عبد الله الصغير كمفاوض ، وتدحض ما يقول به البعض من تخاذل ملك غرناطة أو تفريطه (المترجم) جمال عبدالرحمن
– المعاهدة كانت 56 بنداً للمعاهدة انظر كلا من : مرثيديس غارثيا: الموريسكيون الأندلسيون، المرجع السابق، ص 31 – 38، محمد عبدالله عنان: نهاية الأندلس، المرجع السابق، ص 245 – 250، عبدالله محمد جمال الدين: المسلمون المنصرون ، المرجع السابق، ص 22 – 32، انظر أيضا: لى هنرى تشارلس: العرب والمسلمون بعد سقوط غرناطة، المرجع السابق، 32 – 38أورد 48 بندا فقط، منتصر الكتاني: انبعاث الإسلام ، المرجع السابق، ص 278 – 284. أورد أيضا 48 بندا.
[655] – عبد الجليل التميمي: رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541، فى مجلة الأصالة، مجلة ثقافية، الجزائر 1975، عدد 3و2، ص 63 – 75.
[656] – المقري ، أزهار الرياض، المصدر السابق، ص108 – 115.
2 – مرثيدس غارثيا: الموريسكيون الأندلسيون، المرجع السابق، ص 42 – 46.
[657] – محمد قشتيلوا: الموريسكيون في الأندلس وخارجها، منشورات مركز دراسات الأندلس

وحوار الحضارات، ط1، الرباط المغرب 2008، ص 131 - 133. وذكرت أيضًا في كلا منك

2 - مرثيدس غارثيا: الموريسكيون، المرجع السابق، ص 49 - 51.

3 - محمد عبدالله عنان: الإسلام في الأندلس، المرجع السابق، ص 242.

[658] عبدالقادر الميلق: تأثيرات الموريسكيين فى الجزائر، المرجع السابق، ص 173.

[659] - مارمول كارباخال: ثورة الموريسكيين، المرجع السابق، ص263 - 265.

[660] - مارمول كارباخال: ثورة الموريسكيين، المرجع السابق، ص265 - 266.

[661] - موقع الأندلس شبكة الإنترنت

[662] - مرثيدس غارثيا: الموريسكيون، المرجع السابق، ص225 - 227.

[663] - مرثيدس غارثيا: الموريسكيون، المرجع السابق، ص229 - 232.1

[664] - مرثيدس غارثيا: الموريسكيون، المرجع السابق، ص211.1

[665]1 - مرثيدس غارثيا: الموريسكيون، المرجع السابق، ص212 - 216.

[666] - مرثيدس غارثيا: الموريسكيون، المرجع السابق، ص218.

[667] - دومنغيث اورتيث - برنارد فينست: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، ص 441 - 442.1

[668] دومنغيث اورتيث - برنارد فينست: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، ص 443 - 444.

[669] دومنغيث اورتيث - برنارد فينست: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، ص445 - 446..

[670] - دومنغيث اورتيث - برنارد فينست: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، 457 - 459.1

[671] - حنيفي هلايلي: أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي، دار الهدى، الجزائر2010، ص187.

ملخص الدراسة باللغة العربية:

مع أن قضايا الموريسكيين تُعتبر من القضايا المهمة، والمؤلمة في التاريخ الحديث، كما أنها من القضايا التي لا تُنسى - ولا يجب أن تُنسى - من الذاكرة العربية، والإسلامية، فإن المدرسة التاريخية المصرية لم تهتم بها إلا نادرًا، حتى يمكن القول بأن الموضوع تعرض لشبه الإهمال، مع أنه حظيَ باهتمام الإسبان بشكل خاص، وباهتمام بعض المؤرخين، والباحثين المغاربة بشكل عام.

مما سبق تأتي بعض أوجه الأهمية في دراسة موضوع الموريسكيين، وبالتحديد دراسة «الموريسكيون في إسبانيا واتجاهات هجرتهم» والذي يفتح أيضًا مجالًا رحبًا لدراسة التاريخ الأوربي في علاقته بالتاريخ العربي، والإسلامي.

فُقدت غرناطة آخر معاقل الإسلام في إسبانيا، ولم يعد للمسلمين مملكة خاصة بهم وبنُظم حياتهم، ولم تعد لهم حكومة ترفع راية الإسلام، وتحافظ على شريعتهم، وممتلكاتهم، وتُحاكمهم أمام قضاة، وفقهاء من أصحاب شريعتهم الإسلامية بفقهها، وبشرعها، فتغير الحال بعد السقوط، وذلك بعد عام 1492م، وهو تاريخ سقوط مملكة غرناطة في يد الإسبان، وبدأت مرحلة جديدة في حياة هؤلاء، وتغيرت ملامح الحياة، وبدأت مراحل جديدة من التضييق عليهم، وهذا ما سنتناوله في الفصل الأول.

وعلى الرغم من وجود معاهدات، واتفاقيات تصون لهم حقوقهم، فإنها كانت حبراً على ورق طالما فقدت القوة، والكيان السياسي، ومع الوقت أصبح مسلمو الأندلس أقلية بعد أن كانوا الأغلبية، ولهم السيطرة، والحكم، والزعامة، وأصبحوا غرباء بعد أن كانوا أصحاب أرض، ووطن، وأصبحوا مضطهدين بصورة علنية، رغم أنهم لم يفعلوا ذلك عندما كانوا يملكون كل شيء، لقد تمت محاربتهم في حقوق أصيلة لهم؛ مثل حق ممارسة شعائر دينهم الإسلامي، وذلك وفقًا لشروط المعاهدة

بين أبي عبد الله الصغير آخر حكام غرناطة، والملكين الإسبانيين فرناندو، وإيزابيلا.

أما الأصعب، فكان يتمثل في إجبار هؤلاء على التخلي عن دينهم وإجبارهم على التنصير، من هنا أقيمت محاكم التفتيش، واستعملت كل أدوات العنف، والتعذيب لإجبار هؤلاء على التنصير، فإن رفضوا عُذبوا، وشنقوا، وإذا كانوا رحماء معهم أجبروهم على التخلي عن ممتلكاتهم، وطردهم من إسبانيا. وعندما فشلت محاولات التنصير، كانت الفاجعة الكبرى المتمثلة في طرد المسلمين جميعًا من أراضي إسبانيا، وممالكها، وذلك خلال الفترة (1609 – 1614م) في زمن فيليب الثالث، فشُرد هؤلاء، وتركوا أوطانهم، وهذا ما سنتناوله في الفصل الثاني، والثالث.

كان هذا القرار بمثابة بدء النهاية للمسلمين الأندلسيين في إسبانيا، وبداية حياة جديدة لهم، وأيضًا بداية للقسم الثاني لبحثنا، وهو القسم الخاص باتجاهات هجراتهم في البلدان المختلفة من بلاد المغرب العربي، وبلاد البحر الأبيض المتوسط.

فعلى سبيل المثال سندرس الموريسكيين، وهجراتهم إلى المغرب، ومن هنا سنتابع كل ما يتعلق بحياة هؤلاء داخل المغرب العربي (المغرب – تونس – الجزائر) وأيضًا سنتتبع وجودهم في أماكن مختلفة من مناطق البحر الأبيض المتوسط (تركيا – البلقان – مصر – ليبيا... وغيرها)، وأيضًا في دول أوروبية (مثل فرنسا وإيطاليا) وهو ما تناوله الفصل الأخير من الرسالة.

:summary

With the Moors issues it is one of the important issues and painful in modern history, as it is one of the issues that do not forget - We must not forget - from the Arab and Islamic memory, the Egyptian historical school did not concern themselves only rarely, so it can be said that the matter was subjected to semi - neglect, with it got the attention of the Spaniards in particular, and with interest some Moroccan historians and researchers in general.

From the above some of the important subject of study comes in the Moors, and in particular the study of “morocco in Spain and trends of migration,” which also opens plenty of room for the study of European history in its relationship with the Arab and Islamic history.

Granada lost the last bastions of Islam in Spain, is no longer their own Muslim kingdom and systems of their lives, no longer have the Government is no longer them raise the banner of Islam and Islamic law and maintain their property and try them in front of the judiciary and Islamic scholars of Islamic law owners, altering immediately after the fall, after the year 1492, a the date of the fall of the Kingdom of Granada in the hands of the Spaniards, and began a new phase in the life of these, and changed the features of life, and began a new phase of restricting them, and this is taken up in the first quarter.

In spite of the existence of treaties and conventions safeguard their rights, they were a dead letter as long lost power and political entity. With time, the Muslims of Al Andale’s became a minority after they were the majority and control them, governance and leadership, and have

become strangers after they land and home owners, and are persecuted in public, even though they did not do so when they had everything. They've been fighting them in authentic rights to them; such as the right to practice their Muslim faith and in accordance with the terms of the treaty between Abu Abdullah small last rulers of Granada and the Spanish kings Fernando and Isabella.

The most difficult was the goal of forcing them to abandon their religion and forced Christianization. From here the Inquisition was established and used all the tools of violence and torture to force them to Christianization, the rejected tortured and hanged, and if they are merciful with them, forced them to abandon their property and their expulsion from Spain. When Christianization attempts failed the major tragedy of the expulsion of all Muslims from the territory of Spain and, during the period (1609 - 1614m) in the time of Philip III, uprooting them and left their homelands and this is taken up in Chapter2 and 3.

This decision serves as the start of the end for the Muslims in Andalusia Spain and the beginning of a new life for them, and also the beginning of our search for the second section, a section on their migrations trends in the various countries of the Maghreb and the countries of the Mediterranean.

For example, we will study the Moors and their migrations to Morocco, and from here we will follow up all matters relating to the lives of those inside the Maghreb (Morocco - Tunisia - Algeria) and also will follow up their presence in different parts of the Mediterranean regions (Turkey - Balkans - Egypt, Libya ... and others), and also in European countries (such as France and Italy), which dealt with the last chapter of

فهرس المحتويات

الإهداء 5

تقديم: 7

الـمقـدمـة 13

تمهيد 17

الفصل الأول: نهاية مملكة غرناطة

تمهيد 29

مملكة غرناطة: 35

الفصل الثاني: المسلمون بين التنصير، والثورة (1500 - 1609م)

تمهيد 71

الفصل الثالث: مأساة الطرد النهائى 1609 - 1614م أسبابه، ومبرراته - نتائجه

أسباب، ومبررات السلطات الإسبانية قبل الطرد: 155

الفصل الرابع: الموريسكيون في المنفى

تمهيد 183

الخاتمة 261

الملاحق 265

هوامش الكتاب 328

ملخص الدراسة باللغة العربية: 362

summary: 364